رواية

سامية فهمي



صالح مرسي

سامية فهمي

عندما جلس ضابط الأمن القومي «عادل مكي» إلى سامية فهمي في ذلك الصباح الخانق من شهر يوليو عام ١٩٦٨، كان يعرف عنها كل شيء... كان يعرف – بالضرورة – من هي؟ وماذا تعمل؟ وكيف تعيش؟ ولم جاءت على وجه التحديد؟

منذ شهور ثلاثة، وسامية فهمي، وسط خضم ما كان يخوض فيه عادل في تلك الأيام، تشغل باله وتفكيره ... ذلك أن هذه الصحفية الشابة كانت تمثل له أمرين:

الأول: هو تلك الفرحة الغامرة التي تنتاب ضابط المخابرات كلما تنبه مُوَاطن إلى مَوَاطن الخطر والزلل... وفي تلك الأيام السوداء... كان هناك عشرات من الشبان الذين راحوا يَخْطون إلى شِبَاك الإسرائيليين بلا روية ولا علم ولا تفكير ولا حتى فهم بطبيعة ما كان ينصب حولهم من شراك قاتلة...

أما الأمر الثاني: فإن سامية قد تستطيع أن تكون مَخْرجًا من تلك القضية التي تؤرقه منذ ما يقرب من عام... والتي كانت آثارها تتفاقم يومًا بعد يوم حتى استفحل أمرها واستطاع الإسرائيليون – من خلال تلك الشبكة الجهنمية – أن يحرزوا فيها انتصارات مؤكدة.



6 221102 026376

دار الشروق
www.shorouk.com

سامية فهمي

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠١٠

رقم الإيداع ٢٤٤٥٦/٢٠٠٩

ISBN 978-977-09-2744-7

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢) +
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

صالح مرسي

سامية فهمي

رواية

دار الشروق

إهداء

إلى الجيل الجديد
عساه أن يجد في جيلنا بعضًا من أحلامه

المحتويات

الفصل الأول

صباح يوم خانق

ـ المخابرات من فضلك يا اسطى.

رماها سائق التاكسي بنظرة هي مزيج من الغضب والدهشة والاحتجاج... ولم تأبه لنظراته، دلفت إلى التاكسي وكانت تعلم أنها وضعت الرجل في موقف لا يستطيع التراجع عنه... اندفعت السيارة تخترق شوارع حي جاردن سيتي في سرعة عصبية... تمتم الرجل بصوت مسموع وهو يزفر:

- يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم.

- معلش، حقك عليَّ.

هكذا قالت معتذرة فرماها الرجل، في مرآة السيارة المعلقة أمامه، بنظرة تحمل ألف سؤال، لكنها لزمت الصمت، وكانت تعذره... هي نفسها أصيبت بما يشبه الشلل عندما قال لها «أحمد مختار» إن لديها موعدًا في «المخابرات» في التاسعة صباحًا، هتفت في محاولة فاشلة لاستجلاب المرح:

- تسعة الصبح، ومين اللي حايصحى لهم بدري كده؟!

- لازم تصحي يا سامية.

كانت الجملة واضحة... وكانت أيضًا صارمة.

- فيه حاجة يا أستاذ أحمد؟

- عارفة مبنى المخابرات فين؟

أيقنت أنه يهرب من الإجابة... هكذا هو منذ أن جاءهم رئيسًا للتحرير، يقود الحوار والحديث كرُبَّان يعرف مسالك سفينته، سمعت عن حياته الكثير، ضابط سابق وفدائي تحدثت عنه مدن القناة وعرفته معسكرات الإنجليز قبل الثورة... تبدو حياته وكأنها طوابق متتالية من الطلاسم... لم تكن تحبه كثيرًا فلقد كان غموضه يؤرقها، لكنها كانت تحترمه دائمًا، وأعجبت به أحيانًا... عندما اقتربت منه قليلًا بعد شهور قضاها معهم في المجلة، أذهلها أنه يعرف عن العمل الصحفي أكثر مما تصورت وأكثر مما أشيع عنه... أعجب ما كان فيه أنه لم يكن من هذا النوع من الضباط الذين يشعرون أنهم امتلكوا ناصية الأمور، كان يعطي لعمله كل وقته... خافت الصوت هو، رقيق البدن، هامس الملامح، متبتل في حب هذا البلد.

عندما عادت بما عادت به من الخارج وعندما تصاعدت شكوكها يومًا بعد يوم... كان هو أول مَن سألها عما بها، لم تكن تراه أو تلتقي به خارج المجلة... في لحظات اليأس القاتل والحيرة المدمرة، كانت تشعر وكأن نظراته تنفذ إلى نخاعها... هل كان يعرف شيئًا؟! هو لم يطلب منها أن تحكي له أو تقص عليه ما حدث في الخارج أو ماذا فعلت. لكنه كان الوحيد الذي تحدثت عيناه بمعرفة غامضة... وعندما سدت أمامها كل الطرق، وعندما قررت أن تواجه الأمر بوضوح، بحثت حولها فلم تجد سواه... حتى «فريد السباعي» زميلها وصديقها ومدير تحريرها ورئيسها المباشر، فريد الذي لم يُخْفِ عنها حبه وغرامه وقَبِل منها كل شيء في صمت وتفهم... فريد نفسه لم يصل إليها، فقط... كان يبدو حزينًا لما انتابها من سهوم وشحوب.

حتى جاءت ليلة جفاها النوم، أرّقها أمرها وعذبها، فلم تجد إلا أن ترفع سماعة التليفون - وكانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل - وتطلب أحمد مختار في البيت.

كان صوته صاحيًا متنبهًا، وعندما طلبت منه موعدًا، تعالت على الطرف الآخر ضحكته:

- إنت محتاجة تطلبي مني ميعاد يا سامية.

- أيوه... لأني مش عاوزة أشوفك في المجلة.

مرت لحظة صمت خاطفة، قال بعدها:

- طيب إيه رأيك لو فطرنا سوا بكره؟

- فين؟

- في البيت عندي.

* * *

في الصباح ذهبت إليه، كانت هذه هي المرة الأولى التي تدخل فيها بيت رئيس التحرير، استقبلتها زوجته في ترحاب غير مصطنع، كانت هذه هي المرة الثانية التي تلتقي فيها بـ«وفية حسين»، قالت لها مداعبة وهي تحاول أن تتصنع مرحًا جافاها منذ أسابيع.

- لسه رأيي يا مدام وفية إنك أجمل فنانة تشكيلية في مصر.

وضحك ثلاثتهم، ووضع الإفطار فتناولوه في الشرفة المطلة على النيل، اعتذرت الزوجة وهي تتركها لموعد أزف... أصبحا وحدهما ولم تكن تعرف من أين تبدأ ولا كيف. وضعت الخادمة بينهما فنجانين من القهوة وانسحبت فسألها أحمد مختار:

- ما لك يا سامية؟

نفس السؤال البسيط الذي قد يصدر عن أي إنسان فتجد له الجواب على الفور... لكنه إذا ما صدر من أحمد مختار، حمل معاني كثيرة... هتفت:

- أستاذ أحمد... إنت ليه ما اشتغلتش في الخارجية؟!

أطلق مختار ضحكة صافية، ضحكته هذه هي سر جاذبيته حتى للذين يكرهونه، دفعت الضحكة بالابتسامة إلى شفتيها رغم ما كانت تعانيه... سألها:

- هو ده اللي إنتِ عاوزة تكلميني فيه؟!

- لأ.

في تلك الشرفة التي تطل على النيل قصت عليه ما حدث باختصار... قالت له إنها تريد أن تفضفض فلزم الصمت وراحت هي تحكي... كان أحمد مختار يعرف عن حياتها ما يعرفه كل الزملاء، راح يستمع إليها وفي عينيه نظرة حنان لا تخطئها العين... اضطربت وهي تحكي، تركت لضعفها العنان فدمعت عيناها ولم يعلق بشيء... ولم تختف ابتسامته... وعندما انتهت من حكايتها سألها:

- لكن إيه اللي يخليكي تشُكّي؟

انفجرت دموعها رغمًا عنها وكأنها كانت عند أبواب الجفون في انتظار الإذن، قالت:

- أصل البلد صعبانة عليَّ.

ورأت الدمع في عيني مختار، دمعًا تصاعد في عنف ثم تحجر كزجاج كسا المقلتين... أشعل سيجارة كي يخفي ما اعتراه فسألته:

- تفتكر فيه حاجة يا أستاذ أحمد؟

- كلنا تعبانين من النكسة يا سامية، لكن الحساسية الزايدة مش مطلوبة.

تنفست الصعداء، تشبثت بكلماته التي خالت أنها تبعد عنها شيئًا يؤرقها منذ عادت من الخارج... لكنه أردف بعد لحظات:

- على العموم أنا لي واحد صاحبي بيفهم في الحاجات دي.

هكذا انتهى الأمر. لم يذكر لها من هو صديقه هذا ولا ما هو عمله ولا ماذا سيفعل معه أو يقول له... ولقد أدركت أن الأمر انتهى عند هذا الحد فانصرفت... وها هو، بعد أقل من اثنتي عشرة ساعة، يطلب منها أن تذهب إلى المخابرات.

لاذت بالصمت، وكانت تجلس إليه في غرفة مكتبه، وراح قلبها يركض بعنف.

- عارفة مبنى المخابرات فين؟

حاولت أن ترد لكنها لم تستطع.

- سامية.

كانت المجلة هي ملاذها وبيتها وأملها وحبها، كانوا جميعًا يلجأون إليها في المساء كالصباح، كانت الساعة تقترب من التاسعة مساءً فأحست أن دماءها تفيض من جسدها، سرت فيها رعدة واجتاحتها برودة شديدة، كابوس هذا الذي يجثم على صدرها، رفعت إليه رأسها فضحك متسائلًا:

- ما لك؟

كانت نظرته الآن تشي بأنه يعرف كل ما يعتمل في نفسها... عادت تغوص في تلك اللجة الرهيبة من الأفكار التي كانت تتقاذفها كأنها قشة تدفعها مياه شلال هادر.

- أنا باسألك إن كنت عارفة مبنى المخابرات فين.

أخيرًا وجدت صوتها:

- في القبة... مش كده؟

- أول ما توصلي، اسألي على السيد عادل مكي.

كانت هذه هي المرة الأولى التي تسمع فيها اسم «عادل مكي».. جاءها الاسم من بعيد وكأنه يصدر من قاع بئر سحيقة... رددت الاسم كي تتأكد من صحته.

- عادل مكي.

- بُكره الساعة تسعة بالضبط حتلاقيه في انتظارك.

ونهضت.

لم يكن هناك ما يمكن أن يقال... أدركت أنها كانت على حق في شكوكها، وإلا لما طلب منها مختار أن تذهب إلى المخابرات.

- ما لك يا سامية؟

- فيه حاجة يا أستاذ أحمد؟

همَّ بالحديث فأردفت:

- أرجوك ما تخبيش عليَّ.

ما كاد يفتح فمه بالرد حتى توسلت:

- إذا كان فيه حاجة قول لي.

قال مختار وهو يميل نحوها:

- تفتكري إنه حتى لو كان فيه حاجة حايقول لي؟

- ليه لأ؟

وأطلق مختار ضحكة عالية وكأنها قالت نكتة... لم تضحك معه ولم تبتسم فعاد يقول:

- عادل دُفعتي وصاحبي، روحي له وإنتِ حاترتاحي خالص.

هذه المرة، أحست أن كلماته مبتسرة، وملامحه لا تحمل أي تعبير، وعلى شفتيه ارتسمت ابتسامة بلا معنى... أيقنت - مرة أخرى - أن شكوكها قد أصابت، وأن الطامة قد وقعت، وأن الدنيا تدير لها وجهها البشع.

غادرت مقعدها أمام مكتبه فأحست أن ساقيها لا تقويان على حملها... قبل أن تصل إلى الباب ضاعت منها أنفاسها، وتخاذلت ركبتاها فترنحت وكادت تسقط فاندفع إليها مختار من خلف مكتبه هاتفًا:

- سامية.

عندما قبضت يده على ذراعها كي يقيلها من عثرتها أحست - لأول مرة - أنه يملك قوة غريبة لا ينبئ عنها جسده الدقيق هذا... جاءها صوته خافتًا ذا جرس أنكرته:

- المفروض إنك تتمالكي نفسك.

نظرت إليه بعينين تائهتين فأردف في حسم:

- المفروض إن محدش يعرف أي حاجة عن الموضوع ده بتاتًا.

وجاءه صوتها مغموسًا في الدمع والضعف:

- ما هو محدش يعرف يا أستاذ أحمد.

في صرامة قاطعة قال:

- ولا حتى ماما.

- حاضر.

* * *

لم تكن سامية فهمي من هذا النوع من الناس الذين يصابون بالذعر لمجرد ذكر اسم «المخابرات»... كانت مقتنعة - رغم ما قيل في العام الماضي عن سقوط دولة المخابرات - بأن رجال الأمن لا يستطيعون التعرض إلا لهؤلاء الذين يرتكبون جرائم في حق المجتمع... وكانت دائمًا تقول - إذا ما حذروها من سلاطة لسانها وعنف حديثها - إن «اللي على راسه بطحة يحسس عليها»... هي ترى أن الاستقامة ليست كلامًا، ولكنها أولًا وأخيرًا سلوك يلتزم به الإنسان حيال وطنه وأمته... عندما اختاروها عضوًا بالتنظيم الطليعي، وعندما جلست مع سمير وفخري ومحمود وعلية في أول اجتماع تحضره، سألت فخري جمعة، وكان هو مسئول المجموعة:

- طب انتو عاملين التنظيم ده سري ليه؟

وعندما وُوجهت بالحجج والآراء، رفضتها جميعًا... كان رأيها أن السرية سوف تعطي الفرصة للنهازين ولعيبة السياسة كي يخربوا ويدمروا، وأن الضمان الوحيد للتنظيم الطليعي هو العلنية... ولقد عارضوها جميعًا لكنها أصرت على تصعيد السؤال إلى المستويات العليا قائلة:

- المفروض إننا هنا علشان نناقش كل شيء بصراحة، وده سؤال صريح وأنا عاوزة إجابة عليه.

مرت الأيام واكتشفت أنهم اجتمعوا ذات مرة دون أن يبلغوها بالاجتماع فلم تهتم... لكنها فوجئت ذات يوم بأحمد مختار يقترح عليها أن تجري حديثًا مع وزير الإعلام فدهشت، وسألته عن المناسبة وعن السبب... وكان البحث عن «النغمة الصحيحة» يشغل بال الكتاب والصحفيين والقيادة السياسية بعد النكسة، رحبت بالأمر وسهرت ليلة حتى مطلع النهار لتحضير عدد من الأسئلة كالقنابل... عندما عرضتها على مختار استمع إليها في انتباه شديد، ثم تمتم: «هايل».

كانت هذه هي كلمته التي لا يزيد عليها حرفًا إذا ما أعجبه شيء... هي تعبير قد يحمل أي معنى في عرف الذين عملوا مع هذا الرجل المحير... كانت تعرف أن الوزير شاب... لكنها عندما التقت به وجدته أكثر شبابًا مما ظنت... ما إن بدأ الحديث بينهما حتى ترك الرجل مكتبه وهو يمسك في يده ورقة... جلس أمامها بعد أن طلب من السكرتيرة ألا يزعجه أحد، ثم راح يناقش معها كل ما قالته في اجتماع التنظيم.

أحست بالراحة والرهبة معًا، لكنها اندفعت تطرح وجهة نظرها في تدفق ألزم الرجل الصمت حتى انتهت... ثم راح بعدها يناقش ويحلل ويعرض وجهة نظره، وجدته دمث الخلق مهذب الكلمات هادئ الصوت خجولا سألته ذات لحظة من لحظات رعونتها:

- هو سيادتك مش كنت مخابرات قبل كده؟

كان هذا منذ شهور طويلة، ولم تكن تدري أنها ذات يوم ستذهب إلى هذا الجهاز الرهيب بقدميها طائعة مختارة... يومها، فوجئت بضحكة الرجل تجلجل في الغرفة الأنيقة المطلة على النيل... ظل يضحك ويضحك حتى دمعت عيناه واحمر وجهه، وكانت هي تضحك معه في استجابة ودهشة... ولم تنته المناقشة عند بر، وكانت الموضوعات قد تشعبت وتكاثرت بينهما حتى صاح فيها ذات لحظة:

- لو ما كانش عندي اجتماع مجلس وزرا كنت قعدت معاكِ زي ما إنتِ عاوزة.

أوصلها حتى باب مكتبه في حفاوة أدهشت السكرتيرة، صافحها في حرارة قائلا:

- يا ريت بلدنا فيها منك كتير يا آنسة سامية.

غادرته على وعد بلقاء آخر، لكن اللقاء لم يتم... وعندما طلبته في مكتبه ذات يوم ألحت فيه الأسئلة على رأسها، قالت لها السكرتيرة إنه في

اجتماع وسوف يطلبها... لكنه حتى اليوم لم يطلبها، فهل كان ما حدث في الشهور الأخيرة هو السبب؟

* * *

- المخابرات يا ست.

كان التاكسي يقف أمام باب من حديد متجهم، قليل من الزرع الأخضر، مع الحر الخانق لذلك الصباح، بدا الصمت ثقيلًا في تلك البقعة النائية من المدينة... انقبض قلبها وهي تعطي للرجل أجره وتغادر سيارته التي انطلقت بسرعة من يهرب من شبح... تقدمت من الباب فلمحت من خلفه وجهًا أسمر سرعان ما نفذ من الفتحة الضيقة استعدادًا للقائها.

كان شابًا في العشرين من عمره، تبدو ملامحه الوسيمة جافة لسبب غامض، يرتدي ملابس رسمية ذات لون غريب... من منطقته يتدلى مسدس... في أدب من تعود على مثل هذه الزيارات سأل:

- أفندم.

- الأستاذ عادل مكي من فضلك.

- نقول له مين يا فندم؟

- سامية فهمي.

- فيه بطاقة؟

أصبح الحوار ثقيلًا، ردت عليه:

- فيه ميعاد معاه.

- فيه بطاقة؟

كرر السؤال وكأنه لم يسمع إجابتها... على مضض أخرجت بطاقتها الشخصية... نظر فيها، ثم رفع عينيه نحوها ومن خلفه كان يقف حارس آخر ذو رأس كبير ووجه كأنه خلق لهاتين العينين الواسعتين المرعبتين.

- اتفضلي سيادتك يا فندم هنا.

قادها إلى غرفة خطت إليها عبر ممر داكن الضوء... غرفة انتظار هي، لكنها مقبضة... تركها وحدها فارتجفت... أرادت أن تجلس على أحد المقاعد الوثيرة لكنها لم تستطع، اكتشفت أنها متوترة، وأنها تقبض على حقيبة يدها في عنف لا مبرر له... تذكرت أمها ونظراتها الحزينة ومشكلتها المزمنة وحنانها الدافق فدمعت عيناهـا... همست لنفسهـا في لوعة: «المخابرات يا نبيل.. المخابرات» وكان الحوار في داخلها محتدمًا عندما ظهر ذلك الشاب وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ترحيب بالغة الإشراق.

- اتفضلي سيادتك يا فندم.

جمدت في مكانها لثوان وهي تنظر في إمعان إلى هذا الوجه الذي استقبلها بلا ابتسامة... وإلى نفس الوجه وقد أشرقت ملامحه بتلك الابتسامة التي حولته من حارس إلى إنسان... خطت نحو باب الغرفة فأحست بالدوار... وكأن الشاب قد شعر بما انتابها فلقد قال مشجعًا:

- اتفضلي سيادتك.

وسارت خلفه.

عبرت حديقة، ثم اخترقت ممرًا يؤدي إلى مبنى جانبي... كان الحارس يسير أمامها فأعطاها الفرصة كي تتلفت هنا وهناك... هذا إذن هو جهاز المخابرات المصري... يبدو لها الأمر وكأنها في حلم، ثمة سيارة هنا وسيارة هناك ولكن لا أحد على الإطلاق، لا إنس ولا جان، لا شيء سوى خطوات ذلك الحارس الذي كان يلتفت نحوها بين الحين والحين مرددًا في حفاوة «اتفضلي سيادتك»... حتى وجدت نفسها أمام باب غريب... هو باب من تلك الأبواب التي تعرفها جيدًا، لكن إحساسها جعلها توقن أنه

ليس بابًا... راحت تردع نفسها بعنف فها هو الخوف يغزوها مرة أخرى، فَلِمَ تخاف؟ اللي على راسه بطحة يحسس عليها.

ما كادت تنفذ من الباب حتى طالعها مكتب صغير يجلس إليه رجل يرتدي ملابس عادية، رجل هو أم عملاق أصلع ذو عينين واسعتين فكأنهما مصنوعتان خصيصًا لتخويف الناس... نظر الشاب إلى الرجل الذي نهض مرحبًا وهو يبادرها:

- آنسة سامية فهمي؟

- أيوه.

- إتفضلي يا فندم.

انصرف الشاب، وتبعت الرجل إلى سلم قادها إلى ممر كان يمتد حتى آخر الجدار... على الجانب الأيسر للممر أبواب مغلقة، الجو مشحون وكأن هناك من امتص الحياة حتى من الهواء... عند باب من تلك الأبواب المغلقة توقف الرجل وفتح الباب.

- اتفضلي سيادتك يا آنسة سامية.

دلفت إلى غرفة بسيطة الأثاث، مكتب ومقعدان، ثم مجموعة من المقاعد الجلدية التي تُكون صالونًا صغيرًا، في الواجهة نافذة زجاجية تطل على جدار شاهق، تحت النافذة جهاز تكييف لا يعمل رغم حرارة الجو... على المكتب تليفون يبدو مهملًا، ولا أوراق هناك، لا دليل على أن أحدًا يستعمل هذا المكتب.

كانت قد استغرقت فيما هي فيه عندما جاءها صوت الرجل فانتفضت ملتفتة إليه:

- سيادتك تشربي إيه؟

- قهوة مظبوط.

- السيد عادل جاي حالًا.

قال الرجل هذا ثم انسحب مغلقًا الباب فأحست بالرعب يشلها تمامًا، كان صوت الكالون حادًا واضحًا يؤكد أنه أغلق فانقبض قلبها، هي لا تشرب القهوة بالنهار فلم طلبت قهوة؟ وجدت نفسها ترتجف دون إرادة منها، أحست برغبة مروعة في الصراخ فاندفعت نحو الباب وفتحته فاستجاب لها وخرجت إلى الممر فتوقف الرجل الذي لم يكن قد بلغ آخره، وكانت في عينيه نظرة دهشة شديدة:

- فيه حاجة يا فندم.

وارتبكت.

لماذا فعلت ما فعلت؟

هل هي تريد أم أنها أرادت - فقط - أن تعرف إذا كانت تستطيع النفاذ من الباب؟

- من فضلك قول لعادل بيه إني مستعجلة علشان...

وتوقفت الكلمات في حلقها عندما رأت شابًا وسيمًا ينفذ إلى الممر مهرولًا:

- أنا آسف يا مدموازيل سامية، أرجو إني ما أكونش اتأخرت عليك.

في احترام أوسع الرجل الطريق لعادل مكي، عرفته فورًا ولا تدري كيف... تصاعد إلى رأسها سؤال عربيد بلا معنى، أين اختفى هذا الشاب الوسيم عن عيون مخرجي السينما؟! كان قد وصل إليها:

- عادل مكي.

أرادت أن تختصر الطريق، كعادتها اقتحمت المشكلة:

- أنا آسفة.. أصلي...

في ابتسامة رقيقة قال:

- ولا يهمك، طلبت حاجة؟

- قهوة.

التفت عادل نحو الرجل قائلًا:

- خليهم اثنين يا متولي.

دفع باب الغرفة بيده:

- إتفضلي.

ودلفت سامية إلى الغرفة، وكانت رغبتها في البكاء، تفوق أية رغبة أخرى.

الفصل الثاني
ولم يبق سوى الفتات

عندما جلس ضابط الأمن القومي «عادل مكي» إلى سامية فهمي في ذلك الصباح الخانق من شهر يوليو عام ١٩٦٨، في تلك الغرفة المتجهمة التي رطب جوها التكييف، كان يعرف عنها كل شيء... كان يعرف - بالضرورة - من هي؟ وماذا تعمل؟ وكيف تعيش؟ ولم جاءت على وجه التحديد؟

بالأمس... وعندما اتصل به أحمد مختار تليفونيًا، ظن في البداية أن الاتصال كان للسؤال... ولقد دار الحديث بينهما مرحًا تناولا فيه أمور الدنيا وما فيها... حتى إذا سأله مختار في لحظة:

- طب إحنا مش حانشوف بعض يا عادل؟

دق في رأسه جرس الإنذار، فقال على الفور:

- حدد الميعاد وأنا تحت أمرك.

- نتغدى النهارده في النادي سوا.

أدرك عادل الآن، وبوضوح، أن الأمر يخص سامية فاجتاحته راحة غريبة... مضت لحظات صمت جاءه بعدها صوت مختار:

- قلت إيه؟

كان الحديث طبيعيًا للغاية، لكن الأسلوب الذي تحدث به مختار أوحى إلى عادل أن في الأمر شيئًا... ولم يكن أمامه سوى القبول فقبل، وذهب للقاء صديقه ودُفعته أحمد مختار.

منذ شهور ثلاثة، وسامية فهمي، وسط خضم ما كان يخوض فيه عادل في تلك الأيام، تشغل باله وتفكيره... ذلك أن هذه الصحفية الشابة كانت تمثل له أمرين:

الأول: هو تلك الفرحة الغامرة التي تنتاب ضابط المخابرات كلما تنبه مُوَاطن إلى مَوَاطن الخطر والزلل... وفي تلك الأيام السوداء... كان هناك عشرات من الشبان الذين راحوا يَخْطون إلى شِبَاك الإسرائيليين بلا روية ولا علم ولا تفكير ولا حتى فهم بطبيعة ما كان ينصب حولهم من شراك قاتلة... كانت سامية - لو صح حدسه - تمثل له فرحة غامرة بنجاة إنسان من حبائل الخيانة.

أما الأمر الثاني: فإن سامية قد تستطيع أن تكون مَخْرجًا من تلك القضية التي تؤرقه منذ ما يقرب من عام... والتي كانت آثارها تتفاقم يومًا بعد يوم حتى استفحل أمرها واستطاع الإسرائيليون - من خلال تلك الشبكة الجهنمية - أن يحرزوا فيها انتصارات مؤكدة.

الحلقة الخطرة، والوعرة في نفس الوقت، في هذه الشبكة... شاب مصري، وسيم ذكي، خفيف الظل ساحر الأسلوب... لم يكمل تعليمه الجامعي، مواهبه متعددة، أوقعه قدره ورعونته وطموحه في يد الصهاينة فاستجاب سعيًا وراء نجاح مزيف... أعماه الغرض عن الهدف فانقاد... ثم تفتق ذهنه عن أساليب أبعدته - قانونًا - عن كل شبهة... فانطلق في قسوة غريبة، يصطاد الشباب المصري، شابًا وراء آخر، وشابة وراء أخرى... حتى اشتهر أمره بين هؤلاء الساعين إلى حلم امتلاك سيارة بأي ثمن، وجرى المال بين يديه بغير حساب... ويوم أن زار مصر، دخلها تحت عيني عادل مكي فلم يستطع له شيئًا... جاء واثق الخطى، وخرج دون أن

يتعرض له مخلوق بكلمة، ثم... كان لا بد أيضًا من خروجه، عرف عادل أثناء تلك الزيارة علاقة الحب بينه وبين سامية، ثم عرف كل شيء عن تلك العلاقة، لكن سامية كانت تبدو لاهية عن كل شيء فآثر الانتظار، حتى إذا دخلت ذات يوم، منذ شهرين ونصف الشهر، وفي مدينة نابولي الإيطالية بالتحديد إلى دائرة الشكوك... كان حزنه قد أصبح عظيمًا.

أثناء زيارة نبيل سالم – هذا هو اسم الشاب – إلى مصر دخلت سامية فهمي إلى دائرة الضوء خاصة أن الأنباء والأحداث أكدت أن هذه الفتاة الملتهبة بالحماس – والتي استحوذت على إعجاب كل من التقى بها – تحب نبيل سالم حبًا ملك عليها حياتها... كانت دهشته شديدة لارتباط تلك الصحفية والكاتبة الموهوبة، بذلك الأفّاق الذي ارتضى أن يبيع كل شيء، حتى وطنه، من أجل حفنة من المال... وعندما سافرت سامية إلى إيطاليا بعد ذلك ببضعة أسابيع كي تلتقي بنبيل، كان لا بد من وضع الأمر تحت منظار يوضحه... ولقد حدث هناك ما عرف بعضه ولم يعرف بعضه الآخر، ورآها بعيني رأسه تلتقي بمن يمثلون خطرًا حقيقيًا على الوطن، بل بهؤلاء الذين ليس لهم من عمل سوى الإضرار بالوطن، فانتظر حتى عادت إلى مصر... ومر شهر وشهران وبعض من شهر ثالث... ولم تتقدم سامية، ولم تبلغ عن شيء، بل راحت تنشط في جمع معلومات بدت غريبة، ولم يكن هناك بد، كان عادل مكي مضطرًا إلى أن يضعها تحت مجهر دقيق لا يخفي من حياتها شيئًا... وكانت سامية – وهذا ما كان بالنسبة إليه مروعًا– تخطو إلى دائرة الشكوك يومًا بعد يوم حتى كاد يفقد صوابه.

* * *

عندما يتعامل ضابط المخابرت مع شبكة أو عميل أو جاسوس، فهو يتعامل بمقياس دقيق لا دخل للعواطف فيه... ولكن ماذا تفعل إزاء ناس اختصهم الله بهذه الجاذبية التي تجعل من أخطائهم شيئًا يحطم القلب، ويورث الإنسان السقم؟

لقد كانت سامية فهمي من هذا النوع من البشر... فظل عادل مكي محتفظًا بالأمل في أن تلجأ إليه ذات يوم... ولقد ظن في لحظة من لحظات الترقب المرير أن انتظاره قد طال... حتى إذا حدثه أحمد مختار، وتناولا معًا طعام الغداء... ودردشا حول البلد وما يحدث فيها. وجاءت لحظات القهوة بما فيها من استرخاء... قال مختار:

- تعرف سامية فهمي؟

قال لي عادل مكي إنه في تلك اللحظات كاد يقفز من مكانه فرحًا... قال إنه لا يخجل من الاعتراف بأن قلبه دق في عنف مزغرد... لكنه، ولأنه مدرب على كتمان ما يعتريه من انفعالات، رد على صديقه في بساطة:

- باقرأ لها في المجلة بتاعتك.

ولم يكن عادل كاذبًا... فلقد كانت سامية من تلك الأقلام التي تشد انتباهه رغم حداثة عملها في الصحافة وعلى كل، فلقد قال مختار:

- سامية فطرت معايا النهارده الصبح.

رفع عادل مكي حاجبيه مستفسرًا، فأردف مختار:

- فيه عندها مشكلة.

كان حوار الرجلين في تلك الحديقة المترامية في ذلك النادي الذي اشتركا فيه معًا منذ سنوات طويلة، يبدو طبيعيًا لمن أراد الاستماع إليه، لكنه في واقع الأمر، كان يحمل شحنات متفجرة من الأحاسيس... ذلك أن كلا منهما راح يقرأ ملامح صاحبه، وكلا منهما أخذ يمعن الفكر في كلمات صديقه... كان مختار يعلم بالضرورة أن صديقه، حتى ولو كان يعلم شيئًا... لن يبوح له بشيء... كما كان مكي يعلم أن صديقه يستطيع أن يخمن وأن يفهم دون سؤال... ولذلك، فلقد جرى الحديث بينهما سلسًا لينًا، حتى إذا انتهى مختار مما أسرت له به سامية فهمي... قال مكي بعد لحظة صمت لم تطل وكأنه يفكر في الأمر:

- طيب ما تخليها تعدي عليّ بكره؟

وكانت هذه الجملة إيذانًا بإغلاق الموضوع، فزفر مختار زفرة كاللهب، دفعت مكي إلى الابتسام وهو يهتف:

- ما لك يا مخ؟

ضحك مختار ضحكة خفيفة وهو يقول:

- فاكر يا وله سنة خمسة وخمسين؟

كانت تلك ذروة شبابهما... ذروة دفعتهما معًا إلى خوض الحرب ضد الإسرائيليين بحماس وإيمان جعلا لتجربتهما طعمًا مميزًا... راحا يضحكان وهما يتذكران تلك الليلة التي تجمدت فيها أطرافهما وهما يخوضان معركة بالسلاح الأبيض داخل حدود إسرائيل... تركا وحدتهما في تلك الليلة بلا أوامر وخاضا مع مجموعة من الفدائيين أرض فلسطين لكي يصطادوا جنود العدو... وكاد مكي يُقتل بطعنة نافذة لولا مختار الذي أنقذه بمصادفة تقترب من المعجزات.

في تلك الأيام لم يكن أحدهما يحمل للدنيا همًا، وكان الأمل أمامهما يشرق كل صباح مؤكدًا أنهما سيشاركان في بناء وطن تفخر به الأجيال... وها هما يجلسان وقد تقدمت بهما السنون ثلاث عشرة خطوة... فإذا الوطن مصاب بما أصيب به العام الماضي. هزيمة مدوية مروعة، وكان عليهما، كلٌّ في مجاله، أن يبدأ من جديد.

- كان لازم اللي حصل ده يحصل.

هكذا غمغم مختار فلم يرد عليه مكي... ألقى نحوه نظرة مشحونة بطاقة من حزن بلا حدود... سحق سيجارته وهو يقول:

- قول لها تعدي عليَّ بكره الساعة تسعة يا مختار.

ونهضا.

وعاد مكي إلى مكتبه وقد استخفه الفرح، وطلب ملفًا جاءه على الفور... أغلق غرفة مكتبه، واستغرق في القراءة.

كان لا بد له - عندما يرى سامية فهمي في الصباح - من أن يكون جاهزًا للقائها.

❊ ❊ ❊

وها هي سامية تجلس أمامه، بينهما فنجانان من القهوة، وكانت مضطربة أشد ما يكون الاضطراب... وكان يعلم أنها لا بد من أن تكون مضطربة... فكيف السبيل إلى إزالة اضطرابها... كيف السبيل؟

❊ ❊ ❊

كان نبيل سالم واحدًا من شباب مصر الذين خرجوا للسياحة فلم يعودوا إليها لسنوات طويلة... جاءت أخباره، أول ما جاءت ذات يوم من أيام مايو عام ١٩٦٦ عندما التقى بـ«لويز جولدمان» في مدينة هامبورج الألمانية.

كانت لويز إسرائيلية من أبوين بولنديين نزحا إلى فلسطين قبل الحرب العالمية الثانية تحت ضغط الاضطهاد الذي كان يصيب اليهود في أوربا، ولدت لويز في فلسطين، وأتقنت عددًا لا بأس به من اللغات، والتحقت بخدمة الموساد في وقت يصعب تحديده على وجه الدقة... ذلك أنها ظهرت أول ما ظهرت في باريس تحت اسم «مارسيل ماتيو» ثم انتقل نشاطها إلى روما حيث انتحلت اسم «صوفي جارديني»... ثم اختفت لأعوام قليلة، حتى اكتشف الرجال أنها تعيش في ميناء هامبورج منذ شهور تحت اسم أمريكي هو «شيرلي هايمان»... وإذا كان نشاط لويز جولدمان قد تميز في فرنسا بالتركيز على الطلبة العرب خاصة الجزائريين منهم، فإن نشاطها في روما اختلف تمامًا، فلقد اشتركت في عمليات خطرة ومؤثرة... لكنها عندما ظهرت في هامبورج في هذه المرة الأخيرة، كانت تتقن العربية باللهجة اللبنانية... ولقد قيل في أحد التحليلات العلمية

التي جرت لشخصية لويز... إنها لا بد كانت تتقن العربية منذ أن ظهرت في فرنسا، وإنها استطاعت أن تخفي هذا ببراعة لا بد من الاعتراف بها... بل إن البعض كان يرى - ودون دليل قاطع - أنها عاشت، قبل أن تظهر في فرنسا، لسنوات في لبنان تحت اسم وهمي يغلب على الظن أنه اسم فرنسي، وأنها كانت تحمل جواز سفر فرنسيًّا... وأن سبب عدم كشفها في بيروت أو الانتباه إليها، أنها في تلك السنوات الغامضة، لم تكن مكلفة بشيء ذي طبيعة خاصة... وأن كل ما كان عليها أن تتقنه، هو أن تتعلم العربية وأن تتحدث بها بطلاقة لا تبعث على أدنى قدر من الشك... ثم ها هي تظهر في هامبورج كموظفة في إحدى الوكالات الأمريكية التي تعمل في السياحة... كان معروفًا أن هذه الوكالة بالذات تتبع شركة هائلة مركزها نيويورك، يملكها عدد لا بأس به من اليهود الأمريكيين... ولم يكن صعبًا أن تُعين فتاة مثل لويز جولدمان تحت اسم مزيف وجواز سفر أمريكي في شركة أمريكية.

وفي الحقيقة فإن الرجال لم يكتشفوا أمر هذه الشركة في وقت مبكر، لكنهم اكتشفوها عندما نما إلى علمهم أن بعضًا من الشباب العربي، كان يسافر من بلاده إلى ألمانيا خصيصًا كي يشترك في رحلات هذه الوكالة الأمريكية التي كانت تحملهم إلى أركان الأرض الأربعة، في رحلات ينفقون فيها أموالا طائلة طلبًا للمتعة... وعلى كل الأحوال، فإن لقاء «نبيل سالم» بـ«لويز جولدمان» أو «شيرلي هايمان» الموظفة بوكالة السياحة الأمريكية... لم يكن إلا في أواخر عام ١٩٦٦... ولقد كان لهذا اللقاء قصة...

* * *

قال عادل مكي وهو يوجه إلى سامية فهمي ابتسامة راضية:

- مختار قال لي إن عندك مشكلة.

ردت سامية:

- هي مش مشكلة بالمعنى الدقيق للكلمة... هي شكوك.

- في إيه؟

كان سؤاله الأخير مثل طلقة حسمت الأمر... وكان لا بد لسامية من أن تدخل في الموضوع.

* * *

كان نبيل سالم ابنا لموظف من موظفي وزارة الصناعة.. كان والده موظفًا كبيرًا لا يصل إلى درجة وكيل وزارة وإن كان قريبًا منها أو لصيقًا بها... عُرف عن علاقة الأب بابنه ذلك التوتر الدائم الناجم عن اختلاف وجهتي نظر كل منهما لأسلوب التعامل بينهما... ولقد قيل في البداية إن الأب كان على خلاف حاد مع زوجته أدى إلى هذا الخلاف المزمن مع ولده نتيجة لتعاطف الأم مع ابنها... ولكن، اتضح بعد فترة وجيزة أن هذا غير صحيح.

فبالرغم من أن أم نبيل كانت تتعاطف مع ولدها، كانت تحب زوجها وتحترمه وترى في تصرفات ولدها طيش شباب لا أكثر ولا أقل، كما أنها كانت ترى في تصرفات زوجها ومواقفه حيال ولده... «حنبلة» زائدة، وتقليدية من أب كان عليه أن يساير العصر... ولم يُعْرَف حتى وقت متأخر، سر خروج نبيل من مصر، أو ربما لم يفهم أحد وجهة نظره ولم يقدرها حق قدرها.

ففي الإجازة الصيفية لعام ١٩٦٥، استطاع الطالب نبيل سالم أن يحصل على تأشيرة خروج من مصر، وتأشيرة دخول إلى ألمانيا الغربية للسياحة... كان وقتها، رغم أنه كان في السادسة والعشرين من عمره، لا يزال في السنة النهائية بكلية التجارة بجامعة القاهرة، ومنذ التحق نبيل بالكلية، عرف عنه أنه لا يطيق حتى اسم التجارة... كانت رغبته في الالتحاق بكلية الاقتصاد

السياسي حارقة... إلا أنه لم يستطع، رغم كل الوساطة التي لجأ إليها أبوه، أن يحقق تلك الرغبة.

عُرف عن نبيل سالم وسط عائلته وأصدقائه وجيرانه، أنه «شايف نفسه حبتين» فهو - فوق أنه جميل الوجه مليح التقاطيع - وسيم وسامة لا يختلف عليها اثنان، خفيف الظل، قادر على اكتساب صداقة الآخرين بسهولة ويسر... حامت حوله - من السنة الأولى في الكلية - أقاويل وشائعات عن علاقات حب بينه وبين بعض زميلاته لم تثبت صحتها... شيء واحد كان يعيب نبيل، أنه لم يكن يطيق العلم... كان دخوله إلى المدرج واستماعه إلى محاضرة أو انكبابه على كتاب، أمرًا دونه خرط القتاد، كما يقولون... بعد أربع سنوات التحقت سامية فهمي بقسم الصحافة بكلية الآداب، والتقت بنبيل وسط شلة من الزملاء والزميلات في بوفيه الجامعة... وكل ما عرفه عادل مكي عن علاقتهما، أنهما لم يفترقا منذ أن التقيا لأول مرة، وأن علاقة حب نشأت بينهما لم تحاول سامية أن تخفيها، فلقد كانت من هذا النوع الذي إذا ما اقتنع بشيء تحمل مسئوليته في شجاعة وصراحة ووضوح.

في ذلك العام، عام ١٩٦٤، نجح نبيل سالم لأول مرة في حياته - ومن أول سنة له - في السنة الثالثة، وانتقل إلى السنة النهائية... لكنه فشل في الحصول على البكالوريوس، كانت المشاكل قد تجددت بينه وبين أبيه عندما أراد أن يتقدم لخطبة سامية من والدتها ناظرة المدرسة... رفض الوالد، وأصر على الرفض فاحتدم الخلاف بينهما... وقيل إن سامية أيضًا - في ذلك العام - اختلفت مع نبيل كثيرًا، لكن أحدًا لا يعرف طبيعة هذا الخلاف أو سببه... فشل نبيل في الحصول على البكالوريوس وانتقلت سامية إلى السنة الثالثة وكانت قد التحقت بمجلة الفجر كصحفية تحت التمرين... ذهبت إلى المجلة في دورة تدريبية تحتمها دراستها في الكلية، لكن نشاطها وذكاءها وحماسها جعلهم يتشبثون بها في المجلة ويرحبون بانضمامها إليهم. فشقت

طريقها بسهولة واستطاعت خلال شهور قليلة أن تلفت إليها أنظار القراء، وفي صيف عام ١٩٦٥ قرر نبيل أن يقوم برحلة سياحية إلى ألمانيا عن طريق البحر. أقلته السفينة إلى ميناء فينسيا الإيطالي، وهناك اختفى دون أن يعرف أحد عنه شيئًا... إلى أن ظهر بعد بضعة شهور في ميناء هامبورج الألماني ولم يكن له عمل محدد... عندما انقضت الشهور دون عودته انتاب القلق أبويه حتى لقد ذهب والد نبيل بنفسه إلى كلية الآداب كي يلتقي بسامية... ولقد كان لقاؤه بها غريبًا، جلس إليها لساعتين أو يزيد قليلا، ويقال إن الرجل عاد بعد لقائه بسامية وقد انتابته دهشة وعاد إليه إشراقه، وإنه قال لزوجته، إنه لو كان يعلم أن ابنه يريد الزواج من فتاة مثل سامية لما مانع ولما اعترض. بل لرحب بالأمر... على كل فلم تمض أسابيع قليلة حتى وصله خطاب من ولده. وكان الخطاب صادرا من مدينة هامبورج... في الخطاب طمأن الولد والده على نفسه وحياته... قال نبيل لأبيه في الخطاب إنه لن يعود إلى مصر إلا بعد أن يُكون نفسه ويعرف طريقه، وإنه سئم - وقد بلغ السابعة والعشرين من عمره - أن يعيش عالة على أبيه... قال - فيما قال - إنهم في أوربا لا يهتمون بالشهادات قدر اهتمامهم بالكفاءات، ورغم ذلك فلقد التحق بأحد المعاهد الاقتصادية بعد أن أصبح يتقن الألمانية.

ولقد ركن الرجل إلى الأمل.

كما غذى الأمل في نفسه - هذا قوله بالحرف الواحد - لقاؤه مع سامية فهمي التي بدت له مؤمنة أشد ما يكون الإيمان بمستقبل ولده.

لكن الحقيقة كانت غير هذا تمامًا.

كان عادل مكي ورجاله قد توصلوا إليها وعرفوا القصة كاملة.

* * *

عندما بدأت سامية فهمي تطرح شكوكها على عادل مكي، بدت مرتبكة، وكان هذا أمرًا طبيعيًّا... راحت تقص سفرها إلى إيطاليا لشراء

سيارة. وكيف التقت بسمسار يعمل في تجارة السيارات وتصديرها. ثم كيف تعرفت على مدير إحدى وكالات الأنباء... ثم عادت ونقضت كلامها هذا، وعندما همّت باستئناف الحديث، ابتسم عادل مكي وهو يسألها:

- تحبي نأجل الكلام لبكره؟

صاحت في حدة لم تقصدها:

- لا... أنا ما صدقت إني قابلتك.

ثم توسلت:

- تفتكر فيه حاجة يا عادل بيه؟

ولقد بدا عادل مكي بريئا كل البراءة وهو يسألها:

- حاجة زي إيه؟

وإزاء ارتباك سامية الذي ازداد... كان لا بد من تناول فنجان آخر من القهوة.

* * *

عندما وصل نبيل سالم إلى هامبورج لأول مرة، كان في حالة يرثى لها حقا... استطاع في إيطاليا أن يجد مجموعة من الشباب هم خليط من جنسيات مختلفة، كانوا مثله يبحثون عن شيء لا يدرون ما هو... كانوا يعملون أيامًا ويتعطلون أيامًا، لكنهم استطاعوا الصعود شمالا إلى ألمانيا عبر سويسرا، وحطت بهم الرحال في هامبورج حيث كانت البيئة في تلك المدينة تناسب الكثير من هواهم.

في هامبورج أصيب نبيل بنزلة شعبية كادت تودي به... لزم الفراش أيامًا فهجره أصدقاؤه ثم اختفوا من المدينة وقيل إنهم استقلوا إحدى السفن المبحرة إلى بريطانيا... وأصبح نبيل قاب قوسين أو أدنى من الموت لولا صاحبة البيت الذي كان يسكن إحدى غرفه، وهي سيدة في

خريف العمر تؤجر غرف بيتها للشباب أو من يدفع أكثر... رق قلب «فراو انجي» للشاب المصري المفلس المريض... كانت وحيدة وكان وحيدا فلازمته حتى شفي من مرضه... حفظ لها الجميل وكانت الصفقة بالنسبة للاثنين مجزية، قنع بالغرفة التي أثثتها له بعد أن رفض العيش في مسكنها الصغير بحجة أنه يريد أن يشعر باستقلاله... واستطاعت فراو انجي أن تجد له عملا في الميناء وكانت هذه هي بداية النهاية بالنسبة لعلاقته بتلك السيدة المسكينة، فلقد التقى ذات يوم في مشرب قريب من الميناء بشاب يدعى «فريدريك»... كان فريدريك فردا في عصابة لتهريب المخدرات عن طريق الميناء... ولقد أصبح هذا الشاب الألماني الجسور صديقًا لنبيل الذي كان أجره من عمله يكفيه بالكاد كي يواصل الحياة... في البداية لم يعرف نبيل كنه عمل فريدريك الحقيقي، لكنه أعجب به وبجسارته، كما سال لعابه للمال الذي كان الشاب ينفق منه في بذخ وبلا مبالاة... كانت الشهور تنقضي وكلما انقضى شهر أحس نبيل أن عودته إلى مصر خالي الوفاض دونها الموت نفسه، كان أحيانًا يكتب لسامية ممنيا إياها بالآمال والنجاح، راح يلفق لها الحكايات عن المعهد الجديد الذي التحق به والعمل المحترم الذي حصل عليه... وكانت خطاباتها إليه مليئة بالحرارة والحب والإيمان والأمل والثقة بلا حدود في أنه سوف يستطيع أن يحقق أحلامه... أصبحت خطاباتها بعد فترة أزمة كان يتجنبها فلقد كانت بدورها تحدثه عن نجاحها في المجلة، وعن إعجاب رئيس التحرير بها، وفي بعض الأحيان كانت ترسل إليه موضوعاتها المنشورة والممهورة باسمها... ولقد كان نبيل في البداية يقرأ من الخطاب سطورا ثم يلقيه بعيدا كمن يهرب منه، كانت كلماتها كأسياخ محماة تحرق جلده، وكان نجاحها يجسد له فشله... ثم أصبح يلقي بخطاباتها جانبا دون قراءة، ثم أصبح يمزق تلك

الخطابات دون أن يفض الظرف... ثم... وعندما تشاجر ذات ليلة أفرط فيها في الشراب مع فريدريك، حيث صحب معه إلى الغرفة إحدى فتيات الحانات، فتشاجر تلك الليلة مع فراو انجي، لم يكن أمامه وقد جن جنون المرأة التي كانت قد سقطت صريعة شبابه، إلا أن يترك الغرفة وينتقل إلى مكان آخر... ولم تتركه فراو انجي، بل راحت تحرض عليه صديقها حتى فصله من عمله... وعاد نبيل إلى الشارع من جديد.

بحث عن فريدريك فلم يجد له أثرًا، كمن تبخر في الهواء اختفى صديقه، بحث عنه في كل مكان فلم يجده، بحث عن عمل، أي عمل دون جدوى... حاول أن يطرق باب فراو انجي فكان نصيبه الطرد والتهديد بتبليغ الشرطة... أصابه الرعب فهو يعلم ما الذي تعنيه الشرطة في بلد كألمانيا، خاصة مع من كان عربيًا أفّاقًا مثله بلا مأوى ولا عمل.

وساءت أحوال نبيل يومًا بعد يوم حتى لقد قبل أن يعمل «مرمطونًا» في مطعم صغير بالميناء لقاء بضعة ماركات لا تسمن ولا تغني... كان كل ما يعنيه في عمله هذا أن يجد ما يسد به رمقه فيما تبقى من فتات في أطباق الزبائن، وأن يجد ما يدفعه ثمنًا لغرفة قذرة شاركه فيها أربعة أشخاص لم يكن أحدهم يعرف عن الآخر شيئًا... حتى كان يوم.

يوم التقى فيه نبيل بأبي سليم.

ذلك الرجل السوري الضخم الجثة المنتفخ حافظة النقود، النهم إلى الطعام والشراب... المرح الذي لا يكف عن الدعابة أو الضحك أو مغازلة الفتيات، العربي الفخور بعروبته... سمسار هو، يعرف كيف يكسب المال بالألوف وكيف ينفقه في بذخ... ليلة أن التقى به كان نبيل يعاني من انتفاخ في قدمه اليسرى سبب له آلامًا رهيبة، كان عليه أن يعود

إلى البيت سيرًا على القدمين، لكنه لم يستطع مواصلة المشوار فجلس في أحد البارات... وكان غريبًا أن تحدث صدفة من نوع نادر، فلقد هبطت على رأسه صيحة أبي سليم:

- الأخ عربي... مو هيك؟

رفع نبيل عينيه إلى رجل هائل الحجم أنيق الملبس متورد الوجه منتفخ الكرش... قال في اقتضاب من لا يرجو خيرًا من هذه الدنيا:

- هيك.

- مصري؟

- مصري.

وجلس أبو سليم إلى جواره، وطلب مشروبين له ولنبيل، وراح يحكي عن العرب والعروبة وعبد الناصر والانفصال والقومية... راح يثرثر وكانت عيناه تأكلان الفتيات أكلا وتلا المشروب بآخر وثالث ورابع، وعندما تمنع نبيل في لحظة بدا الغضب على وجه الرجل وهو يصيح بلهجته السورية:

- شو العمى، بترفض دعوتي؟ هادي إهانة.

حاول نبيل أن يوضح فأقسم الرجل أن يدعوه طوال تلك الليلة.

نادى على الجرسون وأخرج حافظة منتفخة بالماركات دفع منها ثمن ما شربا ثم صحب نبيل إلى مطعم قدم لهما ألوانًا من الطعام طال حرمان نبيل منها... في تلك الليلة أكل نبيل وشرب كما لم يأكل ويشرب في حياته... ولقد أحب أبو سليم هذا، ثم أحبه أكثر عندما همس له بأنه يبحث عن عمل، وأن الحال ليست على ما يرام... ثم كاد يقبل يده والرجل يعده بأن

يجد له عملا عنده، فهو في حاجة إلى مساعد أمين بعد أن سرقه الألمان، وليس هناك أحسن من أخ عربي يأخذ بيد أخيه العربي.

كأن طاقة فتحت لنبيل سالم في السماء... نام ليلته ممتلئ البطن بالطعام، ممتلئ الرأس بالأحلام... وكان على موعد في اليوم التالي مع أبي سليم... لكنه لم يكن يعلم أنه كان على موعد مع واحد من أخطر رجال المخابرات الإسرائيلية.

الفصل الثالث

الطريق إلى الجحيم

أدرك عادل مكي منذ البداية أن سامية فهمي تعاني من ارتباك بالغ... وأن ارتباكها هذا يقودها إلى القفز فوق بعض الحقائق التي قد تراها بلا أهمية، أو فوق بعض الحقائق التي تريد أن تخفيها... وإذا كان إخفاء بعض الوقائع في مثل هذه الحالات دائمًا ما يحمل معنى الخوف أو الخجل أو عدم الرغبة في الاعتراف بما ارتكبه الإنسان... فإن خوف سامية فهمي - هكذا كان عادل موقنًا بعد دراسة مستفيضة ودقيقة لشخصيتها وتصرفاتها - كان يحمل معنى مختلفًا، فهي - في قرارة نفسها - لا تريد حماية نبيل سالم، ولكنها تريد حماية نفسها من صدمة قد تودي بها، لا تريد أن تواجه اختيارها الذي تحدت به العالم كله، فإذا به يخذلها حتى الموت.

كانت سامية في جلستها تلك أمامه، تتعذب عندما بدأت الحديث راحت كلماتها تتناثر هنا وهناك في محاولة لتهوين الأمر.. قالت إنها عندما وصلت إلى نابولي التقت بسمسار أرادت أن تبتاع منه سيارة، وإن هذا السمسار رحب بها ترحيبًا بالغًا وهون عليها الأمر حتى خالت أنها ستعود بالسيارة إلى مصر في اليوم التالي... ثم التقت بمدير وكالة «إل.إم. دي» للأنباء، وهي وكالة حديثة وجديدة، وأرادها أن تتعاون معه وأن تكون مندوبة الوكالة في القاهرة... وأن الأيام كانت تمضي دون أن تشتري السيارة

ودون أن ترى تلك الوكالة... وأن... وأن... وأن... و... و... ولم تذكر سامية شيئًا عن نبيل سالم، لا عن علاقتها به، ولا عن لقائها معه هناك... ولا بد من أنها كانت موقنة من أنها تهرب من الحقيقة، لأنها راحت تحكي ما حدث بكلمات مبتورة وجمل ناقصة... حتى جاءت لحظة لم يكن هناك مفر من مجيئها... فتوقفت عن الحديث لاهثة.

تطلعت إليه بعينين متوسلتين وكأنها تطلب منه الرحمة أو النجدة، فتلقاها بابتسامة واسعة مرحبة، قدم لها سيجارة فارتجفت أصابعها وهي تتناولها منه، كان يعلم أنها لا تدخن لكنه أراد لها أن تتلهى عن انفعالاتها بالتدخين فقد يعينها هذا على استعادة هدوئها.

- تسمحي لي أناديكي باسم سامية من غير ألقاب؟

- يا ريت.

قالتها ملتاعة الصوت فتمزق قلبه لعذابها.

- إنتِ لسه ما جعتيش؟

قال هذا وهو ينظر في ساعة يده فنظرت في ساعة يدها وكان الوقت يقترب من الثالثة بعد الظهر... أدهشها سؤاله فضحكت ضحكة ممزقة القوام:

- هو انتو بتغدوا الناس هنا؟!

ولم يتمالك عادل مكي نفسه، لم يتمالك نفسه من إطلاق ضحكة هائلة صاخبة... كان السؤال يحمل من المعاني ما ترسب في نفوس الناس عن المخابرات ورجال المخابرات، كان قد تعود على ذلك وإن كان مثل هذا السؤال - في حقيقة الأمر - يجرحه... ألقى بالسؤال خلف ظهره وهو يميل نحوها وقد ملأت الابتسامة وجهه:

- الكانتين عندنا فيه أكل كويس.

ولقد أدركت سامية الخطأ الذي وقعت فيه، أرادت أن تعتذر لكنها لم تستطع، تبعثرت الكلمات من فمها حائرة، رفعت إليه عينين يمتزج فيهما الحزن بالعذاب:

- أنا تعبتك.

- ده مش حقيقي.

- أخذت من وقتك كثير.

- ده شغلي.

- أصل المسألة كلها ممكن تكون مجرد مخاوف أو شكوك.

- يبقى كسبنا.

رفعت حاجبيها دهشة وكأنها لم تفهم مراده فأردف:

- يبقى كسبنا إننا عرفنا أنها مجرد مخاوف أو شكوك.

تغضنت ملامحها، أحست أنها تلعب مباراة محكومًا عليها فيها بالهزيمة حتى ولو انتصرت.

- نتغدى؟

انفجرت سامية فهمي وقد اجتاحها الضعف فأغرق الدمع عينيها:

- أنا تعبانه قوي يا عادل بيه.

فنهض إلى التليفون، وأدار رقمين وطلب غداء لاثنين.

* * *

قالت لي سامية وهي تحكي لي قصة ذلك اللقاء الأول، إن أكثر ما كان يعذبها أنها أحست - وبشكل غامض - منذ الوهلة الأولى أن عادل مكي يعرف كل شيء... لم يبد عليه ما يوحي بذلك لكن أسلوب تعامله معها كان فيه من الحنان ما لم تملك أمامه سوى الضعف المبين، وكان فيه من الاستقامة ما كان يبعث بالرعب إلى قلبها... قالت إن عادل أقبل على

الطعام بسعادة وشهية لم يحاول أن يخفيها... وإنه قال لها إنه كف عن تناول طعام الإفطار منذ عامين لسبب لا يدريه... ولذلك فما إن يحين موعد الغداء حتى يشعر بأن الجوع يقتله... قالت - وكانت لا تزال تبدو دهشة - إنه تحدث أثناء الطعام وبعده في كل شيء بطلاقة بدت غريبة... تحدث معها عن الصحافة والصحفيين، وإنه ذكرها بتحقيق كتبته منذ ما يزيد على العام عن العاملات في أحد مصانع النسيج... ثم ذكّرها بتحقيق آخر كتبته عن نساء «قلعة الكبش» - وهو حي شعبي قريب من حي القلعة القاهري - ومدرسة محو الأمية التي شاركت في إنشائها في نفس الحي... ثم عن المشغل الذي شرعت - مع أخريات كن عضوات في التنظيم الطليعي - في تكوينه، ثم حلت النكسة فتوقف المشروع.

- ليه؟

قالها في حدة لفتت نظرها فردت بسرعة:

- مش إحنا اللي وقفناه.

- أمال مين اللي وقفه؟

- النكسة.

قال وقد بدا عليه الانفعال:

- أنا كنت متصور إن النكسة حاتخليكم تستميتوا فيه أكثر.

قالت لي سامية فهمي إنهما انهمكا في مناقشة حامية حول الموضوع حتى تصورت أن ما جاءت من أجله ليس على هذا المستوى من الأهمية... حتى إذا نظر في ساعة يده ذات لحظة، وكانت تشير إلى الرابعة والنصف قال:

- أظن كفاية كده النهارده.

ولقد هوت الجملة فوق رأسها كالمطرقة، كانت قد أخذت من وقته سبع ساعات ونصف الساعة ولم تكن قد قالت شيئًا ذا بال، انتابتها الحيرة فسألته:

- أنا مش هاشوفك تاني؟

- بالتأكيد.

- إمتى؟

- بكره في نفس الميعاد.

وهكذا غادرت سامية فهمي جهاز المخابرات العامة المصرية في زيارتها الأولى له دون أن تحقق شيئًا، دون أن تعرف إن كانت شكوكها حقيقية أم أنها مجرد أوهام... غادرت سامية هذا الجهاز الذي دخلته لأول مرة وهي تتمزق حيرة، أدركت أن عادل مكي عندما ناقش ما ناقشه معها من موضوعات كان يخفف الضغط عنها، وهو... هو لم يطلب منها شيئًا على الإطلاق، سوى:

- آنسة سامية.

- إنت مش قلت من غير ألقاب.

كان كل منهما يقف قبالة الآخر استعدادًا للانصراف:

- أنا مش محتاج أقول لك بلاش حد يعرف بزيارتك دي.

- حاضر.

قالتها في طاعة عمياء لم تتعودها أبدًا.

- ولا حتى ماما.

ابتسمت ابتسامة يقطر منها الحزن.

- إيه اللي خلاكي تبتسمي كده؟

- لأن الأستاذ أحمد مختار طلب مني نفس الطلب.

وابتسم عادل مكي فعادت إليها طبيعتها المقتحمة، سألته:

- هو الأستاذ مختار كان بيشتغل معاكم صحيح؟

وللمرة الثانية، يطلق عادل مكي تلك الضحكة الصاخبة النابعة من أعماق القلب... لكنه لم يعطها جوابًا.

* * *

منذ أن اكتشف عادل مكي علاقة نبيل سالم بلويز جولدمان، أو شيرلي هايمان، وهو يحفر وراء كافة التفاصيل التي يمكن التوصل إليها عن تلك العلاقة التي استشعر خطرها منذ الوهلة الأولى... لم تكن خطورة لويز تخفى عليه بطبيعة الحال، ذلك أن تلك الفتاة لعبت أدوارًا شديدة التأثير والخطورة منذ أن كانت في باريس واستطاعت هناك أن تنفذ إلى مجتمع الشباب الجزائري إلى حد دفع المخابرات المصرية إلى الدخول معها - أو مع الموساد بتعبير أدق - في جولة دفعت تلك الفتاة الزرقاء العينين في النهاية، وبعد صراع شاق استمر قرابة عامين، إلى مغادرة باريس والاختفاء لفترة عادت بعدها للظهور في روما... لتبدأ على الفور جولة أخرى أكثر عنفًا، جولة منيت فيها المخابرات الإسرائيلية بهزيمة دفعتها إلى إعادة لويز إلى تل أبيب.

ولقد أدرك الرجال عندما طال اختفاء لويز في تلك المرة الأخيرة أن شيئًا ما وذا طبيعة خاصة يُدبر في الخفاء، وأنها ستعود إلى الظهور إن آجلا أو عاجلا، ولكن - بالطبع - في ثوب جديد.

ولا بد لنا من الاعتراف بأن لويز كانت تملك براعة لا شك فيها، إذ إنها عندما عادت إلى ممارسة النشاط في هامبورج ظلت شهورًا طويلة تمارس عملها في تلك الشركة الأمريكية للسياحة دون أن يشعر أحد بوجودها... ولم يكن هذا راجعًا إلى أسلوب التخفي المتقن - والشديد البساطة - الذي

لجأت إليه من حيث تغيير لون الشعر وتسريحته، ووضع نظارة طبية غيرت ملامحها فقط، بل حتى في أسلوب حياتها اليومية.

وعندما التحقت شيرلي هايمان بفرع الشركة الأمريكية في هامبورج، كانت قادمة من نيويورك حيث كان لها هناك ملف كامل في فرع الشركة الرئيسي، ملف يحكي قصة التحاقها بالشركة والدرجات العلمية التي حصلت عليها والوظائف التي شغلتها، والجامعة التي تخرجت فيها... إلى آخر كل هذه المعلومات التي من السهل تزييفها... ولم يكن هذا أيضًا هو الذي أبعد عنها الأنظار فقط، فلقد كان الرجال يعرفون أن مثل هذه المعلومات من الممكن تلفيقها بسهولة بالغة... لكن الذي لم يلفت نظرهم إليها... هو أن تصرفات مس هايمان بدت شديدة الاستقامة... لم يكن لها - لشهور طويلة - علاقات أو صداقات مشبوهة... حتى شوهدت ذات يوم في صحبة فريدريك بيكر الذي كان معروفًا للرجال، كما كان معروفًا للبوليس الألماني، كموزع للمخدرات في الميناء يعمل لحساب عصابة أحكمت سيطرتها على هذه التجارة في تلك المدينة الألمانية الصاخبة والمليئة بالمخاطر.

كانت هامبورج في تلك الأيام تعج بالشباب العربي والمصري خاصة... شباب حط رحاله في ذلك الميناء الألماني بحثًا عن المال أو المستقبل أو الذات أو... أو العلم.

* * *

هكذا كانت هامبورج في تلك السنوات المفعمة بالخطر.

وفي الحقيقة - هكذا اعترف لي عادل مكي فيما بعد - أن أمر علاقة شيرلي هايمان - أو لويز جولدمان - بذلك الفتى الألماني فريدريك بيكر، لم يلفت النظر... فلقد كان هذا الشاب الخطر شديد المرح، وسيم الوجه أنيق الملبس حلو المعشر جذابًا له علاقات كثيرة ومتشعبة يحتمها عليه عمله... كانت له علاقات بالعديد من عمال الميناء والبحارة... كما كانت

له علاقات منتظمة بمواطنين مهمين في شركات كبرى ذات سمعة عالمية، كما كانت له علاقات بطلبة وطالبات وقعوا جميعًا تحت تأثير المخدر... ولذلك وعندما شوهدت شيرلي هايمان مع فريدريك بيكر عدة مرات، بل عندما لوحظ أن لقاءاتهما كانت تتم في أماكن غير مزدحمة، وفي أركان تكاد تكون خالية من الناس... فلقد وضع الأمر تحت احتمال بدا منطقيًا للغاية، وهو أن تكون مس هايمان ذات الحياة الهادئة المستقيمة، قد وقعت بشكل ما تحت تأثير المخدر، ولذلك... فهي تحرص على أن تكون لقاءاتها مع فريدريك بعيدة عن العيون حتى تظل سمعتها فوق مستوى الشبهات.

وعلى كلٍ... فالذي حدث بعد ذلك بأسابيع كان لافتًا للنظر... وكان لا بد من أن يلفت النظر.

* * *

فعندما التقى نبيل سالم ذلك اللقاء الغريب بأبي سليم - ذلك التاجر السوري ذي الحافظة المنتفخة بالمال - بات ليلته وقد امتلأت معدته بالطعام، كما امتلأ رأسه بالأحلام... نسي في غمرة ما حدث في تلك الليلة أن يسأل أبا سليم متى سيلقاه... وعده هذا بعمل مجز ووظيفة محترمة ورزق وفير، ثم غادره وهو يصيح فيه إنه لا بد أن يلتقي به في اليوم التالي كي يتحدثا في أمور العمل... غير أن نبيل، وقد استيقظ في الصباح، اكتشف أنه لم يسأل الرجل عن موعد ولا مكان اللقاء فكاد يجن قلقًا... لقد التقى بالرجل في حانة وتناول العشاء معه في حانة أخرى... فأي الحانتين كان يقصد أبو سليم هذا؟!

بالرغم من ذلك، فإن نبيل سالم لم يركن لليأس بل تشبث بالأمل تشبث الغريق بقشة صادفته فوق سطح حياة صاخبة ممزقة... فلم يذهب للعمل يومها، فضل أن يركن إلى الراحة ذلك اليوم حتى يلتقي بالرجل صافي الذهن سليم القدم، وحتى يجد وقتا يغسل فيه قميصه ويهندم ملابسه...

حتى إذا جاء المساء، ذهب إلى الحانة الأولى مكث ساعة وبعض الساعة، ثم انتقل إلى الحانة الثانية... وهكذا ظل نبيل سالم طوال تلك الليلة ينتقل من حانة إلى أخرى بحثًا عن أبي سليم، دون أن يعثر له على أثر، ودون أن يدري أن ثمة عيونًا كانت ترصد كل حركة من حركاته وآذانًا تستمع إلى كل سؤال يسأله، وعقولا تحسب بدقة شديدة، ذلك القلق المروع الذي انتابه.

لم يعلم نبيل بطبيعة الحال شيئًا عن هذا، ولقد عاد إلى غرفته مهدود الحيل، عاد بعد منتصف الليل وكان الجوع يعض معدته فراح يبحث في ظلام الطريق، وخلف المطاعم عن شيء يتبلغ به... حتى إذا دخل الغرفة فوجئ بواحد من النزلاء كان لا يزال مستيقظا، يخبره أن ثمة شابًا يدعى فريدريك بيكر قد جاء منذ ساعتين وسأل عنه.

واندفع نبيل مغادرًا البيت مرة أخرى بحثًا عن فريدريك، كان تورم قدمه يزداد مع كل خطوة يخطوها لكنه ظل معظم الليل يدور على تلك الحانات والأماكن التي تعود فريدريك التردد عليها... لكنه أيضًا لم يجد فريدريك.

في اليوم التالي، لم يكن أمامه سوى العودة إلى عمله في ذلك المطعم الصغير.

ومر يوم... ويومان... ثم على غير انتظار وعندما بلغ اليأس به مداه فوجئ نبيل بفريدريك يقف أمامه مبتسمًا.

وانفجر نبيل فيه معاتبًا.

انطلقت الكلمات من فمه بعنف لم يستطع السيطرة عليه، كطلقات مدفع رشاش راح يصيح في وجه صديقه الألماني بكل ما أسعفته به لغته الألمانية العرجاء كقدمه... كان الآن في حالة يرثى لها من التعب والإرهاق وخيبة الأمل... أكثر ما كان يمزقه ذلك الخطاب الذي وصله بالأمس من

سامية، ذلك الخطاب الذي تحدثت فيه عن نجاحاتها وحياتها وأملها في أن تلقاه قريبًا، والذي ضمنته بضع صفحات مزقتها من مجلة «الفجر» التي تعمل فيها، وكانت الصفحات تحوي تحقيقًا صحفيًا كتب فوقه اسمها بالخط الكبير لأول مرة... في رأس الصفحة طالع نبيل سالم اسم حبيبته سامية فهمي تحقق: كيف مات المستشار... وكان التحقيق حول حادثة مروعة لسيارة في طريق السويس الذي اشتهر في تلك الأيام في الصحافة المصرية باسم «طريق الموت» لكثرة الحوادث التي وقعت فيه... لم يقرأ نبيل من الخطاب إلا سطورا تحولت إلى سياط تلهب ظهره، لكن عينيه راحتا تلتهمان سطور التحقيق الذي بدت فيه سامية واثقة الأسلوب ثابتة الخطى، كانت تكتب وكأنها واحدة من نجوم الصحافة المصرية... ولم يحتمل نبيل، مع ما كان يعانيه في ذلك اليوم فمزق الخطاب والتحقيق معًا.

* * *

تلقى فريدريك بيكر ثورة نبيل سالم باسمًا... كان متورد الوجه أنيق الملبس لامع البشرة مرح النظرات، ظل الشاب الألماني صامتًا حتى انتهى نبيل من ثورته، ثم قال بصوت ثابت:

- لم كل هذا الغضب يا صديقي؟

- أين كنت طوال تلك الأيام؟

ضحك فريدريك ضحكة ساخرة وهو يقول:

- إنه العمل يا نبيل... إنه العمل.

- ألست صديقي؟!

- ولهذا سألت عنك.

- ولم لا تبحث لي عن عمل معك؟

هز فريدريك كتفيه استخفافًا وهو يقول:

- لأنك لم تطلب.

وبدت إجابة فريدريك طبيعية للغاية... تعلم نبيل الكثير عن هؤلاء الأوربيين الذين يتعاملون مع الآخرين، حتى ولو كانوا أصدقاءهم أو إخوانهم، من منطلقات تختلف عن تلك التي يتعامل بها العرب أو الشرقيون... أفحمته الإجابة لكنه لم يتراجع عن انفعاله فصاح:

- وها أنا أطلب منك أن تبحث لي عن عمل.

- لكن عملي محفوف بالمخاطر.

- ألا ترى حقارة الوظيفة التي التحقت بها؟

- لكن عملي محفوف بالمخاطر.

هكذا أعاد الشاب الألماني جملته مرة أخرى وفي تأكيد لا يقبل الشك، فصاح نبيل في تحدٍّ:

- ولسوف أقبل حتى ولو كان عملا في الجحيم.

رمى فريدريك نبيل بنظرة أوقعته في الحيرة فعاد إلى الصياح:

- إني أطلب منك عملا يا فريدريك.

- هل أنت جاد فيما تقول؟

- لم أكن جادًا في حياتي مثلما أنا جاد الآن.

- لو أنك خطوت خطوة... خطوة واحدة فلن تستطيع التراجع.

- لن أتراجع.

- ألا تريد أن تفكر في الأمر مليًا؟

- لقد فكرت.

- ألا تريد أن تعرف طبيعة هذا العمل؟

- أنا لا أريد إلا أن أرتدي ملابس مثل ملابسك، وأحيا حياة مثل حياتك، وأن أجد طعامًا يقيني شر الجوع والبحث عن لقمة نظيفة في فضلات الناس.

بعد لحظة صمت لم تطل، قال فريدريك:

- إذن تعال معي.

وتبعه نبيل سالم دون كلمة.

الفصل الرابع

سامية تكسر حاجز الحب

قضت سامية فهمي ليلة عصيبة بحق، كانت - لأول مرة في حياتها - لا تعرف بالضبط إلى أين تسير، أو ربما - هكذا قالت لي بعد سنوات - أن سر عذابها في تلك الليلة، أنها أدركت أكثر من أي وقت مضى، إلى أين يجب أن تسير.

راحت تتذكر هذا الذي حدث في إيطاليا، راحت تتذكر - بلا جهد يذكر - كيف كان نبيل، كيف استقبلها، وكيف قادها إلى «ألبرتو» سمسار السيارات، وماذا فعل معها السمسار، وكيف تغاضى نبيل عن تصرفاته، وكيف هوّن الأمر عليها، ثم... كيف التقيا بمصادفة بدت لها - بشكل غامض - مزيفة في مطعم البيتزا الشهير بالسنيور جارديني صاحب وكالة «إل. إم. دي» وكيف رحب هذا بها... وكيف وكيف وكيف... و...

- ما لك يا سامية؟

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تسألها فيها أمها عما بها... ربما كانت المرة العاشرة، أو الألف، لا تدري... لم تعد تدري بل هي لا تريد أن تعرف أو تدري... رفعت رأسها نحو أمها، زحف الشيب إلى الشعر الفاحم، أضاعت هذه السيدة عمرها من أجلها، حرمت نفسها من الحياة،

رهنت زهرة العمر كي تربيها، مضت لحظات صمت سالت فيها نظرة الأم مفعمة بالحزن والأسى.

- قلقانة عليّ يا ماما؟!

وسال الدمع مع الحزن دون كلمة، فقط... سال دمع السيدة إقبال حسين ناظرة مدرسة النصر للبنات... مضت لحظات صمت شحب فيها وجه سامية... بالأمس، وحتى الأمس فقط، كانت تستطيع أن تخبر أمها، أن تشكو لها همها... حتى الأمس ومنذ عادت من تلك الرحلة المشئومة من أجل سيارة لم تأتِ، كانت تستطيع أن تقول وأن تبوح وتناقش... لكنها اليوم، بل الآن فقط، وبعد أن التقت بعادل مكي... لا تستطيع.

- أنا مش محتاج أقولك بلاش حد يعرف بزيارتك دي.

- حاضر.

- ولا حتى ماما.

هذا هو ما دار بينهما من حوار قبل أن تنصرف عنه مضعضعة الحواس والجسد، هذا الرجل الذي تقطر كل جارحة من جوارحه بكل المخاوف رغم أنه لم يقل شيئًا... هذا الذي حمل صوته إليها تحذيرًا يبدو كحد المقصلة... فماذا هي صانعة؟!

نهضت من مكانها، خطت نحو أمها، الوجه الحزين والجمال الشاحب والعمر الذي ضاع فإذا دمعها يتجاوب مع دمع أمها في حوار لا تعرف لغته سواهما، وإذا رأسها يميل كي يستريح فوق الكتف الحاني، وإذا اليد الحنون تنسحب إلى الشعر فتتخلله، وإذا كل منهما تضم الأخرى في حنان... و... ولا كلمة.

* * *

- أنا مش عاوزه أضغط عليكي علشان تقولي لي إيه اللي بيكي... بس أنا عاوزة أكون جنبك لما تحتاجي لي.

ناظرة هي دائمًا، مربية حتى وهي تمارس أمومتها... ولقد قالت لها أمها هذا الذي قالته ذات يوم بعد عودتها من إيطاليا بأقل من أسبوع، قبل أن تنتبه إلى شيء، قبل أن تعي ما حدث وما كانت مقدمة عليه... قالت لها ما قالت والشكوك لا تزال نطفة في رحم تفكيرها لم تتخلق بعد... عادت وهي تتظاهر بالسعادة، بل كانت تظن أنها سعيدة، وصدقت ما قالته للناس من أن الإيطاليين عرفوا غرام المصريين بالسيارات المستعملة فاستخرجوا من مقابر السيارات كل هالك ومستهلك وعرضوه في الأسواق... قالت لأمها إنه لولا نبيل لوقعت في سيارة لا تستحق ربع ما كانت ستدفعه فيها، قالت لها إنه تعب معها، لف ودار وعاين وشاهد وناقش وفاصل ثم طلب منها أن تصبر حتى يجد لها ما يناسبها سعرًا وقوة احتمال... قالت لها، ولأصدقائها وصديقاتها كيف أصبح يتقن الإيطالية كأحد أبنائها، وكيف أتقن الألمانية من قبل، وكيف يعمل وكيف يكسب وكيف يحبه كل الذين التقت بهم ورأتهم... قالت كل هذا لأمها لكن نظرة الشك لم تغادر عيني تلك السيدة... مزقت نظرات أمها رداء حيرتها، كشفت - رغم كل هذا - إحساسها الدفين بخيبة الأمل... هي تعرف أن «حضرة الناظرة» لا تثق في نبيل ولا توافق عليه ولا تأمن إليه... ولطالما ثارت بينهما المناقشات حامية الوطيس واحتدم بينهما الخلاف حول نبيل، ثم جاء يوم وصلا فيه إلى طريق مسدود فاتفقتا على «وقف إطلاق النار» والكف عن مناقشة الموضوع... ترى: هل انتصرت حضرة الناظرة أخيرًا؟! وهل انهزمت هي أمام قلب الأم وخبرة المربية؟!

يوم عادت، وبعد أن قصت وحكت وفتحت الحقائب وقدمت الهدايا وتراقصت الكلمات على شفتيها فرحا وأملا... كان وجه أمها جامدًا، وعيناها تصبان عليها نظرات كاللهب... هتفت:

- ما لك يا حضرة الناظرة؟!

ابتسمت السيدة إقبال تلك الابتسامة الحادة:

- إنتِ اللي ما لك يا سامية؟!

- فل.

هكذا هتفت.

- كدابة.

وهكذا جاءها الرد... فهربت.

وظلت سامية فهمي تهرب، يومًا وأسبوعًا إثر أسبوع... وها هي اليوم وجهًا لوجه مع «أبلة الناظرة» ودموعها تنهمر كالمطر... مسحت دموع أمها، ومسحت دموعها بعد أن اختلط الدمع والخد فوق الخد، والشفاه تقبل اليد، والذراع يضم والقلب يضطرب بحب يفوق الحد.

وتركت السيدة إقبال نفسها لابنتها، راحت تنظر إلى وجهها الشاحب، إلى عينيها الضائعة النظرات وهي تتساءل: ما الذي حدث لابنتها في إيطاليا؟! ومن أين اكتسبت سامية تلك النظرة الكابية؟! أين ضاع بريق عينيها ونظراتها المتألقة حتى في أحلك الظروف؟! هل اكتشفت أمر نبيل ووقفت على حقيقته أم إن هذا الشاب استطاع أن... أن... أن...

لا...

مستحيل...

لا يمكن...

ليست هذه سامية ولن تكون.

هي واثقة من ابنتها ثقتها من نفسها... فما الذي حدث إذن؟!

كانت السيدة إقبال حسين ناظرة مدرسة النصر للبنات واثقة من أن هناك شيئًا قد حدث... شيئًا لا تعرفه وقد لا يخطر ببالها... لم تعد تعرف، ولم تعد تستطيع أن تعرف... هل ذهب عرق العمر سدى؟! توفي زوجها في الخامسة والعشرين، وكانت سامية في الخامسة... عشرون عامًا هي

الفرق بينها وبين ابنتها... عشرون عامًا هي الفرق باليوم، فلقد ولدت سامية في نفس اليوم الذي ولدت فيه الأم... ومنذ وفاة الزوج، وحتى أصبحت سامية صحفية، وحتى سرى اسمها على الألسنة، وهي تحيا من أجلها، ترى في كل فتاة علمتها حرفًا صورة من ابنتها.

ذات يوم سألها أحد أولياء الأمور:

- حضرة الناظرة، ممكن أسألك سؤال؟

- اتفضل.

- أكيد فيه سر وراء إخلاصك الشديد ده لشغلك.

- معاك حق.

هكذا كانت دائمًا... مستقيمة الحديث، وهكذا كانت سامية أيضًا.

سأل الرجل:

- أقدر أعرف السر ده؟

- جدًّا.

لم يَفُهْ الرجل بكلمة، وأطرقت هي لثوان قالت بعدها:

- أنا باحس إن كل بنت في المدرسة هي سامية بنتي... جوزي توفي فجأة، وهو واقف توفي، جت له سكتة قلبية راح فيها في ثواني... من ساعتها وأنا باحس إن الموت قريب مننا قوي، أقرب من أي تصور يخطر ببال أي حد فينا... وبأقول، لو حصل ومت زي المرحوم فهمي ما مات، نفسي سامية تلاقي اللي يعاملها زي أنا ما باعامل بناتي.

كانت تبتسم، لكن الدموع صعدت إلى عيني الرجل الذي ألجمه الانفعال، ظل صامتًا لثوان كان يغالب فيها الدمع. ثم نهض فجأة وهو يقول بصوت متهدج:

- ربنا يديكي طولة العمر، وتشوفيها زي ما انتي عاوزة لها.

وانفلت مهرولا كي يخفي دموعه التي غلبته.

* * *

كانت الساعة قد جاوزت العاشرة مساء، وكان لا بد لسامية أن تأوي إلى فراشها كي تصحو مبكرًا لموعدها مع عادل مكي... ثم، كان عليها أن تكتب موضوعًا للمجلة التزمت بتقديمه في اليوم التالي... ولقد حاولت، منذ عادت من مبنى المخابرات وهي تحاول، سألتها أمها أين كانت طوال اليوم، فقالت:

- كان عندي ميعاد مهم قوي يا ماما.

رغم غموض الرد فلم يكن الأمر غريبًا، ومنذ أن انضمت سامية إلى التنظيم الطليعي ونشاطها يتعدى عملها الصحفي إلى العمل العام، إلى الشارع والناس ومحو الأمية والمشاغل والجمعيات والاتحاد الاشتراكي... وتعودت الأم ذلك النشاط ولم تنكره على ابنتها... وفي ذلك المساء الذي عادت فيه سامية من مبنى المخابرات العامة المصرية، كان وجهها ينضح بتعب بلا حدود... حاولت الأم أن تستشف ما وراء هذا الكمد الرابض فوق الوجه المليح فلم تستطع، جاءها رد ابنتها فتقبلته في صمت... نهضت سامية إلى غرفتها وجلست إلى مكتبها الصغير وكانت تشعر أن رأسها يزن أطنانًا من الأفكار... تحسست المكتب في رجاء لم يفلح... هذا المكتب الذي لازمها منذ كانت في العاشرة فأصبح جزءًا من أفكارها وتفكيرها، أخرجت الورق وأمسكت بالقلم وحاولت أن تكتب فاختلطت في رأسها الأفكار واحتدمت، أدركت أن لا فائدة فألقت بالقلم ونهضت إلى التليفون، طلبت أحمد مختار في مكتبه فصاح مرحبًا فور سماعه صوتها:

- إنتِ فين يا أستاذة؟!

- مش عارفة أكتب.

- ما تكتبيش.

- ممكن أطلب أجازة؟

- من غير أجازة.

ترددت قليلًا ثم غمغمت:

- حاحاول أقوم بدري وأكتب الموضوع بكره.

- ما تتعبيش نفسك.

رفضت مجاملته الزائدة فهتفت:

- أنا كويسة يا أستاذ أحمد.

- أنا على يقين من ده.

لطفت حرارة حديثه من اشتعال النار في صدرها، أنهت المكالمة وعادت إلى أمها، جلست إلى جوارها وهمست في لوعة:

- ماما.

- نعم يا حبيبتي.

- احضنيني.

وفتحت الأم ذراعيها، وألقت سامية برأسها فوق الصدر الذي طالما احتواها بدفئه وحنانه، مضت لحظات صمت استمعت فيها إلى دقات قلب أمها، تلك الدقات التي كانت تسعدها صبية... هناك، بعيدًا في عمق الزمن عندما كانت الدنيا بلا مهالك... غمغمت والندم يزحف إلى عينيها:

- إزاي أونكل محمود؟

- قلقان عليكي.

- مش حاتتجوزوا بقى؟!

- لما تتجوزي إنتِ.

- إنتِ لسه مش بتثقي فيَّ؟!
- أكثر من أي وقت تاني.
- لو قلت لك حاجة تصدقيني؟!
- ميه في الميه.
- ما تخافيش عليّ.

وجاءتها الإجابة... ذراعا الأم تضمانها في حنان، فاحتواها النوم غالبًا... وعندما انتبهت من غفوتها، كان صوت المؤذن يسبح في سماء الحي مناديًا لصلاة الفجر، وكانت رأس الأم قد سقطت فوق صدرها... كانت هي الأخرى قد نامت.

* * *

قال لي عادل مكي بعد ذلك التاريخ بسنوات عديدة: إن أعظم ما لفت نظره في سامية، شجاعتها النادرة في مواجهة الحقائق... وإنه عندما عرف علاقتها بنبيل سالم، واكتملت الصورة أمامه... لم يكن لديه شك في أنها سوف تخطو ذات يوم في الطريق الصحيح... ذلك أن السيدة إقبال حسين كانت واحدة من مدرسات ابنته الكبرى، وإنه عندما شبت ابنته الصغرى عن الطوق، أبى إلا أن يلحقها بالمدرسة التي كانت إقبال حسين ناظرة لها... قال: إن الأمر كان منطقيًا للغاية... وإذا كان الآباء، وهو واحد منهم، كانوا يتسابقون كي يضعوا بناتهم أمانة في يد سيدة كهذه... فلا بد وأن تكون ابنتها من نوع من البشر لا يقبل للفساد أن يتسلل إليه... ولقد كان كل ما أرقه وأقلقه... أنه عندما حسب الحسبة - هذا تعبيره بالضبط - أيقن أن سامية لا بد وأن تطلب مقابلته قبل الموعد الذي طلبت فيه اللقاء بكثير... قال: «إن الإنسان قد يصل إلى دقة شديدة لحساباته بالنسبة لآلة أو مسألة اقتصادية أو جرم سماوي، لكن الدقة في حسابات النفس البشرية، أمر يصعب التيقن منه».

كان عادل مكي فخورًا وهو يحكي لي عن سامية فهمي.

قال إنها عندما جاءت إليه في اليوم التالي، بدت كمن كبر عشرة أعوام في ليلة واحدة... وإنه عندما طلب منها تأجيل الحديث، كان مدركًا لعنف الصراع الدائر في رأسها... أدرك، وقد تأخرت سامية شهرين وبعضًا من الشهر الثالث... أن حبها لنبيل كان من القوة والعنف بحيث أصبح من الصعب عليها أن تصرح، حتى لنفسها، بالحقيقة التي اكتشفتها بنفسها ولم تعد في حاجة لأن يكشفها لها أحد.

عندما جلسا معًا، وعندما وُضع بينهما فنجانا القهوة، سألها:

- إيه الأخبار؟

- تعبانه قوي يا عادل بيه.

- أكيد.

- عاوزني أبدأ منين؟

وابتسم، فهتفت محتجة:

- يا أخي ممكن تبقى حنين عليَّ شويه؟

- وهو أنا قلت حاجة؟!

- عاوزني أبدأ منين؟!

- من الأول خالص.

في لوعة من يريد الخلاص حتى من نفسه اختنقت:

- أنهي أول فيهم؟

وكانت هذه هي المشكلة التي راح عادل مكي يتحسس طريقه إليها، لم يكن ممكنًا أن يبدأ هو بذكر نبيل سالم، بل... لم يكن ممكنًا حتى بأن يلمح بأنه يعرفه أو يعرف عنه شيئًا... إن المشكلة هنا تتعدى حدود العواطف والأحاسيس والتقدير الشخصي إلى أمن دولة وأمان شعب تسعى قوى

الشر إلى تحطيمه والسيطرة عليه... قال لي عادل مكي إن النكسة كانت صدمة مروعة بالنسبة لمن كانوا مثله رغم أنهم كانوا يرون بشائرها وقد حذروا منها لكنها أيضًا، كانت ذات فوائد عظيمة لمن استطاع أن يتعمق الأمور ويزنها بميزان دقيق... قال – وهو يضحك – إن كثيرين من أعضاء التنظيم الطليعي تحدثوا كثيرًا عن «الدروس المستفادة» دون أن يدركوا عمق التعبير الذي كانوا يستعملونه... وكانت أعظم الدروس المستفادة من النكسة، أن أي شعب في الدنيا لا يتطور إلا بالتجربة التي يخوضها أفراده بذواتهم... ولذلك، كان على سامية فهمي – حتى يقطع الشك باليقين، وحسب قانون صارم لا يمكن تحت أي ظرف تجاوزه – أن تخطو وحدها، وباختيارها المطلق إلى حيث كان يجب أن تخطو وتسير... كان عليها أن تواجه الحقيقة كاملة مواجهة صريحة لا لبس فيها ولا غموض.

ولكن... كيف السبيل؟!

كان هذا السؤال الذي أرقه طوال تلك الليلة وفي رأسه مشاغل أخرى بلا حدود... وها هو صوت سامية وكأنها تخطو فوق سطح مياه شديدة العمق والخطر:

– أصل... أصل أنا لما سافرت إيطاليا، كنت رايحة لخطيبي.

واجتاحت السعادة جوانح عادل، ها هي تكسر حاجز الحب... وها هو يستمع إليها تحكي عن خطيبها هذا الذي يعرف عنه أكثر مما تعرف هي بكثير... بكثير جدًا.

* * *

عندما طلب فريدريك بيكر من نبيل سالم أن يصحبه، وعندما صحبه دون كلمة، كان يخطو خطوته الأولى في الطريق الوعر الذي سار فيه متنقلًا من مرحلة إلى مرحلة في وعي واضح... كان كل ما يعنيه الآن أن يملك مالًا، وأن يبعد شبح الفشل حتى ولو كان النجاح مزيفًا.

قاده فريدريك في تلك الليلة إلى شقة صغيرة تطل على شارع من أهم شوارع المدينة... ولقد كان السؤال الذي يحير نبيل دائمًا هو: من أين يأتي فريدريك بهذا المال الذي ينفقه في بذخ... ولقد حاول ذات يوم أن يسأل صديقه الألماني لكن هذا لم يجبه، وعندما ألح نهره فريدريك بعنف وصلف فإذا هو إنسان آخر، إذا به رجل قاسي الملامح صلب الوجه حاد النظرات:

- لا تسأل عما لا يعنيك.

واكتفى نبيل - منذ ذلك اليوم - بالصمت، اكتفى بصحبة الشاب الذي كان يسد احتياجاته من طعام وشراب، ثم... ها هو يدلف إلى مسكن صغير أنيق يشي كل ركن فيه بذوق رفيع، دارت رأس نبيل وهو يتذكر تلك الغرفة الحقيرة القذرة التي تجمعه كل ليلة مع أربعة من الشبان لا يعرف أحدهم الآخر، والذين كانوا يقاسمونه أرضها وجدرانها ويتشاجرون فيها من أجل بضعة سنتيمترات... قاده فريدريك، أول ما قاده في الشقة، إلى الحمام:

- عليك أن تستحم أولا حتى تتخلص مما علق بجسدك.

اندفع الدمع إلى عيني نبيل، فمع إحساسه بالضعة أمام فريدريك، فلقد كان العهد قد طال به منذ دخل حمامًا لآخر مرة... وكان الشوق قد طال إلى ملابس تستر خيبته وفشله.

- ستجد في الدولاب بعض الملابس عليك أن تستعملها حتى نشتري لك ملابس جديدة.

نظر نبيل إلى صديقه في امتنان، فابتسم هذا منبهًا:

- ولا تنس وأنت تستحم، أنك قبلت العمل حتى في الجحيم.

هَمَّ نبيل بسؤاله عن طبيعة العمل، لكن فريدريك أردف:

- قبل أن تخطو خطوة، عليك أن تكون مستعدًا.

لم يفهم نبيل فاستطرد هذا:

- أي تكون مستريحًا صافي الذهن.

في تلك الليلة أكل نبيل كما لم يأكل في حياته، ونام كما لم يعرف للنوم طعمًا، طلب منه فريدريك ألا يغادر البيت حتى يأتي الطبيب ويكشف على ساقه المتورمة، عندما هَمَّ بمغادرة البيت سأله نبيل:

- متى ستعود؟

- لن أعود الليلة، فليس في البيت سوى غرفة واحدة للنوم.

- إذن فكيف...

رفع فريدريك يده آمرًا فانطاع نبيل وصمت، في صوت كحد السكين قال الشاب الألماني:

- عليك أن تتعلم فضيلة الطاعة دون سؤال.

في الصباح التالي جاء الطبيب وكتب دواء ونصح نبيل بالراحة لثلاثة أيام قضاها في مشاهدة التلفزيون والنوم... اشترى له فريدريك ملابس داخلية وحذاء وثلاثة قمصان وبذلة، في اليوم الثالث سأله:

- هل أنت مستعد؟

- ماذا تقصد؟!

- عليك أن تقابل الرجل الكبير.

ولم يكن نبيل سالم يعلم، أن هذا الرجل الكبير الذي ظل يستعد للقائه ثلاثة أيام كاملة، ليس سوى، أبي سليم، ذلك التاجر السوري صاحب الحافظة المتخمة بالمال، بلحمه ودمه.

الفصل الخامس

لكل شيء ثمن

لم تكن المعلومات التي توافرت لضابط المخابرات المصري «عادل مكي» عن نبيل سالم، تمثل شيئًا جديدًا عليه... ففي تلك الأيام التي أعقبت هزيمة ١٩٦٧ ... نشطت المخابرات الإسرائيلية نشاطًا في محاولة لاستغلال ذلك التمزق الذي دفع أعدادًا هائلة من الشباب المصري دفعًا إلى أوربا... كانت إسرائيل في تلك الأيام تملك إمكانات بلا حدود، واستطاعت الدعاية الإسرائيلية - في الغرب كله، وفي الولايات المتحدة الأمريكية على وجه الخصوص - أن تحصل على المزيد من المساعدات والمكاسب فوق ما كانت تحصل عليه بالفعل، مما أعطاها إمكانات هائلة، ولا بد لنا من الاعتراف بأن المخابرات المصرية لم تكن تملك مثلها في وقت كانت البلاد فيه في حاجة ماسة إلى كل قرش.

وعندما جلست سامية فهمي، في هذا اليوم التالي إلى عادل مكي، وعندما كسرت حاجز الحب واعترفت بأنها سافرت إلى إيطاليا كي تلتقي بخطيبها... كان عادل يعرف الكثير عن نبيل وعما حدث له.

كان يعرف - مثلا - أن الشاب الألماني موزع المخدرات فريدريك بيكر عندما ذهب إلى نبيل سالم في اليوم الثالث في تلك الشقة التي وضعه فيها في مدينة هامبورج الألمانية، كان بصحبته فتاتان ألمانيتان باهرتا

الجمال... وأن الجميع قضوا ليلة من تلك الليالي التي يسعى إليها بعض شباب العرب في أوربا... وأنهم لم يكتفوا باحتساء الخمر، لكنهم أيضًا دخنوا الماريجوانا... ولقد كان من الممكن أن تمضي الليلة على أحسن حال لو لا أن طلبت إحدى الفتاتين، وكانت تدعى «مارتين» من فريدريك بيكر طلبًا بدا النبيل في أول الأمر غريبًا، طلبت منه أن يعطيها حقنة، فطالبها فريدريك – قبل أي شيء بالثمن – واحتجت الفتاة بأنها لا تملك نقودًا... وأنها إنما جاءت معه لأنها لا تملك ثمن الجرعة التي تحتاج إليها هذا المساء... وهو، هو بالذات يعرف أنها إن لم تأخذ تلك الجرعة فسوف تصاب بما لا قبل لها به... غير أن فريدريك أصر على الرفض، فألحت مارتين، وازداد إصراره على أن تدفع الثمن أولا. واحتدمت المناقشة بينهما، ولعبت الخمر برأسيهما، وتعالت أصواتهما، وهجمت مارتين على حقيبته الجلدية الصغيرة التي لا تفارقه ليل نهار في عنف وشراسة – وكانت قد بدأت تلهث – وفتحت الحقيبة وراحت تعبث بمحتوياتها، وتبعثرها... وأخذ فريدريك يحذرها ويطلب منها أن تكف، ولكنها راحت تصرخ وتبكي وتتوسل وترتجف وكأنها فقدت صوابها تمامًا... وأخيرًا... وعندما عثرت على حقنة طبية أخرجتها من الحقيبة، جن جنون فريدريك وانقض عليها كي ينتزع منها الحقيبة، ويهوي على وجهها بصفعة أطاحت بجسدها كي يرتطم بالحائط.

تحولت مارتين إلى مخلوق يرثى لحاله، راحت دموعها تنهمر مع لعابها وتكومت على الأرض والتصقت بالحائط وراحت ترتجف، تحولت ثورتها إلى استعطاف وتوسل وتأوهات مزقت قلب صديقتها التي لم تستطع احتمال ما كان يحدث فنهضت إلى حقيبتها وأخرجت بضع عشرات من الماركات الألمانية قدمتها لفريدريك... تناول منها الفتى النقود وقد انبسطت أساريره وسرعان ما راح يعد الجرعة، وسرعان ما راحت مارتين تزحف على الأرض حتى وصلت إليه حتى إذا انغرس سن الإبرة في لحم

ذراعها سرى مفعول المخدر في جسدها... أخذ ارتجافها يخف ويسكن لحظة بعد أخرى... ودقيقة بعد دقيقة.

كان نبيل يرقب ما يحدث أمامه صامتًا دون كلمة ودون أن يتدخل... بدا له الأمر غريبًا، بل إنه في لحظة من اللحظات ظن أنه يشاهد فيلمًا سينمائيًا عن الإدمان، انعزل عن الجميع، واستغرق فيما يحدث أمامه، وقد أدرك - ولم يكن الأمر في حاجة إلى ذكاء - طبيعة العمل الذي وعده به فريدريك... كما أدرك - بما لا يقبل الشك - من أين كان هذا الشاب الألماني يأتي بالمال يبعثره أمام عينيه بلا حساب، من أين له بتلك الملابس الفاخرة، وتلك الحياة الباذخة... ثم أدرك، وقد كان السؤال يطوف بذهنه في الماضي دون أن يهتم به أو يتوقف أمامه، لم كان فريدريك بيكر يؤم تلك المناطق الفقيرة، حيث الحانات وعمال الميناء، والبحارة، والضائعين من أمثاله؟

في تلك الليلة، وعندما عادت مارتين إلى حالتها الطبيعية، رفضت البقاء... لم تكن في حالة نشوة، بل هي حالة غريبة تلك التي رآها عليها نبيل سالم، هي حالة من الاستقرار ووضوح الرؤية... في البداية وبعد أن هدأت قليلا، نهضت إلى الحمام وأصلحت من حالها، وأعادت مكياجها... ثم عادت إلى الجميع، وكان فريدريك، الآن مستغرقًا في مغازلة الفتاة الأخرى، فإذا بمارتين تعلن أنها تريد الانصراف وأنها لن تبقى... رفع هذا حاجبيه دهشة وهو يلتفت نحوها متسائلا:

- ألم نتفق على أن نقضي الليلة معًا؟!

ردت عليه وهي تخطو نحو الباب:

- لقد جئت معك لأني لا أملك ثمن جرعة الليلة.

- ثم؟!

- ثم إنك أخذت ثمنها... فلم البقاء؟!

هتف فريدريك في لا مبالاة:

- فلتذهبي إلى الجحيم.

ولم تذهب مارتين وحدها، بل ذهبت معها صديقتها إلى حيث لا يدري نبيل سالم الذي ظل في مكانه صامتًا... ذاهلا... كان فريدريك الآن يحتسي كأسه دون كلمة وقد خلا البيت إلا منهما، حتى إذا مضت دقائق ثقيلة، همَّ بالانصراف قائلا:

- لسوف يراك الرجل الكبير غدًا.

حاول نبيل المقاومة، هتف:

- ألا تخبرني عن طبيعة هذا العمل الذي تريدني فيه؟!

نظر إليه فريدريك نظرة شديدة البرود، كان الشاب المرح الوسيم قد تحول الآن إلى رجل صارم النظرات متحجر القلب... مضت لحظات قبل أن يقول وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة:

- ألم تعرف بعد؟!

ألقى نبيل ببصره إلى الأرض مغمغمًا:

- ولكني لا أعرف كيف...

قاطعه فريدريك وهو يغادر الغرفة.

- لكنك ستعرف... ستعلم كل شيء.

في تلك الليلة لم يأو نبيل إلى فراشه قبل طلوع النهار... كان يفكر فيما هو مقبل عليه، راح يسترجع علاقته بفريدريك منذ أن التقى به لأول مرة، راح يسترجع ما شاهده من علاقات بين فريدريك والعديد من الناس من كل المستويات، راح يسترجع تصرفاته وتلك النظرات التي كان يتبادلها أحيانًا مع قوم يظهرون ثم يختفون فيختفي... وفي الماضي، لم يكن الأمر ليعنيه... لكن الآن أصبح موقنًا من الحقيقة... إن عليه أن يعمل في توزيع

المخدرات، وها هو على موعد مع ذلك الذي أطلق عليه فريدريك اسم «الرجل الكبير»... وكان عليه أن يختار، أن يقرر، وأن يتخذ قراره قبل طلوع النهار.

* * *

عندما استيقظ نبيل سالم في صباح اليوم التالي كان مضعضع الحواس والجسد معًا... ظن - وهو لا يزال بين اليقظة والنوم - أن ما حدث بالأمس لم يكن سوى حلم أو كابوس... لكنه الآن وقد جلس في الفراش وأشعل سيجارة، كان عليه أن يواجه الحقيقة سافرة.

لم يفكر نبيل، ولم يخطر بباله، أن ما حدث بالأمس - بما فيه تلك الحقنة التي رآها بعيني رأسه تنغرس في لحم مارتين - لم يكن سوى تمثيلية متقنة لعب أبطالها أدوارهم أمامه ببراعة فائقة، لم يفكر نبيل ولم يخطر بباله أن فريدريك بيكر عندما غادره كانت الفتاتان تنتظرانه في سيارته أمام باب البناية، وأن الجميع راحوا يطلقون الضحكات وهم يتذاكرون منظره فاغر الفم مضطربًا يشاهد أداءهم المتقن بقلب واجف.

قال فريدريك وهو ينطلق بالسيارة في شوارع هامبورج، وكان مرحًا سعيدًا لأنه أدى المهمة التي أوكلت إليه على أكمل وجه:

- هل تصدقين يا مارتين أنني ظننت ذات لحظة أنك تتعذبين بالفعل؟!

ضحكت مارتين وهي تصيح في سعادة:

- إذن فعليك أن ترشحني عند الرجل الكبير فلعله يجد لي مكانًا في إحدى شركات السينما أو التلفزيون.

تضاحك الجميع فعادت مارتين إلى الحديث:

- ألا أستحق منكم هذا بعد كل هذه الخدمات التي قدمتها لكم؟!

لم يخطر ببال نبيل، أن الجميع في تلك الليلة احتفلوا بنجاح تمثيليتهم الصغيرة، وأن مارتين كوفئت على أداء دورها بعدد لا بأس به من الماركات، أضيف إليها مبلغ محترم لقاء الصفعة التي هوت على وجهها والتي رأت تلك الفتاة الألمانية أنها وحدها تستحق مكافأة خاصة.

لم يفكر نبيل في كل هذا بطبيعة الحال، لكنه كان يفكر في شيء آخر... كان يفكر فيما سيؤول إليه من فريدريك بيكر... كان يفكر في أن عاما وبعض عام قد انقضت منذ أن غادر مصر دون أن يحقق شيئًا. كان يفكر في تلك الغرفة التي تجمعه مع أربعة آخرين، وفي المطبخ الحقير لهذا المطعم الصغير القريب من الميناء... والذي يقف فيه من الصباح حتى المساء وسط بقايا طعام الزبائن والرائحة العفنة التي يستنشقها طوال اليوم... وكان يفكر، قبل كل شيء فيما لحقه من فشل، وفيما آلت إليه سامية من نجاح، وفيما يمكن أن يقال عنه إذا عاد إلى مصر خائبًا خالي الوفاض... كان يفكر إن كانت سامية - الآن - سوف تقبله وقد أصبحت مشهورة معروفة لها مكانتها في المجتمع.

ظل نبيل طوال اليوم يتقلب على نار أشعلها إحساسه المضني بالفشل، وتوجسه مما هو مقدم عليه... وحتى وصول فريدريك بيكر قبل غروب شمس هذا اليوم، لم يكن نبيل سالم قد اتخذ قراره بعد.

* * *

في صلف وتعالٍ سأله فريدريك:

- هل فكرت في الأمر؟

أجاب نبيل:

- فريدريك إننا قبل كل شيء صديقان وما أريد أن...

قاطعه هذا:

- لا دخل للصداقة في العمل يا نبيل، العمل هو العمل.

- أعرف هذا... إني فقط أريد أن أسألك كصديق سؤالًا.

- ما هو؟

- أليست هناك مخاطر؟

- لكل شيء ثمن.

- أنت تعرف أني.

تململ فريدريك في جلسته وهو يهتف:

- نبيل لقد تحدثت عن الصداقة، فما رأيك لو ظللنا صديقين فقط، ونسينا كل شيء آخر؟!

صاح نبيل محتجًا:

- ألا تقبل المناقشة؟!

عاد الوجه الجامد والنظرات الباردة والصوت الحاد والعجرفة:

- في مثل هذه الأمور أيها الشاب لا يحتمل الأمر مناقشة أو ترددًا.

همّ نبيل بالحديث فأردف فريدريك:

- هل تعرف معنى التردد في مثل هذا العمل؟!

قبل أن يجيب نبيل استطرد هذا:

- معناه أن تدخل السجن لعشر سنوات على الأقل.

دق قلب نبيل بعنف، فعاد فريدريك إلى الحديث:

- وقد يكون معناه أن تقضي بقية عمرك وراء القضبان.

أحس نبيل برغبة حارقة في الصراخ، وكان هذا يهوي على رأسه بالكلمات:

- وقد يكون معناه أن يأمر الرجل الكبير بإرسالك في رحلة سريعة إلى العالم الآخر.

قفز قلب نبيل سالم إلى حلقه، اختنق صوته بغصة جاءت بعدها كلمات فريدريك كالمطرقة:

- نعم أم لا؟

- نعم.

قالها نبيل في لهفة من يتعجل الموت، قالها وهو يخطو إلى قدره الذي ابتغاه وأراده وعمل من أجله.

❊ ❊ ❊

بالرغم من شجاعة سامية فهمي وقدرتها الواضحة على مواجهة الحقائق، بالرغم من أنها ذهبت في ذلك الصباح التالي للقاء عادل مكي، وهي مصممة على مواجهة كل شيء والتخلص من هذا العبء مهما كانت النتائج، فإن الأمر لم يكن بالسهولة التي تصورتها.

في الصباح كان الصمت هو اللغة السائدة بينها وبين أمها، ألقت كل منهما تحية الصباح على الأخرى، ثم انصرفتا إلى عاداتهما اليومية، حتى إذا اجتمعتا على مائدة الإفطار، لم تُخفِ السيدة إقبال دهشتها قائلة:

- إيه اللي مصحيكي بدري النهارده كمان يا سامية؟!

غمغمت سامية:

- علشان عندي ميعاد الساعة تسعة ونص.

- مع مين؟!

صمتت سامية لثوان، كانت تنتظر هذا السؤال وكانت تنتظر هذه اللحظة... رفعت رأسها نحو أمها في مواجهة صريحة:

- مع مسئول باناقش معاه موضوع مهم.

- هو التنظيم الطليعي رجع يشتغل تاني؟!

وكأن أمها قدمت لها الحجة والمخرج:

- التنظيم ما وقفش يا ماما، ومش لازم يقف.

* * *

وهكذا - وعندما قالت سامية ما قالت في ذلك الصباح الذي كانت تستعد فيه للقائها الثاني مع عادل مكي - عادت السيدة إقبال إلى الصمت مرة أخرى وقد أحست أن هذا الصمت قد أصبح لغة متداولة بينها وبين ابنتها في الأيام الأخيرة... كانت الليلة الماضية بالنسبة إليها مرهقة؛ فكرت في سامية كثيرًا، فيما انتابها منذ عودتها من إيطاليا من سهوم لم تعرف - بالتحديد - سببه... غمغمت وهي ترشف من فنجان الشاي رشفة:

- عمك محمود عازمنا الليلة على المسرح.

صمتت سامية مفكرة لثوان:

- ما اعتقدش إني حاقدر.

- حاتتأخري؟!

زفرت سامية منهكة:

- مش عارفة يا ماما.

التفتت السيدة إقبال نحو ابنتها... رمتها بتلك النظرة النافذة المتعالية الآمرة التي تعودت أن تواجه بها تلميذاتها إذا ما اخطأت إحداهن... ابتسمت سامية على الفور وهي تمد يدها إلى يد أمها هامسة:

- إنتِ قلتي إمبارح إنك بتثقي فيّ.

تخاذلت النظرة الصارمة، بادلت الأم ابنتها تلك النظرة المتهاوية وهزت رأسها إيجابًا وهي تنهض:

- أقول لمحمود إنك مش جاية معانا؟!

- قولي له يوفر ثمن التذكرة، أنا أقدر أجيب دعوة.

في السابعة والنصف خطت الأم نحو الباب مغادرة وكانت سامية لا تزال جالسة إلى المائدة تتلاعب بكوب الشاي الفارغ، توقفت السيدة إقبال عند الباب والتفتت نحو ابنتها:

- مش عاوزة حاجة يا سامية؟!

قفزت سامية فجأة وهي تندفع نحو أمها... فوقفت أمامها... أمسكت بكتفيها، ابتسمت، برقت عيناها بذلك البريق الذي افتقدته منذ عودتها، قالت في محاولة للمرح:

- أيوه عاوزة يا حضرة الناظرة.

- عاوزة إيه؟!

- مش عاوزاكي تقلقي عليّ.

همت الأم بالرد فأردفت سامية:

- وعاوزة ثقتك تفضل زي ما هي.

اعتدلت إقبال في وقفتها:

- عارفة إيه الغلط اللي إنتِ واقعة فيه؟

- غلط!

هكذا تساءلت سامية فضحكت أمها قائلة:

- إنتي يا بنت بتعامليني كأني ناظرة وبس.

رفعت سامية حاجبيها دهشة فأردفت أمها:

- ونسيتي أمك... نسيتي إني أم.

ارتجف الصوت الحاسم فخفق قلب سامية وهي تهمس:

- خايفة عليّ؟!

- قوي.

أطرقت سامية مستسلمة وهي تسير مبتعدة:

- عندك حق.

- مش عاوزة تقولي لي حاجة؟!

- ما أقدرش.

قالت لي سامية فهمي فيما بعد، إنها أبدًا - وحتى تدخل القبر - لن تنسى تلك النظرة المهولة التي تهاوت من عيني الأم... قالت إن كلمة التجسس أو الجاسوسية أو ما إلى ذلك لم تكن أبدًا تخطر ببال الناس في تلك الأيام إلا مقرونة بالهول ذاته... قالت إن المصريين يعشقون بلادهم إلى حد يصبح فيه التجسس كلمة مرادفة في نفوسهم للكفر... قالت إنها لا تدري إن كانت أمها عرفت في تلك اللحظات أن ثمة أمرًا خطيرًا تخفيه عنها أم لا.. كل ما تعرفه أن أمها أطلقت عليها تلك النظرة الرهيبة ثم استدارت وغادرت البيت.

ولذلك وخلال الساعة التي انقضت حتى غادرت سامية بيتها ذاهبة إلى موعدها مع عادل مكي، كانت قد اتخذت قرارها بالتخلص من الأمر كله مرة واحدة.

ولكنها... لم تكن تعلم أن هذا مستحيل.

الفصل السادس

هل تعرفين الأبجديَّة؟!

غادرت سامية فهمي بيتها في ذلك الصباح وقد اتخذت قرارًا لا رجعة فيه - هكذا قالت لنفسها - بأن تواجه الأمر مهما كانت وعورته، وأنه إذا كان عادل مكي قد طلب منها أن تكتم زيارتها له عن كل إنسان حتى عن أمها، فهي لا تستطيع أن تواجه نظرات أمها تلك، فلا بد أن تخبرها بالأمر حتى تعفيها من عذاب هي تعرف عن يقين مدى تأثيره على تلك السيدة.

في حدة واجهت عادل مكي، وقبل أن يصل فنجانا القهوة اللذان طلبهما:

- سيادتك طلبت مني إني ما اقولش حاجة عن الموضوع ده لأي حد... حتى لماما.

اعتدل عادل مكي في جلسته، وزفر زفرة من يستعد لمعركة، أجاب:

- وما زلت.

- بس ماما تعبانه جدًا.

- من إيه؟!

هتفت محتجة:

- إلا من إيه؟ أمي حاسة إني تعبانه، وبتسألني.

- هي سألتك قبل كده؟!

- طبعًا.

- قلتي لها حاجة؟!

وأحست سامية أنها محاصرة، أحست لحظة أن الكتمان ليس ترفًا يطلبه منها عادل مكي، ولكنه ضرورة لا تملك هي ولا يملك هو حيالها شيئًا، ابتسم عادل تلك الابتسامة الرقيقة فسألته وكأنها تهرب:

- دلوقت إنت عاوزني أبدأ منين؟!

رغم فرحة عادل مكي بتلك الخطوة التي خطتها سامية عندما كسرت حاجز الحب قائلة إنها ذهبت إلى إيطاليا كي تقابل خطيبها، فإنه كان يعرف أن الطريق ما زال طويلا... وهو، في تلك الحالات، يترك لمحدثه حرية الحديث من حيث يريد، ويتركه يحكي كما يشاء، ثم... ثم في لحظة بعينها، وعند نقطة يصبح تصحيح الأحداث أو ترتيبها أمرًا لا مناص منه، يطلب من محدثه أن يتوقف، وأن يعود القهقرى، وأن يتذكر جيدًا... وهنا يصبح الإنسان أسلس قيادًا... لكنه كان يعلم أن سامية فهمي - بحسها المتزايد بالأشياء - كانت تدرك بشكل غامض أنها لا تسير في الطريق مباشرة، ولذلك، فلقد ترددت كثيرًا، كانت تخطو خطوة ثم تتراجع... و... وتسأل، وتلف، وتدور... وهي لا تدري أن الوقت من ذهب، وأن كل ساعةٍ تمضي كانت تحمل من المخاطر ما لا يخطر لها على بال... وعلى كلٍّ، فلقد كان عليه أن يتذرع بالصبر، فاعتدل في جلسته، وقال وهو يضغط على مخارج ألفاظه:

- من الأول يا سامية.

- ما أنا سألتك أنهي أول فيهم ما ردتش عليّ.

هنا، أدرك عمق الأزمة التي تواجهها هذه الفتاة، فابتسم مخففًا عنها:

- تعرفي الأبجدية؟!

ضحكت، لكنها قالت كالدامعة:

- إنت إيه رأيك؟!

- تعرفيها يا سامية؟!

هتفت متمردة:

- بطل تعاملني كأني طفلة.

- تعرفيها؟!

- أعرفها.

- بتبدأ منين؟

- من الألف.

- ابدئي من الألف.

- يااااه.

ساد الصمت لثوانٍ قال بعدها وكأنه يمسك بيدي طفل كي يعلمه السير:

- إنتِ قلتي إنك رحتي إيطاليا علشان تقابلي خطيبك.

- أيوه.

- مين خطيبك ده؟!

انفجرت دموعها، انفجرت في بكاء حار، اقتلعت قلبها وهي تقول:

- نبيل سالم.

* * *

عندما قصت عليَّ سامية لقاءها الأول بنبيل سالم في بوفيه الجامعة، وعندما استطردت في قصة حبها، وكيف بدأت وكيف نشأت وكيف نمت وترعرعت، هالني أمر غريب... هالني أن هذه الفتاة التي تبدو وكأنها

كاملة الأوصاف، كانت كمن أصيب بالعمى وفقد المنطق عندما وقعت في الحب... وإذا كان نبيل سالم - كما قال لي عادل مكي - نوعًا من الشباب الذي يبدو وكأنه لا عيب فيه، بل يبدو للوهلة الأولى من هذا النوع من الناس الذي يستطيع جذب انتباه الآخرين وتجنيدهم - هذه كلمة عادل مكي بالنص - لحسابه... فإن أي منطق في التفكير، لا يستقيم مع كل هذه المظاهر والوقائع التي كانت تشير إلى حقيقة نبيل... تلك الحقيقة التي تصرخ بها تصرفاته، وهي أنه شاب تعجز إمكاناته عن بلوغ طموحه... وهو - أمام هذا العجز - على استعداد لأن يفعل أي شيء - وكل شيء - في سبيل تحقيق مآربه.

وعلى كلٍّ فلقد راحت سامية تقص على عادل قصة لقائها بنبيل... وكيف أنهما منذ أول لقاء أحسا أنهما إنما خلقا من معدن واحد... قص عليها نبيل قصة خلافاته الدائمة مع أبيه، وعلل فشله في الدراسة بعدم رغبته في كلية التجارة، ثم... ثم أدخلها معه في ذلك الصراع الدائم في بيته... لكنها استطاعت أن تكبح جماحه... ذلك أن سامية أحست أنه بالرغم من تمرد نبيل، فإن مشكلته تتلخص في حاجته الشديدة إلى إنسان يفهمه، ويحترم أفكاره... شعرت، ثم عرفت، أن خلافه مع والده يشكل نقطة ضعف رهيبة في حياته، ذلك أن نبيل بالرغم من هذا الخلاف يحب أباه حبًا عظيمًا، ويشعر - في نفس الوقت - بأن أباه لا يبادله هذا الحب... قالت سامية إن نبيل كان مخطئًا في إحساسه هذا، كل ما في الأمر، أن والد نبيل، الأستاذ سالم مصطفى عبد الله الموظف بإحدى إدارات وزارة الأوقاف، كان يحب ولده بأسلوبه الخاص وعلى طريقته... وهي، عندما التقت بالأب بعد سفر نبيل إلى الخارج وغيابه، ذلك اللقاء الذي ذهب فيه الرجل إليها، تأكدت أن ظنونها كانت في محلها، وأن تمرد نبيل كان سببه عدم إدراكه لطبيعة إحساس الأب الريفي الأصل بابنه وما يريده له وما يريده منه.

قالت سامية لعادل مكي إن معدن نبيل معدن جيد، وإن لديه من القدرات ومن الذكاء ما كان يؤهله لأن يصنع لنفسه مستقبلا زاهرًا... وكان دليلها على ذلك، أنه في العام الذي التقت فيه به، نجح في الكلية وفي الفترتين، نجاحًا ملحوظًا:

وإذا كنت مش مصدقني يا عادل بيه، تقدر تروح الكلية وتطلع على المستندات بنفسك، أدرك عادل مكي أن سامية - دون أن تدري أو تنتبه - نصبت نفسها محاميًا عن نبيل، وأدرك بالتالي أنها تشعر بأنه مذنب... لذلك فلقد لزم الصمت حتى استطردت:

- نبيل كان ممكن يبقى إنسان نافع للبلد بكل المعاني.

- أفهم من كده إنه ما أخدش البكالوريوس؟!

كان عادل بطبيعة الحال يعرف أن نبيل لم يحصل على البكالوريوس، لكنه أراد بسؤاله هذا أن يكشف سرًا من أسرار هذا الفتى الذي أصبح يشكل خطرًا حقيقيًا على بلاده... ولقد أطرقت سامية، أطرقت طويلا، وكانت عيناها لا تزالان مبللتين بالدموع عندما استطردت في الحديث:

- نبيل فيه عيب خطير جدًا أنه معتد بنفسه أكثر من اللازم... ولما حاجة تطلع في دماغه، لا يمكن يتراجع عنها أبدًا.

- حاجة زي إيه؟!

- لما نجح في سنة ثالثة من أول سنة، كان شايف إن ده دليل كافي على أنه قادر على النجاح... وفي نفس الوقت، كان شايف إن والده لازم يحترم رغباته بقى.

- رغباته في إيه؟!

ترددت سامية قليلا لكنها قالت:

- عادل حب إن علاقتنا لازم تبقى رسمية.

اختنقت، غالبها الدمع فغلبته واستمرت:

- أنا ما كنتش موافقة على موقفه طبعًا، حب يخطبني من ماما، وما كنش ممكن إن ماما توافق على خطوة زي دي من غير والده ما يكون طرف في الموضوع.

- ووالده رفض؟!

- طبعًا كان لازم يرفض.

- وبعدين؟!

- كان لازم تدب بينهم خناقة... ووالده في الحقيقة أب عادي، أب مصري، أب زي كل أب ممكن تطلع منه كلمة تجرح ابنه من غير ما يكون قاصدها.

- كلمة زي إيه؟!

- وهم بيتخانقوا، والده قعد يصرخ ويقول له: مش كفاية إني باصرف على بغل زيك عاوز تجيب لي تلقيحة أصرف عليها معاك.

وصمتت سامية.

لم يكن هناك ما يمكن أن يقال أكثر من...

- الحكاية دي جرحته جدًا، ومن يومها وهو... وهو... مش عارفة أقول لك إيه.

- قولي كل حاجة.

صاحت بصوت ممزق:

- وده ماله ومال اللي أنا جايه لك علشانه؟!

وكان هذا - بالتحديد - هو بيت القصيد... كان على سامية فهمي أن تفهم، وتقتنع، بأن مثل هذه التفاصيل التي يسعى إليها ضابط المخابرات، ليست من قبيل التزيد أو حب الاستطلاع أو النميمة... ولكنها تدخل في

صميم الموضوع الذي من أجله جاءت... كان عادل مكي، الآن - وعلى سبيل المثال - يسعى إلى شيء قد يكون كامنًا في الطريق، شيء قد يكون هو الذي قاد نبيل إلى ما وصل إليه... ولكم أراد أن يقول، كم أراد أن يحنو عليها ويشرح ويستفيض في الشرح، ولكنه كان أول العارفين بأن هذا من رابع المستحيلات.

* * *

في مساء ذلك اليوم الذي كان على نبيل سالم أن يلتقي بمن أطلق عليه صديقه الألماني فريدريك بيكر اسم الرجل الكبير، وبعد الغروب بقليل، كان نبيل يخطو مبهور العينين والأنفاس، إلى واحد من تلك المقاصف الفاخرة في مدينة هامبورج بصحبة فريدريك. كان وكأنه إنسان آخر لا يمت بصلة إلى هذا الشاب الضائع الذي كانه منذ ثلاثة أيام... كان مستريح القسمات اختفى العرج من مشيته بعد أن شفيت قدمه، وكان يرتدي ملابس جديدة تمامًا، ابتداء من ملابسه الداخلية وحتى رباط العنق الأنيق الذي يزين عنقه وصدره.

الغريب في الأمر، أن نبيل - وقد جاءه فريدريك بتلك الملابس الجديدة - لم يتوقف لحظة أمام سؤال يبدو بديهيًا: كيف عرف فريدريك مقاسات نبيل ولم يكن قد سأله عنها، ثم... من الذي دفع ثمن هذه الملابس الغالية... أو... من الذي سوف يدفع الثمن؟! وحتى، وعندما سئل نبيل فيما بعد، إن كان قد فكر في الأمر أو خطر بباله أن يسأل، بدت عليه الدهشة، وتلعثم، لكنه لم يحر جوابًا.

وعلى كلٍّ... فبالرغم من سعادة نبيل وانبهاره بذلك المقصف الذي دخله، فلقد كان من المحتم أن يصاب هذا الفتى باضطراب مبعثه ذلك الانتقال المفاجئ، من حضيض مطبخ في أحد المطاعم الرخيصة... والقريبة من الميناء... إلى مستوى اجتماعي لم يحلم يومًا بأن يؤمه أو ينتمي إليه في ألمانيا الغربية.. غير أن اضطرابه هذا قد أضيف إليه دهشة بالغة وهو يرى بعينيه ويسمع بأذنيه كيف رحب العديد من رواد هذا

المقصف بفريدريك بيكر، وكيف عاملوه معاملة الند، بل إن بعضهم كان يتودد إليه بشكل واضح.

ما إن استقر بهما المقام حول إحدى الموائد حتى سأله نبيل:

- هل سنلتقي بالرجل الكبير هنا؟

- ربما.

- ومتى سيأتي؟

رماه فريدريك بنظرة صارمة همس بعدها من بين أسنانه:

- ألم أقل لك بالأمس إنك كثير الفضول كثير السؤال؟!

واحتج نبيل متمردًا:

- من تظنني أيها الفتى... أليس من حقي أن...؟!

وارتفع في المقصف صوت عريض، ما إن سمعه نبيل حتى توقف عن الحديث متلفتًا:

- أهلين أهلين أخي.

كان ذهول نبيل عظيمًا وهو يرى أبا سليم يتقدم منه فاتحًا ذراعيه في ترحاب أثلج صدره، حانت منه نظرة نحو فريدريك فإذا الدهشة تطل من عينيه صارخة، كما خيل إليه في لحظة، أن اضطرابًا قد اعترى هذا الشاب الألماني القاسي القلب... وإذا هو ينهض معه لاستقبال أبي سليم في ترحاب واحترام بالغين.

- وينك أخي... وينك نبيل... ليش ما جيت في الموعد؟!

همَّ نبيل بالرد عندما التفت أبو سليم نحو فريدريك متحدثًا بالألمانية في طلاقة:

- فريدريك أيها الشاب... لِمَ لم تخبرني بأنك تعرفت على صديقي؟!

كاد نبيل من الفرح وهو يتمرغ في ترحاب الرجل السوري الذي من الواضح أنه يحتل مكانة مرموقة في هذا المقصف الرفيع المستوى... وسرعان ما جرفه أبو سليم في حديثه المنطلق المرح، أمر الرجل بشراب وطعام وتحدث في كل شيء وأي شيء، كان نبيل رغم سعادته ذاهلا وهو يرى فريدريك، الذي كان منذ دقائق يؤنبه تأنيبًا مهينًا، وهو يتضاءل أمام صديقه السوري... ولقد تمنى نبيل في لحظة، أن يعدل فريدريك عن لقاء الرجل الكبير، وتمنى أن يجد له هذا الصديق السوري عملا... حتى إذا حانت لحظة نهض فيها فريدريك لبعض حاله، مال أبو سليم نحوه قائلا في همس وقد اتخذ وجهه وصوته نبرة جادة وحازمة، وفي لهجة مصرية خالصة:

- إنت وراك حاجة بكره؟!

أُخذ نبيل بالسؤال واللهجة معًا، حملق في أبي سليم بنظرة من لا يعرف بم يجيب، لكن هذا بلهجة حازمة آمرة أردف وقد عاد إلى اللهجة السورية مرة أخرى:

- لا تغادر بيتك حتى أتلفن لك.

رد نبيل في حرج:

- بس يمكن فريدريك...

- ما لك دعوة بها الألماني... انتظر مكالمتي ولا تخبر فريدريك أو غيره بها.

أراد نبيل أن يسأل أو يستفسر، لكن فريدريك كان قد عاد، وانطلق أبو سليم في حديثه المرح من جديد.

* * *

لم يسأل نبيل نفسه من أين عرف أبو سليم أنه يسكن في بيت وأن في البيت تليفونًا، لم يتوقف لحظة أمام سؤال بسيط وهو: كيف عرف أبو سليم

برقم التليفون... ترك نفسه للغفلة متعلقًا بوهم نجاح مزيف. حتى جاءته الحقيقة كالصاعقة... فما إن مضى نصف ساعة حتى غادرهما الرجل السوري هاشًا باشًا كما جاء... وقال لنبيل وهو يصافحه في حرارة:

- إبقى خلينا نشوفك يا أخي.

مضت لحظات كان نبيل يشعر فيها بالسعادة وهو يرقب فريدريك الذي بدا الضيق واضحًا عليه:

- لماذا لم تخبرني أنك تعرف أبو سليم يا نبيل؟!

الآن رد نبيل عليه في ثقة:

- لأنك لم تسألني يا فريدريك.

- ومتى تعرفت عليه؟!

ضحك نبيل ضحكة خفيفة وهو يرد له الصاع:

- يبدو أنك أصبحت كثير السؤال وكثير الفضول.

لزم فريدريك الصمت، فسأله نبيل:

- متى يأتي الرجل الكبير؟

بدت الدهشة صاعقة على وجه فريدريك بيكر الذي هتف:

- لكنك التقيت به فعلا أيها المصري الماكر.

فغر نبيل فمه دهشة وقد اضطرب اضطرابًا عظيمًا حاول السيطرة عليه بقدر الإمكان... لقد كان في حاجة إلى عدد لا بأس به من الدقائق حتى يستوعب الأمر، وحتى يفهم، أن أبا سليم ليس سوى الرجل الكبير بلحمه ودمه.

* * *

بالرغم من كل ما كانت سامية فهمي تكابده وهي تدفع بذاكرتها إلى الوراء كي تحكي لعادل مكي كل شيء عن علاقتها بنبيل سالم... فإن ثمة

إحساسًا عميقًا كان ينتابها فكأنها تضع عن كاهلها حملًا ثقيلًا... قالت لعادل إنه جاء عليها وقت أحست فيه أن نبيل كان عاديًا مع كل البشر ما عداها، كان خلافه مع أبيه يحتدم ويتزايد يومًا بعد يوم منذ أن رفض التقدم إلى أم سامية كي يخطبها له منها... ولقد تزايدت عصبيته أكثر من موقف السيدة إقبال حسين التي أصرت على ألا تستقبل نبيل وحده، ولقد أحس - بطبيعة الحال - حقيقة موقفها تجاهه... قالت سامية إنها تعلم أن كل هذا قد يهون على نبيل، لكن الذي شكل ضغطًا غير عادي بالنسبة إليه هو موقفها الذي أعلنته بوضوح... قالت لنبيل إنها تحبه، هذه حقيقة لا تملك حيالها شيئًا، ولكنها ترى أن أباه وأمها كليهما كانا على حق في موقفهما... كانت ترى أنه لو تقدم لخطبتها فلن يزيد الأمر شيئًا بالنسبة لعلاقتهما، وأن الحل الأمثل لموقفهما هو أن يحصل على البكالوريوس، ويبحث عن عمل، ولسوف يصبح الأمر بعد ذلك طبيعيًا ومنطقيًا.

- إنتِ بقى اللي مش عاوزاني.

هكذا قال لها نبيل وكان جوابها سيلا من التأنيب ومعركة انتهت بخصام دام أيامًا ثم عادا بعدها إلى ما كانا فيه.

قالت سامية: إنه شيء كالقضاء والقدر هذا الذي ربطها بنبيل سالم، ولطالما حاولت أن تأخذ موقفًا يتفق مع منطقها للأشياء دون جدوى، كان إحساسها بحاجة نبيل إليها يدفعها إلى التغاضي عن الكثير من تصرفاته التي راحت تسوء يومًا بعد يوم، حتى انتهى العام وكانت النتيجة فشلا ذريعًا لنبيل، ونجاحًا متميزًا لها... فلم يستطع البقاء في مصر أكثر من ذلك.

* * *

كان هذا في صيف ١٩٦٥، وكان نبيل قد وصل إلى حالة من الثورة والضيق جعلت منه شخصًا لا يطاق... وهي لا تدري على وجه اليقين متى نبتت في رأسه فكرة السفر إلى الخارج، كانت في تلك الأيام، ومع الشعور العام في مصر بالانتماء إلى هذا البلد الذي كان مفخرة لأبنائه،

ترى في الهجرة جرمًا لا يدانيه جرم... كانت ترى – ولا تزال – أن مصر أولى بأبنائها، وإن كانت الكفاءات التي تعيش في الخارج، إنما هي ثروة قومية مهدرة لا بد لها من العودة إلى بلادها كي تستثمر فيها جهودها... حقًا، كانت في تلك الأيام صغيرة السن لا تزال طالبة في كلية الآداب، لكن الشعور بالوطن لا يقاس بعمر أو مهنة أو وظيفة... غير أن نبيل عندما طرح عليها فكرة السفر، طرحها كسياحة... ومع بداية الإجازة الصيفية، راحت أفواج الشباب تسافر إلى أوربا كي تعمل في مزارع الكروم في فرنسا – وأصبحت حياة نبيل جحيمًا، فلقد كان أمرًا طبيعيًّا أن يعترض والده على سفره وأن يحتدم الخلاف بينهما... لولا تدخل أم نبيل التي رأت في فشل ولدها أمرًا من الممكن تداركه... وكانت هي التي تصدت لزوجها وأقنعته بالموافقة على سفر ولدهما، لعله من ناحية يكتسب بعض الخبرات، ومن ناحية أخرى يروح عن نفسه بعد أزمة رسوبه.

قالت سامية إنه يسيطر عليها إحساسها بالذنب لأن موقفها من سفر نبيل كان سلبيًا، وبرغم حبها الشديد له فإنها لم تستطع إلا أن تعلنه برأيها في وضوح وصراحة... ولقد سافر بنية التغيب لأسابيع لن تزيد على الشهرين... وعندما وصلت السفينة التي أقلته إلى فينسيا، كتب لها خطابًا يعلنها فيه بقراره الذي لم يطلع عليه أحدًا، كان الخطاب ملتهبًا بحب بلا حدود أيقظ في نفسها الأمل في أن يثوب إلى رشده، رغم أن قراره كان عدم العودة إلى الوطن إلا بعد أن يُكون نفسه ويعرف طريقه... قال نبيل سالم فيما قال: إنه لا يعرف ماذا سيفعل على وجه التحديد ولا إلى أين هو ذاهب، لكنه يحمل في صدره أملا عظيمًا في بناء مستقبل تفخر به.

ثم اختفت أنباء نبيل، وأصيبت سامية بما يشبه الاكتئاب، أحست أنها كانت واحدًا من أسباب هروبه، وأنها لم تتفهم موقفه جيدًا، وأنها لم تقف إلى جواره كما ينبغي.. حتى إذا مضت شهور، وصلها منه خطاب من مدينة هامبورج الألمانية يقول فيه إنه استقر في هذه المدينة، وإنه يعمل

في أحد المطاعم بالنهار، ويدرس الألمانية في الليل... كان هذا الخطاب مليئًا بالأمل، مشرق الأسلوب متفائلا... قال نبيل إنه قرر الالتحاق بأحد المعاهد الاقتصادية في ألمانيا، وإن فرص العمل أمام الشباب في أوربا متاحة... ثم كتب لها عنوانه وطلب منها أن تكتب إليه، وأن تعود إلى الثقة فيه مرة أخرى.

وكتبت له سامية، وانتظمت مراسلاتها لشهرين أو ثلاثة ثم انقطعت خطاباته مرة أخرى، ولم يعد يرد على رسائلها التي كانت تحمل له، مع أنبائها، قلقها عليه... مضى عام وبعض عام وتخرجت سامية وكان نبيل يكتب لها أحيانًا معتذرًا عن قلة خطاباته بانشغاله في المعهد الذي التحق به، كانت خطاباته الآن تأتيها - إذا ما جاءت - خالية من الروح، مجرد سطور لا تعني شيئًا... حتى إذا كانت أوائل عام ١٩٦٧، وصلها منه خطاب أحيا الأمل في صدرها من جديد... في هذا الخطاب، قال نبيل إنه يعمل الآن في السياحة، ويتقاضى مرتبًا مجزيًا، وعمولة لا بأس بها.

- الجوابات دي لسه عندك؟

هكذا سألها عادل مكي وقد دق جرس الإنذار في رأسه... كان سؤاله مفاجئًا فحملقت فيه لثوانٍ قالت بعدها:

- جوابات نبيل كلها عندي.

- ممكن أشوفها؟

بدا الحرج على سامية، بل بدا وكأنها غضبت، فاستطرد عادل:

- أنا عارف إنها جوابات خاصة، وخاصة جدًّا كمان... إنما...

- إنما إيه يا عادل بيه؟

- ساعات الجوابات دي بتبقى فيها حاجات ما يعرفهاش الإنسان العادي أو ما ياخدش باله منها، لكن بالنسبة لنا بتعني حاجات كثير.

وأطرقت سامية دون رد، أطرقت وهي لا تعلم أن هذه الخطابات بالتحديد، هي أكثر ما يحتاج إليه عادل مكي، كي تكتمل الحلقة أمام عينيه... وأن تلك الفترة التي كانت تتحدث عنها سامية، هي أخطر الفترات على الإطلاق، في قصة نبيل سالم، الذي تحول إلى عميل لمخابرات العدو، يصيب الوطن في كل يوم بما لو عرفته سامية، لابيض شعرها من فرط الهول.

الفصل السابع
الطريق الشائك

قضى نبيل سالم ليلة من أغرب ليالي عمره بعد لقائه بأبي سليم في هذا المقصف الفاخر، فبالرغم من سعادته البالغة لهذا الترحيب الذي لقيه من الرجل الكبير، وبالرغم من غبطته لما انتاب فريدريك بيكر نحوه من احترام مفاجئ فإن قلقه كان عظيمًا.

فمن هو أبو سليم الذي يعتبر بالنسبة لشاب مثل فريدريك بيكر رجلا كبيرًا؟!

وإذا كان أبو سليم قد التقى به من قبل، وإذا كان فريدريك يعمل لحسابه، فلماذا لم يقابله في اليوم التالي مباشرة، ولماذا لم يتعامل معه دون وساطة من فريدريك؟!

كانت الأسئلة في ذهنه حقًّا، لكنه راح يعلل الأمر لنفسه بأن لهؤلاء الناس - بالقطع - أساليبهم التي لا يعرفها... وعندما ألحت عليه الأفكار طاردها بعنف، فلقد كان كل ما يعنيه الآن أن يحتفظ بمسكن كهذا الذي يعيش فيه الآن، وملابس كالتي يرتديها، وأن يجد ما يسد به رمقه... بل إنه، مع مرور الساعات، راح يبرر لنفسه قبوله لمثل هذا العمل، ويبحث عن أسباب تقنعه بالقبول في مواجهة وخز ضمير كان في غنى عنه.

ودعه فريدريك دون موعد فلم يسأله متى سيلقاه، بدا له الأمر، وبشكل غامض، وكأن كلا منهما ينفصل عن الآخر، أو كأن كلا منهما يودع الآخر... عاد إلى الشقة ولم يكن أمامه سوى العودة إليها بعد أن فقد بغيابه لثلاثة أيام مكانه في الغرفة التي كان يسكنها مع أربعة آخرين. والتي لا بد أن ضائعًا غيره قد احتل مكانه فيها... وما إن دلف إلى الشقة حتى أطبقت عليه الوحدة، فعادت الأسئلة إلى الإلحاح:

- لمن هذه الشقة؟! هل هي لفريدريك أم إنها للرجل الكبير؟!

طرد السؤال ثم طارده فكان يكفيه الآن أنه ينام على فراش وثير ويدخل حمامًا نظيفًا، راح يقلب الأمر في ذهنه مرة أخرى فلم يصل إلى بر يرتاح إليه... قبل أن يأوي إلى فراشه كان قد اتخذ قرارًا نهائيًا بأن يسير في الشوط حتى نهايته... بدت له العودة إلى مصر كنوع من المستحيل، تذكر خطاب سامية الأخير فانتابته غصة أرقته لساعة وبعض الساعة، أحس وكأنه بقراره هذا قد ألقى بنفسه إلى نهر تندفع مياهه في عنف إلى حيث لا يدري... ثم... ثم هدأ تفكيره عندما وجد المبرر:

فلِمَ لا يجارىء أبا سليم فيما يريد منه حتى يُكون لنفسه مبلغًا من المال يعود به إلى مصر مرفوع الرأس موفور الكرامة... مبلغًا يكفيه لعام وبعض عام حتى يعود إلى الكلية ويحصل على البكالوريوس فلا يحتاج إلى معونة أبيه... ولسوف يظل هذا العمل الذي سيمارسه مع أبي سليم سرًا لن يعرفه أحد ولن يبوح به لمخلوق حتى لسامية... وإذا كان فريدريك ينفق بهذا البذخ، ويحيا هذه الحياة فهو لن يعيش كما يعيش فريدريك... بل سيقتصد، ويضع المارك فوق المارك حتى يمتلك بضعة ألوف منها تكفيه كي يؤسس شركة أو مشروعًا يُدر عليه أضعاف ما كان يكسب من وظيفة تحدد مستقبله وتكبل حركته... وهو... هو عندما قرر البقاء في أوربا وعدم العودة إلى مصر، لم يكن في حاجة إلا إلى فرصة - مجرد فرصة واحدة - يثبت بها كفاءته... وها هي الفرصة تأتيه، فهل يركلها؟!

ويبدو أنه استراح للفكرة، فنام.

لكن نومه كان متقطعًا... مزقته الحيرة والأحلام، لكن الليل انقضى على أية حال... في الصباح أدرك أن عليه ألا يغادر البيت قبل أن يتحدث إليه أبو سليم تليفونيًا. هكذا طلب منه الرجل في المقصف وكان طلبه واضحًا لا لبس فيه... مرة أخرى يكتشف غفلته فإن أبا سليم لم يحدد موعدًا للحديث في التليفون... ثم اكتشف - وكانت الساعة تقترب من العاشرة صباحًا - أن البيت خال من الطعام... عضه الجوع فراح يبحث عن شيء يتبلغ به، وكان يعلم أن لا طعام هناك... طوال الأيام الماضية كان فريدريك قد تكفل بكل شيء فلم يشعر بحاجة إلى طعام أو شراب، فكر في الخروج لشراء بعض الطعام ثم عدل خوفًا... قال فريدريك وهو يحذره: إن الرجل الكبير قد يأمر بإرساله في رحلة إلى العالم الآخر، فكيف يكون موقفه إذا خرج ودق جرس التليفون ولم يجد أبو سليم من يرد عليه؟! راحت الساعات تمضي، وانتصف النهار وازداد إحساسه بالجوع فقرر المغامرة والخروج لكنه، قبل أن يغادر الشقة، اكتشف أنه لا يملك مالًا... وقف في منتصف المكان حائرًا... راح يتلفت هنا وهناك فاصطدمت عيناه بالجدران ثم ارتدت نظراته إلى داخله... فهو... هو الآن يستطيع مغادرة المسكن حقًا... لكنه لا يستطيع، هو حر الحركة فعلًا، لكنه مقيد برنين جرس تليفون... أحس في لحظة أنه يخطو وهو جامد في مكانه إلى عالم مروع، اضطرب قليلًا ثم هز كتفيه في لا مبالاة، واتخذ قراره، ربما للمرة المائة، بأن يخوض التجربة حتى النهاية.

وها هو النهار ينقضي والشمس تغرب، وبطنه خاو والجوع يعصف بمعدته، والقلق يستبد به... ولكن... أين المفر؟

لم يفكر نبيل سالم للحظة، بل لم يخطر بباله في لحظة... أن كل ما كان يحدث له كان مخططًا بعناية، وأن أي تصرف من تصرفاته كان يقاس بدقة شديدة، وأن هناك من كانوا يرصدون حركاته ويتربصون به. كي ينقلوا

بدقة بالغة كل حركة وكل تصرف. إلى من يهمهم أمره في ذلك الوقت... أبدًا لم يفكر نبيل سالم، ولم يخطر هذا على باله في لحظة.

* * *

في العاشرة مساء وصل إلى حالة من اليأس والجوع والضيق والإحباط ألقت به فوق أحد المقاعد بلا حراك. وعندما دق الجرس انتفض وجرى نحو التليفون ورفع السماعة في لهفة لكنه اكتشف أنه كان جرس الباب... توقف لاهث الأنفاس مترددًا... كان يشعر وكأنه في غيبوبة وأن كل ما حوله ليس سوى حلم، دق الجرس مرة أخرى فاندفع نحو الباب وفتحه كي يجد أمامه مشهدًا لا يصدق... كان أبو سليم يقف وقد اختفى وجهه خلف حقيبتين مليئتين بالطعام والشراب، امتلأت نفسه بالامتنان واندفع نحو الرجل الذي كان يهتف به في مرح:

- افتح يا أخي واحمل عني هادي البلوى.

حمل عنه الحقيبتين معاتبًا:

- معقول التأخير ده، يا ابو سليم؟

قال أبو سليم وهو يغلق الباب:

- أنا ما قلت لك إني جاي لك اليوم؟

- لأ... إنت قلت هتتكلم في التليفون.

هتف الرجل دهشًا:

- أنا قلت هيك؟! والله يا أخي نسيت.

- البيت ما فيهش ولا لقمة.

- وليش ما خرجت تشتري طعام؟

- لأني خفت أخرج تتكلم في التليفون ما تلقانيش.

- عفارم عليك نبيل.

- ولأن مفيش معايا ولا مارك.

- وليش ما طلبت مصاري؟

دلف نبيل إلى المطبخ كي يجهز الطعام هاتفًا:

- مش جعان؟

- أنا ماني جعان فقط... أنا حاموت من العطش.

وهكذا راح نبيل، في حماس شديد يعد الطعام والشراب وكان رأسه يعمل بسرعة والأسئلة تزدحم فيه، والأمل يضيء الطريق أمامه.

* * *

بعد سنوات... وعندما قص نبيل سالم قصة تلك الليلة، قال إن أبا سليم تحدث إليه، في كل شيء وأي شيء، وإنهما أكلا وشربا، وكان طبيعيًّا أن تأتي سيرة جمال عبد الناصر وإسرائيل... وأن رأي أبو سليم أن عبد الناصر زعيم عظيم ورجل تاريخي لكنه تخصص في اكتساب عداء الآخرين... وأن الدول العربية - بفضل عبد الناصر - أصبحت عالميًّا في موقف لا تحسد عليه رغم معارضتها له... وأنهم في الغرب يرون أن هذا الرجل يقود بلاده نحو خراب أكيد، وأن عداءه لإسرائيل أكسبها عطف العالم أجمع.

قال نبيل إنه لم يكن مهتمًا بالسياسة وبالتالي فلم يكن يعنيه ما قاله أبو سليم... قال إنه كان يتعجل الحديث في العمل لكن الرجل بدا وكأنه نسي كل شيء عن هذا الأمر وراح يخوض في أمور شتى، ثم أخذ يسأله عن رأيه في الاشتراكية وعبد الناصر فاضطر نبيل - هكذا أكد - إلى مجاراته حتى يكسب رضاه، جاراه فيما كان يقول حتى تنتهي تلك «الدردشة» ويدخل في صميم الموضوع... لكن أبا سليم كان قد انطلق وقد شرب كثيرًا، ثم راح يمطره بالأسئلة، سؤالًا وراء سؤال... سأله عن حياته في مصر، عن أمه وأبيه، وأقاربه وأصدقائه ومعارفه وجيرانه،

ووظائفهم، ومراكزهم، وكان طبيعيًّا أن يعرج الحديث على سامية فهمي وأن يتوقف عندها طويلا، كانت سامية الآن في السنة النهائية بكلية الآداب قسم صحافة، وكانت تنشر التحقيقات والموضوعات ويكتب اسمها بالبنط العريض... حكى نبيل لأبي سليم كيف التقى بها، وكيف تحابا وكيف ارتبطا ارتباطًا شديدًا، فسأله أبو سليم فجأة:

- لكن إيه اللي خلاك تسيب مصر يا نبيل؟

قال نبيل فيما بعد، إنه في محاولته لإرضاء الرجل - أيضًا! - قال إنه هجر مصر لأنها بلد شهادات، ولأن نظام عبد الناصر لا يعطي فرصة للشباب أمثاله في استغلال إمكاناتهم... تحدث عن مكتب التنسيق الذي ألقى به في كلية التجارة وهو لا يحب التجارة. ثم تحدث عن التعيين والمرتبات الضئيلة... ثم... ثم قال نبيل... قال كل شيء وهو لا يدري أن الرجل كان يعتصره اعتصارًا، وأن أسئلته كانت ذات منهج دفعه دفعًا إلى البوح حتى بأدق تفاصيل حياته وعلاقته بأمه وأبيه... ثم عاد الحديث مرة أخرى إلى سامية، فرفع الرجل كأسه كي يشرب في صحتها ثم سأله:

- بتحبها؟

هز نبيل كتفيه في لامبالاة مغمغمًا:

- يعني.

- وهي بتحبك؟

هتف نبيل:

- لدرجة إني مش عارف أعمل قدام حبها ده حاجة.

وعاتبه أبو سليم على هذا الرد... قال إن سامية فهمي، وقد أخلصت له حتى الآن، وبالرغم من هجرانه لها ونزوحه إلى أوربا، لا بد - على الأقل - أن يظل حاملا لها هذا الجميل، وإن علاقته بها لا بد أن تستمر وتظل قائمة.

قال: إن العلاقات العاطفية في أوربا شيء وفي مصر شيء آخر... ومهما كانت له علاقات بفتيات في ألمانيا، فإن علاقته بسامية - أخلاقيا - لا بد أن تتوطد وتتدعم.

- طب إزاي؟

هكذا سأل نبيل. فرد أبو سليم:

- بالخطابات يا أخي... بالهدايا.

- هدايا إيه يا ابو سليم. هو أنا لاقي آكل.

- خلاص... بكير تكتب لها خطاب وترسل لها هدية قيمة.

رغم أن أبا سليم كان يمس الآن، وبعنف، ذلك الوتر الشديد الحساسية في صدر نبيل سالم، مما جعل الفتى يبدو منتفضًا متلهفًا، فإنه هتف أخيرًا متشبثًا بذلك الأمل الذي كان، كلما شعر باقترابه منه، أحس أنه يبعد عنه:

- مش مهم الجوابات ولا الهدايا... المهم الشغل. إحنا حنعمل إيه في الشغل؟

وكأن أبا سليم لم يسمع... سأله:

- إنت مش بتقول إنها صحفية؟

- ولسه باعته لي جواب من كام يوم ومعاه آخر تحقيق نشرته في المجلة.

- خلاص... هات الخطاب هادا وأنا أقول لك تبعت لها إيش.

- جواب إيه بس... وأنا قطعته ورميته.

قال نبيل إنه دهش في تلك اللحظة لتلك النظرة النارية التي انطلقت من عيني أبي سليم، نظرة ذكرته بذلك التحذير الذي ألقاه فريدريك بيكر

في وجهه قبل أن يذهبا إلى لقائه. حاول نبيل التملص من الموقف فصاح محتجًا:

- لكن كل ده ما له ومال اللي إحنا فيه؟!

صاح أبو سليم في لهجة مصرية خالصة:

- إلا ما له... إنت نسيت إننا بنشتغل في سلعة عالمية؟

ودق قلب نبيل بعنف... فهل معنى هذا أنه قد يحمل مخدرات إلى مصر؟!

راح يحملق في الرجل وقد انهارت كل أحلامه فجأة، خشي الاعتراض حتى لا يفقد فرصة طالما انتظرها، عندما طال الصمت سأله أبو سليم وكانت نبرة صوته الآن تختلف تمامًا عن تلك النبرة التي تعود نبيل عليها فكأنه تحول إلى إنسان آخر:

- إنت عارف طبعًا إحنا بنشتغل في إيه.

- فريدريك قال لي.

- وإنت إيه رأيك؟

- أنا تحت أمرك يا ابو سليم هنا... بس... مصر...

هتف أبو سليم مقاطعًا:

- مصر؟ مين اللي جاب سيرة مصر؟!

اجتاحت الراحة صدر نبيل فصاح:

- إنت اللي لسه قايل.

- إسمع يا نبيل يا خويا... إحنا النهارده أكلنا عيش وملح سوا، وفتحنا قلبنا لبعض... وأنا مش مجنون ابعتك مصر عند راجل زي جمال عبد الناصر علشان يقبض عليك ويوديك ورا الشمس.

- وهو أنا لو اتقبض علي هنا مش راح أروح ورا الشمس؟

- لأ.

- إزاي بقى؟!

- هنا دولة ديموقراطية ومتحضرة، والتفاهم معاهم ممكن.

- ثم إني كمان ما أعرفش أدي حقن.

هكذا قال نبيل في تذمر، فهتف أبو سليم دهشًا:

- حقن؟! حقن إيه دي؟!

- ده اللي فهمته من فريدريك.

- بس فريدريك حاجة، وإحنا حاجة ثانية خالص.

كان أبو سليم قد انتقل الآن، مع نبرته الجديدة إلى الحديث باللهجة المصرية تمامًا، سأله نبيل:

- إحنا؟!

- اللي زيي واللي زيك مش لازم يشتغلوا الشغل ده... إحنا مهما كان الأمر، أغراب.

- مش فاهم.

وهكذا راح أبو سليم يشرح له الأمر.

إن جمال عبد الناصر استطاع أن يجعل العرب مكروهين في أوربا. وأن سياسته بالذات لم تجر الخراب والعداء على مصر فقط، بل جعلت من وجود مواطنين عرب في بلد مثل ألمانيا تتعاطف مع إسرائيل وتقدم لها المساعدات والتعويضات وتغدق عليها السلاح والطعام، أمرًا غير مرغوب فيه، بل ومحاطًا بشكوك لا نهاية لها... لذلك فمثل هذه الأعمال القذرة - قالها الرجل بالإنجليزية - التي يمارسها شاب مثل فريدريك، يجب ألا يقوم بها إلا ألماني مثله، لكن...

- لكن إحنا لنا شغل تاني يا نبيل.

كان نبيل الآن ممتنًا أشد ما يكون الامتنان للرجل الذي كان يحميه، فسأله في حرارة:

- شغل زي إيه مثلًا؟!

- عاوز تفهم؟!

- طبعًا.

- أول حاجة بالنسبة لك - مثلًا - إنك لازم تلاقي وظيفة محترمة.

فغر نبيل فمه دهشة، دق قلبه بالسعادة والعرفان معًا.

- ما لك يا نبيل؟

- عاوز الحق ولّا ابن عمه؟!

- الحق طبعًا.

- مش فاهم.

وهكذا راح أبو سليم يضع أمام الفتى نقاطه الغامضة، فوق حروفه الأشد غموضًا... قال:

- أولًا... اللي زيي واللي زيك، لازم وجودهم هنا يبقى شرعي.

- مضبوط.

- علشان كده لازم ندور لك على شغلانة كويسة في شركة من الشركات المحترمة.

- ودي حانلاقيها إزاي؟

- وبالشكل ده نقدر نطلع لك تصريح عمل، ويبقى وجودك قانوني وما حدش له عندك حاجة.

أحس نبيل سالم أنه في حلم لا علاقة له بالواقع، كان ما يقوله أبو سليم بالتحديد هو ما يتمناه وما يرجوه وما يسعى إليه منذ وطئت قدماه أرض

إيطاليا منذ عام وبعض عام، وحتى استقر به المقام في هذه المدينة الألمانية... قال في عرفان وامتنان:

- ربنا يخليك يا ابو سليم.

- بعدما تستقر في وظيفتك، وتكوِّن علاقات محترمة مع ناس محترمين... نبدأ ندور على شغلنا... وحانلاقي مليون سكة.

- تفتكر السكك دي مأمونة؟!

- مِيّه في المِيّه.

- طب افرض الطوبة جت في المعطوبة؟!

- قصدك البوليس يمسكك؟

- أيوه.

- يبقى لازم موقفك يكون صاغ سليم.

- للدرجة دي؟

- طبعًا... ما هو إحنا لازم نعيش في وسط الناس دي في أمان... وكفاية اللي عامله جمال عبد الناصر فينا... كفاية موقفنا اللي زي الزفت في الدنيا كلها.

في حماس وهو ينتفض بالسعادة قال نبيل:

- أبو سليم... أنا تحت أمرك.

* * *

قال لي عادل مكي إنه في بعض الأحيان يشعر بالألم لأن الناس في بلادنا لا يفهمون طبيعة عمل ضابط المخابرات... الناس لا يفهمون أن هذا العمل في حقيقته ليس سوى حماية لهم، لبيوتهم وأعراضهم، وأولادهم ومصادر رزقهم... هو عندما طلب من سامية فهمي الاطلاع على تلك الخطابات التي وصلتها من نبيل سالم أثناء وجوده في ألمانيا، كان يعلم

علم اليقين أن تلك الخطابات تمثل الخطوة الأولى في تجنيد نبيل سالم للعمل، وبوضوح، لحساب المخابرات الإسرائيلية... وبالنسبة إليه، في ذلك الوقت الذي كانت سامية فهمي تجلس معه للمرة الثانية، كان من أشد الأمور أهمية أن يعرف إن كان الأمر قد تم بعلم نبيل، أم أنه استدرج دون أن يشعر حتى وقع في أسر أبي سليم... أو الرجل الكبير كما قال عنه موزع المخدرات الألماني فريدريك بيكر.

وهو، وعلى الجانب الآخر، وبالرغم من أهمية الموضوع، وخطورته في نفس الوقت... لم يكن يستطيع أن يصارح سامية فهمي بحقيقة نبيل سالم، لأنه لو فعل، فلربما أوقعتها هذه الحقيقة في الحرج أو دفعت بها إلى التمرد، أو منعتها من البوح بكل ما عندها من معلومات... كان من أشد الأمور أهمية، أن تصل سامية إلى الحقيقة بنفسها.

قال لي إن سامية فهمي عندما طلب منها أن تطلعه على تلك الخطابات، أطرقت دون رد... ولقد أدرك مدى الحرج الذي أوقعها فيه... لأنها شعرت - بالقطع - أن شيئًا خاصًا جدًّا، سوف يطلع عليه الغير...

كان عادل يعرف هذا تمامًا... وكان من الممكن أن يرجئ طلب الخطابات قليلا... لكنه - وهنا المأزق - كان مشفقًا عليها من تلك الصدمة التي سوف تتلقاها يوم تواجه الحقيقة، سواء بنفسها، أو عندما يخبرها هو لو أنه اضطر إلى ذلك... لكنه عندما حسب الحسبة - هذا تعبيره بالضبط - وجد أنه من الأفضل لسامية أن تتلقى الحقيقة على جرعات، حتى تتهيأ نفسها تدريجيًا لاستيعاب أمر هو بالنسبة إليها رهيب وعنيف.

ولم يكن الأمر مقصورًا، من وجهة نظره على الناحية الأمنية أو السياسية فقط... فلقد كانت تلك هي الفترة التي تعرف فيها نبيل سالم على تلك الفتاة الخطرة «شيرلي هايمان» أو «لويز جولدمان»... وهكذا، أصبح حديثه مع سامية كالسير فوق الماء... ولذلك، وعندما طلب منها ذلك الطلب، وعندما صمتت دون رد... لزم الصمت هو الآخر لثوانٍ قال بعدها:

- على العموم، إذا ما كانش عندك مانع، حايبقى مهم جدًّا إننا نقرأ الجوابات دي سوا.

همت بالرد وكان يعرف أنه يضغط عليها فأطلق ضحكة هائلة وهو يردف:

- إنتِ ما جعتيش؟

نظرت في ساعة يدها وقد سرها أنه غير مجرى الحديث، كانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف تذكرت حديثه بالأمس عن عدم تناوله طعام الإفطار فأدركت أنه جائع، سألته وعلى شفتيها ابتسامة باهتة:

- إنت حاتغديني النهارده كمان؟!

تلقف السؤال كي يدق بالإجابة على وترها الحساس:

- مش أنا اللي حاغديكي يا سامية... مصر هي اللي بتدفع.

وكانت جملته موحية، وكانت بالقطع مؤثرة، فلقد برقت عيناها، وشحب وجهها، فهزت رأسها إيجابًا، ولم تفه بحرف.

الفصل الثامن

السيطرة

الذي لا شك فيه أن عادل مكي كان يستطيع أن يختصر الطريق مع سامية فهمي كثيرًا... كان قادرًا على الإيحاء، كما كان قادرًا على الضغط خاصة في مثل تلك الظروف العصيبة التي كان يعيشها جهاز المخابرات المصري بعد نكسة ١٩٦٧، وذلك الضغط الهائل الذي تعرض له الرجال في الداخل والخارج... لكنه آثر أن يسلك معها طريق الحوار لإحساسه الفائق، بأن هذه الفتاة التي جاءت إليه طائعة مختارة، لم تكن في حاجة إلى إيحاء أو ضغط بقدر ما كانت في حاجة إلى فهم.

كانت سامية فهمي تجلس الآن أمامه - وقد جاء طعام الغداء - تمضغ اللقيمات بلا إحساس وكأنها تلوك في فمها قطعة من اللبان... كان يعلم أنها تتشبث بأمل واهٍ ومستحيل... ورغم ذلك فلقد راحت ترفض - في عناد بدا غريبًا - أن تعترف لنفسها بأن نبيل سالم متورط فيما كانت تفكر فيه... لكنها في نفس الوقت، وبنفس القدر من القوة، كانت تكاد توقن أنه بالفعل قد تورط فيما كانت تخشاه.

بدت له مثل إناء هش قابل للكسر في أية لحظة... ولم يكن عادل على استعداد لأن يقوم بهذه المهمة مهما كلفه الأمر.

عندما وضع الطعام بينهما راحا يتناولانه في صمت، كان ثمة إحساس كثيف يجثم في هواء الغرفة... مضت بهما الدقائق صامتة ثقيلة بطيئة قبل أن ترفع إليه رأسها متسائلة:

- أنا مش قادرة أفهم الجوابات دي هاتفيدك في إيه.

توقف عن الطعام، سدد إليها نظرة عاتبة، تمتم:

- في حاجات كتير.

- زي إيه؟

ترك الطعام تمامًا وقرر أن يخوض المعركة معها:

- مش فيه احتمال إن الشكوك اللي عندك تكون صحيحة؟!

- والشكوك اللي عندي مش في نبيل.

- بس نبيل هو اللي وصلك للناس دي.

- هو ذنبه إيه؟

تذرع بالصبر مائلا نحوها:

- يمكن ما لوش ذنب صحيح، بس علاقتهم بيه لازم يبقى لها أسبابها.

- الجواب ده بعتهولي من ألمانيا، والناس دول في نابولي، يعني في إيطاليا.

بدت سامية فهمي وكأنها تحارب آخر معاركها بضراوة وعنف... مال نحوها وقد استفزه تشبثها بموقفها:

- إنتِ مش قلتي يا سامية إنه كان بيشتغل في شركة سياحية في هامبورج؟!

- أيوه.

- طب إيه اللي وداه إيطاليا.

- لقى شغل أحسن.

- ده ممكن يكون سبب... بس ممكن تكون هناك أسباب ثانية.

- أسباب زي إيه؟!

- هو ده اللي الجوابات ممكن تقول لنا عليه.

أحست سامية أنها حوصرت فصمتت، كانت هي تتحدث عن خطاب واحد وكان هو يتحدث عن كل الخطابات، غمغمت وهي تتشاغل بالعودة إلى الطعام من جديد:

- أنا عارفة إني مزعجة جدًّا.

ضحك عادل مكي وهو يشعل سيجارة:

- مش قوي.

نظرت إليه ثم انتقلت عيناها إلى السيجارة بين أصابعه متسائلة:

- إنت بطلت أكل ولّا إيه؟

اعتدل في جلسته الآن أمامها، وضع نظراته داخل عينيها، أراد لها أن تعي وتفهم كل كلمة سوف يقولها فجاءت كلماته محددة واضحة المعالم:

- لأني عاوز أقول لك يا سامية إن شغلتنا دي صعبة حبتين، وإن التفاصيل الصغيرة اللي الناس مش ممكن تأخذ بالها منها، أو ما تديهاش أي اهتمام، أو تشوف إن ملهاش قيمة... ممكن تكون مهمة جدًا.. ويمكن خطيرة جدًّا.

هتفت مستسلمة:

- خلاص.. حاجيب لك الجوابات كلها.

قالت هذا وهي تبتسم، ولم يملك عادل مكي نفسه من الابتسام هو الآخر، فهمست معتذرة:

- ممكن تاكل بقى.

رماها بنظرة صارخة بالعتاب، وأطفأ سيجارته، وعاد إلى الطعام من جديد.

* * *

كانت مشكلة عادل مكي في ذلك الوقت، أنه يريد أن يعرف على وجه التحديد، ما الذي حدث لنبيل سالم في ألمانيا حتى اختفى منها فجأة كي يظهر، ويلا مقدمات، في مدينة نابولي الإيطالية.

تجمعت لديه بعض المعلومات، ولكنها كانت معلومات ناقصة... حقًّا كان التحليل قادرًا على الوصول به إلى احتمالات تكاد تطابق الحقيقة... لكن معرفة الحقيقة شيء آخر... واقع صلد لا شك فيه... واقع يستطيع منه أن ينطلق واثق الخطى كي يكشف هذه الشبكة التي بدت في الأيام الأخيرة، وكأنها أخطبوط يتغلغل في أرض الوطن الجريح... كان هناك مهندسون وأطباء وصحفيون وموظفون وطلبة وتجار وسماسرة كلهم... كلهم التقوا بنبيل سالم الذي كان يسعى بشتى الطرق إلى تسليمهم لرجال المخابرات الإسرائيلية... وكلما مضت الأيام، ازداد اقتناعه بخطورة هذا الشاب الذي كان أداؤه يتطور بسرعة مخيفة... والذي استخدم كل ذكائه وخفة ظله وقدرته على اكتساب ثقة الناس، في الإيقاع بأبناء وطنه، أو في التجسس على هذا الوطن لمصلحة العدو.

وعندما كان عادل مكي في بعض الليالي التي تؤرقه فيها مسئولياته، يحاول أن يربط بين ما كان يحدث في تلك الأيام من عام ١٩٦٧، وبين ما حدث بعد ذلك، دائمًا ما كان الخيط يمتد في يده كي يربط كل شيء بكل شيء.

كان الإسرائيليون في تلك السنوات شديدي النشاط في ألمانيا وإيطاليا بالذات وانتشرت بيوت الملذات في طول أوربا وعرضها تستدرج الشباب العربي عن طريق الجنس والمخدر واللهو إلى مهاو بلا قرار... وكم من جواسيس وقعوا. وكم من شبكات سقطت... وكم من شباب أبى أن يخون فجاء سعيًا لإنقاذ الوطن.

وفيما بعد... وعندما تجمعت كل الخطوط في يده، عرف كل شيء.

* * *

عرف أن أبا سليم غادر شقة فريدريك بيكر في تلك الليلة تاركًا نبيل يسبح في بحر من الأحلام... نفحه قبل أن يمضي مبلغًا لا بأس به من المال، طلب منه أن يوقع إيصالًا بالمبلغ فبدت الدهشة على وجه نبيل وإذا به يصيح فيه بمرح:

- الشغل شغل يا بلبل.

ولم يكن أمام نبيل إلا أن يوقع فوقع، طلب منه أبو سليم أن يسعى من الغد للبحث عن مسكن ملائم ووظيفة محترمة... عندما همَّ نبيل بالسؤال قال له الرجل في وضوح لا لبس فيه:

- شوف يا نبيل، إذا كنت عاوزنا نشتغل سوا، وإذا كنت عاوز تنجح، يبقى لازم تسمع الكلام.

- من غير مناقشة يا ابو سليم؟

- من غير مناقشة.

ساد الصمت قليلًا ثم أردف الرجل:

- إنت مش تهمك سلامتك؟

- طبعًا.

- وأنا كمان تهمني سلامتك.

- طب أفهم.

ابتسم أبو سليم ابتسامة خفيفة وهو يقول:

- المرة دي حافهمك، لكن بعد كده لازم تفهم لوحدك.

- وإذا ما فهمتش؟!

- يبقى تنفذ اللي باقول لك عليه من غير سؤال.

- من غير سؤال.

- واللي أوله شرط، آخره نور.

هكذا قال أبو سليم، ثم اعتدل في جلسته كي يشرح له الأمر برمته.

- إن بقاءه في شقة مثل هذه بالقطع، سوف يلفت الأنظار ويثير التساؤل لأنه في البداية والنهاية عاطل... فمن أين يجيء بالمال؟!

- في دي معاك حق.

هكذا هتف نبيل، فاستطرد أبو سليم:

- ولأنك عاطل، يبقى لازم تسكن في أوضه على قدك.

همَّ نبيل بالحديث، فرفع هذا يده مردفًا:

- أنا ما بقولكش روح اسكن في مزبلة زي اللي كنت ساكن فيها، أنا باطلب منك تسكن في أوضة أحسن، ولما تكسب، اسكن في قصر محدش حايشك، ومحدش يقدر يقول لك تلت الثلاثة كام.

قال نبيل سالم فيما بعد، إنه في تلك الليلة لفت نظره إتقان الرجل الشديد للهجة العامية المصرية، واستعماله للأمثلة الدارجة والتعبيرات التي يستعملها المصريون في أحاديثهم، لكنه على كل حال.. أحس كأن أبا سليم يقوده إلى أحلامه برفق، فهتف في حماس:

- ماشي كلامك يا ابو سليم.

- ولأنك عاطل، لازم تدور على شغل.

- شغل... أمال إنت...

- مش المهم إنك تلاقي شغل يا نبيل، المهم إن الناس تعرف إنك بتدور على شغلانة تاكل منها عيش، ويشوفوك وإنت بتلف وتدوخ وتدور وتتعب وتروح شركات وترفض.

كانت المعاني تتسلل إلى ذهن نبيل فتبهره.

- ولأننا حانشتغل مع بعض ولأن شغلنا خطر مش لازم الناس يشوفونا مع بعض كثير.

- إزاي؟

اعتدل أبو سليم في جلسته زافرًا:

- سيب إزاي دي لبعدين... ونفذ دلوقت اللي باقولّك عليه.

- وإمتى عاوزني أسيب الشقة؟

- بكره.

همَّ نبيل بالسؤال، فأردف أبو سليم في نبرة حادة:

- بكره مش بعده يا نبيل.

* * *

لم يكن المبلغ الذي نفحه أبو سليم لنبيل كبيرًا، لكنه كان يفي بالحاجة... وليس هناك شك في أن شخصية الرجل قد بهرت هذا الشاب الطموح، الذي وجد أبواب الثراء تفتح له مصراعيها، وفيما بعد ذلك قال نبيل سالم وهو يصف تلك الفترة، إنه كان يشعر بأنه منوم أو كالمنوم... ففي صباح اليوم التالي كان أول ما فعله هو البحث عن غرفة متواضعة في بنسيون أو فندق صغير. ولقد استنفد البحث اليوم بأكمله... ظل يلهث طوال اليوم لأنه كان يعلم أن عليه أن يغادر الشقة قبل الغروب، وألا يعود إليها مرة

أخرى مهما كانت الأسباب. كان عليه أن ينقل منها كل ما يخصه وألا يترك فيها أي شيء مهما كان تافهًا أو صغيرًا...ثم إن عليه بعد ذلك أن يحتفظ بالمفتاح إلى أن يلتقي بأبي سليم.

- إمتى؟

- في الوقت المناسب.

- طب وانت حاتعرف عنواني إزاي؟

- إنت حتقول لي عليه.

- إزاي يا ابو سليم وأنا...

أطلقت عينا الرجل نظرة كأنها رصاصة اخترقت رأس نبيل فيما بين العينين فلزم الصمت.

- إنت يظهر مش عاوز تتعلم يا نبيل.

هتف هذا معتذرًا:

- أنا مش قصدي.

وأخيرًا. قبل الغروب بساعة، استطاع الشاب أن يجد غرفة في فندق من فنادق الدرجة الثالثة... وها هو يغادر الشقة، ويحتفظ بالمفتاح، وها هو في غرفته الجديدة في ذلك الفندق المتواضع، يتذكر ويتساءل ويضرب أخماسًا في أسداس دون أن يجد إجابة على سؤال واحد مما طاف بذهنه.

كان عليه الآن، ومن الصباح التالي، أن يبحث عن عمل، فأي عمل هذا الذي سيبحث عنه وهو لا يتقن الألمانية؟!

فكر، قبل أن ينام، أن يلتحق بأحد المعاهد لتعلم اللغة، وهو يعرف أحدها، يعرفه ويعرف الطريق إليه. ولكن... هل يكفي ما معه من مال؟

كان ما تبقى لديه، بعد أن دفع إيجار الغرفه لأسبوعين قادمين، يكفيه بالكاد لأسبوع أو عشرة أيام إذا ما قتر على نفسه... لكنه اتخذ قرارًا بأن

يزيد من تقتيره على نفسه، وأن يلتحق بالمعهد، وأن ينتظم في المساء، ثم... ثم كان عليه بعد ذلك أن ينتظر، لا شيء سوى الانتظار، حتى يتصل به أبو سليم.

ولقد أدرك نبيل، خلال الأسبوع التالي، استحالة حصوله على وظيفة محترمة... أدرك- بدهشة بالغة - أنه لا يتقن عملًا معينًا... وهو الآن، الآن فقط، وبعد ما يقرب من عامين منذ أن غادر مصر، اكتشف نبيل سالم أنه لا يتقن مهنة، وأنه لم يحاول أن يتعلم شيئًا أو ينتمي إلى فن أو فرع من فروع المعرفة... حتى عندما جلس أمام الأستاذ عند التحاقه بالمعهد، لم تخف عنه نظرة الاستخفاف التي رماه بها الرجل وهو يقول له: إن هناك فرقًا كبيرًا بين اللغة الألمانية، وبين تلك اللغة التي كان يلوكها في فمه ملتقطًا كلمة من هنا وكلمة من هناك... وكلما مرت الأيام، شح المال، وتسرب القلق إلى نفسه من جديد.

انقضى الأسبوع وأصبح ما يملكه من طعام لا يكفي إلا لطعام يوم أو يومين... عاد ذات ليلة إلى غرفته في الفندق وقد استبد به القلق استبدادًا، كان فشله في الحصول على وظيفة يؤرقه. وإحساسه بأنه لا يتقن مهنة يعذبه... أحس كأن غياب أبي سليم عنه يضغط على عنقه ويكتم أنفاسه، ورغم هذا فلم يكن أمامه من طريق سوى الانتظار... الآن كان نبيل قد انقطع في تلك الغرفة التي كان يعيش فيها، ولم يعد يرى أحدًا أو يلتقي بأحد، اختفى فريدريك بيكر من حياته وكأنه لم يكن، انقطعت عنه أخبار سامية ولا بد أن خطابًا قد وصل إلى عنوانه بالغرفة أو المطعم... فقد نبيل علاقته بالعالم، وكان كل ما يربطه بالدنيا، الآن، هو أبو سليم.

ومضت تسعة أيام...

وفي اليوم العاشر كان عائدًا إلى الفندق يضرب أخماسًا في أسداس، كان قد أفلس تمامًا ولم يعد يملك ثمن وجبة عشاء... كان الجو باردًا والجوع يعصف به عندما توقفت إلى جواره سيارة.. ظن في أول الأمر

أن توقفها لا علاقة له به، فمضى في طريقه دون أن يلتفت، لكن السيارة عادت إلى السير من جديد كي تحاذيه وتتوقف، وكان لا بد له أن يلتفت فالتفت... وهناك، خلف عجلة القيادة، كان أبو سليم يجلس داخل السيارة، وعلى شفتيه ابتسامة واسعة.

* * *

فيما بعد قال نبيل سالم، إنه لم يكره مخلوقًا في حياته، قدر كراهيته لأبي سليم في تلك الليلة.. لكن لم يكن يملك سوى أن يدلف إلى السيارة. دون كلمة منه أو دعوة من أبي سليم. ركب نبيل إلى جواره فانطلقت السيارة... ران الصمت لدقائق طالت بعض الشيء، وكانت السيارة تأخذ طريقها إلى إحدى ضواحي المدينة عندما سأله أبو سليم:

- اتعشيت؟

وانفجر نبيل...

انفجر دون أن يعي أو يشعر أو حتى يقصد، صرخ بكل ما في صدره من يأس وضيق:

- تقدر تقول لي إيه الحكاية دي؟!

لم يرد أبو سليم، بل حتى لم يلتفت إليه، ولم تختف ابتسامته، فعاد نبيل إلى الصراخ:

- تكونش فاكرني عبد عندك.

انحرفت السيارة حتى حاذت الرصيف، ثم توقفت.

اضطرب نبيل اضطرابًا وقد أدرك سر توقفها... كان المكان خاليًا من المارة وليس هناك محلات أو أضواء.

- وقفت ليه؟

- اتفضل؟

- إحنا حاننزل هنا؟!

هكذا سأل نبيل فأنكر المذلة في صوته.

- أنت اللي حاتنزل مش أنا.

في عصبية فتح نبيل باب السيارة هاتفًا في تخاذل:

- أيوه حانزل... بس أعرف إيه الأسباب.

كان يتوسل. وكان توسله رخيصًا.

- مش إنت اللي مش عاجبك.

- إنت مش عارف إني كنت مستنيك طول الأيام دي؟!

- عارف.

- تقوم تسيبني كده.

- أنا قلت إني حاشوفك في الوقت المناسب.

- وهو الوقت المناسب ده، ما يجيش أبدًا إلّا لما أجوع؟!

- وهو انت جعان؟!

قالها أبو سليم في برودة الصقيع خارج السيارة:

- وأما يبقى ماعييش مارك أتعشى بيه.

- خلاص... نتعشى سوا.

وأغلق نبيل باب السيارة، التي عادت إلى الانطلاق من جديد.

* * *

- ما سألتنيش أنا جيت لك النهارده ليه؟!

رغم فجاجة السؤال، فإن نبيل تقبله عن طيب خاطر... كان العشاء فاخرًا بحق، وقع اختيار أبو سليم على مطعم تحوطه حديقة بدت من

خلف زجاج النوافذ كقطعة من الجنة... سرى دفء الطعام والشراب إلى أوصال نبيل فهدأت أعصابه... أثناء الطعام حكى لأبي سليم عن كل خطوة خطاها في الأيام الماضية... بالتفصيل كان يحكي، وكلما غاب عن ذهنه شيء طافت أسئلة الرجل حول هذا الشيء فإذا به ينتزعه انتزاعًا، وإذا نبيل مستسلم أكثر ما يكون الاستسلام.

- يعني مالقيتش شغل؟!

- ما أنا حكيت لك يا ابو سليم.

دس هذا يده في جيبه وأخرج منه قصاصة ورق انتزعت من جريدة ألمانية ربما كانت ديرشبيجيل، وضع القصاصة تحت عين نبيل متسائلًا:

- قريت الإعلان ده؟!

بذل نبيل جهدًا حقيقيًا كي يقرأ الإعلان المكتوب بالألمانية.

- ده إعلان عن وظيفة خالية.

- والشرط اللي فيه إن المتقدم لازم يتقن العربية والإنجليزية.

انتفض نبيل في جلسته وأُرتج عليه تمامًا.

- وده فين؟

أومأ أبو سليم نحو قصاصة الورق قائلًا:

- ما تقرأ الإعلان.

- إنت عارف إني ما أعرفش ألماني كويس.

- ما هو إنت لو كنت تعرف ألماني، ما كنتش دخت الدوخة اللي إنت دختها دي... كان كفاية إنك تشتري الجرنال كل يوم الصبح، وتشوف الوظايف اللي فيه، وتتقدم.

- ما انا قلت لك إني رحت معهد.

- رحت كام يوم في الأسبوع اللي فات؟!

غمغم نبيل خافضًا بصره:

- ما كانش ممكن أنتظم وأنا قاعد أستناك ساعة بساعة.

سدد أبو سليم نظرة إلى عيني نبيل فانتفض هذا محتجًا:

- إيه بس يا ابو سليم؟!

دق هذا بأصبعه فوق قصاصة الجريدة قائلًا:

- آخر ميعاد عشان تتقدم بكره.

- من الفجر حاتلقاني هناك.

- علشان كده لازم تنام بدري.

قال أبو سليم هذا وهو ينهض واقفًا، فنهض نبيل دون كلمة.

- ما انتاش ناسي حاجة يا نبيل؟!

- حاجة زي إيه؟!

مد أبو سليم إليه يده قائلًا:

- فين مفتاح الشقة؟

في لهفة وارتباك، قدم له نبيل المفتاح، وكان يشعر أمامه بضعف لا حدود له.

* * *

بدت له عيناها في عمق المحيط، أطلت عليه من خلف نظارة طبية كأنها السحر، انسدل شعرها الذهبي كغدير يصب فوق الكتفين، أنف قبيح بالقياس إلى شفتين مكتنزتين مفترتين عن دعوة دائمة... مالت نحوه وصوتها يسبح بينهما:

- سيدي..

كأنها نقلته من فوق الأرض إلى ذروة أحلامه... كأنه لم يعش قبل أن يراها، حاول النطق فضاع صوته في خفقات قلبه. عادت ترسل إليه صوتها السابح:

- سيدي..

- جئت... جئت...

تلعثم وهو يجذب عينيه من براثن عينيها بجهد واضح.

- جئت من أجل الوظيفة الخالية.

افترت شفتاها عن ابتسامة كأنها إشراقة صبح في جنة... امتدت يدها إلى أحد الأدراج وسحبت منه ورقة قدمتها إليه:

- املأ هذه البيانات من فضلك.

تناول الورقة وتلفت حوله فطوقه صوتها في حنان:

- تستطيع أن تستعمل المائدة الصغيرة على اليسار.

خطا كالنائم نحو المائدة التي أشارت إليها فإذا الصوت يضمه من الخلف:

- إذا احتجت إلى أية مساعدة... دعني أعرف من فضلك.

وكانت نظرة واحدة إلى الورقة كفيلة بأن تؤكد له أنه في حاجة إلى المساعدة فعلًا... ما إن رفع رأسه نحوها استجابت دون كلمة، تخطت الحاجز وخطرت إليه كغزال يتراقص في مرعى يملكه وحده، انحنت عليه فدثره عطرها بدثار من دفء نادر، سرى الخدر إلى أوصاله وراح يكتب كل ما كانت تمليه عليه... انتهى من ملء البيانات فتناولت منه الورقة واختفت خلف باب زجاجي... تركته خافق القلب مبدد الوجدان فما هذا الذي يحدث له، تذكر سامية فبدت له باهتة الملامح... فتح الباب فانتفض، تقدمت منه والابتسامة تملأ وجهها كالشمس في يوم مطير.

- يريد المدير أن يراك.

خطا نحو باب الغرفة فربت صوتها على كتفه:

- حظ سعيد.

* * *

- تصور يا ابو سليم، تصور.

كان قد التقى به بعد الغروب في مقصف في أطراف المدينة.

- مش غريبة إن المدير يوصلني لحد باب الأوضة؟!

بدت له ابتسامة أبي سليم غريبة، وحتى صوته وهو يسأل كان غريبًا:

- وحاتستلم الشغل من إمتى؟

- من بكره... بكره الصبح.

- طب مش تبعت جواب لسامية تبشرها.

* * *

- الجوابات آهيه.

هكذا قالت سامية فهمي لعادل مكي في صباح اليوم الثالث وهي تقدم له مجموعة من الخطابات يضمها شريط أزرق اللون... تناول عادل الخطابات وهو ينظر إلى وجهها، كان موقنًا أشد ما يكون اليقين، أنها كانت تقدم له، وبيدها، قطعة من لحمها.

الفصل التاسع

لويز جولدمان تبدأ مهمتها

كان من الواضح أمام عادل مكي، أن سامية فهمي قضت ليلة عصيبة بحق... سلمته مجموعة الخطابات وكانت تبدو شاحبة شحوبًا عظيمًا... أدرك على الفور أن لا جدوى من الحديث مع هذه الفتاة التي ابتلاها القدر بما لم تتخيله يومًا، وضع الخطابات فيما بينهما وهو يرسم على شفتيه ابتسامة بلا معنى... قال كالمعتذر:

- تعبتي انتي قوي يا سامية.

- ماما تعبانه أكتر.

اقتحم الطريق إلى عقلها قائلًا:

- اللي يقرأ لك في المجلة ما يتصورش إنك توصلي للحالة دي.

- أصل مصر غالية قوي يا عادل بيه.

هوت الجملة فيما بينهما فأحس بقلبه يكاد ينفجر لفرط الإشفاق عليها.

- مصر بخير طول ما فيها ناس زيك.

سحت دموعها في صمت فلم تحاول حتى أن تمسحها، خلعت نظارتها الطبية وتركت العنان للدمع كي ينهمر... ساد الصمت طويلًا وكان عادل

يدخن في شراهة... نظرة واحدة منه إلي مجموعة الخطابات كانت كافية لأن تكمل الحلقة وتوضح الصورة، تَذَكَّرَ أيامًا ذهب فيها إلى ألمانيا، إلى هامبورج بالذات... ذهب كي يُحذِّر شابًا مصريًا كان ينزلق إلى هاوية بلا قرار... تَذَكَّرَ كيف كان اللقاء وكيف كان الحوار... استغرق في الذكرى عندما جاءه صوت سامية وكأنه يأتي من بعد سحيق:

- يوم ما جاني منه جواب بأنه استقر في هامبورج واشتغل في شركة سياحة كنت حاطير من الفرح.

انقبض قلب عادل وهو ينظر إليها بدمعها وحزنها وضعفها فأدرك أنها الآن في سبيلها إلى مواجهة الحقيقة سافرة، بدا له حديثها وكأنها تنعى نبيل سالم تتحدث عنه حديث حي عن عزيز اختطفه الموت فجأة.

- حسيت يومها إنه مخذلنيش، حسيت إني فرحانه وعاوزه أقول للناس كلها إن نبيل نجح.

في تلك الأيام التي كانت تتحدث عنها، كانت سامية فهمي تبدو مشرقة متفجرة بالحياة راحت تبني حلمًا فوق حلم حتى صنعت من أحلامها ناطحة سحاب كتلك الناطحات التي كان نبيل يكتب لها عنها... في تلك الأيام بالذات، اقتحم عليها فرحتها فريد الشاعر مدير التحرير... لم يكن فريد بالنسبة لها مديرًا للتحرير فقط، بل كان أستاذًا وصديقًا وأخًا... كان هو أول من التقت به عندما دخلت مجلة الفجر لأول مرة للتدريب حسب برامج الكلية... كانت تتعثر خجلًا ورهبةً وحبًا لتلك المهنة التي ملكت عليها حياتها... كان فريد يناقشها ويوجهها ويكشف لها مواطن الضعف والقوة في موضوعاتها، وحتى في صياغة أخبارها... ظنت في البداية أن ما كان يفعله فريد الشاعر نوع عصري من الغزل فتأهبت لمعركة لم تقع على الإطلاق... حتى كان يوم، وكانا قد أصبحا صديقين حميمين، حكت له فيه عن إحساسها نحوه في البداية فضحك فريد قائلًا:

- أصل اللي زيك يا سامية خسارة فيهم الغزل.

أحست بالإهانة فهتفت مغاضبة:

- فريد.

- ما تفهمينيش غلط.

- طب فهمني.

- اللي زيك يتحب من غير كلام.

أدركت سامية فهمي يومها أن فريد الشاعر مدير التحرير وصديقها الأقرب يحبها، حقًّا... كانت أعوام ثلاثة قد انقضت منذ أن دخلت إلى المجلة لأول مرة... نظرت إليه فكأنها تراه لأول مرة، كان فريد بالنسبة إليها مثل صفحة من صفحات المجلة الثابتة... تتغير الموضوعات وتتلون وتتخذ أشكالًا عدة، فيما عدا تلك الصفحة ثابتة في شكلها ومكانها وكأنها أَبَدٌ أو قَدَر... هكذا فريد الشاعر في حياتها قد أصبح... هَمّتْ بالرد عليه لكنه كان قد انصرف... هو يعلم أنها تحب نبيل سالم ولطالما حدثته عنه ولطالما تحدثا معًا عنه... ذات يوم قال لها منفعلًا إنها تحب سرابًا... هي لا تدري كيف قال ما قال ولا لماذا نطق بما نطق به... لكن كلماته في النهاية أغضبتها إلى حد الاحتقان... لحظ غضبها واحتقانها فقال:

- يا سامية أنا ما أقدرش أكدب عليكي.

- وأنا ما طلبتش منك إنك تكدب.

- نبيل اللي في خيالك حاجة... ونبيل الحقيقي حاجة تانية.

- قصدك إيه؟

في نفاد صبر وحنان، مال عليها مؤكدًا:

- قصدي إنك بتحبي صورة صنعها خيالك... مش بني آدم حقيقي.

- إنت بتغير منه يا فريد؟

- يمكن.

- معقولة؟

هكذا هتفت فلقد جاءتها الحقيقة هذه المرة سافرة بلا أقنعة من كلام.

- أيوه معقولة... ليه لأ؟

- فريد.

- وعلشان أبقى واضح قدامك تمام، أحب أقول لك إني باحبك من زمان!

- إيه اللي انت بتقوله ده؟!

- أنا حبيت قبل كده كثير... لكن عمري ما فكرت أتجوز واحدة غيرك.

هَمّتْ بالصراخ لكنه كان قد استدار ومضى... هكذا هو منذ أن التقت به وعرفته وزاملته وصادقته، يقول قوله ويمضي تاركًا وراءه عاصفة في رأس محدثه.

حدث هذا في تلك الأيام المعبقة بأريج الأمل وخطابات نبيل تصلها بانتظام وهو يحدثها عن عمله وحياته ويصف لها مسكنه الصغير الذي انتقل إليه بعد إقامة طالت في فندق من فنادق الدرجة الثالثة... اعترف لها فريد الشاعر صراحة ولأول مرة بحبه... لكنه أبدًا لم يذكر حديثهما هذا مرة أخرى، أبدًا لم يذكره... كان يبدو في تلك الأيام مستغرقًا في العمل إلى حد الانتحار.

* * *

- سامية.

في رفق وحنو ناداها عادل مكي، كان الدمع قد كف وجف وتحولت العينان إلى قطعتين من الزجاج تحجرتا في مكانهما فتحجر معهما كل الجسد فإذا هي تمثال للحزن يجلس.

- سامية.

في بطء وتثاقل رفعت إليه رأسها.

- أظن من الأوفق إنك تروّحي النهارده.

- حاضر.

قالتها في ضعف شرخ قلبه... تذكرها يوم رآها في قلعة الكبش وهي تدخل البيوت وتناقش السيدات وتحمسهن وتعلمهن وتحضهن على العمل في المشغل... كانت تبدو مثل صاروخ منطلق ليست هناك قوة تستطيع وقفه، رآها في تلك الأيام التي أعقبت زيارة نبيل للقاهرة مثل زهرة تنشر من حولها شذى الحياة نفسها فأوقعته في الحيرة، لكنها انتزعت إعجابه.

- تحبي أبعث معاكي حد يوصلك للبيت؟!

- أنا عاوزه ابقى لوحدي.

نهضت فنهض معها.

- تحب سيادتك تشوفني إمتى؟

- لما تستريحي وتستردي...

صمت فرفعت إليه رأسها متسائلة:

- أسترد إيه؟

- تستردي سامية فهمي اللي باقرأ لها.

هزت رأسها في صمت واستدارت نحو الباب فخطا بسرعة في اتجاه الباب كي يفتحه لها، وضع يده فوق المقبض ثم توقف مستديرًا نحوها:

- سامية... أنا مش محتاج أأكد عليكي...

قاطعته:

- ما تخافش يا عادل بيه... ما تخافش... محدش حايعرف مني حاجة.

فتح الباب فنفذت منه إلى الممر الطويل، نادى على أحد رجاله فلبى الرجل النداء:

- أفندم.

- وصّل الآنسة لحد البوابة اللي بره.

ظل واقفًا في مكانه حتى اختفت... كانت تبدو مثل عود أخضر يتمايل في عاصفة هوجاء ظلت تسير مترنحة حتى اختفت، عاد عادل إلى الغرفة وألقى بنظرة إلى مجموعة الخطابات... امتدت يده إليها والتفت أصابعه حولها بحرص... هنا... هنا بالقطع سوف يجد الكثير مما يبحث عنه ويريد معرفته... هنا سوف يجد الضوء الذي يكشف بعضًا مما غمض عليه.

* * *

خضعت مجموعة الخطابات التي أرسلها نبيل سالم إلى سامية فهمي، منذ أن غادر مصر وحتى ذلك اليوم، لعمليات تحليل ودراسة شديدة التعقيد... لم يكن المطلوب فقط هو كشف الأسلوب الإسرائيلي في جمع المعلومات أو تجنيد الشباب أو السيطرة... كان المطلوب أيضًا أن تدرس خطابات نبيل سالم دراسة نفسية.

وكان السؤال الذي وضع أمام واحد من أبرز علماء النفس في مصر، وبعد تحليل خط نبيل واختلافات انسيابه من خطاب إلى آخر تحليلًا علميًا بواسطة خبير في الخطوط، هو: لماذا انزلق هذا الفتى؟! وما الأسباب التي دفعته إلى الخيانة؟! وهل كان واقعًا تحت ضغط من نوع خاص، أم إن الضغوط حاصرته من كل جانب؟! ثم... ثم لماذا نبيل سالم بالذات؟! ولماذا اختير لهذا الدور؟! وكيف، ولم وقع عليه الاختيار؟! ثم كيف حدد له دوره؟! أسئلة وأسئلة وعشرات الأسئلة كانت في حاجة إلى إجابات.

وكانت الإجابات تحمل في طياتها أكثر من نذير.

* * *

نحن لا نشك في أن الإسرائيليين عندما جاءوا بفتاتهم المدربة «لويز جولدمان» - التي عرفت في فرنسا باسم «صوفي جارديني» - إلى هامبورج تحت اسم «شيرلي هايمان»... كانوا بارعين في إخفاء شخصيتها... غير أن المثير للدهشة في الأمر كله... أن نبيل سالم عندما ذهب إلى تلك الشركة السياحية كي يتقدم للالتحاق بالوظيفة التي أعلنوا عنها، ثم التقى - أول ما التقى - بشيرلي هايمان، سقط صريع هواها منذ اللحظة الأولى، نسي سامية ونسي نفسه بل كاد ينسى أبا سليم دون سبب واضح... وحتى عندما سئل نبيل بعد ذلك عمَّا حدث في تلك اللحظات الأولى، لم يستطع تفسيره... بدا له الأمر كنوع من القضاء والقدر، وكأن كل أحلامه في المرأة قد تحققت فجأة عندما وقعت عيناه على تلك الفتاة الإسرائيلية الشديدة الخطر.

غير أن هذه المسألة بالذات - وحتى الآن - تبدو وكأنها ضربة من ضربات الحظ العجيبة في هذا الحقل، حظيت بها المخابرات الإسرائيلية من حيث لم تحتسب... وحتى القول بأن الأمر كان براعة من رجال الموساد الذين استطاعوا دراسة نبيل سالم دراسة وافية ودقيقة، ثم اختاروا له تلك الفتاة كي تجسد له أحلامه فتمهد لهم الطريق لتنفيذ ما خططوه، مردود عليه بأن شيرلي هايمان، لعبت من قبل أدوارًا أكثر خطورة بكثير من دورها هذا الذي يبدو متواضعًا إلى جانب ما قامت به تلك الفتاة في مجالات أخرى... وأغلب الظن أن لويز جولدمان التي عرفها نبيل سالم تحت اسم شيرلي هايمان، قد اختيرت لهذا الدور فقط، كي تسيطر على الفتى داخليًا... بل لتستعمل كل ما دربت عليه حتى تمتلكه امتلاكًا لا فكاك له منه... وهي في الوقت نفسه كانت - بحكم تجربتها السابقة مع الشباب الجزائري في باريس - أقدر من غيرها على وضع هذا الشاب التعس تحت مجهر البحث، وفي سلسلة من الاختبارات كانت تستلزم

قدرات من نوع خاص، حتى إذا جُهِّزَ تمامًا، وثبتت صلاحيته، أطلق إلى المهمة التي اختير لها.

* * *

عندما صافح مدير شركة السياحة نبيل مهنئًا إياه بالوظيفة الجديدة، بعد لقاء لم يدم سوى دقائق لم تزد على العشرين، بدا للشاب وكأن الأمر كله حلم لا حقيقة... ولو أن نبيل سالم توقف في ذلك اليوم للحظات أمام ما حدث لاكتشف أن الأمر من أوله إلى آخره كان مدبرًا... ذلك أن المدير سأله إن كان يتقن اللغة العربية، وهو يعرف أنه مصري... ثم طرح عليه أسئلة تؤكد معرفته الكاملة بإمكانات نبيل مما جعل الأمر يبدو وكأنه الإنسان المطلوب تمامًا... ونحن نرى أن نبيل سالم كان معذورًا، فبعد سلسلة الفشل التي عانى منها، كان لا بد له أن يتشبث بالنجاح الوحيد الذي حققه بعد عامين من الضياع لم يحقق فيهما شيئًا على الإطلاق... ثم إذا أضيف إلى هذا أن المدير نهض كي يودعه حتى الباب، ثم إذا ما قال له إن «مس هايمان» بالذات هي التي ستتولى تدريبه... كان لا بد أن يطيش صوابه.

والآن... وقد كان جالسًا إلى أبي سليم بعد الغروب في ذلك المقصف القائم في أطراف المدينة لم ينتبه ولم تلفت نظره - لفرط سعادته وإحساسه بالنجاح - تلك اللهجة التي استجدت في حديث أبي سليم، وذلك الأسلوب الصارم في الأسئلة التي كان يوجهها إليه عما حدث منذ أن دخل الشركة حتى غادرها... لم ينتبه نبيل لأنه كان غارقًا في استعجال الغد، فلقد كان على موعد مع شيرلي التي ضغطت على يده في رفق وهي تصافحه مهنئة وتكسرت نظراتها أمام عينيه التائهتين في ملامحها وهي تهمس:

- في الغد... ستجدني في انتظارك.

قال له أبو سليم وقد لحظ سهومه:

- أنا عاوز تفتح عينيك يا نبيل للشغل، ولاحظ إنك كل ما تعلمت بسرعة، كل ما كان ده في مصلحتك، ومصلحة شغلنا.

- شغلنا.

هكذا هتف نبيل الذي كان قد نسي أن ثمة عملًا آخر يربطه بهذا الرجل الذي كان يُحكم السيطرة عليه يومًا بعد آخر، بل ساعة بعد ساعة... لم يجبه الرجل عن تساؤله، بل راح يلقي عليه التعليمات في صرامة وجفاف... إن عليه ألا يضيع وقتًا وكفى ما ضيعه من شهور وأعوام فيما لا ينفع... ولا بد له من أن يواظب على الذهاب إلى المعهد حتى يتقن الألمانية في أقصر وقت ممكن، كما أن عليه أن يستعين بهذه الفتاة التي ستتولى تدريبه... والتي اسمها... اسمها...

- قلت لي اسمها إيه يا نبيل؟

- شيرلي هايمان.

- حلوة؟

هز نبيل وكأن الأمر لا يعنيه:

- يعني.

- المهم حاول تستفيد منها علشان تقوي اللغة بتاعتك.

- ما تخافش عليّ يا ابو سليم... أنا...

وصمت نبيل بادي الحيرة:

- إيه ما لك؟

- أصلك قلت لي من شويه إن شغلي في الشركة في مصلحة شغلنا مع بعض.

- طبعًا.

- طب إزاي؟

رماه أبو سليم بنظرة نارية، احتدم صوته وهو يميل نحوه متحدثًا في صوت خافت وجاف:

- أظن إن فيه اتفاق بينّا إنك ما تسألش.

- أنا مش باسأل... أنا عاوز أعرف.

- لما يقى لازم إنك تعرف، حانبقى نعَرّفك.

استوقف نبيل كلمة «نعَرّفك» لثوانٍ خاطفة لكنه ألقاها خلف ظهره مستجيبًا:

- حاضر يا ابو سليم.

- ولازم تفهم، وبوضوح شديد جدًا، إن أي حاجة في شغلنا... أي حاجة مهما كانت هايفة أو صغيرة أو بسيطة، تعتبر سر على كل الناس إلا أنا وأنت، كل الناس مهما كانوا قريبين منك أو ثقتك فيهم عالية، كل الناس... كل الناس يا نبيل ما عدا أنا وأنت.

مال نبيل نحوه متباسطًا وهو يقول:

- ما تخافش عليَّ يا ابو سليم.. أنا...

- لا... لا يا حبيبي، المسألة مش بالبساطة اللي انت متخيلها، إحنا بنلعب في المخدرات يعني أي غلط فيها مؤبد، أو إعدام.

بدا التذمر على نبيل:

- خلاص يا ابو سليم... فيه حاجة تانية؟!

بنظرة كأنها سهم مسموم، قال:

- أيوه فيه.

- خير.

- تقوم من هنا على محطة السكة الحديد، تأجر هناك خزنة وتخلي مفتاحها معاك على طول.

- بسيطة.

- ومش لازم حد في الدنيا يشوف المفتاح ده.

- المهم أنا هاعمل إيه بالخزنة دي؟

- بعدين حاتعرف.

قال أبو سليم هذا في جفاء وهو ينهض قائلًا:

- المرة الجاية حانبقى نحط جدول لمقابلاتنا.

- جدول؟!

- إحنا مش اتفقنا إن الناس مش لازم يشوفونا مع بعض كتير؟!

قال أبو سليم هذا ثم انصرف دون أن يلقي التحية على نبيل الذي كان واقعًا في حيرة وارتباك لا حدود لهما... تركه وقد أفسد عليه أحلامه التي تشبثت بشيرلي هايمان.

في تلك الليلة ظل يسير في شوارع هامبورج على غير هدى، مستغرقًا مستعيدًا في كل دقيقة، كل ما مر به مع شيرلي منذ أن رآها وحتى انصرف عنها... راح يستعيد الكلمات والجمل والنظرات والإيماءات والابتسامة وحتى الأنف القبيح بدا له متناسقًا مع الوجه كأحلى ما تكون الأنوف... كان نبيل يتذكر، ثم يحلل، ثم يفسر... كان سعيدًا بحق، وقبل أن يأوي إلى فراشه في تلك الليلة، كان قد أدرك أنه وقع في الحب من أول نظرة.

* * *

هناك حقيقة لا سبيل إلى إنكارها... هذه الحقيقة هي أن نبيل سالم نجح بالفعل في عمله الجديد نجاحًا لم يتوقعه حتى أبو سليم نفسه، وفي خلال أسابيع قليلة كان قد التقط كل أسرار الوظيفة من شيرلي هايمان التي أصبحت الآن تمضي معه أغلب أمسياتهما، وفي خلال تلك الأسابيع نجح في تحصيل كمية لا بأس بها من كلمات اللغة الألمانية وقواعدها وأساليب

نطقها وبعضًا يسيرًا من آدابها.. كانت شيرلي، إذا ما التقت به بعد مغادرته للمعهد، تصر على ألا تتحدث إليه إلا بالألمانية، كانت تقول له إن نصف إتقان اللغة - أية لغة - هو في ممارسة الحديث بها... وكانت شيرلي الآن قد أصبحت جزءًا من حياته... حتى إذا كان يوم، ولم يكن قد مضى على نبيل أكثر من أربعة أسابيع، أعلن مدير الشركة أن الهر نبيل سالم سوف يتولى مسئولية سيارة تحمل خمسين سائحًا، نصفهم من العرب، والنصف الآخر من جنسيات أخرى، لكنهم جميعًا يتحدثون الإنجليزية.

- هر نبيل... لعلك تعلم مقدار الأهمية التي نضعها على نجاحك في رحلتك الأولى.

- لا تخشَ شيئًا سيدي المدير، ستجدني كما تريد لي بالضبط.

ابتسم الرجل لمجاملة الفتى الذي كان يتفجر بالسعادة أمامه... وما إن علمت شيرلي بتلك الترقية حتى قفزت إليه وطوقت عنقه بذراعيها، وطبعت على شفتيه قبلة حارة.. فدار رأسه.

- كم أنا سعيدة يا حبيبي.

وكما كانت القبلة التي منحته إياها هي قبلتها الأولى له، كانت كلمة «حبيبي» هي الأخرى وكأنها شهادة عقد لم يوقع بعد.

وكم كانت الدنيا زاهية في عيني نبيل سالم.

❊ ❊ ❊

في صباح اليوم التالي هتفت به شيرلي هايمان:

- أين غاب عنك منتجو السينما أيها الشاب؟!

كان نبيل بالفعل وسيمًا في اليونيفورم الخاص بالشركة... اقترب منها هامسًا:

- ألا تتمنين لي حظًا سعيدًا؟!

- لا تنس أنك مدعو على العشاء الليلة؟!

- عشاء... ومن الداعي؟!

- فتاة أمريكية سعيدة الحظ لأنها عرفتك وهي تريد الليلة أن تحتفل بك ومعك.

كان غزلها رفيعًا، وكانت تتسرب إلى دمائه يومًا بعد يوم... تركها على مضض ودلف إلى مكاتب الشركة كي يجهز أوراقه وحقيبته ويراجع الأسماء... دلف إلى أحد المكاتب مندفعًا إلا أنه توقف فجأة وكأنه تسمر في الأرض... فأمامه مباشرة، كان أبو سليم يجلس إلى أحد الموظفين وقد استغرقا معًا في مناقشة حامية حول تأجير سيارات، ما إن توقف نبيل حتى التفت أبو سليم نحوه، وكانت نظرة واحدة من الرجل كافية لأن تنبهه فتظاهر كل منهما بأنه لا يعرف الآخر... ألقى نبيل عليهما تحية الصباح ثم اندفع نحو المكتب الذي خصص له وراح يراجع الأوراق والكشوف... استخرج من أحد الأدراج حقيبة متوسطة الحجم شديدة الأناقة تحمل اسم الشركة، وضعها أمامه وراح يرتب أوراقه مستغرقًا في عمله... هتف الموظف في أبي سليم إن الفواتير القديمة موجودة، لكنها في قسم آخر، وما لبث الرجل، مع إلحاح أبي سليم أن نهض مغادرًا الغرفة.

ظل نبيل - رغم انصراف الرجل - مستغرقًا فيما هو فيه حتى جاءه صوت أبي سليم:

- بص للشنطة دي كويس يا نبيل.

رفع نبيل بصره إلى الرجل، ثم انحدر به إلى الحقيبة الراقدة فوق المكتب:

- دي بتاعة الشركة.

- لما تطلع الأوتوبيس حاتلاقي فوق الكرسي نمرة ١٢ شنطة زيها بالضبط.

- من بتوع الشركة؟

- من بتوع الشركة.

- ودي ما لها؟

- ملهاش... خد الأوراق اللي حاتستعملها، وحط شنطتك جنبها.

- ليه؟!

- علشان وإنت نازل لازم تغلط وتأخذ الشنطة التانية وتسيب دي.

قفز قلب نبيل إلى حلقه، أضاء النور فجأة على حقيقة لم تغب عنه، وإن كان قد غيبها هربًا.

- ما هو... أصل... يعني لما...

لم يكن يريد أن يقول شيئًا... كان فقط يبحث عن صوته، وعندما وجده قال:

- ولما آخذ الشنطة أوديها فين؟

- تحطها في الخزنة اللي انت أجرتها في محطة السكة الحديد.

- وإذا حد مسكني؟!

- حاتقول إنك أخدتها غلط وإن شنطتك اللي فيها الأوراق في الأوتوبيس.

أضاءت وجه نبيل ابتسامة... وزفر:

- وبعدين؟!

- عارف مكتبة فانداو؟!

- طبعًا عارفها.

- في القسم بتاع الروايات والقصص، في الرف الثالث على يمينك فيه مجموعة أعمال جوته.. عارفه؟

- ده شاعر ألماني.

- أول مجموعة كتب على الشمال حاتلقاها رواية فاوست.

- رواية فاوست؟!

- أول نسخة في المجموعة دي، تاخدها، تقرأ فيها شوية، وتحط مفتاح الخزنة في صفحة ٨٠- ٨١ وترجع النسخة مكانها بالضبط، وتمشي على طول من غير ما تبص وراك.

همَّ نبيل بالسؤال لكن الموظف عاد مهرولًا وهو يمسك في يده ملفًا قدمه لأبي سليم.

- إليك يا سيدي كل ما تريده من فواتير قديمة.

استغرق أبو سليم في عمله، وعاد نبيل إلى ما كان فيه، لكنه كان الآن يشعر بأنه سيخطو خطوته الأولى نحو عالم غامض وغريب، تفجرت في رأسه عشرات الأسئلة، لكنه كان يعلم يقينًا، أنه حتى الإجابات لن تشفي غليله، ولن تصل به إلى بر... فاستسلم لقدره.

الفصل العاشـر

الحقيبة والمفتاح

ليس منطقيًا أن نتهم نبيل سالم بالغفلة أو الغباء... ذلك أن كل الأحداث التي مرت بهذا الشاب التعس، أكدت أنه يدرك معنى الأحداث في حينها، لكنه - على حد تعبيره فيما بعد - كان «يطنش»، ويلقي خلف ظهره بكل ما من شأنه أن يجعله يتأمل أو يتدبر أمره.

ويقينًا... فإن مسألة اختياره لتلك الوظيفة التي أعلنت عنها شركة السياحة الأمريكية هذه لم تمر عليه مرور الكرام، حتى وإن تشبث أمام وعيه بأنهم قبلوه لكفاءته، أو - على الأقل - لأنه كان أصلح من تقدم للوظيفة، فلقد كانت الطريقة التي قابله بها المدير، وتلك الأسئلة الساذجة التي طرحها الرجل عليه، والتسهيلات التي قدمت له... كل هذا جعله، ولو في لاوعيه، يوقن بشكل غامض، أن أصابع أبي سليم كانت وراء هذا الذي حدث.

لذلك، فهو عندما رأى أبا سليم في أحد مكاتب الشركة يتفاوض ويتناقش مع أحد الموظفين، تصاعد هذا الإحساس إلى وعيه بوضوح، وعندما غادر الموظف الغرفة، لم يفت نبيل أنه غاب لدقائق كانت كافية لأن يلقي له أبو سليم بتعليماته الجديدة حول الحقيبة... وأنه عاد إلى الغرفة في الوقت المناسب تمامًا... لذلك، فلقد قرر الاستسلام لواقعه، لأنه لم

يكن على استعداد لأن يفقد ذلك الواقع الذي كان يتشبث به تشبثًا ملك عليه تفكيره.. فهو - مثلًا - لم يكن على استعداد لأن يفقد تلك الوظيفة كي يعود إلى مطبخ مطعم حقير، ولم يكن على استعداد لأن يفقد صلته بشيرلي هايمان التي مثَّلت له في تلك الأيام ذروة السعادة، بل - ودون مبالغة - ذروة إحساسه بالأمان.

كانت شيرلي قد استطاعت أن تحتويه احتواءً كاملًا، وبالتأكيد... فإن هذه الفتاة الخطيرة كانت تعرف عنه كل شيء، كما كانت - في نفس الوقت - قد لُقنت بما يجب عليها أن تفعله معه... وبخبرتها السابقة مع الشباب الجزائري في باريس، فلم يكن الأمر يشكل أي نوع من أنواع الصعوبة بالنسبة إليها... وهكذا وما إن شرعت في وجهه أسلحتها، حتى سقط نبيل سالم في شرَاكها، واستسلم دون مقاومة.

وإذا كان نبيل أحس بهذا وارتضاه، إلا أنه لم يتساءل عن السبب الذي من أجله اختار أبو سليم ذلك الوقت - الشديد الضيق - كي يلقي إليه بتعليماته فيما يختص بأخطر مرحلة من مراحل تعاونهما معًا... وحتى إن كان قد تساءل، فهو بالتأكيد لم يكن ليفهم أو يعي تلك الشراك التي نُصبَتْ من حوله كي تسيطر عليه وتسلبه كل إرادة، وتحوله من إنسان إلى أداة طيعة لا حول لها ولا قوة.

لم يكن الأمر في حاجة إلى ذكاء، كي يعلم نبيل أن الحقيبة التي كان عليه أن يأخذها من الأوتوبيس، كانت محملة بالمخدرات... ولقد حمد لأبي سليم أنه اختار ذلك الأسلوب الذي قد يجنبه الكثير من المآزق «لو أن الطوبة جاءت في المعطوبة» وقبض عليه... ففي ذلك الوقت، لم يكن عليه إلا أن يقول إن لَبْسًا قد حدث، وإنه أخذ تلك الحقيبة خطأ بدلًا من حقيبته التي كانت موضوعة إلى جوارها... وعلى كلٍّ، فما إن صعد إلى الأوتوبيس، وكان السائحون قد سبقوه إليه واحتلوا مقاعدهم، وما إن ألقى ببصره إلى الرف الذي يعلو المقعد رقم ١٢، حتى وجد تلك الحقيبة

الأخرى، فإذا بها نسخة طبق الأصل من تلك التي يحملها... كان لها نفس اللون ونفس الحجم ونفس المواصفات... كما كانت تحمل نفس «بادج» الشركة الذي يُحَلّي حقيبته هو أيضًا.

حَمَد نبيل سالم لأبي سليم هذا حقًّا، لكن ذهنه أبدًا لم يتطرق - ولم يكن ليتطرق - إلى أن الرجل كان قد بدأ تدريبه منذ ذلك اليوم... فمما لا شك فيه أن تلك الحقيبة الأخرى التي كانت تنتظر نبيل على الرف الذي يعلو المقعد رقم ١٢ في الأوتوبيس، لم تكن تحوي مخدرات ولا يحزنون، بل كانت تحوي بعض أوراق صحف ومجلات، مما يعطيها نفس وزن الحقيبة لو أنها كانت محملة بالمخدرات فعلًا... وإن أبا سليم عندما اختار هذا الوقت الضيق كي يلقي إليه بتعليماته، إنما كان يدربه على سرعة الاستيعاب دون مراجعة، ولو أن نبيل أخطأ في استيعابه لتعليمات أبي سليم، لما حدث ضرر محقق، ولكن... كان الأمر سوف يصبح، بالنسبة إليه، ذا وجه آخر بكل تأكيد.

وللحقيقة، ورغم اضطراب نبيل الداخلي، فإن الأمر بَدَا لَهُ، في مراحله المختلفة، أسهل وأبسط بكثير مما كان يتصور... فهو، ما إن لمح تلك الحقيبة، حتى توجه إلى مقعده بجوار السائق، وفتح حقيبة أوراقه، وأخرج منها ما يحتاج إليه من أوراق، ثم أغلقها وعاد بها إلى حيث كانت الحقيبة الأخرى، فوضع هذه إلى جوار تلك، ثم عاد إلى مكانه، وكان الأمر يبدو طبيعيًّا للغاية.

قبل أن ينطلق الأوتوبيس، كانت شيرلي هايمان هناك، على الرصيف، تنظر إليه متتبعة خطاه، متطلعة مشرئبة العنق تبدو وكأن السعادة تملؤها... حتى إذا تحرك الأوتوبيس وأمسك نبيل بالميكروفون، وألقى بتحية الصباح على السائحين، رفعت له يدها ملوحة له ثم أرسلت له قبلة في الهواء، علنًا وأمام الجميع، وكأنها تعلن للعالم كله موقفها بوضوح.

❋ ❋ ❋

ولقد كانت رحلته الأولى ممتازة بكل المعاني، كان مُوَفَّقا في شرح معالم المدينة التي قضى ليالي وليالي في استذكارها ومعرفة تواريخها... كان يتحدث إلى الفوج بالعربية أولًا، ثم يعيد الشرح بالإنجليزية في سرعة ولباقة وخفة ظل جعلت الركاب ينجذبون إليه ويمطرونه بالأسئلة والطلبات فقضى معهم يومًا مشهودًا... حتى إذا ما انتهت الجولة، وعاد الأوتوبيس إلى مقر الشركة قبل الغروب بقليل، وراح هو يودع الركاب ويداعبهم أحس نبيل برضا عن نفسه جعله يمتلئ بالغبطة... ومع مغادرة آخر الركاب، جمع أوراقه، واتجه نحو الرف كي يأخذ الحقيبة... لم يجد هناك سوى الحقيبة الأخرى، أما حقيبته هو، فكانت قد اختفت.

أحس وهو يحمل تلك الحقيبة التي كان المفروض أنها محملة بالمخدرات، أنها في ثقل جبل... غادر الأوتوبيس فتجمع السائحون من حوله وراحوا يمطرونه بالشكر على اليوم الذي قضاه معهم، لمح - بجانب عينه - مدير الشركة واقفًا خلف زجاج نافذة مكتبه يرقب ما يجري، وكانت شيرلي هناك تنظر إليه باسمة... تبادل معها نظرة سريعة وأسرع إلى حيث كان مكتبه... أودع الأوراق أحد الأدراج وحمل الحقيبة وهم بمغادرة المكتب عندما اقتحمت عليه شيرلي الغرفة.

- إلى أين أنت ذاهب؟

- موعد سابق مع صديق قديم.

كانت بعينيها نظرة عتاب فأوضح:

- أنا لم أنس أني مدعو الليلة على العشاء.

- ولماذا أنت عصبي؟!

أُرتج على نبيل، فلم يكن قد انتبه إلى عصبيته، ولم يكن في انتظار مثل هذا السؤال، هتف:

- هل أنا عصبي حقًا؟

تجاهلت سؤاله مراوغة:

- موعدنا في السابعة فلا تتأخر.

جاءته لهجتها حاسمة باترة وكأن سلطانها عليه لا شك فيه... جمد لثوانٍ وراح يتأملها بنظرة إعجاب، ما لبث أن مال عليها وطبع قبلة فوق وجنتها فتضرج وجهها بلون الدماء... تبعثرت أنفاسه فخفض بصره متمتمًا بكلمات اعتذار فهو لم يكن يقصد إلى ما فعل... فرغم الأسابيع التي قضياها معًا، فقد تجاوز معها إلى... إلى حد القبلات... هرول مغادرًا الغرفة لا يلوي على شيء، كان سابحًا فوق السحاب لا يدري أن كل ما مر به لم يكن سوى امتحان بعد امتحان.. وأن شيرلي هايمان، بعد ذلك بدقائق، كانت تقدم تقريرًا عما حدث بينهما، وعن رأيها فيما حدث، وأنها ختمت تقريرها بالحديث عن تلك القبلة التي طبعها فوق وجنتها قائلة:

- أعتقد أنه انتهى تمامًا.

* * *

نَفّذَ نبيل الأوامر التي صدرت إليه تنفيذًا دقيقًا.

وضع الحقيبة في الخزينة التي استأجرها في محطة السكة الحديد.

استقل أحد الأوتوبيسات إلى مكتبة «فانداو»... دخل المكتبة بحثًا عن قسم الأدب الألماني... وقف أمام الركن الذي ذكره له أبو سليم، كانت هناك مجموعة من كتاب «فاوست» للشاعر الألماني «جوته» مد يده إلى الكتاب الأول في المجموعة وتذكر قول أبي سليم:

- تحط المفتاح في الكتاب وتمشي من غير ما تبص وراك.

كان المفتاح الصغير في يده فتلفت حوله وكان يقف في ممر طويل بين أرفف مكدسة بالكتب... وضع المفتاح بين صفحتي ٨٠ و ٨١ ثم أعاد الكتاب إلى مكانه وغادر المكتبة على عجل.

* * *

كان موعده مع شيرلي هايمان في أحد المطاعم الصغيرة الذي ارتاحا إليه وتعودا التردد عليه، استقبلته شيرلي بنظرة طويلة فاحصة... كان نبيل سالم يبدو الآن وكأنه إنسان آخر، شيء غريب كان قد تغير فيه... حتى نبيل نفسه كان قد أدرك وهو يحمل الحقيبة المليئة بالمخدرات أنه أصبح إنسانًا آخر... كان هو هو نفس الشاب الوسيم المرح المتدفق بالحيوية... لكن شيئًا ما، شيئا غريبا ربما في أعماقه، أو في روحه... شيئا كان قد تغير فغيره.

فبينما كان يتحدث ويحكي ويقص ما حدث له في يومه الأول في سعادة... ورغم أنه كان يتحدث بالألمانية، فإن حديثه كان متدفقًا، وذهنه صاحيًا، وتوتره يتصاعد لحظة بعد لحظة... حتى إذا ما انتبه إلى أنها تحملق فيه توقف متسائلًا:

- شيرلي... لمَ تحملقين فيَّ هكذا؟!

مالت نحوه واضعة عينيها في عينيه:

- لقد كنت مع صديق قديم... أليس كذلك؟!

اضطرب هاتفًا:

- نعم.

- إذن فأين حقيبتك أيها العزيز؟!

- انتبه نبيل في لحظة خاطفة إلى أن ثمة شيئًا ما قد غاب عن ذهنه، فعندما طلب منه أبو سليم أن يضع الحقيبة في خزينة محطة السكة الحديد، وأن يدس المفتاح في نسخة من نسخ قصة «فاوست» لجوته... لم يسأل كيف سيذهب إلى عمله في اليوم التالي بلا حقيبة، وكيف سيسترد حقيبته التي أخذت من فوق المقعد رقم ١٢ ... ولقد أصابه إحساسه بالغفلة بإحباط بدا على ملامحه واضحًا، مما دفع شيرلي هايمان إلى أن تسأله:

- ماذا أصابك يا نبيل؟!

راوغها هاربًا مما كان يعتمل في نفسه:

- لعلك تشكين في إخلاصي يا شيرلي؟!

- كنت أسألك عن الحقيبة؟!

- هل تغارين؟!

ضحكت - ربما رغمًا عنها - ضحكة فيها من السخرية ما لم يخف عليه، فزاد هذا من إحساسه بالإحباط... وما لبثت شيرلي أن قالت:

- نبيل، لعلك لم تفهم سؤالي.

- فهمته... ولقد مررت على الفندق قبل أن آتي إلى هنا، وتركت الحقيبة هناك.

ولقد اكتفت شيرلي بجوابه هذا فمدت يدها وربتت على يده في حنان أذابه:

- عليك أن تنتهي من عشائك أيها العزيز... ولا بد أن اليوم كان مرهقًا بالنسبة إليك.

همَّ بالاحتجاج فأردفت:

- ولا تنس أن لديك موعدًا في الصباح الباكر مع فوج آخر.

وهكذا انقضت ليلة عرسه الأول في وجوم، فلقد راح ذهنه يلوك مشكلة الحقيبة فيزداد قلقه لحظة بعد أخرى... أخذ يتساءل كيف فات الأمر عليه وكيف سيذهب إلى عمله في الصباح دون حقيبة وكيف غفل أبو سليم عن مثل هذا «المطب» وهو الذي لا يفوته شيء... تناول عشاءه فغادرته الفتاة ومضى إلى فندقه غارقًا في حيرة بلا حدود... لكن حيرته تبددت تمامًا عندما فتح باب غرفته، وأضاء النور كي يجد أبا سليم قد سبقه إليها.

* * *

كانت نظرة سريعة كافية لأن يكتشف أن حقيبته موضوعة إلى جوار أبي سليم.

- كنت فين؟

في جفاء جاء رده:

- كنت باتعشى.

- لوحدك؟

- لا... شيرلي هايمان كانت معايا.

- هادي البنت الأمريكانية اللي بتشتغل معاك في الشركة؟

- أيوه هي.

- ما قلتليش يعني إنكوا بقيتوا أصحاب.

- وهو انا لازم أقول لك على كل حاجة؟!

- كل حاجة كبيرة أو صغيرة، وكل إنسان تشوفه أو تصاحبه أو تصادفه أو تقابله.

- معقول ده يا ابو سليم؟!

- اللي أوله شرط آخره نور.

- دي كانت عازماني على العشا بمناسبة خروجي مع أول فوج ليَّه.

- اتكلمتوا في إيه؟

- في حاجات كثير.

- سألتك على حاجة؟!

- سألتني واحنا في الشركة رايح فين قلت لها عندي ميعاد مع واحد صاحبي.

- ما سألتكش على حاجة ثانية؟

- لما رجعت لها سألتني عن الشنطة.

- قلت لها إيه؟

- قلت لها إني وديتها اللوكانده.

- وديت البضاعة في الخزنة؟

- وحطيت المفتاح في الكتاب.

- وشنطتك فين؟

تذمر نبيل قافزًا من مكانه:

- ما هو ده اللي قلب كياني.

- وكان لازم تاخد بالك وتسأل.

- مكانش ممكن.

- إحنا ما يلزمناش ناس نايمة.

- لاحظ إنك فاجئتني.

- أي تعليمات بالنسبة لأي عملية حاتبقى مفاجأة.

- كان لازم أعرف من الأول.

- يعني إنت عرفت دلوقت؟

- أكيد.

أشار أبو سليم إلى الحقيبة الموضوعة إلى جواره:

- الشنطة آهيه.

- شفتها.

- كتبت لسامية؟

- لسه.

- لازم تكتب لها.

- ليه لازم يعني؟!

أطلقت عينا أبي سليم تلك النظرة النارية فتراجع نبيل مغمغمًا:

- خلاص... حاكتب لها.

مد الرجل يده في جيبه وأخرج رزمة صغيرة من الماركات الألمانية ألقى بها فوق المائدة الصغيرة التي كانت تتوسطهما:

- ده حسابك في عملية النهارده.

نظر نبيل إلى النقود غير مصدق، قدر عددها وكانت تصل إلى بضع مئات من الماركات اضطرب قليلًا لكنه تماسك ولم يمد يده إليها... تحرك أبو سليم في مكانه كمن يهم بالانصراف، فهتف نبيل:

- مش حانتفق؟!

- على إيه؟!

- شنطة الشغل حابقى آخدها إزاي بعد ما أوصل البضاعة؟!

ابتسم أبو سليم:

- بدأت تتعلم.

- تلميذك يا ابو سليم.

كان الحوار بينهما هذه المرة جافًا... لم يكن أبو سليم الذي يجلس أمامه الآن هو أبو سليم الذي تعرف عليه وأحبه وصادقه واستسلم له... تركه الرجل ومضى فتناول هذا رزمة الأوراق المالية وكان المبلغ مجزيًا بحق... أحس نبيل سالم في تلك الليلة فقط أنه من الممكن أن يصنع شيئا وأن يكون شخصًا له اعتباره... تشتت فكره عندما ألحت عليه شيرلي هايمان... فكر في الاتصال بها لكنه اكتشف أنه لا يعرف لها عنوانًا أو رقم تليفون... مثلها مثل أبي سليم الذي طلب منه ذات يوم رقم تليفونه فسأله هذا في جفاء:

- ليه؟

- مش يمكن أحتاج لك؟!

- لما تحتاجني حاتلقاني جنبك يا نبيل.

قضى تلك الليلة تمزقه أحساسيس متناقضة... كان سعيدًا بنجاحه في الشركة كما كان سعيدًا لحصوله على هذا القدر من المال، لكنه كان يشعر وكأنه معلق في فضاء لا أرض له... كان كل شيء يبدو رائعًا لكنها روعة ناقصة، معلقة على كف عفريت... غامضة غموضًا جعل من نومه رحلة للعذاب.

غير أن مرور الأيام كان كفيلًا بأن يجعل كل شيء يبدو طبيعيًا للغاية... وأن يضفي على المسألة كلها طابع الأمان... فلقد تعود نبيل سالم أن تأتيه الأوامر من أبي سليم في أية لحظة وبأية وسيلة... لم يكن الأمر يحتاج إلا إلى كلمة أو كلمتين كي يجد الحقيبة فوق رف يعلو مقعدًا كان رقمه يتغير في كل مرة... كما كانت الخزينة هي الأخرى تتغير كل بضعة أسابيع... وإذا ما قام بما عليه وجد المال بين يديه سهلًا ميسورًا... وإذا كان نبيل قد استغرق في علاقته بشيرلي هايمان استغراقًا جعل الفكاك منها أمرًا شديد الصعوبة... فلقد كان مواظبًا على الكتابة لسامية فهمي، وكانت خطاباته في تلك الفترة تبدو لها مشرقة كل الإشراق... لم يكن يحدثها بطبيعة الحال عن الحب، لكنه كان يحدثها عن النجاح الذي أصبح يسير في ركابه... وتجمع لديه بضعة ألوف من الماركات دفعته ذات يوم إلى أن يشتري بذلة غالية طالما رآها معروضة في النافذة الزجاجية لأحد المحلات الكبرى والشهيرة... لكنه في اليوم الذي ارتداها فيه لاقى ما لم يتوقعه أو يتخيله... كان على موعد مع شيرلي للعشاء في أحد المحلات الراقية... دهشت وهي تسأله من أين جاء بالمال كي يدعوها إلى محل مثل هذا... لكنه راوغ قائلًا إنه كان يقتصد ويقتر حتى يستطيع دعوتها إلى ذلك المحل... في تلك الليلة ارتدى البذلة الجديدة ووقف أمام المرآة يتأمل نفسه في

إعجاب عندما دق جرس التليفون وكان أبو سليم هو المتحدث وكان يريد لقاءه في إحدى الحدائق بعيدًا عن الأنظار... وفورًا.

أسقط في يد نبيل فلقد كان موعده مع شيرلي اقترب ولم تكن هناك وسيلة للاعتذار فهو لا يعرف كيف يتصل بها ولا أين... لكنه لم يكن ليستطيع أن يناقش أو يجادل أو يعتذر، لم يكن ليستطيع إلا أن يلبي فلَبَّى... ما إن رآه أبو سليم حتى بدا الغضب عليه واضحًا:

- إيه ما لك يا ابو سليم؟!

- إيه اللي انت لابسه ده؟!

- دي بدلة جديدة اشتريتها من يومين.

- بكام؟!

ما إن سأله أبو سليم هذا السؤال حتى انتبه إلى ما وقع فيه من خطأ فارتبك وتلجلج وراح يغمغم بكلمات لا معنى لها وإذا بأبي سليم يستطرد محتدمًا:

- تفتكر موظف زيك في شركة سياحية، ممكن يشتري بدلة زي دي؟!

ازداد ارتباكه فتساءل:

- قصدك إيه؟!

- قصدي واضح يا نبيل.

- صمت نبيل وقد نبتت قطرات عرق فوق جبهته وإذا بالرجل يزمجر:

- ما رديتش على سؤالي.

- لا طبعًا... مش ممكن.

– طب حاتقول إيه لشيرلي هايمان لما تسألك جبت فلوس البدلة منين؟

خفق قلبه فلقد تذكر سؤال شيرلي، وعاد أبو سليم مردفًا:

– بلاش شيرلي هايمان.. أي حد يشوفك لابس البدلة دي حايقول إيه؟!

– وإيه المطلوب مني دلوقت؟

– زعلت؟

جاءه السؤال مباغتًا فاختنق.

– أنا خايف عليك يا نبيل.

شحب وجه نبيل شحوبًا عظيمًا وقد مزقته كلمات الرجل وأسلوبه الذي كان يتراوح ما بين قسوة رهيبة وحنان دافئ.

– تفتكر اللي زينا بيقعوا في إيدين البوليس ليه؟!

نظر إليه نبيل مستفسرًا فاستطرد هذا:

– لأنهم ما بياخدوش بالهم من حاجات كثير... تلاقي واحد خالي شغل ولابس بدلة ثمنها الشيء الفلاني وبيصرف الفلوس زي التراب... على طول الناس حاتسأل جاب الفلوس منين، ويبدأ البوليس يشك، ويبدأ في مراقبته.

كان حديث الرجل منطقيًا، كما كان مقنعًا.

– وفي حالتك أنت، الناس مش حاتشك فيَّ أنا.

حاول نبيل المقاومة:

– اشمعنى فريدريك بيلبس وساكن في شقة محترمة؟!

- ما احنا قلنا من الأول... فريدريك ألماني، وممكن تكون له ألف شغلانة وشغلانة... لكن احنا أغراب، وكل شغلانة بنشتغلها لازم إدارة الهجرة تاخد خبر بيها.

في استسلام قال نبيل:

- معاك حق يا ابو سليم.

- هتف أبو سليم ضاحكًا وهو يغمز بعينه:

- وعلى كلٍّ... أنا عارف إنك عاوز تسيب اللوكاندة وتسكن في شقة.

- قصدك إيه؟

- مش المهم قصدي... المهم إنك عاوز تتنقل فعلًا.

وبالرغم من أن نبيل لم يكن - حتى تلك اللحظة - قد فكر في الأمر، فإن الرجل كان يدفعه بأسلوبه ونبرته الموحية إلى الاستجابة ولقد صاح نبيل مكابرًا:

- حقي يا ابو سليم، حقي... إنت ما تعرفش أنا تعبت قد إيه في السنين اللي فاتوا.

- طب ما تنقل لشقة كويسة يا أخي.

- أنتقل إزاي وانت واقف لي على الواحدة؟!

- بالعكس... لو كانت الشقة معقولة مش حاتلفت الأنظار... وحايبقى أمر طبيعي إنك تسكن فيها بعد ما لقيت وظيفة خالية.

- يعني أرمي البدلة دي؟!

- وترميها ليه... كلها شهرين ثلاثة وتاخد علاوة وتلبس زي ما انت عاوز.

وابتسم نبيل.

ابتسم وقد عاوده الأمل من جديد... كان قد تعود أن تتحقق كل نبوءات أبي سليم... كان عليه في تلك الليلة أن يبدل ملابسه قبل الذهاب إلى شيرلي حيث كانت في انتظاره متظاهرة بالغضب فصالحها...أصبح كل همه منذ اليوم التالي هو البحث عن شقة مناسبة، ولم تمض أيام حتى وجدها بمساعدة شيرلي هايمان... كانت شقة صغيرة مؤثثة بأثاث بسيط لكنه أنيق، وكان فيها كل ما يحتاج إليه وكل ما حلم به... أكثر ما أسعده في هذه الشقة... أن شيرلي – أحيانًا – كانت تقضي الليل فيها معه.

لكن نبيل، لم يكن يدري أنه وهو سابح فوق سحابات سعادته المزيفة تلك... كان مسوقًا إلى الخطوة التالية، كان مسوقًا إلى قدره الذي ارتضاه، بل وسعى إليه.

الفصل الحادي عشر

الضربة القاضية

عندما غادرت سامية فهمي مبنى المخابرات العامة المصرية في ذلك اليوم الثالث الذي التقت فيه بعادل مكي، كان الوقت لا يزال مبكرًا... أوصلها الحارس حتى البوابة الرئيسية فخرجت إلى الطريق لا تعرف إلى أين تذهب... قطعت المسافة فيما بين المبنى وميدان القبة في دقائق لا تعرف إن كانت قد طالت أم قصرت، زحفت في سيرها عابرة مزلقان السكة الحديدية منحدرة إلى الطريق الرئيسي الذي يصل العباسية بمصر الجديدة... كان الجو حارًا وعدد السيارات قليلًا والطريق شبه خال والحزن يخيم على المدينة كما كان يخيم على حياتها... لا تدري سامية فيم كانت تفكر في ذلك الوقت ولا كيف كانت تفكر... ازدحمت الأفكار في رأسها وتلاطمت كموج عاصف في بحر لا يستقر، أخذت تستعيد ما حدث معها في إيطاليا فتقلصت معدتها وشعرت برغبة شديدة في القيء، حاولت تفسير ذلك الغموض الذي اكتنف تصرفات نبيل فقادها تفسيرها إلى ما لا تحب، حاولت أن تجد، وسط عواصف الأفكار، مَخْرَجًا دون جدوى، أدركت في لحظة مخيفة أنها لا تزال تهرب من الواقع فهتفت بصوت مرتفع:

- هو أنا بادافع عنه ليه؟! إذا كان مذنب يبقى مذنب ولازم ياخد جزاؤه.

- أفندم؟!

جاءها التساؤل بغتة من خارجها فالتفتت في ذعر... كان ثمة شاب متوسط الطول أسود الشعر واسع العينين راح يحملق فيها، ارتبكت متسائلة:

- فيه حاجة يا أستاذ؟!

- أبدًا.. بس أنا اتهيألي إن سيادتك ناديتي عليّ.

أدركت أنها حدثت نفسها بصوت مرتفع فاضطربت:

- لا أبدًا... أنا... أنا متأسفة.

همت بالسير وإذا الشاب يرفع يده كمن يحاول أن يمنع شيئًا من السقوط.

- سيادتك مش عاوزة حاجة؟!

- حاجة زي إيه؟!

- أنادي لك تاكسي؟!

أحست بدوار وزحفت الغيبوبة إلى وعيها فخطت نحو شجرة استندت إليها متمتمة:

- مش عارفة... مش عارفة.

فيما بين اليقظة والغيبوبة جاءها صوته مناديًا:

- تاكسي... تاكسي.

توقفت السيارة إلى جوارها واقترب منها الشاب:

- حضرتك رايحه فين؟

- مجلة الفجر.

- تحبي أوصلك؟!

- لأ... شكرًا.

خطت نحو السيارة فأسرع الشاب يفتح لها الباب، ألقت بنفسها فوق المقعد الخلفي فأغلق الباب ودلف إلى المقعد المجاور للسائق:

- مجلة الفجر يا اسطى.

مالت إلى الأمام مُسْتَفَزَّة وهي تسأله:

- حضرتك رايح فين؟!

- نفس الشارع، إذا ما كانش عندك مانع.

ارتد إليها وعيها في صدمة أيقظتها تمامًا مما كانت فيه... اعتدلت في جلستها وقد استبد بها الرعب فلقد كانت السيارة قد تحركت فعلًا... زحفت السيارة عابرة نفق العباسية منحرفة إلى اليمين فقطع الشاب الصمت متسائلًا:

- سيادتك بتشتغلي في مجلة الفجر؟

- أيوه.

- ممكن أطلب منك طلب؟

تساءلت في جفاء وهي تتحفز استعدادًا لما لا تدري:

- طلب زي إيه؟

- تعرفي الآنسة سامية فهمي؟

- هه.

- إنتوا مش معاكم محررة اسمها سامية فهمي؟

أصبحت في ذروة وعيها ويقظتها وتوترها معًا... انتبهت كل حواسها وهي تسأله:

- سامية زميلتي. سيادتك تعرفها؟

- لأ... أنا من قرائها.

- أهلًا وسهلًا.

- ممكن تبلغيها إعجابي الشديد بالتحقيقات اللي بتعملها؟

كمن يغتسل بعد طول عناء قالت سامية:

- أقول لها مين؟

- حسنين عبد ربه مهندس زراعي من البحيرة.

هتفت سامية دون وعي:

- انت اللي اتخانقت مع المحافظ؟

بدت الدهشة على وجهه فاستدار نحوها بكليته:

- بصراحة لولا شجاعة الآنسة سامية مكانش ممكن أرجع لمركزي تاني.

وتذكرت سامية ما حدث منذ شهور قليلة قبل سفرها المشؤوم إلى إيطاليا.

في لحظة أشرقت فيها الحياة في صدرها من جديد تذكرت.

قالت للشاب إنها قرأت خطابه الذي نشرته سامية، قالت إن الناس يجب أن يواجهوا الخطأ وأن يحاربوه ويعترضوا طريقه مهما كان المخطئ... راحت تثرثر معه وقد اجتذبها حديثه كما اجتذب السائق الذي شارك في الحوار... فمنذ شهور جاءها خطاب من مهندس زراعي اختلف مع المحافظ فنقله هذا إلى مكان ناء... فما كان منها إلا أن نشرت الخطاب مشفوعًا بتعليق يُذَكِّر المحافظَ بأَن مصر لم تعد عزبة... قبل مضي أسبوع

عاد الموظف إلى وظيفته الأولى... وها هو ذلك المهندس أمامها بلحمه ودمه وكان سعيدًا بما حدث وكانت سعيدة بالحوار فأحست بأن روحها تُرَدُّ إليها بعد طول غياب، شعرت أنها تصعد إلى سطح الحياة بعد أن دفعها القدر إلى قاع يأس مدمر... توقفت السيارة أمام المجلة فغادرتها وغادرها المهندس الزراعي حسنين عبدِ ربه، حاولت أن تدفع أجر التاكسي لكن الشاب أصر على الدفع ضاحكًا:

- أصلنا لا مؤاخذه فلاحين، وتبقى عيبه كبيرة في حقي لو خليتك تدفعي حاجة.

ابتسمت شاكرة ومضى التاكسي... سألها الشاب فجأة وكأنه يعود بالحديث إلى مساره الأصلي.

- إنتِ كويسة دلوقت؟

نظرت إليه ساهمة فابتسم معتذرًا:

- يظهر إنك كنتي تعبانه شوية.

- مش شوية يا باشمهندس، أنا كنت تعبانه قوي.

- ودلوقت؟

مدت يديها مودّعة:

- الحمد لله... أنا متشكرة قوي.

تساءل في خجل:

- طيب... مش أتشرف بالاسم؟

قالت في اضطراب:

- سامية فهمي.

ثم استدارت مهرولة صاعدة درج المبنى.

* * *

- تصوري يا سامية... أنا ومراتي كنا في سيرتك النهارده الصبح.

هكذا هتف أحمد مختار رئيس التحرير عندما دخلت مكتبه.

- خير يا أستاذ أحمد.

- أبدًا... كنت باكتب الافتتاحية لما افتكرت يوم ٩ يونيو.

وكأن الأمر مؤامرة هدفها إعادة التوازن إلى نفسها، تساءلت وهى تتذكر تلك الليلة العصيبة وما فعلته وما فعله الآخرون وكأن الأمر لم يمض عليه عام... تجمعوا أمام التلفزيون في قاعة المجلة الكبيرة انتظارًا لخطاب الرئيس جمال عبد الناصر... ألقى الرجل خطابه متنحيًا عن كل ما يشغله من مناصب... هاجت الدنيا وكأن الهواء اشتعل بنار غامضة، تحدث الكل إلى الكل وكانت هي تصرخ: «لأ... لأ... لأ...»، اندفعت تشق طريقها وسط المحررين والعمال الذين أوقفوا المطبعة وصعدوا إلى المكاتب هاتفين مطالبين الرجل بالبقاء... وصلت إلى باب مكتب أحمد مختار فاقتحمته... ما إن خطت إلى الداخل حتى تسمرت في مكانها ذاهلة.

كان أحمد مختار يجلس على مقعده ملقيًا برأسه إلى الخلف، بجواره كان الراديو لا زال مفتوحًا وهو يرسل موسيقى عسكرية... على وجنتيه كان الدمع يتحدر في سرعة وغزارة أذهلت سامية لثوانٍ لكنها سرعان ما تساءلت في غضب هائل:

- إيه اللي انت بتهببه ده يا أستاذ أحمد؟!

التفت مختار نحوها فبدا وكأنه شاخ فجأة... كأن عشرات السنين قد أضيفت إلى عمره فبدت عيناه غائرتين... لم يرد عليها فعادت إلى الصراخ:

- إنت بتبكي؟!

جذب صراخها عددًا من المحررين فتجمعوا أمام الباب.

- بدل ما تبكي انزل الشارع وقول رأيك.

ظل مختار جامدًا في مكانه وكأنه تلقى صفعة أدارت رأسه... اندفعت مغادرة المكتب تشق طريقها وسط الزحام فاصطدمت في اندفاعها بفريد الشاعر:

- على فين يا سامية؟!

التفت نحوه وكان الجميع يحملقون فيها، أدارت بصرها فيمن حولها فإذا هناك عيون عيون عيون... قالت بصوت ثابت وإن اختنق بعبرات صادرتها إرادة بدت للجميع حديدية:

- إذا كان الريس عاوز يتنحى هو حر... بس مش دلوقت. مش دلوقت.

همت بالحركة فصاح فريد:

- رايحة فين ؟!

- للناس.

اتجهت إلى السلم دون انتظار للمصعد، راحت تهبط مهرولة وكان الجميع يهرولون خلفها هابطين، هاتفين، صارخين... عند باب الدار كان الطريق قد امتلأ بالناس... دفعها الذين تبعوها فهبطت إلى الشارع وذاب الكل في الكل... مئات، ألوف، مئات الألوف كانوا يزحفون وسط الظلام المفروض على المدينة الحزينة... لا أحد كان يعرف إلى أين ينتهي الزحف، فقط، كانوا يهتفون ويطلقون الحناجر بالأغنيات الوطنية... لا أحد يعرف أحدًا، لا شيء سوى بحر من البشر منبعه في الشوارع والحواري والبيوت... وصلت إلى ميدان التحرير وكان يفيض بمن فيه... تعالى صوت أزيز الطائرات الإسرائيلية في سماء القاهرة فازداد حماس الناس وازداد اندفاعهم... انفجرت في السماء بضع قنابل تطارد الطائرات فلم يتوقف أحد... ظلوا يزحفون مخترقين المدينة إلى شارع رمسيس... كان الليل قد أوغل والناس كتلة متراصة تهتف حناجرها مطالبة عبد الناصر

بالبقاء... كانوا الآن قد عبروا نفق العباسية زاحفين نحو منشية البكري حيث يعيش الرجل، عندما التفتت سامية ذات لحظة، كي ترى أحمد مختار وسط الناس يهتف وينشد لمصر... تلاقت العيون في لحظة، ثم امتدت الأيدي كي تتشابك، فتشابكت، على الفور أيدي الجميع.

- كانت ليلة.

هكذا قالت وكان أحمد مختار قابعًا خلف مكتبه يمعن النظر إليها.

- ما لك يا سامية؟!

كان سؤاله طبيعيًّا، وإن كانت قد أحست بضرورته.

- تعبانه قوي يا أستاذ أحمد.

- ما تروحي إسكندرية كام يوم.

- مش عاوزه.

- مش مهم إنتِ عاوزه إيه، المهم إنتِ محتاجة لإيه.

نهضت وهي تشد قامتها وتتنفس ملء صدرها:

- أنا محتاجة إن سامية بتاعة ٩ يونيو ترجع تاني.

أشرق وجه مختار بابتسامة رأت فيها السعادة مزغردة:

- إنت كنت قلقان عليَّ يا أستاذ أحمد ؟!

- لأ.

قالها في حسم واضح... ابتسمت فأردف:

- اللي زيك ما يتخافش عليه يا سامية.

خنقتها العبرات فاستدارت نحو الباب:

- عن إذنك.

* * *

ما كادت تغادر مكتب مختار حتى وجدت فريد الشاعر أمامها، هتف:

- سامية.

ابتسمت وقد تحجر الدمع في عينيها.

- إنتِ فين؟!

جاءها سؤاله مغموسًا في حب صارخ، سألته:

- قلقان عليَّ؟!

- قوي.

- وإذا قلت لك ما تقلقش؟!

- حاقلق أكثر.

أدركت سامية فهمي، الآن، وهى تقف في أحد ممرات مجلة الفجر، أنها هُزمت أمام الجميع، وأن نبيل سالم الذي أعطته ما لم تعطه لأمها، خذل سنوات حبها بأبشع وسيلة... راحت تهبط الدرج وفي قلبها حسرة وحزن... لكنها كانت قد اتخذت قرارها.

* * *

- عادل بيه.

- أهلا سامية.

- أنا ممكن أشوف سيادتك إمتى؟

- لما تبقي عاوزه.

- أنا عاوزه دلوقت.

ساد الصمت على الطرف الآخر لثوان، كانت قد غادرت عادل مكي منذ أقل من ساعتين جاءها صوته عبر الأسلاك:

- ما ينفعش أشوفك بعد بكره؟!

- ينفع وقت ما تحب.

- استبينا.. بعد بكره في نفس الميعاد.

أعادت سماعة التليفون إلى مكانها وتنفست الصعداء... كانت الآن في البيت وحدها... ملأت صدرها بشهيق عميق، ثم هتفت بصوت مرتفع:

- دلوقت أقدر أتكلم مع نفسي من غير ما حد يسمعنا.

راقت لها الدعابة فابتسمت وهي تجلس على أقرب مقعد، عادت إلى الحديث:

- أنا خايفة إلا نبيل يطلع خاين... مش كده؟!

من داخلها اندفع صراخ محموم:

- ما هو خاين يا سامية.

وانفجرت فجأة في بكاء أفرغت فيه كل آلامها.

* * *

كان عادل مكي، عندما طلبته سامية بالتليفون، غارقًا في تحليل خطابات نبيل إليها... كانت الأمور تتضح أمامه ودائرة الغموض تتبدد... أرسل الخطابات الأصلية إلى المعامل المختصة واحتفظ لنفسه بصورة منها فراح يقرأ في تأن.

كان من الواضح له تمامًا، أن الإسرائيليين عرفوا قدرات نبيل سالم منذ البداية، فراحوا يجهزونه للدور الذي اختاروه له... سيطرت عليه لويز جولدمان - أو شيرلي هايمان - سيطرة عاطفية كاملة... وفي الحقيقة - لأن الحقيقة لا بد أن تذكر - فلقد أحب نبيل تلك الفتاة الإسرائيلية الماكرة حبا ملك عليه حواسه وعقله جميعًا... كان فاقدًا للثقة بنفسه فراحت تدفعه إلى استعادتها رابطة تلك الاستعادة بوجودها ذاته... ولقد قال لي عادل

مكي شارحًا الأمر: إنه في تلك الفترة كان الإسرائيليون يختبرون قدراته... وهو لم يكن يصلح لتسقّط الأخبار من مصر، فهذا يحتاج إلى علاقات واسعة ومتشعبة، كانت كفيلة بأن تثير الشبهات من حول الشاب الذي لم يكمل تعليمه... ولا بد أن علاقة نبيل بموظفي الشركة، وتلك العلاقات الحميمة التي كان يقيمها مع السائحين حتى إن بعضهم كان يستعين به في قضاء أمور خاصة... لا بد أن هذا أوحى لرجال الموساد بقدرة نبيل الفذة على اجتذاب الآخرين... وكان هذا بالضبط، هو ما استقر عليه رأيهم... أن يكون «صيادًا»، أو كما يطلقون عليه بالإنجليزية اسم «Spotter»... ولقد كان من الممكن أن يبقى نبيل في ألمانيا كي يمارس تلك اللعبة فيها... لكنهم، وقد أعدوا له مخططًا جهنميًا، فضّلوا أن ينتقل بنشاطه إلى مكان آخر، إلى دولة أخرى... وأن يكون أسلوب الانتقال هذا، هو القيد الحديدي الذي يقيده إليهم ويربطه بهم، ويكمل سيطرتهم عليه.



غير أنه كان لا بد للأمر من أسباب أخرى، وليست لدينا أدلة قاطعة تثبت هذا الذي نظنه... غير أن التحليل والمنطق، لا بد وأن يصلا بنا إلى نتيجة قريبة من الواقع.

فهل كان من الممكن – مثلًا – أن تظل علاقة نبيل سالم بلويز جولدمان، التي عرفها تحت اسم شيرلي هايمان، إلى الأبد؟!

لم تكن شيرلي – بالنسبة للموساد – فتاة عادية من الممكن أن تؤدي دورًا واحدًا ثم تمضي إلى حال سبيلها حتى يحتاجوا إليها مرة أخرى، كما كان الحال مع عشرات الفتيات الأوربيات اللواتي استعملن – وهن لا يدرين– في تلك السنوات للإيقاع بالشباب العرب... لكنها كانت فتاة لها وزن خاص وخبرة ليس من السهل تعطيلها... وأغلب الظن أنهم اختاروها لخبرتها السابقة تلك ، حتى تُحكم السيطرة على نبيل إلى أن

تحين اللحظة المناسبة... ثم إذا ما انفصلت عنه، بدا انفصالها أمرًا طبيعيًا لا يثير في نفسه الشكوك.

كان نبيل الآن قد استقر في ذلك المسكن الجديد الذي تحول إلى عش غرام مارست فيه لويز جولدمان كل قدراتها كي يرتبط بها هذا الشاب التعس ارتباطًا لا فكاك منه... وكان عمله في الشركة يسير على ما يرام، فحصل في الأسابيع الأخيرة على مكافأة أضافت إلى رصيده المزيد من الماركات الألمانية... أما علاقته مع أبي سليم، فكانت قد وصلت إلى ذروة في الدقة... تعود نبيل أن يطيع أوامر أبي سليم دون مناقشة، ثم، وبرغم كل الضغوط التي مارستها شيرلي هايمان عليه، إلا أنه – أبدًا – لم يبح لها بسر حقيبة المخدرات تلك التي كان يلتقطها من الأوتوبيس في أعقاب رحلات معينة يقوم بها مع سائحين من كل أنحاء العالم، لم يبح بالسر أبدًا، وكان بارعًا في التخلص من أسئلتها التي كانت تلاحقه... ولقد جعل هذا ثقة أبي سليم تتأكد فيه، كما جعلته – من وجهة النظر الأخرى – جاهزًا للخطوة التالية.

غير أن الأمر بطبيعة الحال لم يكن ليقتصر عند تهريب المخدرات، فلقد كان هذا بالتأكيد – أمرًا مزيفًا... لم يكن أبو سليم ليقامر بوضع مخدرات في تلك الحقيبة التي كان نبيل يستبدلها بحقيبته في الأوتوبيس السياحي، فذلك أمر غير وارد بالمرة... إنما كان المراد إقناع نبيل سالم بذلك حتى تتم السيطرة عليه– في الوقت المناسب – وبشكل مطلق!

وفى تلك الأثناء، وقعت حرب الأيام الستة، وجاءت نكسة يونيو ١٩٦٧ بالنسبة لنبيل وكأنها طوق الخلاص من بقايا ضمير كانت تحيا في وجدانه، وراح أبو سليم يغذيه – كسوري وعربي – بكل ما كان عليه أن يردده وسط شباب العرب في هامبورج الذين كان نبيل يلتقي بهم بين الحين والحين، مما دفع بعض المصريين إلى الاشتباك معه بالكلمات،

ثم بالأيدي، وعندما قص ما حدث - وكان لا بد وأن يفعل - على أبي سليم، انهال عليه هذا باللوم والتقريع، فصاح نبيل:

- إذا كان كل واحد فيهم له رأي... أنا رأيي كده.

- احتفظ برأيك لنفسك يا نبيل.

- يعني أجاريهم في الكلام الفارغ اللي بيقولوه؟!

- لا تجاريهم ولا تقف في وشهم.

- يعني إيه ده بقى؟!

- اسمع منهم، وخليهم يقولوا أكثر... ولما نتقابل، تقول لي.

وهكذا راح أبو سليم يعلمه الخطوات الأولى في ذلك العلم المعروف في عالم المخابرات، وهو علم الإثارة، الذي يدفع مَن أمامك إلى قول ما لا يريد أن يقوله أو يبوح به إن كان لديه ما يخفيه أو يحرص على كتمانه... وهكذا انضبطت الأمور تمامًا... وبدت الحياة لنبيل وكأنها تهبط على أرض استقرار دفعه لأن يطلب من شيرلي هايمان الزواج.

ولست أعتقد أن الأمر كان مفاجأة لتلك الفتاة، أو لرؤسائها... وعلى كلٍّ، فهي لم ترفض طلبه، وإنما طلبت منه مهلة للتفكير.

ولقد مضت أيام بعد أيام وهو ينتظر منها ردًا، حتى إذا كان ذات مساء، وكانا يجلسان في مسكنه أمام المدفأة بعد أن تناولا وجبة شهية أعدتها شيرلي بيديها، سألها نبيل عن السر في ترددها، فغمغمت في صوت متكسر:

- لأني أخشى أن أفقدك.

صاح نبيل مستنكرًا:

- تفقديني لأني أريدك زوجة؟!

- وماذا عن صديقتك المصرية؟!

- قلت لك عشرات المرات إن سامية فهمي ليست سوى ألعوبة مسكينة.

- ثم إنك مصري.

هم بالحديث فانتفضت وكأن هناك ما يعذبها مردفة:

- ومسلم.

- وماذا في ذلك بالله عليك؟!

- فيه إني يهودية الديانة.

مضت لحظة صمت اندفع بعدها نبيل كي يحتويها بذراعيه:

- وماذا في ذلك أيضًا؟!

- إنكم تحاربون قومي في إسرائيل.

- هم الذين يحاربون قومك، لكنني لا ولن أحاربهم.

- هل تعد بذلك؟!

- أعد بذلك وأقسم أيضًا إني أبدًا لن أحاربهم.

ولقد صحبته شيرلي في تلك الليلة إلى جنة لم يحلم بمثلها أبدًا، لم تعلن موافقتها لكنها قادت السفينة إلى حيث تحب وتشتهي... وفي الصباح التالي ذهبا إلى الشركة معًا وكأنهما يعلنان للناس علاقتهما، كان نبيل مفعمًا بسعادة فاضت بها كل ملامحه... ولقد كان عدد السائحين في ذلك الوقت من السنة، بالضرورة، قليلًا... كانوا مجموعة من مواطني دول إسكندنافيا جاءوا إلى ألمانيا كي يقضوا بها أيامًا في الدفء، وكان نبيل الآن قد أتقن الألمانية كالإنجليزية وأصبح خروجه مع سائحين من جنسيات مختلفة أمرًا واردًا... انتهى اليوم وكانت هناك حقيبة محملة بالمخدرات استبدلها نبيل بحقيبة أوراقه... أخذ ينهي إجراءات وصوله استعدادًا للذهاب إلى خزينة محطة السكة الحديدية كي يودع الحقيبة بها.

اعترضت لويز طريقه وكان يوم عملها قد انتهى، بدت له مشبوبة العاطفة مقبلة عليه... سألته إلى أين فحاول الاعتذار بموعد مع صديق لكنها - وقد تظاهرت باشتعال الغيرة في صدرها - أبت أن تتركه، وإذا كان الموعد مع صديق فعلًا فلم لا تذهب معه إلى هذا الموعد الذي يبدو لها شديد الانتظام ولا يأتي إلا بعد جولة يقوم بها مع السائحين والسائحات ولا بد أن في الأمر واحدة من بنات الثلوج في الشمال. أسقط في يد نبيل وقد أدرك أنها لن تتركه... كان ذهابه إلى المحطة وإيداع الحقيبة في الخزينة أمرًا مستحيلًا بكل المعاني... لم يكن أمامه - في مواجهة إصرار شيرلي الملتهبة بالحب منذ ليلة الأمس - إلا أن يؤجل إيداع الحقيبة في الخزينة مع ما في هذا من مخالفة لتعليمات أبي سليم، وأن يصحب الفتاة المولعة بحبه إلى مسكنه... وكانت الحقيبة المحملة بالمخدرات في يده.

❊ ❊ ❊

كانت ذكرى الليلة السابقة تعطر خياله، وكانت لويز جولدمان بين ذراعيه تذيقه من رحيق الحب ما كان يجعله أكثر شراهة... عندما سمع دقًا على الباب.

فكر في ألا يجيب على الطارق لكن الدق عاد من جديد كي يوقظه من أحلامه... همست الفتاة في شفتيه أن يرى من الطارق حتى لا يزعجهما إلحاحه... نهض إلى الباب، وما إن فتحه حتى وجد من يدفعه في عنف وإذا ثلاثة رجال يقتحمون البيت وكانوا يرتدون المعاطف والقبعات... خطا نبيل إلى الخلف وقد سقط قلبه بين ضلوعه وأدرك أن الضربة القاضية قد حانت وأن عليه أن يقاوم... سأله كبيرهم في جفاء:

- هل أنت نبيل سالم؟

- نعم أنا... ماذا تريدون؟!

- هل تسكن هنا؟

- نعم.

حاول جاهدًا أن يسترد جأشه ولكن الرجل أومأ إلى زميليه فأغلق أحدهما الباب ثم اندفعا إلى المسكن يفتشانه... صاحت شيرلي وهي تلملم نفسها محتجة:

- أنا مواطنة أمريكية، من أنتم، وماذا تريدون؟!

أومأ كبيرهم برأسه نحوها سائلًا نبيل:

- هل هذه الفتاة صديقتك؟!

- إنها زميلتي في العمل.

في تلك اللحظة عاد أحد الرجلين إلى الرجل الكبير وهو يحمل في يده حقيبة المخدرات نظر إليه الرجل طويلًا ثم سأله:

- هل هذه الحقيبة تخصك؟!

ضاع صوت نبيل وهو يحاول جاهدًا أن يرد:

- لا بد أنها هي.

لمع الشك في عيني الرجل:

- ماذا تعني؟!

ارتبك نبيل، أُرتج عليه، تلجلج وهو يتمتم بأنها حقيبة أوراقه، وأنها تخص الشركة.

- هل لك أن تفتحها ؟!

ألقى إليه حامل الحقيبة بالحقيبة فحاول أن يفتحها دون جدوى... كان مدركًا أنه لا يعرف الأرقام السرية الخاصة بفتحها... صاحت شيرلي:

- هل نسيت أرقام حقيبتك يا نبيل؟!

وكانت نظرته إليها فيها من الاستعطاف ما لم يخف على الرجل... صاحت مندفعة إليه:

- نبيل... ماذا في هذه الحقيبة؟!

كاد يصرخ فيها أن تصمت عندما أمر الرجل أحد رجليه بفتح الحقيبة عنوة.

فتحت الحقيبة، فإذا هي ممتلئة حتى حافتها، بالمخدرات.

كاد نبيل يسقط مغشيًا عليه، وكان الرجل يقول:

- هر سالم... إني أقبض عليك بتهمة الاتجار في المخدرات، ولعلك تعلم أن من حقك ألا تتحدث إلا في وجود محام... وأن أية كلمة أو تصرف، سوف يؤخذان عليك من الآن.

الفصل الثاني عشر

السجن أو القتل

تلك ليلة في حياة نبيل سالم لم ينسها أبدًا... ليلة ظلت سيفًا مسلطًا فوق عنقه فإذا هو أداة طيعة في يد من أسلمهم نفسه بأبخس الأثمان... فما إن فاه ضابط الشرطة الألماني بما فاه به حتى مادت الأرض تحت قدميه، أحس أنه يهوي من فوق السحاب إلى قاع بلا قرار... راح الرجل يقلب في أكياس المخدرات التي ملأت الحقيبة كما ملأت رائحتها هواء الغرفة وسيل من الأسئلة يندفع من بين شفتيه في تلاحق كاد يورثه الجنون... حاصرته الأسئلة من كل جانب لكنه تشبث ببقية من إرادة وهو ينفي معرفته بمحتويات الحقيبة نفيًا قاطعًا، قال: إنها ليست حقيبته وأكد أن في الأمر خطأ أو مؤامرة... أخذ الرجل يسأله عمن يعمل معه ومن سلمه الحقيبة وإلى من كان ينوي تسليمها ومنذ متى يعمل في تهريب المخدرات وكم يتقاضى من أجر... لكن نبيل لم يتزحزح عن موقفه ذاكرًا أنه وضع حقيبته - كالعادة - فوق رف الأوتوبيس وأنه يذكر أنه شاهد بجوارها حقيبة أخرى مشابهة لها تمامًا، وأنه عندما انتهت الجولة أخذ الحقيبة وعاد إلى مكتبه دون أن يفتحها ولا بد أن هناك خطأ قد حدث ولا بد أن صاحب الحقيبة سوف يبحث عنها... كانت لحظات رهيبة تلك التي عاشها نبيل سالم وهو

يجيب الشرطي محاولًا التماسك بكل ما استطاع من قوة. تذكر قول أبي سليم عندما التقى به في شقة فريدريك لأول مرة وقال له إن الشرطة في ألمانيا غيرهم في مصر، وإن القوم هنا متحضرون من الممكن التفاهم معهم... فهل ينقذه أبو سليم ويتفاهم مع هؤلاء الرجال فعلًا، أم يتركه لمصير أسود لا يعرف عنه شيئًا... التفت الشرطي نحو شيرلي هايمان التي كانت تقبع في ركن المكان تبدو شاحبة الوجه ضائعة النظرات تتعلق عيناها بوجه نبيل في تساؤل صارخ... سألها الرجل فجأة:

- وأنت أيتها الصغيرة... منذ متى وأنت تشتركين في هذه اللعبة الجهنمية؟!

قبل أن تفتح فمها صاح نبيل مدافعًا:

- إن شيرلي لا دخل لها في الأمر.

سخر منه الرجل ملتفتًا إليه:

- كذا؟!

- لقد دعوتها إلى العشاء هنا فجاءت وكانت الحقيبة معي.

- إذن فالحقيبة لك؟!

- لقد أخبرتك بما حدث وأنا على استعداد لأن أذكره ألف مرة.

- يبدو أنك مصر على الإنكار.

- أنا لا أنكر شيئًا ولكني أذكر الحقيقة.

- وما هي الحقيقة؟!

- لا بد أن خطأ قد حدث وتبادلنا أنا وصاحب الحقيبة الأخرى الحقائب.

- أليست هذه الحقائب من مخصصات الشركة؟!

- نعم... وهذا ما جعل الأمر يبدو لى طبيعيًا.

- إذن فالحقيبة لا بد مملوكة لواحد من زملائك.

- لست أدري... ربما... لا أعلم.

- لمن هي إذن؟!

كان ضغط الرجل عليه يتزايد سؤالًا بعد آخر فصرخ نبيل:

- لو أني كنت أعلم لأخبرتك.

- ومنذ متى تتعاون فراولين هايمان معك؟!

- ليس لفراولين هايمان أي دخل في الأمر... وهي لا تتعاون معي إلا في عملنا في الشركة... وأنا الذي دعوتها إلى العشاء هنا.

صمت الشرطي الألماني قليلًا ، التفت نحو شيرلي وقد استغرق في التفكير... كانت هي لا تزال في مكانها ترتجف رعبًا... سألها:

- أليس لكِ دخل في الأمر حقًا؟!

قالت... وكانت تبدو مسكينة ضعيفة:

- لقد ذكر لك الحقيقة وليس لي علم بشيء.

- منذ متى وأنتما صديقان؟

- نحن لسنا صديقين فقط، نحن مخطوبين.

دق قلب نبيل فرحًا وطربًا... هتف في عرفان:

- شيرلي.

قالت في صوت مرتجف:

- إني أعلم أنك بريء.

ساخرًا غمغم الشرطي:

- يبدو مس فراولين هايمان أنك واثقة من خطيبك.

في ألمانية طلِقة اندفعت في القول:

- كل الثقة سيدي الضابط... لقد عرفته منذ أن التحق بالعمل معنا في الشركة... ثم إني كنت معه منذ غادر الأوتوبيس حتى الآن.

- ألم تلحظي شيئًا غير طبيعي؟

- بالمرة.

- وأين كنتِ طوال اليوم؟

- في مقر عملي بالشركة وهناك عشرات الشهود على ذلك.

التفت نحو نبيل:

- وأنت... كيف قضيت يومك؟

- مع فوج سياحي منذ التاسعة صباحًا وحتى عدنا إلى الشركة وجميعهم يشهد بذلك.

أومأ نحو شيرلي متسائلًا:

- إذن فلا دخل لها في الأمر.

- ولا دخل لي أنا أيضًا.

تبادل الشرطي النظر مع واحد من زميليه ثم قال لشيرلي:

- تستطعين الانصراف إلى بيتك إلى أن نستدعيك لأخذ أقوالك.

همت بالحركة عندما استطرد الرجل:

- لست في حاجة لأن أذكرك بأنك ممنوعة من مغادرة هامبورج حتى تدلي بأقوالك.

هزت شيرلي رأسها إيجابًا وتحركت نحو الباب عندما سمع الجميع دقًا عليه.

انتفض الرجال الثلاثة متفرقين في الغرفة ، واندفع أحدهم كي يدس فوهة مسدسه بين ضلوع نبيل وهو يهمس:

- حذار أن تأتي بحركة واحدة.

ارتدت شيرلي إلى الخلف في خوف ورعب... وحاصر الشرطي الباب مع زميله الآخر... أخرج كل منهما سلاحه ملتصقًا بالحائط... عاد الدق من جديد فأومأ الشرطي إلى نبيل كي يتقدم من الباب وهمس الرجل الواقف خلفه:

- أي تصرف خاطئ سوف يرسل بك إلى العالم الآخر.

عاد الدق مرة ثالثة، وفي إلحاح، فتقدم نبيل من الباب... ما إن فتحه حتى اقتحم أبو سليم الغرفة صائحًا:

- إيه نبيل... إنت كنت فا...

بدا الأمر لنبيل وكأنه يشاهد فيلمًا بوليسيًا، أو كأنه في حلم مزعج... تنفس الصعداء على كل حال فها هو القدر يرسل إليه طوق نجاة وعليه الآن أن يتعلق به... ما إن خطا أبو سليم خطوة حتى توقف عن الحديث وقد أحاط به الرجال وأغلق الباب فرفع يديه إلى أعلى متسائلًا:

- ما هذا الاستقبال بحق الجحيم؟!

تلفت حوله حتى وقعت عيناه على الشرطي الكبير فهتف:

- هر براون... ماذا تفعل في مسكن صديقي؟!

أعاد الرجال أسلحتهم إلى مكانها وتقدم هر براون من أبي سليم دهشًا:

- أبو سليم... هل أنت صديق للهر سالم؟!

ضحك أبو سليم ضحكته العريضة المجلجلة تلك وهو يهتف:

- وإلا لما كنت هنا الآن.

قال هذا ثم التفت نحو نبيل متسائلًا:

- ما الذي يحدث هنا بحق السماء يا نبيل؟!

اندفع نبيل يقص على أبي سليم - بالألمانية - قصة الحقيبة التي اختلطت بحقيبته، وشيرلي التي دعاها إلى العشاء، واقتحام رجال الشرطة للبيت...و... وكان واضحًا أن لأبي سليم مكانه عند الشرطي المتجهم الذي انفرجت أساريره بمجرد رؤيته له... وما إن انتهى نبيل من حديثه حتى التفت أبو سليم نحو الشرطي قائلًا وهو يومئ نحو شيرلي:

- لننظر أولًا في أمر هذه المسكينة.

قال هر براون:

- لقد طلبت منها الانصراف قبل وصولك بثوان.

هتفت شيرلي :

- وهل أستطيع الانصراف الآن؟!

- بالتأكيد... على ألا تغادري هامبورج قبل أن نسمح لك بذلك.

همت بالحركة فلاحقها الرجل:

- ولا تنسي أن تتركي عنوان سكنك وعملك قبل انصرافك.

أخرج أحد الرجلين قلمًا وورقًا فالتفت أبو سليم نحو هر براون متسائلًا فقال هذا:

- إنه مجرد روتين أبو سليم... مجرد روتين.

هرولت شيرلي هايمان نحو الباب لكنها قبل أن تنفذ منه التفتت نحو نبيل... ألقت إليه بنظرة حانية، فشملها بعينيه هاتفًا:

- سوف نلتقي قريبًا... أقسم لك سوف نلتقي.

ولم يكن نبيل سالم يعرف - وهو يقسم - أن هذه هي المرة الأخيرة التي تقع فيها عيناه على تلك الفتاة الإسرائيلية لويز جولدمان، التي عرفها تحت اسم «شيرلي هايمان»... وأن دورها معه قد انتهى تمامًا.

❊ ❊ ❊

وفي هذه المرة أيضًا، كان أبو سليم على حق، وكان عند وعده الذي بذله ذات ليلة في شقة فريدريك موزع المخدرات... فما إن خرجت شيرلي هايمان حتى واجه أبو سليم ذلك الهر براون مواجهة صريحة لا لف فيها ولا دوران، وإذا كانت تحريات الشرطة الألمانية قد أنبأت بأن نبيل يعمل في ترويج المخدرات أو الاتجار فيها، فهل هناك دليل على هذا سوى الحقيبة؟ وكما قال نبيل فلقد كان عدد السائحين في السيارة أربعة عشر سائحًا وسائحة جميعهم من دول إسكندنافيا، فلم لا يكون أحدهم صاحب تلك الحقيبة... وإذا كانت الحقيبة تخص الشركة، فإن تقليد مثل هذه الحقائب - ناهيك عن سرقة واحدة أو الحصول عليها - أمر بالغ البساطة... فكيف تترك الشرطة اللصوص لتجرم بريئًا؟!

كان الموقف شديد الغرابة وكان نبيل يتتبع ما يحدث بإعجاب بالغ وقلبه يخفق لأبي سليم بعرفان بلا حدود... مرة أخرى كان يتنفس على صدره بعد أن ضاعت أنفاسه لدقائق خالها دهورًا بلا نهاية... أخذ الحوار بين الرجلين - أبو سليم وهر براون - يحتدم لحظة بعد أخرى، وكان أبو سليم قوي الحجة والمنطق والتصرف معًا... ففي لحظة من اللحظات النادرة، أخرج أبو سليم حافظة نقوده المتخمة بالمال وهو يقول زاخرًا:

- على كلٍّ... لا بد من وضع حد لهذا الأمر... فما قولك أيها العزيز براون؟!

تمتم هذا وعيناه معلقتان بالحافظة:

- وهل تضمن هذا السيد؟

- قلت لك إنه صديقي.

- لكنك تعلم أن ثمة إجراءات.

- ماذا تعني بحق الشيطان ؟

- أعني أنه لا بد من إنهاء الأمر رسميًا.

- حسن... وكيف ننهي الأمر رسميًا؟

- لا بد من حضور هر سالم في الغد إلى إدارة الشرطة لاستكمال التحقيق.

- ليس أمرًا عسيرًا.

- على ألا يغادر هامبورج قبل الانتهاء من هذه القضية وإغلاقها تمامًا.

- إني أضمن لك هذا.

لوح الشرطي في وجه أبي سليم محذرًا:

- أبو سليم.

- قلت لك إني أضمن هذا.

زحفت عينا الرجل إلى الحافظة فأخرج منها أبو سليم كمية لا بأس بها من أوراق النقد الألماني دون عد، وقدمها للشرطي قائلًا:

- عليك أن تتصرف مع زميليك.

تناول الرجل النقود مغمغمًا:

- لعلك تعرف صراحة القانون الألماني يا صديقي.

في حدة من نفد صبره هتف أبو سليم:

- هر براون... يبدو أنك لا تصدق أن هذا الشاب المصري صديقي بالفعل.

- ليس الأمر كما تظن.

- إذن تخبرني بما لا أظن.

استدار الرجل نحو نبيل وهو يقول بكلمات بسيطة واضحة وهو يضغط على مخارج ألفاظه:

- لو أن هذا الشاب غادر هامبورج دون إذن، وقبل أن ينتهي التحقيق تمامًا، فلسوف توجه إليك تهمة الاشتراك في تهريب المخدرات معه.

- إن هذا لم يغب عن ذهني لحظة.

ولم يعد هناك ما يمكن أن يقال... أومأ الشرطي إلى زميليه فتحركا نحو الباب، مد يده مصافحًا أبا سليم قائلًا لنبيل:

- موعدنا غدًا في التاسعة صباحًا أيها الشاب.

- أين؟

ضحك ساخرًا وهو يخطو نحو الباب:

- في إدارة الشرطة طبعًا.

هتف أبو سليم:

- لكني سوف آتي معه.

- ولا تنس المحامي يا صديقي، فإن الأمر سيحتاج إليه بكل تأكيد.

* * *

ما إن أغلق الباب خلف الرجال الثلاثة، حتى استدار أبو سليم نحو نبيل فكأن الذي يواجه الشاب إنسان آخر... كان وجه الرجل متقلص الملامح حاد القسمات، تتوسطه عينان تطلقان غضبًا كالرصاص... تراجع نبيل خطوة إلى الوراء وقد انتابه رعب هائل، سأله أبو سليم بالألمانية:

- والآن... ما الذي حدث بالضبط؟

قال نبيل سالم فيما بعد وهو يحكي قصة تلك الليلة المشهودة، إنه في حياته - أبدًا - لم يشعر بمثل الرعب الذي شعر به وهو يواجه نظرات أبي سليم... قال: إنه لسبب غير واضح، وجد نفسه يتذكر قول فريدريك بيكر موزع المخدرات إن الرجل الكبير من الممكن أن يرسل به إلى العالم الآخر لأصغر هفوة... وكان موقنًا أنه الآن لم يرتكب هفوة صغيرة، بل ارتكب بالفعل جرمًا لا يغتفر، جرم أوصله إلى حافة الخطر أو الموت بعد أن صودرت شحنة المخدرات وخسر أبو سليم ما لا يعلم من عشرات الألوف من الماركات الألمانية... قال نبيل معبرًا عما اعتراه، إنه أحس وكأنه يواجه الموت مواجهة صريحة فلم يكن أبو سليم غاضبًا فقط، بل كان مجنونًا، وكان في صوته الحاد صليل بعث الرعب إلى قلبه وضاع صوت نبيل وتبددت الكلمات وهو يقص على الرجل ذلك الذي حدث منذ أن دخل الشقة مع شيرلي وحتى وصول رجال الشرطة.

تركه أبو سليم يكمل حديثه ويسترسل فيه كيفما شاء له الاسترسال، حتى إذا ما انتهى قال هذا بصراحة:

- ليس هذا ما سألتك عنه هر نبيل.

هكذا هو إذا ما غضب واحتدم استحالت ملامحه إلى نتوءات صخرية في وجه جرانيتي التصميم وكأن سدًا سميكًا قد هبط بينه وبين الرجل الذي أسلمه قياده وربط مصيره وجعل حياته معلقة بكلمة منه، أو بحكم يصدره عليه بالحياة أو الموت أو السجن، هَمّ بالمراوغة فأوقفته كلمات أبي سليم الهادرة:

- ليس هذا ما سألتك عنه هر نبيل!

وها هو يكرر - للمرة الثانية - اسمه مصحوبًا بكلمة «هر» - أي السيد - فماذا وراءه؟!

- أبو سليم... أنا عارف إني غلطت، لكن...

في صلف قاطعه الرجل هادرًا:

- إني أتحدث إليك بلغة فلا تحدثني بلغة أخرى.

اختلطت الكلمات في ذهنه بمعانيها ولم يعد يعرف ماذا يقول... لاك لسانه بضع كلمات بلا معنى فحدد له هذا الطريق:

- لماذا لم تضع الحقيبة في الخزانة أيها السيد؟!

- لأن شيرلي...

- دع شيرلي هايمان هذه جانبًا فحسابي معك بخصوصها لم يأت أوانه بعد.

- أبو سليم... لقد أخطأت، غير أني كنت في موقف حرج فلم أجد مخرجًا إلا المجيء إلى البيت حتى لا تكتشف الفتاة الأمر.

صمت الرجل لثوان وكأنه يتدبر الأمر ثم قال:

- على كلٍ ليس هذا وقت الحساب.

- أبو سليم... أرجو أن...

نظر الرجل في ساعة يده مغمغمًا بالعربية:

- حضر شنطتك بسرعة.

- شنطتي؟!

- طبعًا يا أستاذ... أنت عارف المخدرات التي أنت ضيعتها دي ثمنها كام؟!

كمن يغرقه في ماء يغلي ثم يخرجه إلى ماء متجمد، أطل الرعب عليه من بين شفتي الرجل الذي أردف:

- وعارف المنظمة ممكن تعمل فينا إيه؟!

- منظمة؟!

- طبعًا... إنت متخيل إني باشتغل لوحدي.

ضاع نبيل وفوهة عذاب مرعب تفتح تحت قدميه:

- المنظمة مش حاتحاسبك إنت لوحدك، إنما حاتحاسب اللي شغلك واتحمل مسئوليتك.

- يعني إيه؟!

- يعني حاتحاسبني أنا كمان يا نبيل.

- وإنت ذنبك إيه؟!

في سخرية مريرة هتف أبو سليم:

- ذنبي إني قدمتك ليهم وشغلتك واستأمنتك على بضاعة بالشيء الفلاني.

أذاب الحديث بالعربية كثيرًا من الثلوج الرابضة فوق صدر نبيل فهتف:

- أنا مستعد أتحمل المسئولية كلها.

- قدام مين؟!

- المنظمة.

- والبوليس؟!

أسقط في يد نبيل أحس أنه محاصر إلى الاختناق... أضاء في ذهنه فجأة ما كان أبو سليم يسعى إليه، وما عناه عندما طلب منه تجهيز الحقيبة... ساد الصمت لثوان قال بعدها الرجل:

- إنت عارف إيه اللي حايحصل بكره لو دخلت إدارة البوليس برجلك؟!

توسل نبيل واستعطف:

- يا ابو سليم أرجوك المسألة...

- مش حاتخرج منها قبل خمسة وعشرين سنة.

- أنا تحت أمرك.

هكذا استسلم دون شرط . قال الرجل:

- لازم نسيب البلد.

- والهر براون؟!

- إحنا مش حانسيب هامبورج... إحنا حانسيب ألمانيا كلها.

فَغَرَ نبيل فاه دهشة، فلاحقته كلمات الرجل بالألمانية:

- عليك أن تجهز حقيبتك، ثم تطفئ جميع الأنوار وكأنك ذهبت إلى فراشك... وعندما ينتصف الليل تمامًا انظر من النافذة دون أن تضيء النور... فإذا أتاك ضوء سيارة يضيء وينطفئ مرتين متتاليتين، فغادر البيت على مهل... ارتدِ معطفًا وقبعة تداري بها ملامح وجهك... سر حتى ناصية الشارع دون أن تلتفت هنا أو هناك حتى لا تثير الريبة... عند الناصية، وإذا انحرفت إلى اليسار فلسوف تجد على بعد خمس خطوات لا أكثر، سيارة زرقاء اللون... اسأل السائق عن الساعة، فإذا ما طلب منك أن تركب فاركب دون كلمة.

- وإذا لم يطلب مني الركوب؟!

- عد إلى البيت مرة أخرى... وعلينا أن ننتظر مصيرنا معًا.

قال أبو سليم هذا وهو يستدير منصرفًا دون كلمة... وجد نبيل نفسه يقف في مسكنه وحيدًا، مهددًا بالسجن أو القتل، ولم يكن أمامه من سبيل إلا أن يطيع أبا سليم، وأن يتبع خطاه.

* * *

كان الوقت قد تخطى منتصف الليل بدقائق قليلة عندما مال نبيل على سائق سيارة كانت تنتظره في شارع جانبي خافت الضوء، سأل الرجل عن الساعة فزمجر هذا:

- اصعد.

قبل أن يفتح الباب الخلفي للسيارة زأر الموتور، وما إن دلف إلى الداخل حتى انطلقت السيارة لا تلوي على شيء... ما إن استقر في المقعد حتى ارتطم كتفه بمن كان يجلس على يمينه، التفت فإذا أبو سليم يجلس في انتظاره.

ولساعات طالت، كان الصمت هو اللغة السائدة داخل السيارة التي غادرت هامبورج وكأنها تفر من أشباح تطارد من فيها... كان أبو سليم - بين الحين والحين - يلتفت إلى الخلف ويتبادل مع السائق كلمات حول ما إذا كانوا متبوعين بسيارة أخرى... عندما انطلقت السيارة في الطريق السريع، واطمأن الرجلان إلى أن أحدًا لا يتبعهم، غطس أبو سليم في مقعده، هبط بقبعته فوق عينيه، وسرعان ما علا شخيره.

* * *

مع خيوط الفجر الأولى وصلت السيارة إلى مدينة فرانكفورت، حاول نبيل طوال الطريق أن يغفو قليلًا دون جدوى، كانت الأفكار تصطرع في رأسه بعنف وهو لا يدري إلى أين هو ذاهب ولا ما الذي حدث وكيف انزلق إلى مثل هذا الطريق الذي يبدو له بلا نهاية... لاحِ للبصر مطار فرانكفورت على البعد، عندما التفت نحوه أبو سليم متسائلًا:

- أين جواز سفرك؟!

قدم له نبيل جواز السفر فدسه الرجل في جيبه مقدمًا له جوازًا آخر... في دهشة معقود اللسان تناول نبيل الجواز الجديد، قلب صفحاته على ضوء النهار الخافت، فإذا به أمام مفاجأة مروعة.

كان جواز السفر الذي بين يديه مصريًا، وكان يحمل صورته، كما كان يبدو مستعملًا يحمل عددًا لا بأس به من أختام مطارات دول مختلفة... شيء واحد توقف أمامه نبيل خافق القلب، ذلك هو الاسم المدون في الجواز... كان الاسم هو: جيزاوي... نبيل.

- إيه الاسم ده يا ابو سليم.

في لامبالاة سأله أبو سليم وهو يتطلع فيما حوله من معالم المدينة:

- إنت اسمك إيه بالكامل؟

- نبيل سالم مصطفى.

زمجر الرجل في ضيق:

- أنا باقول اسمك بالكامل يا نبيل.

- نبيل سالم مصطفى عبد الله.

في نفاد صبر التفت الرجل نحو نبيل وهو ينظر إليه نظرته تلك المخيفة، فابتلع هذا لعابه وسرى الخوف في أوصاله قاهرًا وهو يغمغم:

- نبيل سالم مصطفى عبد الله جيزاوي.

- يبقى إحنا ما غلطناش.

- مش فاهم.

رغم أن اسم - جيزاوي- كان هو اسم العائلة حقًا... إلا أن نبيل تعود منذ نعومة أظفاره، أن يكون اسمه نبيل سالم مصطفى... هذا كان اسمه في المدرسة الابتدائية والإعدادية والثانوية والجامعة، ثم هو اسمه في البطاقة الشخصية وجواز السفر جميعًا... ولقد عرف في إحدى سنين عمره أن أباه أسقط اسم العائلة من اسمه واسم ابنه لخلاف لم يفهم طبيعته ولم يهتم

بتقصي الأمر من حوله، وإن كان - بشكل غامض - قد عرف أن السبب كان خلافًا بين أبيه وبين عائلته حول زواجه من أمه.

فمن أين عرف أبو سليم اسم العائلة وهو لم يذكره له؟!

لم يكن الأمر سرًا يخفيه على أحد، لكنه لم يذكر الحقيقة، بل ربما لم تخطر بباله.

وعلى كلٍّ، فما إن قال إنه «مش فاهم» حتى اعتدل أبو سليم بكليته نحوه، كانت السيارة قد وصلت الآن إلى موقف السيارات في المطار، وكانت نوافذها مغلقة والجو دافئ والسائق تحول منذ ساعات في وعي نبيل ولاوعيه معًا، إلى مجرد آلة تجلس خلف عجلة القيادة، وثمة خدر يتسلل إلى أعصاب نبيل وأعضائه مع رغبة عارمة في النعاس تجتاحه اجتياحًا، سأله الرجل:

- عاوز تفهم إيه؟!

- عاوز أفهم اللي بيحصل يا ابو سليم.

أومأ أبو سليم نحو جواز السفر متسائلًا:

- الباسبور اللي في إيدك ده فيه حاجة؟!

- لأ.

- مصري؟!

- طبعًا.

- إذا كان على الاسم، لازم تعرف إننا غيرناه علشان الإنتربول.

رفع نبيل حاجبيه دهشة عندما استطرد الرجل:

- تفتكر هر براون حايعمل إيه لما يستناك بعد كذا ساعة ولا تروحش؟!

- أكيد حايدور عليَّ.

- ولما يكتشف إنك هربت من ألمانيا؟!

في ضياع قال نبيل:

- حايبلغ الإنتربول.

- بس حايبلغه باسم نبيل سالم، مش نبيل جيزاوي.

عاد الصمت كي يلف السيارة كإعصار... لم يكن هناك الآن ما يمكن قوله، عاد أبو سليم إلى الحديث في تراخ:

- إحنا حانركب الطيارة اللي رايحة برن في سويسرا... والتذكرة بتاعتك آهيه.

ناوله التذكرة فتناولها في صمت.

- أول ما نسيب العربية محدش فينا حايكلم التاني، ولا حانقعد جنب بعض، ولا كأننا شفنا بعض أو نعرف بعض قبل كده.

هز نبيل رأسه إيجابًا.

- ولما ننزل مطار برن... أنا حابقى أتصرف.

- وهو كذلك.

همَّ نبيل بمغادرة السيارة فأمسك صوت أبو سليم بخناقه:

- اتصرف بشكل طبيعي جدًّا... فاضل على الطيارة ٤٥ دقيقة، وفاضل على ميعادنا مع هر براون تلات ساعات وشوية.

زحفت عينا نبيل نحو جواز السفر وفي رأسه ألف خاطر وخاطر فابتسم أبو سليم مردفًا:

- وبالنسبة للباسبور ما تخافش، محدش ممكن يكشفه.

و... و... ومرة أخرى يصدق أبو سليم، فلقد مرَّ نبيل سالم من الجوازات بسهولة شديدة، وعندما صعدت به الطائرة إلى الجو تنفس الصعداء، فها هو شبح السجن يبتعد عنه وكان موقنًا أن أبا سليم يجلس معه في نفس الطائرة فوق مقعد ما لم يحاول أن يعرف مكانه... قليل من الراحة تسلل إلى نفسه، لكن كثيرًا من الغموض والقلق راحا يجتاحانه بعنف...

غير أن نبيل سالم، رغم كل شيء، لم يكن يدري، ولم يخطر بباله، أن ما سوف يلقاه في الساعات القليلة القادمة، أكثر هولًا مما مضى عليه.

الفصل الثالث عشر
الهروب المزيف

يبدو لي أنه لا بد لنا هنا وقفة نلقي فيها الضوء على بعض الجوانب الخفية من تلك القصة... وإذا كانت سامية فهمي عندما لجأت إلى جهاز المخابرات المصري حاملة في صدرها تلك الشكوك المدمرة حول حبيبها، دون أن تعلم أن تلك الشكوك كانت واقعًا يعيشه الرجال هناك... وأن عادل مكي بالذات كان يعرف الكثير... فإن السؤال المطروح يصبح:

كيف عرف الرجال بقصة نبيل سالم؟!

كيف اكتشفوها وتابعوها؟!

سؤالان يستلزمان منا العودة قليلًا إلى الوراء... إلى الساحة التي شهدت تلك الأحداث... عودة لا استطراد فيها ولا تزيد، وإنما - فقط - كي توضع النقاط فوق حروفها الصحيحة، حتى تكتمل الصورة.

* * *

قال لي ضابط المخابرات المصري عادل مكي وهو يجمع أطراف تلك القصة المحزنة لذلك الشاب التعس نبيل سالم... إن نبيل وهو جالس في الطائرة التي أقلته من فرانكفورت حتى مدينة برن السويسرية... لم يكن يعرف أن كل ما مر به من أحداث، لم يكن سوى تمثيلية متقنة، وضعتها

عقول مدربة، ثم أخرجها على الطبيعة ذلك الذي أطلق على نفسه، أو أطلقوا عليه، اسم «أبو سليم».

وإذا كان من المرجح، بل من المؤكد - هكذا قال عادل مكي- أن الحقيبة التي كان نبيل يأخذها من الأوتوبيس - بعد الجولة السياحية - إلى تلك الخزانة التي استأجرها في محطة سكة حديد هامبورج... لم تكن تحوي مخدرات.

إلا أنها في تلك المرة الأخيرة التي استعملت فيها لويز جولدمان كل إمكانياتها، كي تدفعه إلى التخلي عن حرصه والتزامه بوضع الحقيبة في الخزانة فورًا والذهاب بها إلى مسكنه والحقيبة معه بطبيعة الحال... كانت بالقطع تحوي كمية لا بأس بها من المخدرات التي يصبح من السهل التعرف عليها حتى من غير خبير مثل نبيل المسكين، بحيث إذا ما داهمه رجال الشرطة المزيفون هؤلاء، وفتحت الحقيبة أمامه، لا يساوره أدنى شك في حقيقة ما كان يحدث له أو من حوله.

كان المطلوب - منذ البداية - أن يقع نبيل، الذي أبدى التزامًا صارمًا بتعليمات أبي سليم، في خطأ واحد... خطأ يضعه بين فكي كماشة لا يستطيع منها فكاكًا مهما حاول... و... ولقد وقع نبيل في الخطأ لحظة أن ضعف أمام إلحاح لويز جولدمان ومحاصرتها إياه، فذهب معها إلى سكنه حاملًا حقيبة مليئة بالمخدرات.

كانت تلك إذن تمثيلية متقنة، فلم يكن الرجال الثلاثة الذين داهموا مسكن نبيل، سوى ثلاثة من عملاء المخابرات الإسرائيلية - وليس مستبعدًا أن يكونوا ألمانًا بالفعل - أدوا أدوارهم ببراعة، كما أدت الفتاتان مارتين وصديقتها مع فريدريك بيكر موزع المخدرات، أدوارهم أمام ذلك الشاب المصري ببراعة قادته إلى أول خطوة في طريقه هذا الشائك.

وهكذا، وببساطة، وضع ذلك الداهية - أبو سليم - نبيل سالم في مأزق جعله طوع بنانه. وجعل الفكاك منه أمرًا مستحيلًا بكل ما تحمل الكلمة من معنى.

* * *

عبثًا حاولت أن أعرف من عادل مكي - رغم العلاقة الحميمة التي ربطت بيني وبينه بمرور الوقت - الاسم الحقيقي لهذا الضابط الإسرائيلي الداهية الذي أطلق على نفسه اسم «أبو سليم»... ولقد طال بيننا الجدل حول السبب وراء إخفاء اسمه... وعندما ذكرت أمامه اسم «ميخائيل باريهودا» - ذلك الداهية الذي أوقع في براثنه الكثيرين في أوائل الستينيات... وأفلت من بين مخالبه الكثيرون أيضًا، وما إن ذكرت اسم باريهودا أمامه، حتى أطلق ضحكة أوقعتني في الحيرة، فهي تحمل من السخرية بقدر ما تحمل من المرح... ولقد قال بعدها:

- لا... مش هو.

نظرت إليه نظرة من يسبر غور صاحبه فصاح:

- ميخائيل باريهودا في الوقت ده مكانش بيشتغل في هامبورج.

مرت لحظات صمت غمغم بعدها مؤكدًا:

- ثم إن باريهودا كان بيشتغل في روما قبل كده بسنين.

وكان هذا صحيحًا تمامًا فلقد كان ميخائيل باريهودا في بداية الستينيات يخوض صراعًا عنيفًا ومريرًا مع رجال المخابرات المصرية في روما... وبالرغم من ذلك، فإن السؤال الذي يظل مطروحًا على الذهن: ما الذي يمنع من انتقاله - أي انتقال باريهودا - لبعض الوقت من إيطاليا إلى هامبورج من أجل صيد ثمين مثل نبيل سالم؟!

ثم... ما الذي يمنعه من النشاط في سنوات ما بعد النكسة إذا كان لم يعتزل؟!

وعلى كلٍّ... فإذا كان أبو سليم هو باريهودا أو أي رجل مخابرات آخر، فلا بد لنا من تجميع تلك الخيوط المتعددة والمتشابكة، لتلك القصة الغريبة التى وقعت في السنوات القليلة التي سبقت، ثم أعقبت... حرب يونيو ١٩٦٧.

❊ ❊ ❊

عندما أنشئت تلك الشركة السياحية الأمريكية في هامبورج، وكان هذا في منتصف الستينيات على وجه التقريب... كان نشاط المخابرات الإسرائيلية في أوربا، يتزايد بشكل يدعو إلى الدهشة... وإذا كان إنشاء فرع صغير لشركة أمريكية كبيرة في أية مدينة أوربية أمرًا طبيعيًّا للغاية... إلا أن الرجال في جهاز المخابرات المصري، وبحسهم المتزايد بخطورة ألاعيب الموساد وتنوعها... وضعوا تلك الشركة تحت الأنظار لمعرفة حقيقة النشاط الذي أنشئت من أجله... وأكاد أقول، إن مثل هذا الأمر، بالنسبة لجميع أجهزة المخابرات في العالم، وليس جهاز المخابرات المصري وحده، يعتبر من «روتين العمل» المتعارف عليه... غير أنه - للحقيقة - وكما نجحت لويز جولدمان في الشهور الأولى في إبعاد الشبهات عنها... فإن نشاط الشركة نفسه بدا طبيعيًّا للغاية وغير مثير لأي نوع من أنواع الشكوك ، خاصة وأن تلك الشركة السياحية بالذات، لم تلعب بالسائحين العرب الذين كانوا يلجأون إليها، تلك اللعبة التى اشتهرت بها الموساد في تلك السنوات وهي لعبة بيوت الملذات التي كانت تقود شباب العرب إلى بيوت تمتلئ بكل ما يصبو إليه شاب يمتلك مالًا يريد أن ينفقه في ملذات رخيصة وليال مشتعلة بالجنس والمخدر والميسر جميعًا... ثم يفرغ ما لديه من معلومات - مهما كانت تافهة - أثناء غيبوبة مؤقتة، أو غيبوبة قد تدوم لسنوات.

لم تلعب الشركة ذلك الدور أبدًا، بل حافظت، وبشكل صارم تمامًا، على مظهرها المحترم... وهكذا، وبعد مضي أسابيع، كان لا بد وأن يتوقف البحث بالنسبة للشركة، ولتلك الفتاة الأمريكية شيرلي هايمان.

لم يكن معنى هذا التوقف أن الرجال قد نفضوا أيديهم من الشركة والفتاة، ففي مثل هذه الحرب السرية، يصبح «النفس الطويل» - إن صح التعبير - أسلوبًا يجب الحذر منه ومتابعته بين الحين والحين، يصبح الغريمان في مثل هذا الموقف، وكأن كل منهما يتربصٍ للآخر داخل حقل ذرة... ولقد يصبح الكف عن البحث أو التحري تكنيكًا يلجأ إليه الجهاز المعادي وهو هنا - بالنسبة للشركة وشيرلي - جهاز المخابرات المصري... حتى إذا ما حدث نوع من الاطمئنان، فلا بد، وبالضرورة، يحدث معه نوع من الاسترخاء، ويصبح التصرف أكثر طبيعية وأكثر بساطة... حتى إذا ما وقع خطأ ما، أي خطأ مهما كان صغيرًا، نشط الجهاز للبحث والتحري وجمع المعلومات والسعي وراء الحقيقة من جديد.

ولقد وقع هذا الخطأ.

وقع عندما بدأ نبيل خطواته الأولى في تلك الشركة.

فكيف؟!

* * *

في ظني أن كثيرًا من الأسئلة المطروحة سوف يظل بلا إجابة محددة لوقت طويل خاصة بالنسبة لرجل المخابرات الإسرائيلي «أبو سليم»، أو حتى بالنسبة للويز جولدمان، التي اختفت بعد سفر نبيل ببضعة أسابيع من هامبورج دون أن يعرف مخلوق إلى أين ذهبت... وإذا كانت المخابرات المصرية لم تضع يدها على لويز جولدمانٍ في شهورها الأولى في هامبورج، رغم تعاملها معها في باريس وروما تعاملًا يجعلها معروفة للرجال تمامًا... فلقد كان هذا راجعًا للساتر المتقن - وهي شركة السياحة - الذي وقفت

خلفه هذه الفتاة المدربة، وللتصرف الشديد الانضباط الذي التزمت به في كل تحركاتها حتى في حياتها اليومية، قبل أن تلتقي بنبيل سالم ذلك اللقاء الذي أودى به إلى التعامل مع الشيطان في سبيل نجاح زائف... بل إننا نستطيع أن نستنتج – دون خوف من الوقوع في الخطأ – أن نبيل سالم هو الآخر لم يكن موضع اهتمام الرجال القابعين خلف أسوار الصمت في كوبري القبة، ففي ذلك الوقت والشهور طالت... وحتى عندما كان على علاقة شبه يومية مع فريدريك بيكر موزع المخدرات، لم تجعل له أهمية من نوع خاص.

كان الخطأ الأول الذي وقع فيه أبو سليم – أو من خطط لتجنيد هذا الشاب لحساب المخابرات الإسرائيلية – هو ذلك الانتقال المفاجئ من حالة بؤس كامل وشامل كان يعيشها نبيل... إلى حالة استقرار كامل وشامل أيضًا، وبلا مقدمات.

غير أنه يصبح تجاوزًا للحقيقة لو أننا ادعينا أن هذا هو السبب الرئيسي الذي جعل الأنظار تلتفت ليعرف الرجال ما الذي يتم بالضبط، فلقد كانت هناك أسباب أخرى، ربما تبدو للمراقب أكثر أهمية.

كان أمرًا طبيعيًّا أن يجد شاب مصري عملًا في فرع صغير في ألمانيا، لشركة كبيرة وذات سمعة لا بأس بها في الولايات المتحدة، ولكن أن تنشأ تلك الصداقة الحميمة بين نبيل وبين شيرلي هايمان، وبمجرد التحاق نبيل بالشركة... فهذا هو ما كان لا بد وأن يلفت الأنظار ويثير العديد من الأسئلة والكثير من الشكوك.

لماذا؟!

لأن تلك الفتاة التي شوهدت من قبل مع فريدريك بيكر مرات عديدة دفعت بالتساؤل إلى أذهان الرجال حتى انتهى الأمر إلى القول بأنها مدمنة مخدرات، تلتقي مع هذا الشاب الألماني لقاءات تشوبها السرية، لأنها حريصة على مركزها الاجتماعي وصورتها الوقورة أمام الناس... وكان

قد لوحظ أيضًا أن مس هايمان الأمريكية ذات السلوك الشديد الانضباط، لم يكن لها من صديق أو حتى صديقة طيلة تلك الشهور التي سبقت لقاءها مع نبيل... وهو أمر يبدو غير طبيعي بكل المقاييس بالنسبة لفتاة أمريكية أو أوربية في مثل سنها وجمالها...ولست أعتقد أني أذيع سرًا إذا ما قلت إن بعض الشباب - ومن بينهم شاب ألماني شديد الوسامة والجاذبية، ويتمتع بسحر خاص أرجعه البعض ممن يعرفونه معرفة عائلية، إلى أصله المصري - حاولوا الاقتراب من شيرلي، أو إنشاء علاقة صداقة معها، ففشلوا جميعًا بما فيهم ذلك الدون چوان المولود من صلب مصري، وردتهم الفتاة ردًا رفيقًا يتفق مع شخصيتها تلك التي ظهرت بها في هامبورج، مما أكد الظن - في تلك الأيام - بأن الإدمان على المخدرات كان وراء العزوف عن مصادقة الفتيان والفتيات معًا.

فكيف، ولماذا وقعت - فور التحاق نبيل بالشركة - في براثن حبه دونًا عن جميع رجال الأرض، ومنهم من يفوقه وسامة وجاذبية وسحرًا ومالًا ومركزًا؟!

ثم...

ثم كان هناك خطأ آخر... وهو انقطاع شيرلي هايمان عن لقاء فريدريك بيكر فجأة ودون مقدمات، وقبل التحاق نبيل سالم بالشركة، بفترة وجيزة للغاية... وإذا كان المطلوب في البداية هو الإيحاء بأن تلك الفتاة مدمنة مخدرات، فإن انقطاعها عن لقاء ذلك الشاب الألماني يصبح أمرًا مثيرًا للريبة تمامًا... خاصة وأنها لم تلجأ ولم تبحث عن موزع مخدرات آخر.

وفي الحقيقة، فلقد أدهشني أمر لقاء لويز بفريدريك وبدا لي الأمر غريبًا... فلماذا كانت لويز جولدمان تلتقي أصلًا بفريدريك؟! وما هو الدافع وراء تلك اللقاءات؟!

وعندما سألت عادل مكي عن هذا الأمر... وهل كان هذا ضعفًا في أداء المخابرات الإسرائيلية، أم إنه كان ثغرة لم ينتبه لها رجال الموساد؟!

أجاب عادل إن الأمر لم يكن هذا أو ذاك... فمن ناحية كان هناك اطمئنان عند رجال الموساد بعدم وجود نشاط يذكر للمصريين في هامبورج، إلا بعض النشاطات المحددة التي لا يمكن لأصحابها أن يتابعوا نشاط الإسرائيليين في هذه المدينة... كان الإسرائيليون - بالقطع - يظنون أن النشاط المصري في تلك المدينة ضعيف وغير مؤثر أو قادر على كشف تحركاتهم.

وكان هذا خطأ فادحًا وقع فيه الإسرائيليون خاصة بعد نكسة ١٩٦٧، ذلك أن المصريين عندما تجمعت لديهم المعلومات بأن الشركة والفتاة شيرلي هايمان، لا غبار عليهما... كمنوا تمامًا، وركنوا إلى هدوء ظاهري، وإذا كان لهذا الكمون أو الهدوء أساليب متعددة، فلقد اتبع المصريون أبسط تلك الأساليب وأقلها تركيبًا...واختفى من هامبورج، بعد فترة بدت ملائمة تمامًا، عدد بسيط من الرجال الذين حامت حولهم الشبهات بأنهم يعملون لحساب المخابرات المصرية، وهم في واقع الأمر لم يكن لهم أية علاقة، لا من قريب أو من بعيد، بالمخابرات المصرية.

هكذا ابتلع الإسرائيليون الطعم، ووقعوا في خطأ كلفهم الكثير فيما بعد...

فإذا ما تحدثنا عن السبب الذي من أجله كانت لويز جولدمان تلتقي بفريدريك بيكر موزع المخدرات. فلقد كان بالقطع لدراسة شخصية نبيل دراسة كاملة وشاملة، ومعرفة مواطن الضعف في شخصيته حتى تسهل السيطرة عليه... حقًا كان هذا ممكنا من خلال التقارير أو الدراسات التي وضعت حول شخصية نبيل... لكنه يبقى دائما، أن اللقاء المباشر خاصة إذا كان تحت مظلة مقنعة - كمظلة الإيحاء بإدمان المخدرات مثلا!! - من الممكن، بل من المؤكد، أن يكون ذا فائدة عظمى تختصر الوقت والجهد

معًا ولقد يبدو غريبًا كل الغرابة، أن الأمر لم يقتصر على هذا... فبرغم الدقة والبراعة التي تميز بها رجال الموساد في إنشاء الشركة واستجلاب لويز جولدمان... إلا أن الأخطاء - أثناء التنفيذ - أخذت تتوالى.

فلقد اختفى فجأة موزع المخدرات فريدريك بيكر.

اختفى الشاب فجأة من هامبورج، ولأسابيع طالت أكثر مما ينبغي، في نفس الوقت الذي بدأت فيه علاقة لويز جولدمان بنبيل سالم... وعندما تساءل البعض - خاصة من زبائن فريدريك المدمنين أو أصدقائه المقربين - عن سر اختفائه، وإن كان قد قبض عليه، جاء الرد بالنفي القاطع... وقيل - ضمن ما قيل عن سر هذا الاختفاء - إنه سافر في رحلة سياحية إلى جنوب إيطاليا.

فلماذا اختفى فريدريك؟!

وما الذي واكب اختفاءه من هامبورج من أحداث؟!

وهل هناك علاقة بين اختفائه وبين تلك الصداقة التي ازدهرت فجأة بين شيرلي هايمان ونبيل سالم، وقد كان ذلك الشاب الألماني، صديقا للاثنين معًا؟!

وهكذا وجد الرجال أنفسهم يبحثون عن إجابات على تلك الأسئلة التي بدت في تلك الفترة ذات رائحة خاصة... فاكتشفوا أثناء البحث مزيدًا من الأمور الغامضة، ووجدوا أنفسهم أمام مزيد من الأسئلة، وإن كانت من نوع آخر.

وعلى سبيل المثال... لوحظ أن نبيل سالم - بعد فترة وجيزة من التحاقه بالشركة استأجر خزانة بمحطة سكة حديد هامبورج... ومن المعروف أن من يفعلون ذلك، لا بد وأن يكون لديهم ما يحرصون عليه... فإذا كان نبيل ما كان في تلك الأيام، فما هو الشيء الهام الذي استأجر من أجله

تلك الخزانة؟! ولماذا كان ذهابه إليها يأتي بعد خروجه مع فوج من أفواج السائحين؟!

كان هذا أيضًا سؤالًا مثيرًا للدهشة... لكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد... فلقد أعقب السؤال سؤال آخر عن السبب الذي كان يدفع هذا الشاب المصري إلى تغيير خزانته كل بضعة أسابيع، بخزانة أخرى في نفس المحطة، كي يفعل نفس الشيء؟!

تلك الأسئلة ظلت تطرح نفسها سؤالًا بعد الآخر دون أن تجد، فيما هو ظاهر، إجابات مقنعة عليها... وفي مثل هذه الأحوال، يصبح البحث عن إجابة أمرًا ضروريًا، بل واجب لا بد من القيام به... خاصة وأن هذا الشاب المصري كانت له ظروف صعبة يعرفها كل المصريين وربما العرب الذين كانوا يقيمون في هامبورج.

هنا... كان لا بد من تجميع الخيوط، وكان طبيعيًا إذا ما تجمعت، أن تتجمع معها سحب الشك في الشركة والفتاة ونبيل جميعًا... و... ويقينًا، فلقد كانت هذه هي الخطوة الأولى التي كشفت عن هذا المخطط الجهنمي الذي لم يكن يستهدف نبيل وحده بطبيعة الحال – وهذا ما نود هنا أن نسجله وأن نلح عليه وننبه له – بل أعقبته، وربما واكبته، عمليات أخرى اتسمت بقدر كبير من الخطورة، وإن كان الوقت لم يحن بعد للكشف عنها.

ثم كان يوم...

كان هذا يوم من أيام خريف ١٩٦٧، ومصر تظللها سحابة من حزن وضياع بلا حدود ولقد وصلت في ذلك اليوم برقية – أو الأغلب أنها رسالة – شفرية تحكي في كلمات موجزة، عن التقاط قام به رجل مخابرات إسرائيلي «أبو سليم»، لشاب مصري اسمه نبيل سالم.

جاءت هذه البرقية – أو الرسالة – وكأنه إجابة على كل سؤال، ومفتاح لكل لغز...

قال لي عادل مكي إن أبا سليم لم يكن مقيمًا في هامبورج في ذلك الوقت، بل كان مركز نشاطه في عاصمة أوروبية أخرى رفض أن يبوح لي باسمها... وإنه كان يذهب إلى هامبورج في زيارات خاطفة لا تستمر لأكثر من يوم أو يومين ينجز خلالهما ما يريد إنجازه مع نبيل سالم أو غيره، ثم يعود إلى مقره مرة أخرى دون أن يشعر مخلوق بأنه غادر المدينة أو حتى الدولة كلها... وكانت هذه بالقطع براعة لا بد من الاعتراف بها... ذلك أن أحدا لم يتنبه إلى تلك الزيارات، وبالتالي، فإن تواجده في هامبورج كان بعيدًا بالفعل عن الأذهان.

هكذا... فإننا نستطيع أن نرجح أن المخابرات المصرية لم تكن تعرف شيئًا عن لقاءات نبيل بأبي سليم السابقة... وقد يخامرنا الظن بأن المرة الأولى التي شوهدا معًا فيها، هي مرة من تلك المرات التي كان نبيل يلتقي فيها بأبي سليم كي يأخذ منه حقيبة أوراقه الخاصة بالشركة، بعد إيداع حقيبة المخدرات المزعومة في تلك الخزانة بمحطة سكة حديد هامبورج... وإذا كانت البرقية الشفرية قد تحدثت عن «التقاط» قام به ضابط مخابرات إسرائيلي لشاب مصري، فإن هذا الأسلوب في اللقاء كان معروفًا بالنسبة لعدد كبير من أجهزة المخابرات، خاصة المخابرات المصرية بعد أن اكتشفت واحدًا من أخطر الجواسيس في القاهرة أثناء عملية التقاط مماثلة.

لم يكن أبو سليم – بعد أن يودع نبيل الحقيبة في الخزانة – يلتقي بهذا الشاب بأسلوب واحد بطبيعة الحال، كان الأسلوب يتغير في كل مرة... ولقد كانا – مثلًا – يلتقيان أحيانًا في شقة نبيل الجديدة، ومرة أخرى في واحد من تلك المحلات الهادئة الخافتة الإضاءة... ومن أساليب اللقاء، كان ذلك «الالتقاط» الذي تحدثت عنه البرقية... فكان يكفي أن يغادر نبيل البيت في ساعة معينة وكأنه في طريقه لشراء شيء يحتاجه، وقد يشتري بالفعل أي شيء، ثم وعندما يطمئن تمامًا إلى أن أحدًا لا يتبعه – كان

أبو سليم بالقطع قد دربه على هذا - توقفت إلى جواره سيارة ما، ذات علامة خاصة أو لون خاص أو رقم خاص، وما كان عليه إلا أن يدلف إلى السيارة بسرعة وبشكل طبيعي تمامًا، كي تنطلق به إلى بعيد.

أغلب الظن أن علاقة نبيل بأبي سليم قد اكتشفت في إحدى تلك المرات... وكان يكفي أن ترسل صورة أبي سليم، أو حتى أوصافه، حتى يتعرف عليه الرجال في الحال.

ومن المؤكد أن نبيل سالم في ذلك الوقت لم يكن يعرف شيئًا عن طبيعة عمل أبي سليم، أو من يكون، أكثر من أنه تاجر مخدرات داهية... ولذلك، فبعد بضعة أيام من وصول تلك البرقية إلى القاهرة، هبط إلى هامبورج شاب مصري في مقتبل العمر، وقيل وقتها إنه نقل إلى فرع من فروع شركة ملاحية مصرية أنشئ هناك لخدمة السفن المصرية التي كانت ترسو في ذلك الميناء الألماني الشهير والكبير، وسرعان ما عرف هذا الشاب وسط تجمعات المصريين والعرب في تلك المدينة... وعندما التقى ذات مرة بنبيل سالم، كان لقاؤهما حارًا، وإذا كان نبيل يعمل في شركة سياحية، فإن تلك الشركة المصرية كانت تبحث عن ركاب أو سائحين يستعملون سفنها ذات الأسعار الرخيصة، إما في السفر، أو في جولة سياحية تطوف فيها بركابها موانئ جنوب أوربا أو إفريقيا حتى تصل في النهاية إلى الإسكندرية، ثم تعود بهم على نفس الخط، إلى هامبورج من جديد... وهي رحلات اشتهرت كثيرًا في الستينيات، وكان زبائنها عادة من المحالين إلى المعاش أو من الشبان والشابات الصغيري السن الذين يرغبون في رحلة تمتد على شهور... ولا يدفعون فيها كثيرًا.

ويبدو أن صداقة ما قد نمت بين هذين الشابين المصريين فلقد كانا يلتقيان دائمًا، ثم انقطعت علاقتهما فجأة عندما اتهم نبيل ذلك الشاب بأنه يريد أن يخرب عليه عمله.

حدث هذا عندما راح ذلك الشاب الوافد على هامبورج - والذي لا أستبعد أن يكون عادل مكي أو واحدًا من مساعديه - يبصر نبيل بخطورة التعامل مع شركات غامضة الأهداف، عارضًا عليه وظيفة في شركة الملاحة المصرية... لكن جهود الشاب كللت بالفشل، فلقد هتف به نبيل ذات مرة:

- بقى أنا هربان من مصر، عاوز إنت تجيبها لي في هامبورج.

ولست أدري إن كانت هناك محاولات أخرى قد بذلت كي يتجنب مصيره ذاك التعس... لكن المؤكد أنه رفض أية نصائح همس بها مخلصون في أذنه، ورفض كل العروض التي قدمت له.

وهكذا، وبمحض اختياره سار نبيل في الشوط حتى نهايته... وحتى وجد نفسه يجلس في إحدى الطائرات، في طريقه من فرانكفورت في ألمانيا الغربية، إلى مدينة «برن» السويسرية! مطاردًا من البوليس الألماني، مستعملًا لجواز سفر مزور.

* * *

كانت المضيفة تبدو أوربية تمامًا... هي شقراء، جميلة، ذات جسد متناسق وعينين زرقاوين وحركة رشيقة شأنها شأن المضيفات في شركات الطيران العالمية... وكانت أمامه طوال الوقت منذ غادرت الطائرة مطار فرانكفورت دون أن يبدو عليها أية علامة تنبئ أنها تعرفه... حتى إذا أعلن في ميكروفون الطائرة، عن قرب هبوطها في مطار برن، وطُلب من الركاب أن يربطوا الأحزمة ويكفوا عن التدخين... مالت عليه تلك المضيفة الحسناء كي تساعده في ربط الحزام وإعادة مسند المقعد إلى وضعه الرأسي، لكنها، وبطريقة بدت لنبيل مذهلة لفرط بساطتها، أسقطت في حجره ورقة صغيرة وهي تهمس بعربية ذات لكنة لبنانية: أبو سليم بيريدك تروح هادا العنوان أول ما تغادر الطيارة.

كانت الليلة قد انقضت دون أن يذوق فيها نبيل للنوم طعمًا، وهو لم يكن يدري إلى أين هو ذاهب، أو ما الذي سوف يحدث في الساعات القادمة..

انصرفت الفتاة فور إلقاء الرسالة إلى عملها في نشاط، وامتدت يد نبيل إلى الورقة التي تحوي العنوان فقبض عليها ثم دسها في جيبه وهو يتذكر - بقليل من القلق- أنه إذا كان سوف يدخل سويسرا، فلا بد وأن يكون حاصلًا على تأشيرة دخول... فهل استطاع أبو سليم أن يحصل على هذه التأشيرة، في ذلك الوقت من الليل؟!

أخرج جواز سفره المزور وراح يقلب صفحاته التي امتلأت بتأشيرات لبلاد أوربية عديدة، ثم توقفت عيناه عند صفحتين متقابلتين، كانت الأولى تحمل تأشيرة دخول إلى سويسرا، والثانية وضع عليها خاتم القنصلية الإيطالية في هامبورج.

اجتاحت الدهشة جوانح نبيل سالم فراح يقلب الأمر في ذهنه، ثم تخلص من الحيرة عندما تذكر النقود التي أعطاها أبو سليم للشرطي الألماني ولا بد أن لهذا الرجل صلات غير عادية... ولقد حاول نبيل - قبل مغادرته الطائرة - وعند نهوض الركاب وزحفهم نحو الباب، أن يرى أبا سليم أو يلمحه دون جدوى... وحتى عندما نفذ إلى صالة الوصول بالمطار، لم يكن عدد الركاب كبيرًا، لذا... فلقد راح مرة أخرى يبحث عن أبي سليم دون أن يعثر له على أثر، مما بعث بالقلق إلى نفسه، لكنه لم يكن يملك سوى اتباع تلك التعليمات التي وصلته من مضيفة الطائرة... فما إن غادر المطار حتى ألقى بنفسه داخل أقرب سيارة أجرة صادفته، أعطى للسائق العنوان محاولًا الحديث معه بالألمانية تارة وبالإنجليزية تارة أخرى... حملته السيارة إلى المدينة مخترقة شوارعها حتى أوصلته إلى بيت صغير يقوم في شارع شديد الهدوء... غادر التاكسي حاملًا حقيبته

الصغيرة ناظرًا في العنوان المكتوب في الورقة، رافعًا رأسه نحو رقم البيت، وما إن همَّ بالاقتراب من باب البيت حتى سمع من خلفه صوتًا يناديه:

- تعال يا نبيل.

التفت نبيل وفزع، كان التاكسي قد مضى إلى حال سبيله وسيارة أخرى تقف الآن في مكانه وكأنها جاءت سابحة في الهواء بلا صوت... داخل السيارة كان أبو سليم يقبع في المقعد الخلفي فدلف نبيل إلى جواره، وانطلقت السيارة بهما فورًا.

- إحنا رايحين فين يا ابو سليم؟!

هكذا سأل نبيل فغمغم الرجل في لا مبالاة:

- دلوقت تعرف.

وعاد الصمت من جديد.

كان من الواضح أن السيارة تخترق المدينة في طريقها إلى الطريق السريع... ولقد كان نبيل في تلك الساعات، ورغم الإجهاد والتعب وقلة النوم، يلوك في ذهنه أسئلة راحت تتفجر واحدًا بعد الآخر... وبصرف النظر عن ذلك السؤال الملح عن كيفية حصول أبي سليم على تأشيرتي الدخول إلى سويسرا وإيطاليا بمثل تلك السرعة التي تم بها الأمر. وفي مثل ذلك الوقت الذي يستحيل فيه الحصول على التأشيرة من القنصلية... بصرف النظر عن هذا السؤال الكبير، فلقد راح يتساءل، وقد رأى تأشيرة الدخول إلى إيطاليا، وأدرك أنهم في طريقهم إلى الحدود السويسرية الإيطالية، فلماذا لم يركبا الطائرة من فرانكفورت إلى إيطاليا مباشرة؟!

فيما بعد فسر له أبو سليم تلك النقطة بالذات بأنها زيادة في الحيطة... وإذا كان ذلك الشرطي الألماني قد أخلى سبيله على أن يذهبا إليه في صباح اليوم التالي، فإنه أمام القانون لم يكن يملك شيئًا، وكان لا بد من إحالة الأمر إلى القضاء، ولما كان أبو سليم غير مستعد للتضحية بصديقه

لخمسة وعشرين عامًا قادمة يقضيها نبيل في السجون، فلقد كان لا بد من تهريبه... ولكن من يدريه أن هر براون لم يرسل خلفه من يتتبع خطاه ويراقب بيته... ولذلك، كان لا بد لمسار الرحلة أن يتنوع حتى يضمن أبو سليم تمامًا، أن أحدًا لا يتبعهما.

هكذا فسر أبو سليم الأمر فيما بعد لنبيل، لكنه بالقطع لم يذكر له السبب الحقيقي وراء سفرهما، وليومين متتاليين، قرابة ألف ميل بوسائل مواصلات مختلفة ودون توقف أو راحة أو نوم.

وقف عقل نبيل عن الحركة عندما حملتهما السيارة من برن إلى جنيف، ومن جنيف إلى الجنوب حيث عبرا الحدود السويسرية الإيطالية، ثم انحدرا إلى «ميلانو» عاصمة الشمال الإيطالي، وفيها تناولا وجبة سريعة ركبا بعدها القطار إلى روما، وفي روما استقلا سيارة إلى نابولي حيث كانت نهاية المطاف.

* * *

قال نبيل فيما بعد، إنه ما تمنى شيئا في حياته بنفس القوة والحرارة التي تمنى بهما في ذلك اليوم أن تغفو عيناه للحظات، سواء في الطائرة، أو السيارة، أو القطار.. رافقه أبو سليم في بعض من الطريق، وانفصل عنه في البعض الآخر وصلت السيارة إلى نابولي بعد منتصف الليل، كان الإجهاد قد أخذ منه الآن كل مأخذ فبدا له الأمر وكأنه حلم أو كابوس ظل يضغط عليه لحظة بعد أخرى... وكان مما ضاعف توتره طوال تلك الرحلة المضنية، أن أبا سليم راح يتعامل معه بجفاء شديد... وكان الصمت هو اللغة الغالبة بينهما حتى صاح نبيل ذات لحظة:

- يا ابو سليم أنا هاتجنن، كلمني، اشتمني، اعمل أي حاجة بس بلاش الأسلوب ده.

كان نبيل ينزلق، في كل لحظة، إلى حالة رهيبة من الانهيار كان مطلوبًا أن يصل إليها... وفي أحد شوارع نابولي الجانبية، في حي من أحيائها المتوسطة، توقفت السيارة أمام بيت مكون من طابقين... بدا البيت في ظلام الليل كالشبح الرابض في انتظار فريسة... بجوار باب الحديقة من الداخل كان ثمة كشك خشبي يجلس بداخله عملاق طمست ظلال الضوء الخافت في الكشك ملامح وجهه، وإن بدا جسده - على البعد - كالطود الهائل يكاد يشغل فراغ الكشك كله... التفت نبيل نحو أبي سليم الذي قال:

- شايف الراجل اللي في الكشك ده؟!

- أيوه.

- قول له إنك عاوز تشوف سنيور چيوڤاني.

قال أبو سليم هذا فأحس نبيل بالحيرة:

- وبعدين؟!

- ولا قبلين... هو هيقولك على كل حاجة.

- ومين سنيور چيوڤاني ده؟

أطلقت عينا أبي سليم نظرة صاروخية بعثت بالرعب إلى قلب الشاب الذي كاد يسقط في مكانه من فرط الإعياء والقلق معًا، من بين أسنانه قال الرجل:

- من غير أسئلة... اللي أقول لك عليه تعمله، ولا تنساش إن جوازات السفر اللي معاك مزورة، وإنك ضيعت على المنظمة كذا مليون ليرة لمجرد إنك ما سمعتش الكلام ولا نفذتش التعليمات.

مضت لحظة صمت قذفه بعدها أبو سليم بكلمة كالحجر:

- اتفضل.

ووجد نبيل نفسه يغادر السيارة حاملًا حقيبته دون كلمة... خطا نحو باب الحديقة خطوتين ثم عنَّ له، من فرط الرعب، أن يسأل أبا سليم متى سيراه مرة أخرى، غير أنه ما إن استدار نحو السيارة حتى رآها وهي تنطلق بسرعة مبتعدة عنه... ووجد نبيل نفسه يقف في مدينة لم تطأها قدمه من قبل، ولا يعرف فيها أحدا ولا يملك من عملتها فلسًا... وكان جائعًا، والليل قد انتصف منذ ساعة أو يزيد قليلًا.

* * *

تقدم من العملاق الجالس في الكشك ودق بإصبعه على زجاج النافذة على الطريق، فالتفت هذا إليه، ورفع نبيل يده بتحية لم يردها الرجل، مال على النافذة وكان لا بد له أن يصيح حتى يصل الصوت عبر الزجاج إلى الرجل، فسأل عن سنيور چيوڤاني... كشر الرجل عن أنيابه وقال كلامًا لم يسمعه نبيل، لكن ما لبث أن فتح النافذة مزمجرًا:

– ماذا تريد في مثل هذه الساعة بحق الشيطان؟!

قالها الرجل بالإيطالية فلم يفهم نبيل شيئًا لكنه عاد فسأل عن سنيور چيوڤاني بالإنجليزية... تهللت أسارير العملاق وهو يهتف متسائلًا:

– سنيور نبيل؟!

– سي... سي.

وهكذا أغلق العملاق النافذة ورفع سماعة تليفون كان إلى جواره وتحدث ببضع كلمات أعاد بعدها السماعة، وفتح النافذة وهو يطلب من نبيل الدخول.

تحرك نبيل نحو باب الحديقة المغلق، لكنه ما إن اقترب منه حتى فتح الباب فأدرك أن ثمة زرًا كهربيًا يتحكم فيه داخل الكشك... لم تكن حديقة البيت كبيرة أو واسعة وهي أيضًا لم تكن مضاءة... ففيما عدا مصباح صغير خافت كان معلقًا عند باب البيت، لم يكن هناك ضوء على الإطلاق فكان

الظلام دامسًا والسماء ملبدة بغيوم الخريف الكثيفة... وكان الطريق المؤدي إلى البيت عبر الحديقة مرصوفًا بحجر ذي ألوان طمسها الظلام... قبل أن يصل إلى نهاية الممر ببضع خطوات فتح باب البيت ونفذ منه عملاق آخر يرتدي ملابس السهرة، وقبل أن يفتح نبيل فمه بالسلام أو السؤال أشار له العملاق إلى الباب المفتوح فدلف هذا منه كي يجد نفسه في بهو متوسط الاتساع لكنه يحمل كل عراقة العمارة الإيطالية... في الصدر، إلى اليسار قليلًا، سلم عريض يؤدي إلى الطابق العلوي... على يمين الداخل رأى نبيل بابًا مفتوحًا نفذ منه العملاق طالبًا منه أن يتبعه... قادهم الباب إلى سلم ينحدر إلى أسفل، في نهاية السلم كان ثمة باب حديدي يؤدي إلى قبو مليء ببراميل النبيذ وزجاجاته... زكمت رائحة القبو أنف نبيل لكنه تبع الرجل دون كلمة وكأنه مشدود إليه بقوة قاهرة... في نهاية القبو نفذ العملاق من باب انحنى حتى يستطيع المرور منه فتبعه نبيل، ما إن نفذ من الباب حتى وجد نفسه في بهو متوسط الاتساع يكاد أن يكون خاليًا تمامًا من الأثاث... على جنبات البهو كانت هناك أبواب مغلقة، في الصدر لاحظ نبيل بابًا مفتوحًا لإحدى الغرف... أشار العملاق إلى ذلك الباب طالبًا من نبيل الدخول... تقدم نبيل نحو الباب وهو يظن أنه سوف يلتقي في تلك الغرفة بالسنيور چيوڤاني، لكنه ما كاد يخطو فيها خطوة حتى تسمر في مكانه وكأنما أصابته صاعقة... كانت الغرفة شديدة الضيق مرتفعة السقف ملساء الحيطان عارية الأرض... على ارتفاع ما يقرب من ثلاثة أمتار كان ثمة نافذة تتخللها قضبان حديدية.. ارتد إلى الوراء ملتفتًا نحو العملاق فواجهته لكمة هائلة أطاحت به عبر الغرفة إلى الجدار المقابل للباب... ارتطم جسد نبيل بالجدار، وقبل أن ينتبه أو يفيق مما حدث... كان الباب قد أغلق عليه، وصنع صوت المزلاج في الخارج دويًا كان له في صدره صدى الموت نفسه.

الفصل الرابع عشر

البقاء للأذكى

اختفى نبيل سالم فجأة من مدينة هامبورج... وعبثًا حاول المصريون أن يعثروا له على أثر أو أن يعرفوا مصيره... وعندما ذهب بعض أصدقائه للسؤال عنه في شركة السياحة التي كان يعمل بها كان منهم مصريون كما كان من بين الذين سألوا عنه، شاب ألماني صارم التقاطيع اسمه هانز - وقال هانز هذا إن نبيل سالم مدين له ببعض المال - استقبلتهم شيرلي هايمان بفتور قائلة في اقتضاب: «إن هر سالم قدم استقالته ورحل دون أن يترك عنوانه قبل الرحيل».

وعندما ذهب بعضهم إلى مسكنه لم يكن حظهم أحسن حالًا... فلقد كان المسكن لا يزال باسمه... وقالت مديرة البيت: إنه كان موجودًا حتى ثلاث ليال مضت وكان معه بعض الأصدقاء، لكنهم غادروه قبل منتصف الليل... ثم غادر هو البيت بعد ذلك، ولقد ظننت أنه خرج لأمر ما كعادته، وأنه لا بد سيعود قبل الصباح، لكنه لم يعد... وعندما هم الصديق بالانصراف، لاحقته السيدة قائلة:

- عليك أن تنذر صديقك بأنه إن لم يعد خلال أربعة أيام، فلسوف أؤجر المسكن لشخص آخر.

وهكذا أدرك المصريون أن الأمر لا يحتمل سوى شيء من اثنين:

إما أن نبيل طوال الفترة الماضية، كان يُعَدُّ للقيام بدورٍ ما في مكان آخر، وهو الاحتمال الذي كان غالبًا... وإما أن يكون مكروه قد وقع له فاختفى دون أن يترك أثرًا وراءه.

وفي حقيقة الأمر، فلقد كان هذا الاحتمال الأخير واهيًا تمامًا، بل لا يكاد يستند إلى دليل أو حتى فكرة منطقية... ذلك أنه من غير المعقول أن تتم مثل تلك السيطرة على شخصية مثل شخصية نبيل، ويبذل معه كل هذا الجهد، وعلى مدى شهور طالت، ثم يتم بعد ذلك التخلص منه لأي خطأ مهما كان... ولذلك، فلقد ساد الاحتمال الأول، فكان لا بد من الاستعداد له، بسرعة.

وفي ظني - وهذا تقدير شخصي لا يستند إلى معلومات! - أن عادل مكي نفسه طار إلى هامبورج عندما وصله خبر اختفاء نبيل المفاجئ... وإذا كان عادل قد استبعد أن يكون سبب اختفاء نبيل هو حدوث مكروه له... فلقد كان على هذا الضابط الشاب، أن يباشر الأمر بنفسه، وأن يعيش في الساحة التي تمت فيها كل تلك العمليات المُرَكَّبة والتي كان الآن يعرف بعضها ويتكهن بالبعض ويجهل البعض الآخر... خاصة، وأن أبا سليم، ولأسبوع انقضى منذ اختفاء نبيل، كان قد اختفى هو الآخر ولم يظهر في هامبورج... وعندما تجمعت كل المعلومات التي أمكن الحصول عليها، وجد عادل نفسه أمام أمر واحد لا مفر منه.. وهو مراقبة لويز جولدمان - وكان الآن قد اكتشف من تكون تلك الفتاة الغامضة والخطرة - مراقبة دقيقة لا تجعلها تغيب لحظة عن عينيه، ذلك أنه - بحس المدرب - شعر أن في الحركة القادمة لتلك الفتاة، يكمن مفتاح السر الذي سوف يشير إلى مصير نبيل أو مكانه.

* * *

إذا كان هناك من يقول بأن البقاء للأصلح، وهناك من يرد بأن البقاء للأقوى.. فإن عادل مكي كان من الذين يؤمنون بأن كلا القولين كانا نتاجًا لفلسفات انقرضت، وأن البقاء في العصر الحديث سيكون من نصيب الأكثر ذكاءً... ذلك أن تلك اللعبة الجهنمية التي كان يخوض غمارها منذ سنوات هي في الأصل لعبة «ذكاء»، وعليه... فلقد كان لا بد له من أن يشحن كل أسلحة ذكائه وفطنته، حتى لا يفلت نبيل من يديه، وحتى لا ينتصر العدو.

وهكذا... وفي غرفة بسيطة في مسكن بسيط لموظف صغير في فرع من فروع إحدى الشركات المصرية القليلة في هامبورج، جلس عادل مكي ذات ليلة كان البرد فيها قارسًا، مع ثلاثة من الشباب المصري... كان أولهم صاحب المسكن، أما الثاني فكان رث الملابس يعمل ساقيًا في حانة من حانات الميناء اشتهرت بروادها من العرب... وكان الثالث يبدو صغير السن أكثر مما ينبغي، أنيقًا إلى حد الإفراط، كان يبدو وكأنه ابن لأحد الأثرياء جاء يدرس في أحد معاهد تلك المدينة الشهيرة... وكان على عادل مكي الآن أن يضع معهم خطة محكمة لمراقبة كل خطوة وكل حركة لتلك الفتاة لويز جولدمان... ولأن عادل كان في مرحلة من المراحل قد تعامل معها، فلقد راح يشرح للثلاثة كل شيء عنها... وانخرط الجميع بعد ذلك في مناقشة الخطوات اللازمة لمراقبة تلك الفتاة التي كانت الوحيدة التي بقيت في المدينة بعد اختفاء أبطال اللعبة واحدًا بعد الآخر: فريدريك أولًا، ثم نبيل سالم وأبو سليم معًا.

غير أنه لا بد لنا أن نطرح هنا حقيقة هامة... وهي أن عادل مكي، في الأسابيع التي انقضت منذ شوهد نبيل سالم مع أبي سليم، كان قد عرف عن نبيل، في مصر، كل شيء منذ أن ولد وحتى سافر هربًا من فشله إلى حيث لم يكن يدري وإلى حيث ألقاه طموحه... ولقد قال لي ذات مرة إن كل العناصر التي تجمعت لديه في القاهرة، كانت تبدو طبيعية ومنطقية، فيما عدا

عنصرًا واحدًا استوقفه... ذلك العنصر هو علاقة نبيل بسامية فهمي، وذلك الحب الغريب الذي كانت تكنه تلك الفتاة الملتهبة بالوطنية لذلك الشاب الذي لم يكن يعنيه شيء في الدنيا سوى الحصول على نجاح مزيف... وهو، في أول الأمر لم يفاجأ بأن سامية على علاقة عاطفية مع نبيل سالم، لم تدهشه العلاقة في البداية.. لأن بعضًا من العملاء والجواسيس، يبدون في حياتهم المرئية والمعلنة،من أشد الناس حماسًا للعمل الوطني، ويصبح طبيعيًا أن تدفعهم حماستهم وعملهم الدائب، إلى فروع عديدة لنشاطات مختلفة ومناطق حساسة، ويكون الغرض من كل هذا هو الحصول على المعلومات... ولذلك فلقد وضع سامية تحت بؤرة رقابية شديدة الصرامة... لكن الأيام أثبتت له شيئًا آخر غير ما ذهب إليه ظنه، أثبتت له الأيام أن سامية عنصر يختلف، وأن حب الوطن يسري في عروقها مسرى الدم... وكان هذا - بالقطع - من دواعي سعادة غمرته.

* * *

بالرغم من أن لويز جولدمان - أو شيرلي هايمان - عادت إلى حياتها الطبيعية - تلك الحياة التي كانت تحياها قبل أن تلتقي بنبيل سالم - دون أدنى قدر من التغيير، إلا أن عادل مكي كان موقنًا من أنها ستغادر ألمانيا بعد أسابيع، وربما بعد أيام لن تطول.

كان تقديره للموقف الآن، أن الخطوة الأولى في تجنيد نبيل سالم والسيطرة عليه قد تمت على أكمل وجه، وأنه الآن قد انتقل إلى خطوة أخرى، هي خطوة ممارسة ما كانوا يعدونه له... وإذا كان عادل مكي يستطع أن يبث عيونه في كل عواصم أوربا حيث تجمعات المصريين في بعض من مدنها الشهيرة، حتى يعثر على نبيل سالم إلا أنه كان موقنًا من أن الخطوة التالية للويز جولدمان، هي التي ستحدد بالضبط إن كان على صواب فيما ذهب إليه.

ولقد قال في تلك الليلة القارسة البرد، للشبان الثلاثة الذين اجتمع بهم، إن أي خطأ مهما كان بسيطًا، كفيل بأن يشير إلى وجود المصريين في هامبورج، وهذا ما يجب أن يتجنبه كل منهم بأقصى ما يستطيع من حرص حتى لا يشتد الغموض كثافة، ويصبح العثور على نبيل سالم كالعثور على إبرة ضاعت في كومة قش.

طال بينهم الجدل حول بعض الخطوات، حتى إذا أصبح كل شيء واضحًا ومحددًا... سمعوا على باب البيت دقات معينة، التفت بعدها صاحب البيت نحو عادل قائلًا:

- هانز وصل.

وكان هانز هو نفسه هانز الذي ذهب إلى شركة السياحة للسؤال عن نبيل سالم... كان شابًا ألمانيًا بكل ما تحمل الكلمة من معنى، وكان فنانًا يرتاد الحانات ويتخذ من روادها نماذج للوحاته،وكان بالفعل قد التقى بنبيل سالم في إحدى تلك الحانات وصادقه ثم فترت العلاقة بينهما بعد ذلك، وقال نبيل سالم يومها معللًا الأمر: إن أشد ما يعيب هانز أنه «ألماني جدًّا»، إلا أنه صارم في معاملاته مع الناس، منضبط كالساعة، صلب الرأي... لكن أكثر عيوبه بالنسبة لنبيل، أن التعامل معه صعب، فهو لا يتقن غير الألمانية، ولا يعرف كلمة واحدة من أية لغة أخرى غيرها.

لكن الشيء الغريب الذي حدث في تلك الليلة، أن هانز - منذ أن دخل المسكن - راح يتحدث بالعربية بلهجة مصرية وكأنه تربى في شوارع القاهرة وحواريها... وعلى كل، فلقد كان عادل مكي قد عهد إلى هانز بمهمة جاء هذا كي يعرض عليه نتائجها.

- إية الأخبار يا أخ هانز؟!

هكذا سأله عادل فردّ على الفور:

- أنا جاهز.

- طب نتفرج.

فتح هانز دوسيهًا كبيرًا من تلك التي يستعملها الفنانون وأخرج منه ست لوحات لفتاة واحدة، كانت اللوحات الست التي رسمها هانز للويز جولدمان أو شيرلي هايمان... غير أن كل لوحة كانت تمثل شخصية قائمة بذاتها..مع اللوحات تساقطت صور عديدة لشيرلي هايمان في أوضاع مختلفة وهي ترتدي نظارتها الطبية وتقعص شعرها إلى الخلف، فهكذا كانت منذ ظهرت في هامبورج... لكن اللوحات كانت مختلفة... فواحدة منها كانت لشيرلي هايمان وهي ترتدي نظارة شمسية وجونلة شديدة القصر - ميكروجيب - وجاكيت سميكًا ذا ياقة من الفراء... وكانت اللوحة الثانية لفتاة سمراء الشعر لها مواصفات مختلفة... و... والثالثة... والرابعة... و... وكان هذا هو التصور الذي وضعه الفنان الألماني هانز لشيرلي هايمان إذا ما أرادت التنكر... ولقد ألقى عادل مكي نظرة فاحصة على تلك اللوحات ثم قال للشبان الثلاثة إن عليهم أن يدرسوا تلك اللوحات بعناية شديدة.

- لأن لويز ساعة ما تحب تسيب البلد، مش هتسافر زيّ ما هيَّ... لازم تغير شكلها علشان يبقى صعب التعرف عليها، وبالتالي معرفة البلد اللي هي رايحاها.

وهكذا... راحوا جميعًا يدرسون تلك الإمكانيات التي تصورها هانز لتنكر لويز جولدمان... وأخذوا يتبادلون اللوحات ويتناولونها من واحد إلى آخر، ويناقشون الأمر فيما بينهم وقد استغرقوا فيه تمامًا.

❊ ❊ ❊

قبل أن ينقضي نهار اليوم التالي لتلك الليلة، كانت هناك مفاجأة في انتظار عادل مكي... فلقد ظهر مرة أخرى - فجأة - موزع المخدرات الألماني فريدريك بيكر، عاد من إسبانيا - التي قيل إنه ذاهب إليها في أجازة، والغريب، أن التحريات أثبتت أنه بالفعل كان في إحدى مدن

إسبانيا الجنوبية - عاد متورد الوجه أسمر البشرة مشرقًا مرحًا كعادته... ولقد قال لي عادل وهو يحكي لي عن تلك الفترة، إنه كان قد استعد للعودة إلى القاهرة في اليوم التالي تاركًا الأمر للرجال هناك... لكن ظهور - أو عودة - فريدريك بيكر الذي أثبتت التحليلات ثم التحريات وجود علاقة بينه وبين أبي سليم، جعله يعدل عن السفر ليوم آخر أو يومين، فلقد كان في عودة ذلك الشاب الألماني المبكرة، إشارة صريحة إلى غفلة الإسرائيليين عن وجود المصريين هناك، كانت عودته إشارة إلى إحساسهم بأنهم يقفون في الملعب وحدهم، ولقد عاد فريدريك كي يمارس نشاطه بشكل طبيعي تمامًا... ومنذ اللحظة الأولى عدلت خطة المصريين، فلقد كان لا بد لهم من حصاره هو الآخر ومتابعته لعلهم يعرفون منه شيئًا... لكن فريدريك لم يسأل إطلاقًا عن نبيل سالم ولم يذكره - وكان هذا بالقطع مما يلفت النظر - وعندما قيل له ذات مساء في أحد تلك المواخير التي كان يرتادها بعد منتصف الليل إن نبيل قد اختفى فجأة، هز كتفيه ومط شفتيه ولم يبد عليه أي نوع من أنواع الاهتمام وكأنه لم يعرفه ولم يلتق به يومًا... ليس هذا فقط، فلقد راحت أخطاء الإسرائيليين تتوالى نتيجة ذلك الإحساس الواثق بعدم وجود المصريين... ذلك أن لويز جولدمان، وقد كانت تلتقي بذلك الشاب الألماني تلك اللقاءات السرية الشبه منتظمة، ثم انقطعت عن لقائه بعد التحاق نبيل سالم بشركة السياحة، لم تفكر، ولم يحدث أن التقت بفريدريك بعد عودته ولا مرة... بل عندما تصادف أن التقيا ذات مرة في أحد المطاعم تجاهل كل منهما الآخر وكأنه لا يعرفه.

بعث كل هذا بالأمل إلى نفس عادل مكي، فلم يكن له معنى سوى أن الإسرائيليين كانوا موقنين أن المصريين لا يعرفون شيئًا، بل يكاد يعني، أنهم كانوا موقنين أن المصريين ليس لهم أي نشاط يعتد به في هامبورج... وهذا ما كان عادل مكي يريده بالضبط، فلقد جعل الأمر أكثر سهولة بالنسبة إليه.

ولقد حدث ما توقعه تمامًا فما إن مضى أسبوع وبضعة أيام، حتى شوهدت لويز جولدمان وهي تغادر مسكنها ذات مساء إلى المطار... كانت في تلك الليلة تبدو وكأنها فتاة أخرى تمامًا، تغير كل شيء فيها، لم يكن هناك مكياج أو باروكة وضعتها فوق رأسها ولا شيء من هذا القبيل، بل فقط... خلعت نظارتها الطبية وغيرت تصفيف شعرها وارتدت بنطلون جينز فوقه جاكيت جلدي سميك، فبدت أصغر من سنها بعشر سنوات على الأقل.

ولقد قال ذلك الشاب - وهو واحد من الثلاثة الذين اجتمع بهم عادل - الذي تبعها في تلك الليلة حتى رآها بعينيه وهي تدخل إلى طائرة شركة العال الإسرائيلية المتجهة إلى إسرائيل، قال ضاحكًا فيما بعد: إن الهيئة التي خرجت عليه بها لويز جولدمان، لم تكن تشبه أية صورة من تلك اللوحات الست التي تخيلها الفنان الألماني هانز... لكنه اعترف بعد قليل من المداعبة، أنها بدت له في لحظة، وكأنها أخذت من كل صورة من تلك التي رسمها هانز شيئًا ما، ثم كونت من اللوحات الست شخصية أخرى لتصبح لتلك الفتاة التي رآها تغادر بيتها إلى المطار في بساطة من لا يخشى مراقبة على الإطلاق.

وهكذا، تَيَقَّنَ عادل مكي أن الإسرائيليين غافلون عنه تمامًا، وأن عليه أن يخطو خطوته التالية باطمئنان أكثر.

كان معنى سفر لويز جولدمان إلى إسرائيل أنها لن تلتقي بنبيل سالم بعد ذلك على الإطلاق، فلقد أدت مهمتها على أكمل وجه ووجب أن يفترقا إلى الأبد، هذا هو القانون، وهذا هو العرف، وهذا هو التصرف الصحيح، ثم إن هذا هو أسلوب المخابرات الإسرائيلية الذي بدا له عتيقًا غير متطور... وإذا كان الأمر كذلك، فإن عودة لويز إلى إسرائيل تعني عودتها إلى القاعدة كي تستعد لجولة جديدة مع ضحية جديدة أو عملية جديدة، تمامًا مثلما حدث بعد وجودها في فرنسا وفي إيطاليا وقبل أن تظهر

في هامبورج بألمانيا الغربية... وكان معنى هذا أيضًا، أن نبيل سالم قد انتقل الآن إلى مدينة من تلك المدن التي يستطيع أن يمارس فيها نشاطه - كان عادل مكي قد وضع عيونه في مطار القاهرة الدولي خشية أن يكون نبيل قد عاد إلى مصر، لكن متابعته للأمر نفت تمامًا عودته- وكانت تلك المدن بالقطع، هي التي يكثر تجمع العرب فيها، خاصة المصريين... وكانت هذه المدن معروفة في أوربا تمامًا... أشهرها بعد هامبورج كانت نابولي وجنوا في إيطاليا، وأثينا وبيريه في اليونان، بل إن تقديره للموقف،جعله يضع احتمالين لا ثالث لهما، ولذلك فلقد راح يُحْكم البحث في نابولي وأثينا بالتحديد.

كان عادل مكي في تلك السنوات، واحدًا من المصريين الذين ترددوا أكثر من مرة على أثينا عاصمة اليونان بالذات، لكنه وحتى لا يشطح الخيال بعض من تستهويهم الاستنتاجات - لم يكن ذلك الذي انتحل اسم «الريس زكريا» في المسلسل التلفزيوني «دموع في عيون وقحة» الذي اشتهر في العالم العربي باسم بطله «جمعة الشوَّان».

وهكذا عاد عادل مكي إلى القاهرة كي يبدأ خطوته التالية، وهي البحث عن الشاب المصري نبيل سالم، الذي كان يتوقع ظهوره في نابولي أو أثينا، كي يلعب دورًا لم يكن قد اتضحت له أبعاده بعد.

* * *

في تلك الأيام كان نبيل سالم - ومنذ وصوله إلى نابولي - يحيا حياة لا علاقة لها بالواقع الذي عرفه من قبل... ضغطت عليه تلك المعاملة التي عومل بها ضغطًا جعله يظن أنه يعيش كابوسًا راح يتلهف كي يصحو منه، كان يقضي يومه كله جالسًا في تلك الغرفة العارية الأرض والجدران، والتي أُلقيَ فيها... في انتظار أن يفتح عليه الباب مرة، أية مرة.

لم يكن هناك من يحدثه أو يتحدث إليه، لم يكن هناك من يلقي عليه تحية الصباح أو المساء، لم يكن يعرف أين هو أو ماذا سوف يصنعون به...

في صباح اليوم التالي لوصوله، فتح باب الغرفة - أو الزنزانة كما أطلق هو نفسه عليها فيما بعد - عن عملاق شرس التقاطيع صخري الوجه، ألقى بطبق فيه كسرة من خبز وقطعة من جبن على الأرض، ثم وضع بجوارها إناء امتلأ نصفه بالمياه... أعلن نبيل عن رغبته في الذهاب إلى الحمام فصحبه الرجل - دون كلمة - إلى حمام صغير في صدر المكان بلا باب!! وظل واقفًا أمامه جامدًا حتى إذا انتهى صَحِبَهُ مرة أخرى إلى غرفته وأغلق الباب من جديد.

في المساء ظهر عملاق آخر كي يصنع نفس الشيء كسرة خبز وقطعة جبن وقليل من الماء.

ولستة أيام متصلة لم يسمع نبيل سالم كلمة واحدة من حراسه رغم كل محاولاته وتوسلاته... حتى إذا كان الصباح السابع كان الغضب والهلع قد أخذ منه كل مأخذ وهو عائد من الحمام، فما إن وصل إلى باب الغرفة حتى استدار نحو حارسه وهو يصرخ كمن فقد عقله: إنه يريد أن يرى أبا سليم أو ذلك السنيور چيوڤاني، وما شعر بعدها إلا بلكمة رهيبة ترتطم بفكه وتدفع جسده عبر الغرفة في عنف كي يرتطم بالحائط ويسقط فوق الأرض... وقبل أن يفيق أو ينتبه لما حدث، كان الباب قد أُغلق من جديد، وصنع صوت المزلاج دويًا بعث الرعب في نفسه أكثر.

غير أن الشيء المؤكد، أن تلك العزلة قد دفعت نبيل سالم طوال ذلك الأسبوع العصيب إلى التفكير... ولقد أدرك بوضوح، ومنذ البداية، أنه إن قدِّر له أن يخرج من محبسه هذا حيًا، فإن عليه الامتثال لكل أمر يصدر له من أبي سليم... لكن الغريب في الأمر، أنه قال فيما بعد وهو يحكي قصة تلك الأيام بالتفصيل، إنه كان يشعر حقًّا بالضيق، بالخوف، بالرعب، بالضياع... لكنه أيضًا كان يشعر - رغمًا عنه ولدهشته البالغة - بسعادة خفية تغمره.

وكان سر تلك السعادة الدفينة والخفية التي أدهشته، أنه أدرك أنه يعملٍ مع منظمة قوية بحق، منظمة لها فروع في دول شتى، كما أن لها رجالًا في كل مكان، وطقوسًا لا بد من اتباعها، منظمة تستطيع ببساطة أن ترشو ضابط شرطة ألماني، وأن تهرب مطلوبًا للعدالة، وأن تجهز له جواز سفر في ساعات جد قليلة، وأن تحمله إلى بعيد... أدرك نبيل سالم أن هذه المنظمة لو أنها أرادت التخلص منه أو قتله، لما تجشمت عناء نقله إلى دولة أخرى، بل تخلصت منه في هامبورج ببساطة شديدة... وكان المعنى الوحيد لتهريبه أن هناك أمل في معاودة التعاون معه، وأنها ترى فيه عنصرًا صالحًا بالرغم من أنه أضاع بحماقته، مخدرات بمئات الألوف من الجنيهات... فما تكون تلك المنظمة الخرافية القوة والقدرات سوى المافيا؟

هكذا كان نبيل سالم يفكر، وهكذا استراح لما وصل إليه فقبع في غرفته تلك العارية الأرض والجدران القارسة البرد ينتظر الخطوة التالية، أصبح موقنًا أنهم أبقوا عليه لأنهم يحتاجون إليه، أو لأن أبا سليم قد شفع له عندهم.

قال نبيل سالم يصف حالته أثناء وجوده في تلك الغرفة في قبو ذلك القصر الذي دخله في نابولي ذات ليلة... إنه راح يفكر، ويسترجع الأحداث، ويقارن ويحلل ويبحث عن معنى لكل ما مرَّ به... وكان يصل إلى نتائج أثبتت له الأيام أنها خاطئة، لأنه فقط، كان يسير في الاتجاه الآخر.

* * *

في صبيحة اليوم التاسع، فتح الباب وظهر فيه أبو سليم.

انتفض نبيل لرؤية الرجل الذي كان يمثل بالنسبة إليه طوق نجاته الوحيد مما هو فيه، وظل أبو سليم في مكانه جامدًا وهو ينظر إلى نبيل والشرر يتكاثر من عينيه، كان واضحًا أن الغضب قد استبد به استبدادًا لا يدع للحلم طريقًا إليه... وبالرغم من أن نبيل كان قد وطَّدَ نفسه على تقبل

كل شيء إلا أنه لم يستطع أن يمنع الخوف من أن يجتاحه اجتياحًا... بعد ثوان من الصمت نهض واقفًا لاستقبال الرجل الذي نظر خلفه نظرة سريعة فإذا الحارس يدلف إلى الغرفة كي يضع بجوار الباب مقعدًا من الخشب... وضع الحارس المقعد ثم انصرف وأغلق الباب وارتفع صوت المزلاج حادًا فكأنه صوت مقصلة تهوي فوق عنق نبيل الذي استشعر خطرًا لم يتوقعه، فقال بصوت متوسل:

- شوف يا ابو سليم، أنا غلطت ومستعد أدفع ثمن غلطتي.

قال أبو سليم وهو يخطو كي يجلس فوق المقعد متحفزًا:

- مستعد تدفع ربع مليون مارك يا نبيل؟!

- مستعد لأي حاجة تقولها.

- أي حاجة؟!

- أنا بصراحة يا ابو سليم ما كنتش فاهم.

- ودلوقت؟!

- فهمت.

- فهمت إيه؟!

ارتبك نبيل، ابتلع لعابه، أُرتج عليه، تلعثم وهو يقول:

- الـ... الـ... المنظمة يعني.

من بين أسنانه راح أبو سليم يقول:

- إنت عارف أنا تعبت قد إيه علشان أقنعهم بيك؟!

- غلطة ومش هتتكرر تاني.

- قعدت تتحايل على فريدريك، وتقول له إنك عاوز تعيش.

- غلطة... صدقني إنها غلطة.

- والفلوس؟!

- حاعمل كل حاجة وأي حاجة علشان أسددها.

- ولو ما سددتهاش؟!

- اعمل فيَّ اللي يرضيك.

- ما هو إنت لو ما سددتهاش، أنا اللي لازم أسددها.

- يا ابو سليم...

ما كاد نبيل يهتف باسم الرجل حتى نهض هذا من مكانه مزمجرًا وقد احتدمت ملامحه بغضب هائل:

- أنا اللي لازم أدفعهم يا نبيل وإلا إحنا الاتنين حانروح سوا في مشوار لحد الآخرة.

- طب عاوزني أعمل إيه؟!

قال نبيل هذا وهو يلتصق بالحائط متراجعًا أمام تقدم الرجل الذي كان ينتوي شرًّا:

- عاوزك تدفع لي ربع مليون مارك ألماني ثمن الشحنة اللي ضيعتها علشان حتة بنت لا راحت ولا جت.

- يا ابو سليم...

ولم يكمل نبيل جملته، فلقد صعقته قذيفة رهيبة من قبضة فولاذية أدارت رأسه.. وفيما بين اليقظة والإغماء استولت الدهشة على نبيل وسؤال يتصارخ في رأسه، من أين لأبي سليم بمثل هذه القوة الرهيبة... دارت رأسه وتهادى جسده فراح يقاوم السقوط بالاستناد إلى الحائط، فعاجلته لكمة أخرى في بطنه أورثته سقمًا انتشرت آلامه في صدره كأسياخ من نار.

- حاتجيب الربع مليون مارك منين؟!

أراد نبيل أن يقول شيئًا لكنه لم يستطع، كان يتلوى دائر الرأس مُضَيَّعَ الحواس... من بعيد جاءه صوت الرجل يتساءل في غل:

- إيه اللي ما خلاكش تحط الشنطة في الخزينة؟!

أراد أن يقول إن شيرلي هايمان حاصرته ولم يرد أن يكشف لها عن أمره فطاوعها مرغمًا، وجاءه على الفور صوت أبي سليم وكأنه استمع إلى خواطره:

- وخضعت لها ليه؟!

هزَّ رأسه نفيًا، أراد أن يقول إن الأمر لم يكن خضوعًا فجاءه الصراخ هامسًا:

- وليه تخضع لها من الأساس؟

هوت صفعة على صدغه كادت تخلع رأسه وانبثقت الدماء من فمه فانتشرت رائحتها في خياشيمه فأراد أن يتوسل لكن أبا سليم عاد إلى الزمجرة:

- ومن إمتى شيرلي هايمان بتروح معاك البيت؟!

فتح فمه ورغبة رهيبة في التقيؤ تنتابه لكن الصراخ عاد:

- ولما انت بتاخدها معاك البيت ليه ما قلتليش؟!

لم تطاوعه معدته فاعتصر المغص أمعاءه وسقط على ركبتيه وهو يتلوى.

- طبعًا كل حاجة لازم أعرفها، كل كبيرة وصغيرة، كل تصرف وكل بني آدم بتشوفه وكل كلمة بتقولها وأي كلمة بتسمعها من ساعة ما تصحى لحد ما تنام.

أخيرًا وجد صوته... قال:

- حاضر... حاضر.

وكانت كلمة «حاضر» هذه، هي أول ما فاه به نبيل، فعاد أبو سليم إلى مقعده.

الفصل الخامس عشر

القيد الأخير

لا بد لنا هنا، من إلقاء نظرة ولو سريعة، نستكشف بها كيف كان يفكر ضابط المخابرات الإسرائيلي، الذي أطلق على نفسه اسم «أبو سليم»، وبالتالي كيف كان يفكر جهاز المخابرات الإسرائيلي... حتى تستقيم الأمور، وتتضح الخيوط، كل الخيوط، أمام من يريد أن يعرف كيف كانت العقلية الإسرائيلية تفكر وتتحرك في تلك الحقبة الخطيرة والمشحونة، التي أعقبت هزيمة يونيو ١٩٦٧، وكيف كان الغرور الإسرائيلي وذلك الصلف الذي تسلحوا به، سلاحًا استعمله الرجال، وحاربوا به مع أسلحة كثيرة كلفتهم من الجهد والعرق الكثير.

وإذا كان هذا النوع من النشاط الإنساني له قوانينه وقواعده التي لا تختلف في أصولها وجذورها من دولة إلى دولة، أو من جهاز إلى آخر... إنما يأتي الاختلاف في التفاصيل التي تخضع - مع الظروف الموضوعية المحيطة بكل حالة - للتقدير الشخصي لضابط هذه الحالة... وقد لا يكون الاختلاف من جهاز إلى جهاز آخر فقط، بل ربما كان بين ضابط وآخر في الجهاز الواحد... إن التصرف هنا - أو كما يطلقون عليه التكنيك - هو أقرب إلى بصمة الفنان منه إلى أي شيء آخر.

وقد يخرج الباحث من هذه القضية - أو الحالة - بأن نظرة أبي سليم إلى نبيل سالم، كانت قد تبلورت - في تلك الأسابيع الأخيرة التي سبقت سفره إلى إيطاليا - مؤكدة صلاحيته للعمل مع الموساد، بل - ربما - استعداده الكامل للتعاون معه... كما أكدت أنه - من وجهة نظر أبي سليم - نجاح نبيل سالم في العديد من الاختبارات التي وُضع تحتها... فهو قد احتفظ - مثلًا - بسر حقيبة المخدرات المزعومة، وكان منضبط الحركة والتصرف فلم يقع في خطأ ولم يبح لشيرلي هايمان التي كانت قد استولت على عواطفه وحياته استيلاء كاملًا، بسره، رغم محاولاتها المتعددة.

فإذا كانت خطة أبي سليم قد بنيت على وقوع نبيل - بالضرورة - في خطأ يجعله تحت السيطرة الكاملة له، فلقد كان لا بد إذن من البحث عن هذا الخطأ الذي سوف يقوده إلى قيود لا يستطيع منها فكاكًا... وبالطبع، لم يكن هناك من يستطيع دفعه إلى الشرك المنصوب، سوى شيرلي هايمان... وهكذا، فلقد راحت تلك الفتاة المدربة تخطو نحو مهمتها بحذر وحرص.

كانت تعرف بالقطع - في تلك الليلة التي حدث فيها ما حدث - أن الحقيبة هذه المرة مليئة فعلًا بالمخدرات، وكانت تعرف كيف تضغط على نبيل حتى تدفعه إلى عدم الذهاب إلى محطة السكة الحديد لإيداع الحقيبة في الخزانة في الموعد المحدد... كان لا بد لها أن تنجح في مهمتها التي من أجلها جاءت إلى ألمانيا... وهكذا، وضعت لويز جولدمان - أو شيرلي هايمان - نبيل في موقف من لا يستطيع الرفض... بل إنها عندما طلبت منه الذهاب معه إلى البيت - شوقًا وحبًا ورغبةً - وعندما حاول هو التملص من الدعوة بحجة موعد مع صديق صاحت فيه ذات لحظة وفي نبرة تصرخ بالشك:

- لست أدري أي صديق هذا الذي تلقاه دائمًا بعد انتهائك من كل جولة تخرج فيها مع بعض السائحات العجائز؟!

كانت تُلَمِّحُ بالغيرة، لكن اللهجة - وربما نظرة سريعة إلى الحقيبة التي كان يحملها - كانت توحي بشكوك أبعد من هذا، مما جعل نبيل سالم يرضخ لها محاولًا إرضاءها.

وقد يعن للبعض هنا أن يتساءل: إذا كان تجنيد نبيل أو إتمام السيطرة عليه من قِبَلِ المخابرات الإسرائيلية يعتمد على قدرة لويز جولدمان على التأثير على هذا الشاب التعس، فماذا لو لم يخضع نبيل لها ولم يذهب معها إلى البيت؟!

ولا بد لنا من الانتباه إلى أن البدائل تبدو كثيرة، بل كثيرة جدًّا... بل إننا نستطيع أن نجزم، إنه من الضروري أن يخطر مثل هذا السؤال على ذهن ضابط المخابرات الإسرائيلي، وأنه لا بد وأن يضع في اعتباره كل الاحتمالات... ولذلك، فلا بد - مرة أخرى - وأن تكون البدائل قد وضعت بالفعل، بحيث إذا فشلت خطة ما أو أسلوب معين، انتقل الجميع فورًا إلى البديل الجاهز... وفي مثل هذه الحالة، فإن الظن يذهب بنا إلى أن البديل الذي وضع - وهو بالضرورة يخضع لأسلوب الموساد في السيطرة على عملائها - كان جاهزًا للتنفيذ في نفس تلك الليلة، وقبل أن يودع نبيل الحقيبة الثمينة في الخزانة، خاصة وأن نبيل سالم - كخامة صالحة - كان جاهزًا تمامًا.

وعلى سبيل المثال... فلو أن نبيل استطاع التخلص من شيرلي هايمان لما كان صعبًا على أبي سليم، وكان رجاله الذين مثلوا أدوار رجال الشرطة الألمانية جاهزين بالطبع، أن يوقف سيارة بجوار نبيل وهو يسير في الطريق العام نحو محطة السكة الحديد، وأن يهبط منها، نفس الرجال الثلاثة الذين داهموا مسكن نبيل، وأن يوقفوه طالبين منه اصطحابهم إلى السيارة.

إن الأمر هنا، رغم خطورته، يبدو بسيطًا للغاية... ذلك أن نبيل بالقطع كان موقنًا أنه يحمل حقيبة مليئة بالمخدرات، ولو أن هذا حدث له، لأصابه الارتباك - مهما كانت قوة أعصابه - وفقد السيطرة على نفسه ولو لثوان

كانت كافية تمامًا لأن يدفعه الرجال إلى السيارة دون أن يشعر أحد من المارة بشيء على الإطلاق... ثم، لم يكن صعبًا، مع بعض التعديلات البسيطة، أن يذهبوا به إلى مسكنه بحجة التفتيش، ثم يكتمل السيناريو بحذافيره بعد ذلك.

❊ ❊ ❊

كانت كلمة «حاضر» التي نطق بها نبيل سالم وهو فيما بين اليقظة والإغماء، في تلك الغرفة العارية الأرض والجدران، وبعد أن أهداه أبو سليم عددًا من اللكمات كان عنفها مفاجأة حقيقية له، بمثابة توقيع نبيل على عقد يضمن لضابط المخابرات الإسرائيلي طاعة عمياء... وعلى ذلك، فما إن فاه نبيل بتلك الكلمة حتى أخرج أبو سليم من جيبه إيصالًا مكتوبًا بلغة لم يفهمها نبيل - وإن كان قد رجح فيما بعد أنها الإيطالية - ثم دفع إليه، مع الإيصال، بقلم وهو يقول:

- خد امضي لي على الوصل ده.

كان نبيل لا زال يتلوى من الألم، ويرتجف من الخوف... رفع رأسه هاتفًا:

- إيه ده يا ابو سليم؟!

- وصل بالربع مليون مارك.

فغر نبيل فمه دهشة ورعبًا ولم يفه بحرف... بل إنه - على حد قوله - أفاق تمامًا من آثار الضرب أو الألم، وعاد أبو سليم يقول في غلظة:

- ده الحل اللي قدرت أوصل له معاهم، ومكانش فيه سكة ثانية غير...

قاطعه نبيل وهو يتناول القلم والورقة:

- خلاص... حاضر... حاضر.

الغريب، أن لهجة الرجل تغيرت فجأة وقبل أن يعيد الإيصال إلى جيبه، لانت كلماته وهو يعاتب نبيل لأنه «قصَّر رقبته» أمام المنظمة ووضعه في موقف لا يحسد عليه، ولولاه - لولا أبو سليم - لكان مصير نبيل شيئًا آخر... عاتبه - مثلًا - لأنه لم يذكر له أن شيرلي هايمان كانت تذهب معه إلى البيت.

- وهو أنا لازم أقول لك على خصوصياتي كمان يا ابو سليم؟!

- طبعًا.

بدت على نبيل الدهشة فأردف أبو سليم:

- اللي بيشتغل شغلة زي شغلتنا مش لازم تبقى له خصوصيات.

صمت لثوانٍ ثم استطرد:

- ده علشانك وعلشان مصلحتك وحمايتك.

لزم نبيل الصمت فعاد الرجل يقول:

- كل حاجة في حياتك مهما كانت تافهة أو صغيرة لازم أعرفها.

غير أن المشكلة التي شغلت نبيل لم تكن في هذا، ذلك أنه كان الآن على استعداد كامل لأن يطيع الأوامر الصادرة إليه دون سؤال، وكان شبح التهمة التي وجهت إليه في ألمانيا، مضافًا إليها ذلك الإيصال الذي وقعه منذ دقائق، سيفًا مسلطًا على عنقه... كانت المشكلة في نوعية العمل الذي سوف يعهد إليه... وهو عندما سأل هذا السؤال لأبي سليم، لم يجبه هذا، بل سأله بدوره:

- إنت مش جعان؟!

كان نبيل قد نسي الجوع والعطش، ولم يعد مهمًا بالنسبة إليه أن يأكل أو يشرب، بل كان المهم أن يخرج من سجنه هذا ويستنشق هواء الحرية.

- يلّا بينا.

هكذا قال أبو سليم بعد أن أجابه نبيل بأنه لم يذق من الطعام طوال عشرة أيام سوى كسرة من الخبز وقطعة من جبن.

- على فين؟!

- الأول تخرج من هنا، وبعدين يحلها ربنا.

* * *

في أعقاب نكسة ١٩٦٧، شهدت دول أوربا جحافل من الشباب المصري الذي خرج إلى الدنيا الواسعة بحثًا عن الذات في أعقاب هزيمة كان تأثيرها النفسي مدمرًا بكل ما تحمل الكلمة من معنى... لكن الظاهرة التي لفتت الأنظار، وكانت محل مناقشة وبحث لفترة ليست قصيرة، هو ذلك الإقبال الغريب على شراء السيارات المستعملة من الخارج... وفي تلك السنوات شهدت اليونان وإيطاليا وفرنسا وألمانيا والمملكة المتحدة، أنماطًا بلا حصر من المصريين الباحثين عن سيارة يشترونها بثمن رخيص، كما شهدت تلك الدول العديد من الشباب المصري الباحث عن عمل، أي عمل... وكان طبيعيًّا أن تتولد مع الظاهرة أنماط من البشر تستفيد منها وتروج لها، فظهرت طائفة من السماسرة المصريين والمتمصرين والأجانب الذين عاشوا في مصر لسنوات ثم عادوا إلى بلادهم... وكان ملائمًا لأصحاب الجراچات الهائلة التي تتكدس فيها السيارات، أن يستعينوا بهؤلاء السماسرة الذين يستطيعون التفاهم مع المصريين، خاصة في إيطاليا وألمانيا، ذلك أنه كان معروفًا أن المصريين في الغالب يتقنون عددًا من اللغات الأجنبية، الإنجليزية والفرنسية... وكما رحب أصحاب تلك الجراچات بالسماسرة، رحب بهم المصريون الذين كانوا في حاجة إلى تفاهم واضح حول الثمن والجودة والشحن وما إلى ذلك من إجراءات كانوا في حاجة إلى من يعرف مسالكها ودروبها في دول لا يعرفون لغاتها.

من هذه الطائفة من السماسرة، ظهر اسم نبيل سالم، الذي أصبح اسمه الآن: نبيل الجيزي - وهو الاسم المدون في جواز سفره المزور والذي أمده به أبو سليم قبل مغادرته ألمانيا - الذي ذاع صيته في مدينة نابولي الإيطالية... والتي كانت تمثل للمصريين واحدة من أفضل المدن لشراء السيارات... ففوق كثرة الجراچات أو المخازن التي تكدست فيها السيارات المستعملة، فهي ميناء يستطيع من يشتري سيارة منها أن يشحنها على سفينة متجهة إلى الإسكندرية، وأن يسافر معها على نفس السفينة أيضًا.

في تلك الأيام كانت الفرصة مواتية للمخابرات الإسرائيلية كي تدس عملاءها في كل مكان، ولقد شهدت مدن أوربا في تلك السنوات نشاطًا محمومًا يستهدف هؤلاء المصريين الذين كان البعض منهم يثرثر فيما يعلم وما لا يعلم، وأصبح الواجب على رجال المخابرات المصرية ثقيلًا ومركبًا... ففوق مطاردة عملاء إسرائيل، كانت هناك محاولات لحجب المعلومات المتسربة إلى العدو عن طريق الثرثرة أو القنوط أو اليأس أو... أو... أو عشرات العوامل النفسية التي تولدت مع انفجار الهزيمة الرهيب.

غير أن ظهور نبيل سالم - الذي كان عادل مكي يتوقعه وينتظره في نفس الوقت، ليس فقط من أجل نبيل، وإنما أيضًا من أجل الكشف عن شبكة من أخطر شبكات التجسس التي أنشأها الإسرائيليون - قد تأخر بعض الشيء، وكان هذا، من وجهة نظر عادل، أمرًا طبيعيًا.

قال نبيل سالم فيما بعد وهو يقص ما حدث له في تلك الأيام، إن أبا سليم راح يستخدم في حديثه معه بعد خروجه من سجنه هذا، تلك الألفاظ الخالصة المصرية، والتي تنبئ عن حنان دافق وودٍّ شديد... قال إنه عندما غادر باب ذلك القصر الصغير إلى الحديقة التي عبرها منذ عشرة أيام، ظل لدقائق غير قادر على مواجهة ضوء النهار وأشعة الشمس بعد تلك

الأيام التي قضاها في غرفة شبه مظلمة لمح في طريقه بعضًا من العمالقة الذين ذاق من أيديهم لكمات كمطارق الحديد... كانت في انتظارهما سيارة قادها أبو سليم بنفسه، خرجا إلى طرقات حاول نبيل عبثًا بعد ذلك، وعندما استقر به المقام وازدادت فيه الثقة، أن يعرف أين هي وفي أي حي من أحياء نابولي دون جدوى... اخترقت السيارة شوارع المدينة ثم غادرتها إلى ضاحية تبعد عددًا لا بأس به من الكيلومترات حيث وصلت إلى بيت صغير يقوم في حضن جبل شاهق الارتفاع...كان الجو في إيطاليا بطبيعة الحال أكثر دفئًا من جو ألمانيا القارس... دلفا إلى البيت فاستقبلتهما سيدة تناهز الأربعين من العمر، ممشوقة القوام حادة الحركة مثل شرطي يؤدي واجبه، في وجهها مسحة من جمال غابر، وفي عينيها نظرات نافذة، ولقد صاح فيها أبو سليم فور دخوله وبالعربية:

- الحمَّام جاهز يا راشيل؟!

انتبه نبيل وانتبهت حواسه جميعًا، أحس بشكل غامض أن أبا سليم يريد منه أن ينتبه لشيء معين، أوحى إليه اسم السيدة بفكرة راودت مخيلته من قبل لكنه لم يلقها أو يستبقها أو يفكر فيها، هز كتفيه وقتها ومضى إلى حيث قادته لامبالاته إلى ما كان فيه الآن... رحبت السيدة راشيل بنبيل سالم ترحيبًا حارًا تكسوه طبقة سميكة من جليد خفي، راحت تتحدث بالعربية المغموسة في تلك اللكنة التي تميز بها يهود مصر على طول العصور... قالت إن كل شيء جاهز، وطلبت من نبيل قبل أن يدخل الحمام أن يلقي بملابسه كلها في سلة كانت هناك، وإنه سوف يجد بديلًا عنها... ورغم أن الوقت كان صباحًا إلا أن أبا سليم صب لنفسه كأسًا من زجاجة كانت موضوعة فوق مائدة في ركن من المكان، رشف من الكأس رشفة ثم قال:

- يلّا يا بلبل خدلك حمَّام واحلق دقنك على الفطار ما يجهز.

كان المكان بالتأكيد رائعًا، والبيت ذا طبيعة خاصة تضفي عليه سحرًا من نوع خاص... وجد نبيل في الحمام كل ما كان يحلم به، دمعت عيناه وهو يخطو إلى البانيو الذي امتلأ بمياه دافئة تعلوها طبقة ناعمة من رغاوى الصابون المعطر... غاب في الحمام ساعة كاملة، وخرج منه يرتدي، فوق ملابسه الداخلية الجديدة، روبًا من الحرير دثره بحنان... كان أبو سليم الآن يحقق لنبيل سالم كل أحلامه بلا نقصان... جلسا إلى المائدة وكانت عامرة بالطعام والفاكهة والعصائر، استأذنت راشيل لبعض أمرها وتركتهما معًا... حدثه أبو سليم عن حبه له الذي دفعه إلى بذل جهود جبارةٍ من أجل حمايته... قال إن هذه المرة، ومع هذه المنظمة، لن تحتمل خطأ جديدًا... بعد الإفطار ارتدى نبيل في غرفة قادته إليها راشيل، بنطلونًا وقميصًا فاخرًا وبلوفر من الصوف الإيطالي الفاخر، انتقلا إلى شرفة تطل على حديقة صغيرة ويرتفع أمامها الجبل شامخًا، راحا يدخنان ويحتسيان القهوة الإيطالية القوية... قال له أبو سليم إن أمامه الآن بضعة أيام يقضيها في أجازة... سأله عن عدد ما يملك من ماركات ألمانية ثم استبدلها له بليرات إيطالية... قال له إنه سيبقى في هذا البيت إلى أن يستقر الرأي في المنظمة حوله ويعثرون له على مسكن يتناسب مع عمله الجديد... ثم قال له إنه طوال إقامته في تلك الجنة المؤقتة، سوف يجد عند راشيل كل ما يحتاج إليه، فسأله نبيل في خبث محاولًا أن يستظرف:

- كل حاجة يا ابو سليم؟!

- شوف يا نبيل... أنا عاوزك ترتاح خالص، عاوزك تنام وتنبسط ولا تفكرش في حاجة على الإطلاق لحد ما أرجعلك.

- وحاترجع إمتى؟!

- لما ترتاح.

- و يا ترى أقدر أخرج؟!

ابتسم أبو سليم علامة الرضا، فلقد بدا السؤال وكأنه استجابة كاملة من نبيل... قال:

- تقدر تخرج بالليل بس.

- إشمعنى بالليل يعني؟!

لم يجب على سؤاله، استطرد:

- ولا تروحش دلوقت الحتت الزحمة ولا اللي فيها مصريين أو عرب.

- مش فاهم.

- إنت نسيت إن الإنتربول بيدور علينا يا نبيل؟!

في وجل سأله نبيل:

- الإنتربول؟!

- تفتكر البوليس الألماني ممكن يسكت بعد ما يكتشف إننا هربنا منه؟!

- طب والعمل؟!

- سيب الموضوع ده عليَّ.

- لحد إمتى يا ابو سليم؟!

كان الذعر باديًا على نبيل بوضوح، فأجاب الرجل:

- لحد المسائل ما تهدى شوية ونقدر نرتب الأمور هنا والدار تبقى أمان.

همَّ نبيل بالحديث لكن أبا سليم استطرد:

- وعلى ما تتعلم لك كام كلمة طلياني علشان لما تنزل الشغل ما تبقاش زي الأطرش في الزفة.

- ومين اللي حايعلمني؟

- راشيل طبعًا.

مضت لحظة صمت أردف بعدها أبو سليم:

- راشيل بتعرف ست لغات.

- بس فيه حاجة يا ابو سليم.

- إيه هي؟!

- إذا كان الإنتربول بيدور علينا، تبقى المسألة ممكن توصل مصر.

- ده مش ممكن... ده أكيد.

هتف نبيل في فزع لم يخف على أبي سليم:

- طب والعمل إيه في الحكاية دي؟!

- وهو أنت فين ومصر فين؟!

- إفرض إني حبيت أنزل مصر في أجازة كام يوم؟!

- وقتها يبقى يحلها ربنا.

- إزاي؟!

صعقته نظرة أبي سليم تلك المخيفة، تراجع إلى داخله، غمغم معتذرًا وهو يتذكر رزمة الأوراق المالية التي دفعها أبو سليم للشرطي الألماني أمام عينيه.. عاد يسأل متعثرًا:

- طيب يا ترى...

لكنه لم يكمل فاستحثه أبو سليم:

- عاوز تقول إيه؟

- أنا حاشتغل نفس الشغلانة؟!

- لأ طبعًا.

- أمال حاشتغل إيه؟

- لسه ما اعرفش هم اختاروا لك إيه.

صمت نبيل وهو ينظر إلى أبي سليم في تساؤل وتوسل.. وسرعان ما استجاب هذا لنظرته، فلقد اعتدل في جلسته قائلًا:

- على العموم اطمئن، أنا كل اللي أعرفه إنك خرجت من لعبة المخدرات دي نهائي.

- ما هو أنا ممكن أغلط في الشغلانة دي كمان.

- وتغلط ليه؟

- جلَّ من لا يخطئ يا ابو سليم.

- إذا سمعت كلامي مش ممكن تغلط.

هم نبيل بالحديث لكن الرجل أردف:

- لو كنت سمعت كلامي والتزمت بالتعليمات وأنت في هامبورج، مكانش حصل اللي حصل.

بدا الرجل لنبيل على حق فيما يقول، فغمغم:

- بس يا ابو سليم...

- على العموم إحنا لسه على البر.

هكذا هتف أبو سليم مقاطعًا الشاب الذي كان يشعر بالتمزق يدمر كل كيانه، اضطرب نبيل اضطرابًا شديدًا للهجة التهديد التي تحدث إليه بها الرجل، هتف متسائلًا:

- يعني إيه الكلام ده بقى يا ابو سليم؟!

- يعني إذا ما كانش عاجبك... أنت حر.

- برضه يعني إيه؟!

– بين البايع والشاري يفتح الله.

صرخ نبيل بصوت مبدد:

– وحاجيب لك الربع مليون مارك منين؟

– ده شغلك يا حبيبي مش شغلي.

– طب أعرف بس أنا حاشتغل إيه؟

– المفروض إنك تشتغل أي حاجة، وكل حاجة.

– حتى ولو كانت حاجة ما اعرفهاش؟!

– إذا كنت ما تعرفهاش حاعلمك.

تبدد الحلم وتحولت الراحة إلى قلق حاد، احتدم بينهما الحوار وكان أبو سليم كمن يلقي به في ماء ساخن، ثم يأخذه منه كي يلقيه في محيط من الثلج، فإذا هو ككرة من مطاط تتقاذفها أقدامٍ لا ترحم... لم يعد هناك ما يقال وقد انتصف النهار فغادره أبو سليم تاركًا إياه يضرب أخماسًا في أسداس، عادت راشيل من الداخل متفجرة بالحياة والأنوثة وكان وجهها مشرقًا وعيناها تلتمعان وفي يدها أوراق لعب راحت تفردها أمامها على مائدة صغيرة في أشكال منتظمة.

– إنتِ بتشوفي البخت يا راشيل؟!

هكذا سألها متوجسًا لكنها ابتسمت وهي تجيب:

– لأ... دي لعبة ممكن تلعبها لوحدك.

– اسمها إيه؟

– الصبر.

كانت لتلك الكلمة البسيطة مذاق شديد الحرارة.. أحس بالاختناق فنهض إلى الباب، ما إن فتحه حتى سألته راشيل:

– على فين؟

- حاتمشي في الجنينة شوية.

- بس ما تبعدش عن البيت علشان ما تتوهش.

رغم بساطة الكلمات إلا أنها كانت تحمل شحنة آمرة لم تخف على نبيل، التفت نحوها فإذا عيناها وكأنهما فوهتان لمسدسين على استعداد للانطلاق... خرج إلى حديقة البيت وراح يجول ببصره في المكان الذي يحميه الجبل من الخلف في شموخ أخاذ.. خطا إلى الطريق وسار وسط الأشجار والطبيعة الخضراء ولم يكن هناك غيره ولم يصادف إنسانًا.. كان يشعر وكأن عقله قد توقف تمامًا عن التفكير، أحس أنه محاصر حصارًا محكمًا ولا طريق أمامه سوى الطاعة أو السجن، فماذا لو قبضت عليه الشرطة الإيطالية واكتشفوا أن جواز سفره مزور، إن أبسط ما يمكن أن يفعلوه هو تسليمه للسفارة المصرية وهذه هي الفضيحة التي كان على استعداد لأن يدفع عمره بالكامل ثمنًا لكيلا تحدث.. لم تكن سامية فهمي قد غابت عن ذهنه طوال تلك الأيام التي مضت، كان إذا ما تذكرها أدرك أنها كانت على حق في كل ما قالت وفعلت.. إلا أن حالة مكثفة من الاكتئاب وضيق الصدر والغضب كانت تنتابه في تلك الأوقات.. فلقد كان نجاحها يواجه فشله، وقوتها تواجه ضعفه، ووضوحها يواجه التواءه، إخلاصها يواجه خيانته.. كانت سامية تعريه أمام نفسه، ضاق صدره بالسير فعاد إلى البيت كي تستقبله راشيل في ترحاب، قدمت له كأسًا وصبت لنفسها آخر وجلست قبالته وقد افتر ثغرها عن ابتسامة متلألئة.. في صوت متكسر سألته:

- عاوز تتعشى إيه النهارده؟

أدارت معه حديثًا عرف منه أنها ولدت في مصر وعاشت في الإسكندرية وتربت في حارة اليهود المتفرعة من شارع الميدان.. لم تكن في حاجة إلى تورية، بل ربما كانت متعمدة الحديث حول الموضوع بوضوح، حكت له كيف كانت تعيش في أمان ورفضت الهجرة من مصر إلى أن

جاء العساكر - هكذا كانوا يلقبون رجال الثورة - فأصبحت الحياة كابوسًا لا يمكن احتماله.

- وسبتي مصر.

- أول ما ادوني التأشيرة.

- جيتي على إيطاليا؟

- قعدت فيها يومين.

- وبعدين؟

- رحت إسرائيل طبعًا.

- وسبتيها إمتى؟

- وأسيبها ليه؟!

أسقط ما في يده.. سألها:

- أمال إنتِ هنا بتعملي إيه؟

- جايه تبع الشركة اللي باشتغل فيها.

وأمسك نبيل عن الكلام، أدرك أن لا جدوى من اللف والدوران، وأن هذه السيدة الجالسة أمامه ألقت من الأضواء ما يكفي لكي يفهم، خطرت له تلك الفكرة التي راودته ذات مرة فلم يبقها أو يستبقها أو يفكر فيها، عاد يخوض في الحديث معها حول أمور شتى مبتعدًا قدر طاقته عن الموضوع.

مضى أسبوع لم يظهر فيه أبو سليم ولا مرة.. غادر البيت عدة مرات في المساء وكان يعود كي يجدها في انتظاره، علمته لعبة الصبر وكان يقضيان الوقت في لعب الورق أو مشاهدة التلفزيون، وكانت دروس اللغة الإيطالية تتم في وقت منتظم لا يتقدم ولا يتأخر ولا يتأجل... خلقت تلك السيدة بينهما نوعًا من الألفة كان يهدهده في أحيان، ثم يفيق منه على واقع

فريد في مرارته.. لم يكن ما تعلمه من الإيطالية كثيرًا لكنه كان كافيًا لأن يتفاهم به مع الناس.. عندما عاد أبو سليم ذات صباح بعد غيبة أسبوع كامل، بادره نبيل قائلا:

- إنت فين يا ابو سليم؟!

- كنت بادور لك على شقة تسكن فيها.

- ولقيت شقة؟

- طبعًا.

- كويسة؟

- لأ.

- ليه؟!

رماه أبو سليم بنظرته تلك النارية ثم زمجر:

- تاني يا نبيل.

تذكر نبيل ما قاله له في هامبورج من أنه يجب أن يعيش في مستوى العمل الذي سيشغله حتى لا يرتاب فيه أحد فهتف:

- خلاص، فهمت. فهمت.

- أنا مش عاوزك تفهم بس.. أنا عاوزك تتعلم بقى.

- حاضر... حاضر.

نهض الرجل واقفًا وهو يقول:

- إذا كان ليك هدوم هنا خدها معاك ويلّا بينا.

وهكذا كان على نبيل سالم أن يغادر البيت بعد دقائق، وأن يودع راشيل التي صافحته في برود من لم يره من قبل ولم يعرفه أبدًا... وكان وهو يخطو خارج هذا البيت المنعزل، يخطو خطوته الأولى نحو طريق محفوف بالمخاطر، والخيانة... طريق جعل منه عدوًا لأهله.

الفصل السادس عشر

المواجهـة

يتميز ميناء نابولي بطابع خاص يعطي لحضارة الجنوب الإيطالي نكهة لا يمكن للإنسان أن يخطئها.. وفيما حول الميناء الكبير - حيث المدينة القديمة تتكدس البيوت والمباني في ازدحام يجعل الشوارع مجرد شقوق بين الحيطان والجدران.. في واحد من تلك الشقوق أو الأزقة، بيت يتكون من ثلاثة طوابق، كل طابق فيه مكون من ثلاث غرف وحمام يشترك فيه سكان الطابق جميعًا... في واحدة من تلك الغرف، استقر نبيل سالم.

كان وهو يركب السيارة إلى جوار أبي سليم بعد مغادرته لذلك البيت الهادئ - يفكر فيما آل إليه حاله.. ساد الصمت بينهما لدقائق طالت، فراح يضغط عليه حتى كانت لحظة سأل، وكان مترددًا:

- إحنا رايحين فين يا ابو سليم؟

- مانا قلت لك إننا رايحين بيتك الجديد.

ران الصمت مرة أخرى لدقائق لم تطل، فلقد استطرد أبو سليم:

- ما تنساش إن اسمك دلوقت نبيل الجيزي.

تململ نبيل في جلسته فلقد راحت الأسئلة تتزاحم في رأسه.. نظر إليه الرجل بجانب عينه.

- ما لك يا نبيل؟

هتف نبيل في توسل:

- وإذا قابلت حد من المصريين اللي يعرفوني.

- ودي فيها إيه؟!

- فيها إنهم يعرفوني باسم نبيل سالم.

- وماله؟!

هتف نبيل في قلق:

- وحكاية نبيل الجيزي دي إيه؟!

- ده الاسم اللي الطلاينة لازم يعرفوك بيه، علشان الإنتربول لو سأل عن نبيل سالم ما يلقاهوش.

هم نبيل بالحديث لكن أبا سليم استطرد:

- ثم إن المصري اللي عارف إن اسمك نبيل سالم، مش حايقول لك هات الباسبور بتاعك علشان اطمن على اسمك فيه.

كان منطق الرجل قويًا فلزم نبيل الصمت، وعاد أبو سليم إلى الحديث:

- وحتى إذا فرض وحد سمع من المصريين واحد طلياني بيقول لك سنيور جيزي، لازم تفهمه ببساطة إن الغرب كله بينادي البني آدم باسم عيلته، وأنت عيلتك اسمها جيزي فعلًا.

كان الحل مرضيًا تمامًا لنبيل، فغمغم:

- ما تزعلش مني يا ابو سليم لما اسأل.

- بالعكس.. أنا بافرح.

رفع نبيل حاجبيه دهشة، فابتسم أبو سليم موضحًا:

- لأنك كل ما تسأل حاتعرف، وكل ما تعرف حاتتعلم، وكل ما تتعلم حاتكسب، وكل ما تكسب حاتسدد اللي عليك، وابقى أنا عملت اللي عليَّ.

قال هذا وأطلق ضحكة من ضحكاته المرحة تلك التي أسرت نبيل في بداية تعارفهما... ثم التفت إليه مداعبًا إياه في مرح:

- وأنا عاوزك تكسب ألوفات يا بلبل، عاوزك تكسب - على الأقل - ربع مليون مارك ألماني.

مثل تلك اللحظات كانت تمزق نبيل تمزيقًا لا رحمة فيه، فبقدر ما كانت سعادته غامرة إذا ما عامله أبو سليم تلك المعاملة الرقيقة... بقدر ما كان هدوؤه ينقبض إذا ما ذكره بذلك الدين الذي يقيده بقيد من فولاذ.. ولقد استدار الآن في مقعده كي يواجه أبا سليم تمامًا وهو يقول:

- ودلوقت... إيه المطلوب مني بالضبط؟

- ولا حاجة... إنت حاتنزل البلد، وتلف وتشوف وتدرس.. تدور على شغل يعني.

- شغل زي إيه؟

- ده يتوقف عليك.

زفر نبيل وقد تذكر ما قاله له أبو سليم في هامبورج، قال:

- يعني المهم إن الناس تشوفني وأنا بادور على شغل.. مش كده؟!

- عشرة على عشرة.

- إلا قول لي يا ابو سليم، إنت مصري ولّا سوري؟

ضحك أبو سليم في مرح وقد لمعت عيناه ببريق غريب:

- وهي تفرق؟

- أيوه... في اللهجة.

- تحب أكلمك مغربي؟

وتوقفت السيارة في أحد شوارع نابولي المحيطة بالميناء، غادرها نبيل مع أبي سليم إلى مسكنه الجديد... ولكن، وبالرغم من امتعاضه من المسكن، ذلك الامتعاض الذي لا بد وأن يكون أبو سليم قد انتبه إليه ولم يعره اهتمامًا، إلا أنه لم يعترض ولم يفه بحرف... عندما استقر بهما المقام في الغرفة، وتسلم نبيل مفتاحها من مالك البيت الذي كان بحارًا مخضرمًا اعتزل البحر وكان هذا البيت هو كل ما يملك هو وزوجته النحيفة السليطة اللسان والتي لا تكف عن الشجار مع النزلاء أو الجيران أو زوجها أو حتى نفسها... عندما استقر بهما المقام في الغرفة سأل نبيل:

- وحاشوفك إمتى يا ابو سليم؟

- ده يتوقف عليهم.

نظر إليه نبيل نظرة تمزقها حيرة بلا حدود، وخوف من مجهول كان يدهمه لحظة بعد لحظة دون أن يستطيع دفعه، فما كان من أبي سليم إلا أن ابتسم مربتًا على كتفه وهو يقول:

- إنت متخيل إن اللي زيي واللي زيك بتبقى لهم كلمة في المنظمة؟!

- يعني إيه؟!

- مش عارف بصراحة يا نبيل... كل اللي أعرفه إنهم وافقوا على إنك تسيب بيت راشيل وتسكن لوحدك.

- وبعدين؟!

رماه أبو سليم بنظرة غاضبة وهو يقول:

- يظهر إنك مش عاوز تتعلم.

أسقط في يد نبيل، كان يشعر بمرارة لا توصف، وإحساس رهيب بالدونية، كان الآن بلا حول ولا طول ولا قدرة حتى على التفكير أو التصرف.. أخرجه أبو سليم مما هو فيه قائلًا:

- على العموم حاول تتعرف على الحتة اللي إنت ساكن فيها في الكام يوم اللي جايين، وابعد بقدر الإمكان عن الأماكن اللي فيها مصريين أو عرب... اتفرج وادرس المنطقة لحد ما نشوف هما عاوزين منك إيه بالضبط.

كانت لهجة أبي سليم الآن ودودة مما دفع بالراحة إلى نفس نبيل بعض الشيء، غادره الرجل فجلس في الغرفة وحده، حاول النوم فلم يستطع، استشرف الجوع فعافت نفسه الطعام، هم بالخروج فلم يجد لديه رغبة في الحركة، فاستلقى على الفراش وراح يحملق في السقف خاوي الذهن والوجدان معًا.

❊ ❊ ❊

ولقد مضت أيام ثلاثة لا يعرف نبيل كيف قضاها، كان الخيط الوحيد الذي يربطه بالحياة هو أبو سليم الذي لم يكن يعرف له عنوانا أو رقم تليفون أو حتى اسم.. فكر في الهرب على إحدى السفن المقلعة إلى الإسكندرية ثم طرد الفكرة من رأسه فورًا وهو يتذكر أن رجال الشرطة في الميناء سوف يكونون في انتظاره.. فماذا لو اكتشفوا - مثلًا - أن جواز سفره مزور، وهل يستطيع في مصر أن يخفي جواز سفره... ثم، ماذا لو أنهم قبضوا عليه بناء على تبليغ الإنتربول؟!

ثلاثة أيام مضت وهو يجول في شوارع المدينة وأزقتها وحواريها، فإذا ما كان الصباح الرابع دق الباب، وعندما فتح، كان أبو سليم هناك.

- عندك هدوم كويسة؟!

هكذا بادره الرجل دون أن يلقي عليه تحية الصباح، كان بادي الهم مقطب الجبين يبدو كمن خرج لتوه من معركة كانت مضنية.

- خير يا ابو سليم.. ما لك؟!

أعاد عليه السؤال فقال:

- ما انت عارف إن الهدوم اللي عندي كلها جديدة!

هم أبو سليم بالحديث لكن نبيل وقد انقبض قلبه عاد يسأل في إلحاح:

- إيه الحكاية فهمني؟

لزم أبو سليم الصمت لثوان وهو يحملق فيه، خفق قلب نبيل عندما اقترب منه هذا:

- نبيل... أنا عاوزك المرة دي تطول رقبتي.

- المرة دي؟!

- أصل فيه مندوب من المنظمة وصل إمبارح بالليل.

توهجت في ذهن نبيل فكرة العمل مع المافيا مرة أخرى، هتف:

- ودي فيها إيه؟!

صاح فيه أبو سليم مستنكرًا:

- فيها إنه عاوز يشوفك دلوقت.

- وإيه يعني.

كان نبيل كاذبًا وهو ينطق بهاتين الكلمتين اللتين تعنيان استعداده لمقابلة هذا المندوب مهما كانت أهميته.. استشعر خوفًا غامضًا استولى عليه تمامًا وهما يركبان السيارة التي راحت تقطع بهما طرقات المدينة، التفت نبيل نحو أبي سليم متسائلًا:

- تفتكر المندوب ده حايكلمني في إيه؟

- في أي حاجة وفي كل حاجة.

هم نبيل بالسؤال فأردف أبو سليم:

- خلي بالك إن مستقبلك كله متوقف على المقابلة دي.

لاذ نبيل بالصمت واستغرق في أفكاره لكن الرجل اجتذبه منها قائلًا:

- أصل اللي زي دول يتعمل لهم ألف حساب.

أحس نبيل أن أبا سليم ينكمش وينكمش حتى لكأنه سيصبح - أمام هذا الذي سوف يلتقي به بعد دقائق - قزمًا بلا حول ولا طول.

- ولاحظ إن ما لوش دعوة باللي حصل في هامبورج.

- إزاي بقى؟

- لأنه عارفه بالتفصيل ومش حايتكلم فيه.

- أمال حايكلمني في إيه؟

- الله أعلم... بس نصيحتي ليك إنك تجاوبه بصراحة على كل حاجة.

- إنت بتخوفني ليه يا ابو سليم؟!

- أنا مش باخوفك... أنا بانبهك.

قال أبو سليم هذا وهو يدور بالسيارة من الطريق إلى حيث كانت ساحة واسعة قد امتلأت بعدد هائل من السيارات المستعملة.. كان نبيل قد مر بهذه الساحة أثناء تجواله بالمدينة، ووقف ذات مرة خلف سورها المصنوع من السلك يرقب عشرات السيارات من كل الأنواع والأشكال والموديلات، طاف بخاطره أنه ذات يوم قد يأتي كي يشتري سيارة من هنا.. اندفع أبو سليم بالسيارة نحو مبنى قائم في نهايتها البعيدة.. كان المبنى مكونًا من

دورين، وكانت جدرانه كلها من الزجاج الذي يسمح لمن بالداخل أن يرى كل ما يدور في الساحة دون أن يستطيع من في الخارج أن يشاهد ما يجري خلف الزجاج.

توقفت السيارة أمام الباب الخلفي للمبنى فغادرا السيارة.. كان ثمة باب زجاجي مغلق دفعه أبو سليم وخطا نحو الداخل وكانت خطوته تشي بأنه يعرف المكان معرفة جيدة.. استقبلهما رجل إيطالي هائل الجسد كبير التقاطيع شديد الأناقة.. ما إن رأى أبا سليم حتى اندفع لملاقاته في ترحاب.. راحا يتحدثان بالإيطالية فاستطاع نبيل أن يميز من حديثهما بعض الكلمات، وما لبث أبو سليم أن قال:

- إننا على موعد مع سنيور باروخ.

قال نبيل سالم فيما بعد إنه فهم السؤال فهمًا كاملًا فلقد لطمه اسم باروخ كقبضة تلقاها كي يفيق مما هو فيه.. أومأ الإيطالي - وكان نبيل قد عرف من الحوار أن اسمه «إسكالكو» - نحو سلم يؤدي إلى الطابق العلوى:

- إنه في انتظارك.

تبع نبيل أبا سليم فصعدا السلم حتى وجد نفسه في ممر بطول المكان، سار في الممر حتى نهايته وتوقف أبو سليم عند باب دق عليه برفق شديد، فجاءه من الداخل صوت يصيح بالإيطالية:

- ادخل.

فتح أبو سليم الباب وخطا نحو الداخل خطوة ثم توقف في أدب:

- صباح الخير سنيور باروخ.

- كيف أنت يا أبا سليم؟!

- إن سنيور جيزي معي في الخارج.

قال أبو سليم هذا وهو يدفع الباب برفق كي يغلق ويهبط الصمت والوحدة على نبيل مثل دثار ثقيل... تسمر في مكانه وجالت عيناه هنا وهناك فلم يطالع سوى جدران زجاجية وأبواب مغلقة، مضت الدقائق ثقيلة حتى فتح الباب مرة أخرى وأطل منه أبو سليم:

- تعال يا نبيل.

وجد هذا نفسه في غرفة واسعة ذات جدران زجاجية تكشف الساحة بكاملها.. في صدر الغرفة كان ثمة مكتب أنيق يجلس خلفه رجل تطل من وجهه عينان حادتان يظلهما حاجبان كثيفان يصنعان فوق العينين مظلة تعطي للرجل مهابة.. كان شعره رماديًا وعيناه زرقاوين بلون الفيروز، وكانت لهما نظرة مخيفة.

خطا نبيل إلى الداخل متعثر الخطى فجاءه صوت الرجل يتحدث بالعربية:

- ادخل يا نبيل... تعال.

ظل أبو سليم في مكانه لا يبرحه، وتقدم نبيل من المكتب حتى توقف على بعد خطوتين وكان عقله يسبح في لا شيء وكأن الوجود تحول إلى عدم:

- اقعد يا نبيل.

في الصوت نوع من الودِّ الصارم أجلسه دون إرادة فوق مقعد وثير.. وجاء صوت أبي سليم من خلف نبيل في أدب مبالغ فيه:

- أستأذن أنا.

- مع السلامة يا ابو سليم.

سمع نبيل صوت الباب يفتح ثم يغلق لكنه لم يستطع الالتفات فلقد شدته نظرات الرجل النافذة إلى جمجمته... مضت ثوان بطول دهور جاء بعدها صوت الرجل:

- إن شاء الله تكون مبسوط في نابولي.

- الحمد لله.

أنكر نبيل صوته الذي خرج متهاويًا ضائعًا.. زام الرجل معتدلًا في مقعده ثم قال:

- إنت مين.

جاء السؤال مثل طعنة أفاق لها نبيل فرفع رأسه في دهشة هاتفًا:

- أنا؟!

أومأ الرجل برأسه فأردف نبيل:

- أكيد أبو سليم قال لسيادتك.

- أنا عاوز أعرف منك انت.

كان السؤال صارمًا واللهجة صارمة والصوت جاف والعينان حادتي النظر فراح نبيل يحكي عن نفسه كل شيء، كل شيء...

* * *

قال لي عادل مكي ضاحكًا: إن هذا الذي أطلقوا عليه اسم باروخ، ربما كانت مكانته في الموساد أقل من أبي سليم.. ورغم ذلك، فإن هذا لا يمنع من أن يؤدي أبو سليم هذا المشهد أمام نبيل حتى يؤثر في نفسيته ذلك التأثير الذي يجعله يبوح بكل ما يمكن البوح به.. إن خوفًا، أو خلاصًا من الموقف كله.

* * *

مضت عشر ساعات كاملة ونبيل سالم يحكي ويقص ويكتب ويبوح أمام هذا الرجل المسمى باروخ، والذي كان يبدو وكأنه في نزهة يقضي فيها وقتًا ممتعًا.

في البداية قص نبيل كل شيء عن حياته، عن أبيه وأمه وأقاربه وجيرانه وأصدقائه وزملائه في الدراسة والكليات التي تفرقوا عليها وما إذا كانوا قد تخرجوا وأين يعملون... و... و... وعند شخصيات بعينها كان الرجل يوقف نبيل ويطرح عليه من الأسئلة ما لا قبل له به أحيانًا... وعلى سبيل المثال فلقد كان لنبيل، وهو طالب في الثانوي، صديق اسمه علي زين العابدين... ولقد التحق السيد زين العابدين هذا بالكلية الحربية وتخرج ضابطًا.

- في آنهي سلاح؟

ارتبك نبيل وكان التعب قد أخذ منه كل مأخذ، ثم قال:

- مش عارف بالضبط... بس بيتهيأ لي إنه كان في المدرعات.

- آخر مرة شفته إمتى؟

- قبل ما أسيب مصر بشويه.

- كانت رتبته إيه؟

- كان لسه مترقي رائد.

- أبوه بيشتغل إيه؟

وراحت الأسئلة تتوالى عليه وهو يجيب.. وبطبيعة الحال، فلقد كان لسامية فهمي نصيب الأسد فيما قصه نبيل عن حياته في مصر، سأله باروخ كيف التقيا وكيف تحابا وما هي ألوانها المفضلة وما هو فكرها السياسي ومن كان أبوها ومن هي أمها وأقاربها وأهلها وصديقاتها وأصدقاؤها وكيف التحقت بمجلة الفجر وما هو سر نجاحها وهل كفاءتها هي السبب أم أن شيئًا آخر وراء ذلك النجاح... و... وعشرات الأسئلة التي راح يمطره بها حتى جف حلق نبيل فطلب - على استحياء - كوبًا من الماء... لكن السيد باروخ كان كريمًا، فبالرغم من أنه لم يدخن ولم يشرب شيئًا طوال تلك الساعات العشر، إلا أنه سمح لنبيل بفنجان من القهوة الإيطالية المركزة...

واحتسى نبيل القهوة ودخن حتى نفدت سجائره فجاءه باروخ بصندوق آخر من السجاير... ولقد مضت أربع ساعات قص فيها نبيل كل شيء، حتى إذا انتهى، أشار باروخ إلى مائدة في الطرف الآخر من الغرفة:

- شايف الترابيزة اللي هناك دي؟

التفت نبيل نحو المائدة ثم عاد ببصره إلى الرجل الذي بدا له وكأنه قُدَّ من صخر.

- روح أقعد عليها واكتب كل اللي قلتهولي.

كاد نبيل يهتف هلعًا غير أن نظرة من العينين الزرقاوين المظللتين بالحاجبين الكثيفين ألجمته.. نهض نبيل إلى المائدة فوجد عند مقعد معين، ورقًا وقلمًا وكان عليه أن يجلس على هذا المقعد بالذات.

- اكتب كل حاجة اتكلمنا فيها... وإذا كنت نسيت حاجة، يبقى كويس لو افتكرتها وكتبتها.

ولساعتين أخريين وبعض الساعة راح نبيل يكتب... حتى إذا انتهى قدم لباروخ الأوراق وقد امتلأت، فراح هذا، في تأن يعيد قراءة كل ما كتبه نبيل... كي... كي تبدأ جولة جديدة من الأسئلة.

* * *

كان الظلام قد حل عندما ساد الصمت بينهما، وطوال ذلك اليوم المشهود في حياة نبيل سالم، لم يكن وجه السيد باروخ ينبئ عن شيء، حتى إذا انقضت ثوان، رفع باروخ سماعة تليفون كان موضوعًا إلى جواره - طوال اليوم لم يكن التليفون قد استعمل إرسالًا أو استقبالًا ولم يدق جرسه مرة - ودق ثلاثة أرقام ثم تحدث بصوت خافت لم يسمع منه نبيل - رغم قرب المسافة - كلمة واحدة... أعاد السماعة دون أن ينتظر ردًا، وما هي إلا ثوان حتى سمع نبيل دقًا على الباب، وما إن أذن باروخ للقادم بالدخول حتى فتح الباب وظهر فيه أبو سليم واقفًا في أدب شديد:

- تعال يا ابو سليم.

خطا أبو سليم نحو الداخل وهو يغلق الباب.

- يظهر إننا تعبنا الأخ نبيل النهارده حبتين.

- أوامرك يا سنيور باروخ.

هز باروخ رأسه وهو يومئ لنبيل دون كلمة، فنهض نبيل من مكانه، وأوسع له أبو سليم طريقًا نحو الباب.. وكان نبيل وهو يغادر المكان يشعر وكأنه يسبح في الهواء، حتى إذا استقر به المقام إلى جوار أبي سليم في السيارة صاح:

- إيه الحكاية دي يا ابو سليم؟!

- حكاية إيه؟

- كل اللي بيحصل ده.. أنا عاوز أعرف رايح فين بالضبط.

- طب مش ناكل لقمة الأول.

كان نبيل متعبًا مرهقًا مكدودًا جائعًا تتلاطم الأفكار في رأسه كموج صاخب.. ومنذ أن سمع في الصباح اسم باروخ استقرت مخاوفه وأيقن أنه كان على حق فيما ذهب إليه تفكيره منذ أن التقى بالإسرائيلية راشيل... أحس أن أبا سليم لن يشفي غليله ولن يجيبه على ما يريد من أسئلة، أثناء حديثه مع باروخ تذكر - لسبب لا يدريه - شيرلي هايمان تلك التي ملكت عليه فؤاده، وتذكر أنها يهودية وأنه وعدها بألا يحارب قومها في إسرائيل.. كانت السيارة الآن تخترق شوارع نابولي والأضواء تخايل عينيه، استسلم في مقعده وتاهت أفكاره... في أطراف مدينة نابولي تتناثر بعض المحلات التي تخصصت في تقديم أنواع من الأحياء المائية والأسماك يسيل لها لعاب الكثيرين.. أمام واحد من هذه المحلات خافتة الضوء

منعزلًا توقفت بهما السيارة.. قادهما الجرسون إلى مائدة منعزلة بجوار نافذة تطل على البحر مباشرة.. كان المكان ساحرًا والموسيقى خافتة، وأبو سليم يلقي للجرسون بأوامره، ثم في استعلاء من ولد وفي فمه ملعقة من ذهب جاءت زجاجة من نبيذ فاخر فأمدت الخمر نبيل بقليل من القوة والشجاعة فعادت أفكاره مرة أخرى إلى ما كان يشغل باله... ولا بد أن أبا سليم كان في انتظار هذا فلقد استقبل الأسئلة - بعكس ما انتظر نبيل في رحابة صدر وبساطة جعلت نبيل يعيش في دوامة من الذهول لم يفق منها إلا وهو يخطو إلى دائرة الخيانة طواعية... في البداية قال نبيل في إصرار من يبغي حسم الموقف:

- قول لي يا ابو سليم بالضبط إنت واخدني على فين؟!

- قول لي أنت عاوز تعرف إيه بالضبط؟!

- في الأول كان فيه راشيل.

- ودي فيها إيه؟!

- راشيل إسرائيلية.

رفع أبو سليم حاجبيه دهشة فأردف نبيل:

- هي اللي قالت لي كده.

- برضه ودي فيها إيه؟!

- فيها إن بعد راشيل جه باروخ.

- ما تخش في الموضوع يا نبيل.

- الحكاية دي لها علاقة بإسرائيل؟!

ضحك أبو سليم ضحكة خفيفة وهو يرشف من كأسه رشفة ثم يعيده إلى المائدة في رفق قائلًا:

- هي أولًا لها علاقة بالربع مليون مارك اللي إنت السبب في ضياعهم.

- بس أنا من حقي إني أعرف.

- ومن حق المنظمة إنك ترجع لها فلوسها.

همَّ نبيل بالحديث لكن أبا سليم أردف:

- في نفس الوقت اللي إنت لازم تعيش فيه عيشة محترمة.

لزم نبيل الصمت فاستطرد أبو سليم:

- المنظمة لقت إن أنسب طريق علشان تسدد اللي عليك وتعيش في نفس الوقت، إنك تشتغل لك كام شهر مع المخابرات الإسرائيلية.

دق قلب نبيل في عنف، وجاء الجرسون بطبق شهي من الأحياء المائية هبط به إلى المائدة في رشاقة يسيل لها لعاب الجائع، قبل أن يمضي أصدر أبو سليم بعضًا من الأوامر انحنى لها الجرسون وهو ينصرف مسرعًا.. مد أبو سليم يده إلى الطبق وهو يقول:

- دوق ده ولا تقوليش الجندوفلي بتاع اسكندرية.

ظل نبيل صامتًا جامدًا دون حركة، رفع أبو سليم له وجهًا باسمًا:

- إنت مش جعان ولّا إيه يا نبيل؟!

- أنا عاوز أعرف إيه الحكاية بالضبط.

- على العموم إنت لك حرية الاختيار.

مال نبيل نحوه قائلًا في عنف:

- ما تقوليش حرية الاختيار يا ابو سليم وإنت عارف كل حاجة.

- إذا ما كانش عاجبك العرض، ارفض.. وما على الرسول إلا البلاغ.

كان في صوت أبي سليم نغمة تهديد لم تخف على أذن نبيل فامتدت يده إلى الطبق وقد ركن إلى الصمت فلم يكن هناك ما يمكن أن يقال... ذات لحظة سأله أبو سليم باسمًا:

- خايف؟

- طبعًا... مش فيه احتمال إن حد من مصر يعرف؟

- يعرف إيه؟

- يعرف إني باشتغل مع المخابرات الإسرائيلية.

أطلق أبو سليم ضحكة جلجلت في المكان حتى التفت بعض الرواد نحوهم، كانت إجابة نبيل تعني - بوضوح - موافقته على العرض... لكن هذا لم يمنع الرجل من مواصلة الحوار:

- مين اللي يعرف يا نبيل؟

- يعني مفيش احتمال...

قاطعه أبو سليم في حسم:

- ولا واحد في المليون.

- إنت متأكد يا ابو سليم؟

- إنت نسيت اللي حصل يوم ٥ يونيو اللي فات؟

وصمت نبيل... عادت إليه ذكرى نكسة يونيو وكانت ألمانيا كلها تتحدث عن الهزيمة... عادت إليه ذكرى تلك الصور المفزعة والمخزية التي نشرتها الصحف وبثها التلفزيون... أفاق من سهومه على صوت أبي سليم يقول:

- كل ده كان شغل المخابرات الإسرائيلية.

سادت بعد ذلك فترة صمت وضع فيها الجرسون مزيدًا من الأطباق الشهية، راح نبيل يلتقط من الأطباق ما يسد به جوعه المتزايد... غمغم أبو سليم ذات لحظة:

– على العموم كل شيء بثمنه.

لم يرد نبيل، كان غارقًا في أفكاره... حتى إذا انتهيا من العشاء قال أبو سليم:

– من بكره تنزل تدور على شغل، وتسأل، وتقعد مع الناس وتتعرف عليهم.

– والمصريين... والعرب؟!

– دلوقت تقدر تقابلهم وتقعد معاهم بشرط.

– إيه هو؟

– إنك تشتري ولا تبعش.. تسمع ولا تتكلمش.

كان أبو سليم الآن قد بدأ مرحلة أخرى من التدريب.. وعندما غادر نبيل سالم السيارة بالقرب من بيته، وقف في الشارع طويلًا يرقب ما حوله... كان راغبًا عن العودة إلى البيت، ولقد قال فيما بعد: إنه لم يكن يريد أن يواجه نفسه.

الفصل السابع عشر

المعركة تبدأ

لم يستطع نبيل سالم في تلك الليلة - التي واجهه فيها أبو سليم بوضوح أن ينام إلا لمامًا... لم يكن يدري إلى أين يقوده ذلك الطريق الذي خطا فيه باختياره، وكان موقنًا من أن الخطوة التالية، مع أول صباح يأتي، ستكون نهاية لحياة، وبداية لحياة أخرى تمامًا... راح يتقلب في فراشه محاولًا النوم دون جدوى، غفت عيناه قليلًا لكنه استيقظ إثر كابوس رأى نفسه فيه يهوي من حالق، وكان جسده يتفصد عرقًا..

عندما أطل من نافذة غرفته ووجد الحياة تدب في الشوارع لم يستطع البقاء في الغرفة فغادرها وألقى بنفسه إلى الطرقات يسير فيها على غير هدى... التقى أثناء تجواله ببعض المصريين هنا وهناك... كان منهم من يبحث عن عمل ومنهم من يبغي شراء سيارة ومنهم من كان يكدس البضائع من كل لون وصنف، لم يكن نبيل موجودًا في مصر عندما استشرت فيها تجارة الشنطة... في أحد المقاهي - وكان الوقت ظهرًا - استمع إلى مجموعة من المصريين كانوا يناقشون أسعار البضائع وأسعار السيارات وقيمة الشحن والجمارك وما إلى ذلك... عندما مر بهم نظروا إليه في ترحيب حذر، ألقى عليهم بالتحية فردوها في اقتضاب وكأنهم يخشون انضمامه إليهم... انتحى جانبًا واستغرق فيما كان مقدمًا عليه ثم أفاق على

تحيتهم يلقونها عليه منصرفين. تناول غذاءه في أحد المطاعم الرخيصة، ثم فكر في العودة إلى غرفته لكنه تراجع خوفًا من الانفراد بنفسه.. في المساء قادته قدماه إلى واحدة من تلك المقاهي التي تقدم مع الوجبات السريعة مشروبات خفيفة.. كان يشعر بالوحدة والغربة وفي قلبه حزن غامر، اختار مائدة منزوية جلس إليها... ما إن استقر مكانه حتى أحس وكأن هناك من ينظر إليه، التفت يمينًا فطالعه وجه شاب كان يلتهم فطيرة إيطالية «بيتسا» ويحتسي فنجانًا من القهوة وكان يبتسم.. قبل أن يصرف عنه عينيه هتف الشاب بالعربية:

- مساء الخير.

استجاب نبيل لابتسامة الشاب وقد داخلته سعادة غريبة.. ها هو مصري يلقي عليه التحية فهل يؤنس هذا الشاب وحدته؟!

- مصري؟!

هكذا سأله الشاب فما إن جاءه الرد من نبيل حتى حمل طبقه وفنجانه وانتقل إلى مائدته مقدمًا نفسه:

- شريف بكري.

جرى الحديث بينهما كما يجري بين اثنين من أبناء وطن واحد اغتربا بعيدًا.. كان شريف بكري من هذا النوع من الشبان الذي يقتحم الدنيا بمرح ويخوض الحياة باسمًا ويتحدث عن الوطن - رغم هزيمته - بإكبار ويبدو كعصفور ينطلق في الآفاق وهو يعلم يقينًا أنه عائد ذات يوم إلى عشه... قال شريف بكري لنبيل سالم إن له في نابولي حوالي شهرين، وإنه عمل جرسونًا في مطعم وموظفًا في شركة لسيارات التاكسي كما عمل مع متعهد سفن في الميناء كان يتعامل مع العديد من السفن المصرية والعربية.

- وإيه اللي كان بيخليك تسيب الشغل؟!

- علشان اشتغل شغلانة تانية وأستفيد منها.

هكذا قال شريف ضاحكًا في مرح... فسأله نبيل ساخرًا:

- وحاتفضل تستفيد لحد إمتى؟!

- لحد ما أحوش ثمن عربية كويسة أرجع بيها مصر.

كان منطق الشاب سويًا إلى درجة آلمت نبيل.. وبالرغم من هذا فلقد اندمج معه في الحديث والنقاش في محاولة مستميتة لنسيان تلك الزوابع التي كانت تعصف برأسه.. قص على شريف قصة ملفقة كان أبو سليم قد لقنه إياها عن جولاته التي بدأت في ڤينسيا وانتقلت به إلى إليونان ثم عودته إلى روما ثم صعوده إلى هامبورج ثم رحيله إلى لوفورنو وسفره إلى نابولي التي وصل إليها منذ أيام لعله يجد فيها حظًا أوفر من حظه في جولته تلك التي استمرت قرابة عامين... وكان شريف بكري يستمع إليه بانتباه شديد، حتى إذا انتهى صاح به:

- طب ما ترجع مصر يا أخي.

نظر إليه نبيل نظرة استنكار فكيف يعود إلى مصر خالي الوفاض وكأنه لم يخرج منها ولم يغترب لعامين كاملين؟!

- لو إنك بذلت الجهد ده كله في مصر.. كان زمانك بقيت حاجة تانية.

الغريب في الأمر، أن نبيل سالم لم يكن يعرف وهو يجوب مع هذا الشاب الذي أطلق على نفسه اسم شريف بكري - بعد أن غادرا المقهى - تلك الشوارع المحيطة بالميناء والقريبة منها والتي لا تنام بالليل أو النهار.. أنه إنما جاء إلى نابولي خصيصًا كي يكون في انتظاره.

كان شريف بكري واحدًا من رجال عادل مكي... وكانت كل كلمة ذكرها لنبيل سالم عن تلك الأعمال التي التحق بها صحيحة تمامًا.. كان شهران قد مضيا عليه الآن بالفعل وهو في تلك المدينة الصاخبة، وكان جواز سفره يقول هذا بخاتم الجمهورية الإيطالية... وكانت الخطة

الموضوعة قد رسمت له طريقًا يجعله ينتقل من عمل إلى آخر ومن مكان إلى مكان حتى إذا ما عاد إلى واحد من تلك الأمكنة لا تثير عودته أي نوع من أنواع التساؤلات.

... عندما قلت لعادل مكي إن المصادفة في هذا الحقل تلعب أيضًا دورها المؤثر، نظر إليَّ في دهشة من لم يفهم مقصدي... حتى إذا ما ذكرته أن لقاء نبيل سالم في ذلك المقهى وفي هذا الوقت من الليل بشريف بكري كان مصادفة بحتة.. قال إن المصادفة هنا - إذا كنت مصممًا على استعمال الكلمة - من الممكن أن يطلق عليها اسم المصادفة المخططة... فلولا الخطة التي وضعت لشريف بكري، لما وقعت المصادفة أصلًا.

وافترق الشابان في ساعة متأخرة من الليل كل منهما يبدو سعيدًا بلقاء صاحبه.. وكان لا بد - والأمر كذلك - أن يتواعدا في مساء اليوم التالي، في نفس المقهى الذي التقيا فيه.

❊ ❊ ❊

كانت الساعة قد جاوزت الثالثة صباحًا عندما ودّع نبيل صديقه الجديد هذا.. وهو عندما فتح باب غرفته، لم يكن يفكر في شيء إلا في النوم لبضع ساعات تعوضه عن يومه الشاق، غير أنه ما إن أضاء النور حتى انتفض مرتدًا إلى الخلف.. وجد أبا سليم يجلس هناك، على المقعد الوحيد في الغرفة.

لم تكن المفاجأة سارة جدًا بالنسبة لنبيل سالم، إلا أنه تقبلها ببساطة بالرغم من أن الوجه الذي كان يطالعه الآن هو ذلك الوجه المقيت لهذا الرجل الذي استطاع أن يسيطر على مقدراته وحياته سيطرة كاملة.. لم يعد يعنيه أن يسأل كيف دخل أبو سليم الغرفة وكيف حصل على المفتاح فلقد أصبحت مثل هذه الأسئلة الآن ساذجة ولا تنبئ إلا عن غفلة.. رحب بالرجل متصنعًا بشاشة اضطر لإظهارها مجاملة.. ما لبث أبو سليم أن سأله:

- عملت إيه النهارده؟!

وهكذا أدرك نبيل سالم أن عليه أن يقص ما حدث في يومه بالتفصيل فراح يحكي متحريًا دقة أجهدت عقله... حتى إذا انتهى نبيل بوداعه لشريف بكري سأله الرجل:

- عرفت كان بيشتغل إيه في مصر؟!

- أنا فهمت إنه موظف.

- فهمت ولّا عرفت يا نبيل؟

- في الحقيقة ما سألتوش إنما...

قاطعة أبو سليم:

- ليه؟!

- مكانش فيه مناسبة.

- وما خلقتش المناسبة ليه؟!

كان صوت الرجل صارمًا وكانت نبرته إيذانًا بأن شيئًا جديدًا سوف يدخل حياة نبيل الذي هتف محتجًا:

- يعني أقعده قدامي وأحقق معاه يا ابو سليم؟!

في برود جاءه الرد:

- إنت مش لازم تسأله خالص، إنت تخليه هو اللي يقولّك على كل اللي إنت عاوز تعرفه.

- إزاي بقى؟!

- أنا أقول لك.

وتلقى نبيل في تلك الليلة أول درس في علم «الإثارة»، وهو العلم الذي يدفعك فيه محدثك، بوضعك في حالة نفسية معينة، إلى أن تخبره

عما يريد أن يعرفه عنك أو منك دون أن يوجه إليك سؤالًا حول الموضوع الذي يريد معرفته منك.

وفي حقيقة الأمر، وربما سبقًا للأحداث، فلقد أثبتت الأيام أن نبيل كان تلميذًا مجتهدًا لضابط المخابرات الإسرائيلي هذا.. فلقد استوعب الدرس تمامًا، وفيما تلا ذلك اليوم من أيام وأسابيع وشهور، كانت براعته في استخدام قواعد هذا العلم قد وصلت إلى حد الإتقان.

عندما هم أبو سليم بالانصراف كانت الساعة قد شارفت على السادسة صباحًا، فقال وهو ينهض من مكانه:

– ما تنساش تعرف بكره من شريف بكري هو كان بيشتغل هنا فين؟

– مانا قولت لك.

– نابولي فيها كذا ألف مطعم، وكذا شركة تاكسي، والمتعهدين في الميناء على قفا من يشيل.

صمت نبيل ولم يرد فأردف الرجل:

– ومش صعب طبعًا إنك تعرف هو نازل فين هنا.

هز نبيل رأسه إيجابًا، كان راغبًا في النوم إلى حد كاد يدفعه لأن يطلب من أبي سليم الانصراف، ولقد خطا أبو سليم بالفعل نحو الباب مطرقًا، لكنه ما لبث أن استدار نحو نبيل قائلًا:

– وما تنساش قبل ما تنام تكتب لي كل اللي إنت حكتهولي ده... وإذا كنت نسيت حاجة حاول تفتكرها.

فغر نبيل فمه في دهشة وهو يقفز نحو أبي سليم، كانت هذه الجملة هي نفس الجملة التي سمعها من الخواجة باروخ.. تكاد تكون هي هي بألفاظها وحروفها وحتى النبرة التي قيلت بها.. هتف مستنكرًا وهو ينظر في ساعة يده:

- قبل ما أنام إيه يا ابو سليم دي الساعة...

قاطعة هذا في حزم:

- علشان ما تنساش حاجة.

أراد نبيل مواصلة الاحتجاج لكن أبا سليم وضع يده على مقبض الباب مردفًا:

- أنا حاعدي عليك الساعة تسعة علشان آخذ اللي انت كتبته.

قال هذا ثم غادر المسكن دون أن يعطي نبيل فرصة لأن يتفوه بكلمة.

* * *

في نفس تلك اللحظات، كان الشاب المصري الذي أعطى اسم «شريف بكري» منكبًا على كتابة برقية شفرية طويلة، يقص فيها قصة لقائه بنبيل سالم الذي اختار لنفسه في نابولي اسم نبيل الجيزي.. ورغم أنه كان متعبًا منهكًا... إلا أنه كان مصممًا على إرسال البرقية بأسرع ما يمكن، حتى يجدها عادل مكي فوق مكتبه، أول شيء في الصباح.

كانت المعركة قد بدأت.

* * *

في التاسعة، أوشك نبيل على الانتهاء مما كتب عندما سمع على الباب دقًا رفيقًا، نهض إلى الباب وفتحه كي يستقبل أبا سليم الذي واجهه في بشاشة من نال قسطًا وافرًا من نوم عميق، ابتسم في مرارة وهو يرحب بالرجل عائدًا إلى المائدة كي ينتهي من الكتابة، غمغم ساخرًا وهو يمسك بالقلم:

- إشمعنى دلوقت اللي خبطت على الباب يا ابو سليم؟!

- علشان إنت موجود.

كان الرد جارحًا، وكان وقحًا، فالتفت نبيل نحوه في تساؤل، وتجاهل الرجل نظراته وهو يتخذ مجلسه على حافة الفراش الذي لم يمسه نبيل بطبيعة الحال.. قال وكأنه يحاور أفكارًا تجول في رأسه:

- أصل شغلتنا دي يا نبيل، مش لازم تسيب فيها حاجة للصدفة.

أنهى نبيل بضعة أسطر كانت باقية ثم قدم الأوراق للرجل الذي راح يقرأ الأوراق على مهل... ما إن انتهى حتى سأله نبيل مستفزًا:

- دلوقت أنا عاوز أعرف أنا حاشتغل إيه بالضبط؟!

هتف أبو سليم وكأنه يزف إليه بشرى:

- لقينا لك شغلانة هايلة.

- أنا مش باتكلم عن الشغل اللي في البلد هنا، أنا باتكلم عن الشغل مع المخابرات الإسرائيلية.

- ماله؟

- أنا عاوز أعرف أنا حاشتغل معاهم إيه؟

- ما انت اشتغلت اهو.

قال أبو سليم هذا وهو يلوح مبتسمًا بالأوراق في يده.. فغر نبيل فمه دهشة هاتفًا دون وعي:

- هو ده الشغل اللي انتوا عاوزينه؟!

تفوّه نبيل بالسؤال عفوًا مما جعل وجه أبو سليم يشرق بابتسامة بدت لنبيل شديدة الغموض.. كان معنى ما قاله نبيل أنه أسقط كل الأقنعة وبدأ يتعامل مع أبي سليم لا على أنه سوري بل إسرائيلي... ساد الصمت لثوان وكان نبيل هو الآخر قد انتبه إلى ما بدر منه لكنه غمغم متسائلًا:

- أقدر أعرف إنت بتبتسم كده ليه يا ابو سليم؟!

قال أبو سليم في نبرة مؤثرة:

- إنت ممكن تتصور إني أشغلك شغلانة فيها خطر عليك؟!

في فرح لم يحاول نبيل أن يخفيه عاد يهتف:

- ده معنى كده إن مفيش مخلوق ممكن يحس بحاجة.

- على شرط.

- إيه هو؟!

- إننا ما نتقابلش علني بعد كده.

- وهو كذلك... لكن...

أمسك نبيل عن الكلام برهة، تساءل بعدها:

- ما نتقابلش علني؟!

- مش من مصلحتك إن حد يشوفنا سوا.

- حاتبقى تجيني الأوضة هنا؟!

- غلط.

- أمال...؟

قاطعه أبو سليم وقد لاحظ حماسه:

- حيلك عليَّ شوية، الحكاية مش لعبة... دي لها أصول وقواعد لازم تتعلمها.

قفز نبيل من مكانه وقد عاد إليه نشاطه:

- عارف إن معنى كده إن مفيش مخلوق ممكن يمسك عليَّ حاجة.

ابتسم أبو سليم فأشار نبيل إلى الأوراق التي كانت في يده مازحًا:

- يعني الكام ورقة دول يبقوا القسط الأول؟!

لم يفكر نبيل سالم فيما بعد أنه كان سعيدًا في ذلك الصباح إلى الحد الذي جعله يعلن سعادته في وضوح.. قال إنه كان كلما تذكر ذلك الصباح

أصيب بدهشة بالغة وكأن ما كان يعنيه هو ألا يعلم أحد في مصر ماذا يفعل... قال إنه في بعض الأحيان كان يحتقر نفسه لإحساسه هذا لكنه لم يكن يملك إلا أن يفعل.

- مش حاتاخد دش قبل ما تستلم شغلك الجديد؟!

هكذا أيقظه أبو سليم مما كان فيه... ارتد إليه متوترًا:

- على الله بس تكون شغلانة كويسة.

- عارف الجراج اللي كنا فيه أول إمبارح؟!

- بتاع الخواجة باروخ؟!

- أهو أنت حاتشتغل هناك.

عاد نبيل إلى مقعده وهو يضم ما بين حاجبيه:

- وحاشتغل إيه هناك؟!

- إنت مش لسه كنت بتحكي لي، وكتبت في الورق ده إنك قابلت جماعة مصريين كان فيهم ناس عاوزين يشتروا عربيات؟!

- ده صحيح.

- والشاب اللي انت اتصاحبت معاه ده عاوز عربية لما يحوش فلوسها... هو اسمه إيه؟

- شريف بكري.

- كل اللي عليك إنك تدلهم على الجراج وتجيب لهم خصم ولما حد يشتري عربية حاتبقى لك نسبة من ثمنها.

همَّ نبيل بالسؤال فأردف أبو سليم:

- ده غير المرتب.

- كل ده حلو قوي... بس مهما كانت الفلوس اللي حاكسبها من بيع العربيات، مش حاكسب الربع مليون مارك إلا بعد...

قاطعه أبو سليم:

- ما هو ده اللي احنا لازم نتكلم فيه.

أراد نبيل أن يستزيد من الرجل لكن هذا نظر في ساعته قائلًا إنهما على موعد مع السنيور إسكالكو صاحب الجراج لاستلام العمل.. بعد أقل من ساعة كان نبيل يجلس إلى هذا الرجل الإيطالى الضخم الجثة الهائل التقاطيع الشديد الأناقة الذي رحب أول أمس بأبي سليم فور دخوله إلى المبنى قبل لقائه بالسيد باروخ... كان السنيور إسكالكو لا يعرف الابتسام إلا نادرًا، لم يستغرق الاتفاق بينهما سوى دقائق وكان كل المطلوب من نبيل أن يتعامل مع المصريين أو العرب الراغبين في شراء سيارات... اكتشف نبيل أن المسألة أبسط بكثير مما تصور... اتفقا على المرتب ونسبة من ثمن السيارة لو بيعت في الجراج ونسبة أخرى إذا ما جلب نبيل الزبون من الخارج... علم أن مواعيد العمل تبدأ في التاسعة صباحًا وتنتهي في الخامسة بعد الظهر، لكنها - بالنسبة إلى نبيل - تنتهي في الواحدة ظهرًا، إذ سيصبح عليه أن ينزل إلى السوق وأن يتصيد الزبائن ويرشدهم إلى الجراج.

كان نبيل يجلس إلى الرجل في مكتب صغير في الدور الأرضي يطل على الساحة ويكشف كل ما يدور فيها... الآن اكتشف نبيل أن الدور الأرضي يضم بضعة مكاتب أخرى يشغلها موظفون وموظفات وكان في الساحة مشترون وسماسرة.. كان الحديث يدور بينه وبين إسكالكو بمزيج من الإيطالية والإنجليزية فلم يتدخل أبو سليم - الذي كان حاضرًا منذ البداية حتى النهاية - بكلمة ولم يفتح فمه بحرف - حتى إذا انتهت المناقشة قال السيد إسكالكو وهو ينهض من خلف مكتبه، إن نبيل لن

تكون له علاقة بأي من الموظفين سواه هو والسنيورينا مارشيلا.. كانت هذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها نبيل اسم «مارشيلا» لكنه لم يكن قد استوعب ما قاله الرجل استيعابًا كاملًا.. قبل أن يطلب إيضاحًا رفع سماعة التليفون وتحدث لثوان ثم أعادها فإذا فتاة إيطالية صارخة الجمال تدلف إلى الغرفة بعد دقائق وتلقي إلى أبي سليم بتحية من يعرفه منذ سنوات.. قدم سنيور إسكالكو نبيل لمارشيلا قائلًا:

- هذا هو صديقنا المصري الجديد يا مارشيلا.

التفتت الفتاة نحو نبيل وشملته بنظرة طالت بعض الشيء.. كانت عيناها خضراوين غريبتين ذات نظرات فياضة غامضة.. هزت له رأسها في تحية مقتضبة ثم وكأن ابتسامة لاحت على وجهها قالت:

- اتبعني من فضلك.

قالتها بإنجليزية واضحة وهي تستدير مغادرة الغرفة فورًا.. تلفت نبيل حوله نحو الرجلين المحيطين به، ثم استقرت عيناه عند أبي سليم فقال:

- حاشوفك إمتى؟

قال أبو سليم باسمًا:

- مارشيلا حاتقولك على كل حاجة.

* * *

قال نبيل سالم فيما بعد إنه لم يكن يتمنى في ذلك اليوم شيئًا إلا أن يعطَ فرصة كي يلتقط فيها أنفاسه، لكن الأحداث التي تتلاحق في سرعة لم تعطه الفرصة أبدًا للتوقف أو التأمل أو التفكير.. قال إن العرض الذي قدمه له السيد إسكالكو كان مرضيًا، لكن ما كان يشغل باله هو ذلك الإيصال الذي وقعه في لحظة لم يكن يستطيع فيها إلا أن يوقع على دين مقداره ربع مليون مارك ألماني.. وإنه كان متلهفًا للحديث مع أبي سليم حول هذا الأمر.. لكن مارشيلا قادته من مكتب إسكالكو مخترقة به ذلك البهو

الذي يلي باب المبنى صاعدة السلم المؤدي إلى الطابق العلوى فتبعها.. عندما أصبحا في ذلك الممر الذي ينتهي بغرفة باروخ التي قضى فيها عشر ساعات منذ يوم واحد، قادته مارشيلا إلى غرفة أخرى عرف فيها مكتبها هي... كانت الغرفة صغيرة لكنها كانت أنيقة وثمة ڤازة بها بعض الورود التي كانت ترسل شذاها فإذا جو الغرفة معطر برائحة الورود مختلطة بذلك العطر الذي كان يفوح من أعطاف تلك الفتاة الخضراء العينين.. أشارت إلى مقعد أمام مكتبها وجلست قائلة بإنجليزية سليمة تمامًا:

- والآن... هل تحب أن تتفاهم بالإنجليزية أم إنك ربما تحب التفاهم بالإيطالية.

قال نبيل في حرج:

- أنا لا أتقن من الإيطالية سوى بضع كلمات لا أعتقد أنها تكفي للتفاهم.

- ولم لا تحاول.. ومع قليل من الجهد سيصبح الأمر أكثر سهولة.

كان واضحًا أنها قد اتخذت القرار فتساءل:

- هل نحاول بالحوار؟!

- وقليل من الدراسة.

قالت هذا وهي تخرج من درج مكتبها كتيبًا صغيرًا لتعلم اللغة الإيطالية، فتذكر نبيل سالم شيرلي هايمان على الفور.

- لو أنك قرأت هذا الكتاب كل يوم صفحة واحدة، فلسوف تتحدث الإيطالية بعد شهر واحد من الآن.

قالت له شيرلي هايمان إنها يهودية وإنها تخاف على أهلها وبني جنسها في إسرائيل، فهل يكتشف ذات يوم أن مارشيلا كذلك كما اكتشف أن أبا سليم ليس بعيدًا عن الظن؟! تناول منها الكتاب وألقى عليه نظرة سريعة وهو يغمغم غائب الذهن:

- سأبذل قصارى جهدي.

- والآن... هذا كشف بالسيارات الموجودة لدينا... هي الآن حوالي مائتي سيارة فقط، ولسوف تجد في الكشف أمام كل سيارة ماركتها وسنة صنعها وحالتها ولونها وثمنها وكل ما يريد المشتري أن يعرف عنها.

قبل أن يفتح فمه نهضت مارشيلا إلى تلك النافذة الزجاجية المطلة على الساحة فنهض خلفها دون دعوة وكان في الساحة أناس يتحركون ومشترون يعاينون وموظفون يشرحون.

- عليك الآن أن تنزل إلى الساحة وأن تدرس الموقف جيدًا.

هم بالحديث فإذا بها تلتفت نحوه وقد غمرته عيناها الخضراوان بنظرة جعلت الرعدة تسري في جسده وهي تقول:

- لا بد أنك تعرف رغبات بني وطنك من المصريين والعرب، وأي نوع من السيارات يفضلون، والأثمان التي يستطيعون دفعها... ثم... ثم سيكون الأمر بعد ذلك سهلًا.

- أهذا هو كل شيء؟!

- حتى الآن.

قالتها وهي تعود إلى مكتبها كي تنكب على أوراق كانت أمامها وتستغرق فيها وكأنه غير موجود... أصابته خيبة أمل فسار حتى التقط ذلك الكتيب الصغير من فوق المكتب.. خطا نحو الباب خطوة فعنَّ له أن يسأل سؤالًا، استدار قائلًا:

- وماذا لو أني وجدت أن السيد...

قاطعته دون أن ترفع إليه رأسها:

- سوف تعود إليَّ في كل شيء، ولا تشغل وقت السيد إسكالكو فأنا أستطيع إجابتك على أي سؤال، كما أني أستطيع أن أحل لك أية مشكلة.

همَّ بالانصراف فرفعت إليه رأسها، تسمر في مكانه عندما غمرته عيناها الخضراوان بتلك النظرة الفياضة، أحس بالضياع والحيرة عندما قالت باسمة:

- أعتقد أننا سنكون فريقًا لا بأس به.

اشتم في جملتها رائحة نووية رطبت صدره، فابتسم هاتفًا:

- أرجو هذا... أرجو هذا.

ومنحته مارشيلا شبح ابتسامة سرعان ما اختفى خلف شفتيها، ولم يكن أمامه سوى أن يغادر الغرفة وقد داهمته ذكرياته مع شيرلي هايمان.

❋ ❋ ❋

أمضى نبيل الجزء الأول من نهاره في الساحة يطوف بالسيارات ويدرس ويشاهد ويقارن ويتحرك على مهل وقد استغرق في التفكير.. كان يعلم كم هي مربحة تجارة السيارات، وكان يعلم أن لديه القدرة على اجتذاب الناس وإقناعهم فقرر أن يجمع أكبر قدر من المال.. ذات لحظة أحس بالخدر يسري في أوصاله ورغبة عارمة في النوم، عاد إلى المبنى وتناول فنجانا من القهوة المركزة.. قرر أن يخوض معركته بشراسة وبلا هوادة وأن ينتصر مهما كان الثمن أو العقبات، في الواحدة عاد إلى مارشيلا كي يتفق معها على برنامج عمل فاستقبلته بنفس النظرة الفياضة لكنه تجاهل نظرتها وكانت له بضع ملاحظات استمعت إليها في اهتمام، عندما انتهى من عمله هم بالانصراف فقالت له:

- إن السيد باروخ في انتظارك.

- باروخ؟!

هكذا هتف محملقًا فيها بدهشة وقد داخله بعض من الاضطرابات، سددت إليه نظرة أدارت رأسه لكنه تمالك نفسه وهو يشير ناحية مكتب باروخ، فابتسمت قائلة:

- نعم... إنه في نفس المكتب.

كانت لهجتها مثل ملامحها الآن تجذبك إليها وتصدك عنها في نفس الوقت.. ولم يكن أمامه سوى أن يهز رأسه ثم يغادر الغرفة... سار حتى آخر الممر، وقف بالباب حتى استرد أنفاسه، دق دقتين جاءه بعدها صوت جهوري يصيح بالعربية:

- ادخل.

انتفض وهو يفتح الباب ويندفع نحو الداخل كي يطالعه أبو سليم جالسًا خلف المكتب.

- أهلًا نبيل، ادخل.

خطا نحو الداخل وهو ينظر فيما حوله ولم يكن هناك سوى أبي سليم، غمغم متقدمًا من الرجل وقد وصلته الرسالة صارخة واضحة لا غموض فيها، قال:

- مارشيلا قالت لي إن باروخ عاوزني.

ضحك أبو سليم قائلًا في مراوغة ضايقت نبيل:

- يظهر إنها فاكرة إنه لسه هنا.

جلس نبيل على مقعد وثير مشرئبًا فسأله أبو سليم:

- إيه أخبار الشغل؟

- كويس.

- وإيه أخبار سامية فهمي؟

كان السؤال مباغتًا فانتفض ملتفتًا نحو الرجل.. أدرك نبيل بوضوح، أن للسؤال الآن معنى آخر، ومغزى آخر.. فخفق قلبه بعنف أوجعه.

الفصل الثامن عشر

انجح من أجل مصر ومن أجلي

عندما ذكر أبو سليم اسم سامية فهمي بغتة وعلى غير انتظار، أُرتج على نبيل سالم.. كانت سامية هي الشخص الوحيد في العالم الذي لا يريد الآن ولا يستطيع أن يواجهه أو حتى يفكر فيه.. رغم ما كان قد احتساه من فناجين القهوة المركزة، ورغم الانتعاش الذي أصابه، إلا أن سلطان النوم راح يستولي عليه الآن بعنف.. أحس أنه يفقد توازنه تدريجيًا، لكنه، وهو ينظر الآن إلى أبي سليم عبر المكتب، كان قد أدرك كل شيء بوضوح.. تداعت شيرلي هايمان إلى ذهنه في نفس اللحظات التي كانت مارشيلا تقوم معه بنفس الدور.. فهل تلعب مارشيلا معه نفس اللعبة؟! أحس وكأنه يهذي وراحت الأفكار تختلط في ذهنه اختلاطًا شديدًا.. فما هذا الذي يحدث له. وما هذا الذي يحيط به.. مصادفات قدر محتوم أم إن غباءه وقلة حيلته وضعفه قادته جميعًا إلى ما هو فيه الآن.. كان لا بد له من الرد على سؤال الرجل فقال:

- إيه اللي فكّرك بسامية فهمي دلوقت يا ابو سليم؟!

- إحنا مش اتفقنا من الأول.

- اتفقنا على إيه؟!

- على إنك ما تفقدش علاقتك بيها.

- هو أنا كنت في إيه ولّا في إيه.

- إنت بطلت تكتب لها من إمتى؟

كان هذا السؤال الذي لا يريد أن يسمعه أو يجيب عنه، لكن أبا سليم ظل صامتًا محملقًا فيه فاضطر إلى الغمغمة وكأنه يحدث نفسه:

- مكانش ممكن.. مكانش ممكن.

- هو إيه اللي مكانش ممكن يا نبيل؟!

كان الرجل يضغط فصاح نبيل في تمرد واضح:

- يعني إنت كنت عاوزني أكتب أقول لها إني باحبك في الوقت اللي كنت فيه...

صمت نبيل متململًا فقال أبو سليم:

- مين اللي قال لك تتكلم عن الحب؟!

- إنت ما تعرفش علاقتي بسامية شكلها إيه.

- علشان كده أنا مش عاوزها تنتهي.

في يأس أدرك أن الرجل لن يكف عن الضغط، في يأس قال:

- وإيه اللي مطلوب مني دلوقت؟!

- تكتب لها تاني.

قفز من مكانه كمن لدغ، ومال نحو أبي سليم وقد تنبهت كل حواسه:

- أكتب... أكتب أقول لها إيه؟!

- قول لها اللي حصل لك.

صرخ كالمجنون:

- إيه؟!

- قول لها إنك مريت بظروف صعبة في ألمانيا، وإنك اضطريت تسافر إيطاليا، وإنك دلوقت استقريت وأحوالك اتحسنت وبقت لك وظيفة ثابتة.

لوح في وجه أبي سليم بأصبعه مزمجرًا:

- شوف يا ابو سليم... اللي أوله شرط آخره نور.

رفع أبو سليم حاجبيه وقد بدت على وجهه دهشة عبرت عنها ابتسامة ساخرة... وصلت الرسالة إلى نبيل فورًا فهو لم يكن في موقف من يستطيع بأن يملي شروطًا، أحس في داخله بانهيار مفاجئ فألقى بنفسه فوق المقعد وجاء صوته الآن متوسلًا:

- بلاش سامية فهمي من فضلك يا ابو سليم... خلينا في اللي احنا فيه وبلاش سامية.

نهض أبو سليم من مكانه دائرًا حول المكتب:

- حاتقابل شريف بكري الليلة؟!

أدرك نبيل أن الرجل يطرح الموضوع جانبًا لكنه سوف يعود إليه إن آجلًا أو عاجلًا، فما دخل سامية فيما هو فيه الآن... دهمه اكتئاب أغرقه فاستغرق فيه، جاءه صوت الرجل يسأل:

- إيه يا نبيل؟!

رفع نبيل إليه عينين تائهتين.

- أنا باسألك إن كنت حاتقابل شريف الليلة؟!

- المفروض.

هم أبو سليم بالحديث، لكن نبيل لاحقه وكأنه يعتذر عن عصبيته وحدته:

- والمفروض إني أنام لي ولو ساعتين علشان أعرف أشتغل.

ملأت الابتسامة وجه أبي سليم، أخرج من جيبه رزمة من الدولارات الأمريكية عد منها مائة دولار قدمها لنبيل قائلًا:

- دي مكافأة التقرير اللي كتبته عن شريف بكري رغم إنه ما كملش.

جمد نبيل في مكانه وقد هاله صوت أبي سليم من بعد سحيق:

- تحب تاخدهم ولّا أخصمهم من الدين؟!

- أنا عاوز أنام.

قال نبيل سالم عن تلك اللحظات إنه كان يشعر وكأن جبلًا كان يجثم فوق صدره، أعاد أبو سليم المبلغ إلى جيبه وهو يسير نحو الباب فتبعه نبيل دون إرادة.

- على العموم كل ما كان الشغل كويس كل ما المكافأة كبرت، وكل دينك ما اتسدد.

فتح له الباب فنفذ منه نبيل... وعندما أصبح في الطريق وحده، كانت رغبته في البكاء تفوق كل رغبة أخرى لديه.

* * *

في المساء، التقى نبيل سالم بشريف بكري حسب الموعد المضروب بينهما، كان شريف كعهده مرحًا مستبشرًا ودودًا منطلقًا.. سأله نبيل إن كان قد وفق في الحصول على عمل، فضحك هذا قائلًا إنه لا يزال على باب الله.. فقال نبيل ضاحكًا:

- إلحق لاقي شغل وحوِّش علشان أنا اللي حاجيب لك العربية اللي نفسك فيها.

نظر إليه شريف نظرة استفسار، فقال نبيل:

- أصلي لقيت شغل النهارده.

ولقد كانت مناسبة هامة لا بد من الاحتفال بها بين الصديقين الذين راحا يجوبان شوارع نابولي معًا.. قال نبيل لشريف إنه كان يسير في الشوارع على غير هدى عندما وجد نفسه داخل ساحة لبيع السيارات المستعملة... تذكر شريف ورغبته في شراء سيارة قبل عودته إلى مصر، فقام بجولة بين السيارات وهو يقارن بين الموديلات والأثمان... تصادف وجود رجل عربي كان يحاول شراء سيارة من رجل إيطالي وكان الحوار بينهما عسيرًا... ذلك أن العربي لم يكن يتحدث من اللغات الأجنبية سوى الإنجليزية، بينما الإيطالى لا يعرف سوى لغته... وهكذا، ولأن نبيل يتقن من الإيطالية بضع كلمات، فلقد تدخل بينهما حتى تمت الصفقة.. هم بالمسير عندما دعاه الرجل الإيطالى الذي عرف أن اسمه سنيور إسكالكو إلى فنجان من القهوة في مكتبه، كان الرجل سعيدًا وهو يشكره على الجهد الذي بذله، وشفع شكره هذا بأن نفحه بضعة آلاف من الليرات الإيطالية.. قال نبيل لشريف بكري إنه دهش متسائلًا عن السبب في إعطائه هذا المال، فقال الرجل إنه بذل جهدًا لإتمام الصفقة، وهذا حقه نظير الجهد المبذول... وهكذا، قادهما الحوار إلى أن عرض السنيور إسكالكو على نبيل أن يعمل معه في الجراج نظير مرتب لا بأس به، ونسبة على كل سيارة يبيعها.

هكذا كانت القصة التي لقنها أبو سليم لنبيل متقنة مقنعة، وهكذا قصها نبيل على شريف مضيفًا إليها من الحواشي ما جعل شريف يعلن دهشته وسعادته معًا.. وما إن انقضت تلك الليلة حتى كان عدد لا بأس به من المصريين قد تعرفوا على نبيل سالم، وكانت الليلة مرحة، ارتاد فيها نبيل وشريف أماكن عدة.. وكان لا بد للحوار أن يأخذ مجراه وللأحاديث أن تتشعب، فما إن مضت ساعتان حتى عرف نبيل من شريف بكري كل ما كان يريد أن يعرفه عنه... بدا له الأمر سهلًا سهولة شديدة، بل.. بل إن كل ما حصل عليه نبيل من شريف لم يكن - من وجهة نظره - يمثل أية خطورة.. فما الذي ستجنيه إسرائيل إذا ما عرفت أن شريف موظف في

وزارة الصناعة وأن والده مدير إدارة في إحدى المؤسسات الصحفية وأن والدته مفتشة بوزارة العمل، وأن أخاه ضابط في الصاعقة، وأخته أستاذة جامعية؟!

حصل نبيل سالم بسهولة شديدة على كل المعلومات التي يريد معرفتها عن شريف بكري... وكان شريف - من ناحية أخرى - وبعد مضي أقل من ساعة قد تيقن من هدف نبيل تمامًا، فراح يتطوع في بعض الأحيان بالإدلاء ببعض المعلومات التي جعلت لعاب أبي سليم يسيل عندما التقى فيما بعد بنبيل.

بعد ذلك بسنوات طويلة، اعترف لي عادل مكي أن هذه كانت المرة الأولى التي تعرف فيها المخابرات المصرية أن ساحة السيارات تلك كانت واجهة أو ساترًا اتخذته المخابرات الإسرائيلية كي تمارس من خلاله نشاطها في اصطياد العديد من الشباب، بل ومن الشخصيات العربية والمصرية بالذات.. وأن نشاط ذلك الساتر كان يتزايد يومًا بعد يوم حتى أصبح يمثل مركزًا خطيرًا لشبكة من أكثر شبكات الموساد نشاطًا.

كما اعترف لي بعد إلحاح طال، وتذمر لم يحاول أن يخفيه، أن المعلومات التي أدلى بها شريف بكري إلى نبيل سالم كانت صحيحة تمامًا، وأن شريف عندما عاد إلى عمله في القاهرة بوزارة الصناعة، كان قد أصبح - أثناء وبعد شرائه للسيارة - على علاقة مباشرة بالسيد إسكالكو أولًا، ثم بأبي سليم، وهي علاقة لم يعرف عنها نبيل شيئًا على الإطلاق... لكنه رفض أن يخوض في الحديث بعد ذلك بكلمة واحدة.

ولكن من وسط أحداث تلك الليلة التي امتلأت بالحوار والأحداث والحديث عن الوطن والنكسة والعودة والهجرة وما يجب وما لا يجب.. كان ثمة دقائق لها وزنها الخاص، ليس عند المخابرات الإسرائيلية فقط، ولكن عند نبيل سالم، وربما المخابرات المصرية أيضًا.

فلقد التقى نبيل وشريف أثناء تجوالهما بمجموعة من المصريين كانوا قد احتلوا ركنًا في أحد تلك البارات أو المقاهي التي تشبه الكهوف وتقدم أرخص أنواع المشروبات والأطعمة والتي تتناثر بالمئات فيما حول الميناء الكبير.. كانت مصادفة تلك التي ألقت بهما في طريق هذه المجموعة التي كان بينها صحفي شاب وطبيب حديث التخرج وطالب في كلية الهندسة ثم فتاة في حوالي الخامسة والعشرين، شديدة النحافة، مسترجلة الطبع والتصرف، مستقيمة استقامة صارمة، ولقد عرف نبيل أثناء الحوار الذي احتدم حول النكسة وأسبابها، أنها تعمل مندوبة إعلانات بإحدى المؤسسات الصحفية، وكانت هي نفس المؤسسة التي تعمل فيها سامية فهمي.. وما إن ذكرت الفتاة - التي كان اسمها زينب درويش - مكان عملها حتى وجد نبيل نفسه يسأل:

- على كده إنتِ تعرفي سامية فهمي.

قالت زينب في دهشة:

- سامية... دي حبيبتى.

ابتسم نبيل ولزم الصمت فأردفت زينب:

- إنت تعرفها؟!

- يعني.

- هو إيه اللي يعني.. ده مش جواب.

- انتي عاوزه إيه بالضبط؟!

- إنت تعرف سامية فهمي منين؟!

- قريبتي.

- مش ممكن.

- إشمعنى؟!

- علشان سامية فهمي بالذات مش ممكن يكون لها قرايب صعاليك زيك.

كانت قفشة ضحك لها الجميع في مرح، غير أن نبيل لم يضحك، بل بدا وقد اربدّ وجهه.

- إنت زعلت يا أستاذ نبيل؟!

- إيه اللي خلاكي تقولي كده يا أستاذة زينب؟!

بدت على زينب الحيرة وهي تردد البصر فيمن حولها قائلة:

- ما اعرفش.. بيتهيأ لي إني كنت باهزر.

كان هذا اعتذارًا كافيًا، لكن زينب أردفت:

- ثم إني باعتقد - من غير ما تزعل - إن كلنا كده صعاليك.

- بس أنا مش صعلوك.

صاح الصحفي:

- وهي الصعلكة وحشة؟!

- أنا إنسان محترم ولي وظيفة محترمة وباكسب فلوسي بعرق جبيني.

قال نبيل هذا بحدة فساد الصمت والوجوم ورفرف الحرج فوق رءوس الجميع... وكان نبيل يتساءل عن سر غضبه هذا الذي انفجر دون مبرر كاف.. راح يسأل نفسه إلى هذا الحد يخشى أن تعرف سامية عنه ما يشين، خرج من سهومه على صوت زينب درويش وهي تستعد للانصراف قائلة:

- على كل الأحوال أنا آسفة اللي خرجت عن حدودي.

زاد أدبها من عمق جرحه فهتف في حرارة:

- أنا اللي آسف.

توقفت محملقة فيه فقال:
- أنا يمكن أكون عصبي شويه لأني استلمت شغل جديد النهارده.
وهكذا، عاد الحديث إلى مجراه وقد صفت النفوس.

* * *

- غلط.. غلط.
- هو إيه اللي غلط يا ابو سليم.
- عصبيتك دي كانت غلط، وكلامك غلط، واعتذارك غلط.
- آهو ده اللي حصل.
- مفيش حاجة اسمها اللي حصل يا أستاذ.
- أبو سليم.
- ثم إيه اللي خلاك تقول إن سامية قريبتك مش خطيبتك؟!
- ما اعرفش.
- مش فيه احتمال إن زينب درويش دي تقول لها على اللي حصل.
- وافرض.
- إنت قلت لي إن سامية بتعتبر إنكم مخطوبين.
- أيوه.
- عاوز تجرح شعورها وتحرجها قدام زملائها؟!
- ما خطرش ببالي ده.
- كان لازم يخطر ببالك، وكان لازم تنتبه.
صرخ نبيل محتجًا:
- وكان لازم أنام وآخد راحة علشان مخي يفكر.
- وإيه اللي منعك.

- إنت.

- إزاي؟!

- تقدر تقول لي أنا حاقدر على كل ده إزاي؟!

- مش فاهم.

- أنا علشان أجيب الأخبار اللي إنت عاوزها سهرت لحد الساعة ستة الصبح، وكان لازم أروح الجراج الساعة تسعة.

- ودي فيها إيه؟!

- الخواجة إسكالكو لازم يراعي المسألة دي شوية.

صمت أبو سليم قليلًا، ثم مال على نبيل في جدية بدت في نظراته ونبرة صوته:

- الخواجة إسكالكو ما لوش دعوة بحاجة غير شغله، ولا يعرفش عننا حاجة غير إننا بنشتغل معاه في تجارة العربيات.

أدرك نبيل أنه من المستحيل أن يفك الحصار الذي ضرب من حوله، عاد مرة أخرى إلى الاستسلام.. بعد لحظة صمت سأل أبو سليم:

- وإيه اللي اتقال على سامية فهمي تاني؟!

- ولا حاجة.. كل اللي قالوه إنها بتكتب بصراحة ولا بيهمهاش حد.

- غريبة.

- إيه اللي غريب في ده.. سامية كده طول عمرها.

- حتى ولو كانت صريحة وطول عمرها كده... إزاي بيسيبوها، إزاي بينشروا لها.

كان السؤال واضحًا، لكن نبيل لم يكن يملك إجابة... عاد أبو سليم يقول:

- في نظام زي نظام عبد الناصر، اللي بيكتب بالشكل ده بيبقى مسنود.

- قصدك إيه؟!

- قصدي إنك تكتب لها يمكن تنفعك في يوم من الأيام.

كانت الجملة موحية بقدر كاف، وكانت - في نفس الوقت - تدق على ذلك الوتر الذي يدفع إلى الحركة الذاتية دفاعًا عن النفس.. فلقد هتف:

- وبعد ما أكتب لها؟!

- حاترد عليك، وترجّع اللي فات.

- تفتكر المسألة تستاهل؟!

- إنت وشطارتك.

وهكذا... وقبل أن يكتب نبيل سالم تقريره عن تلك الليلة،جلس إلى الورق والقلم، وراح يكتب خطابه الأول لسامية فهمي من إيطاليا.

* * *

قالت لي سامية فهمي وهي ترتجف انفعالًا مع استعادتها لذكريات تلك الأيام.. إنها كانت في ذلك الوقت أسعد فتاة في العالم.. كانت خطابات نبيل قد انقطعت منذ شهور طالت، واضطرت هي الأخرى إلى التوقف عن الكتابة لكن القلق كان ينهشها خوفًا على نبيل.. قالت إنها لم تشك لحظة واحدة في إخلاصه لها، لكن الفكرة التي سيطرت عليها في تلك الأيام هي فكرة مرضه إلى الحد الذي دفعها إلى التفكير في السفر إلى ألمانيا للبحث عنه والاطمئنان عليه.. كانت مصر في تلك الأيام تبدو كخلية نحل لا تكف ولا تهدأ ليلًا أو نهارًا، أفاق الناس من صدمة النكسة فاندفعوا يعملون جهد طاقتهم... أصبحت مصر مثل آلة هائلة تتحرك جميع أجزائها في اتجاه واحد.. هو التحرير.

امتص العمل التنظيمي جزءًا كبيرًا من وقتها خاصة بعد أن التحقت بالمعهد العالي للدراسات الاشتراكية.. في تلك الأيام جاءت مظاهرات الطلبة تعبيرًا عن قلق الشباب البالغ حول مصير أمتهم.. وكانت هي من المدافعين عنهم رغم ما كلفها هذا من جهد ومناقشات واتهامات خاصة في اجتماعات التنظيم الطليعي أو محاضرات المعهد الاشتراكي حتى أحست ذات يوم أنها تحارب في جبهة وحدها.. وسط هذا الأتون الملتهب وصلتها رسالة نبيل الأولى كجائزة أهدتها لها السماء... قرأت خطابه القصير عشر مرات قبل أن تمسك بالقلم وتكتب له:

«نبيل

جوابك وصلني، فرحت بيه جدًا، مشغولة لشوشتي وقلقانة عليك.. مبروك الشغل الجديد، ومبروك عليك إيطاليا وبناتها الحلوين.. اشتغل يا نبيل، اشتغل جامد وانجح، لازم تنجح.. انجح علشان مصر وعلشاني.

سامية»

كتبت الخطاب بسرعة لأنها كانت على موعد مع ندوة سوف تعقد في أمانة الدعوة والفكر بالاتحاد الاشتراكي لمناقشة موضوع مظاهرات الطلبة.

* * *

كانت سامية قد قررت عقب مغادرتها لعادل مكي في ذلك الصباح دون حديث أن تواجه نفسها مهما كانت العقبات أو العواقب، أحست أنها أنهكت هذا الرجل بقدر يكفي لأن تقف على قدميها، خاصة عندما طلبته في التليفون بعد مغادرتها إياه طالبة موعدًا في نفس اليوم لكنه أجل الموعد إلى ما بعد الغد.

قالت لي سامية إن هذا الأمر صدمها للوهلة الأولى صدمة روعتها.

وقال لي عادل مكي ونحن نناقش هذا الموضوع، إن هذا شيء طبيعى للغاية، فلقد لاحظ أن كل من يقدم على تلك الخطوة التي أقدمت عليها سامية فهمي، يشعر في أعماقه - ربما بلا وعي - أنه يقدم لبلاده خدمة جليلة على كل الناس أن يقفوا لها احترامًا.. وهذا حقيقى بالتأكيد، لكن المبالغة النفسية في مثل هذه الأمور قد تفسدها.. وهو كان يعلم يقينًا أن سامية تمر بمحنة، وأن المحنة قد ضغطت عليها إلى الحد الذي أصبحت فيه في حاجة إلى الراحة، وإعمال العقل، والتفكير بروية ودون انفعال، ولولا إحساسه بما كانت سامية تعانيه من ضغوط لكان قد أجّل الموعد أسبوعًا كاملًا.

قال: إن التحرك في مثل هذا الحقل يستلزم قدرًا كبيرًا من صفاء الذهن.. وإن ذهن سامية بالقطع لم يكن صافيًا في تلك الأيام الأولى.. ولقد كان هو في حاجة إليها وإلى صفاء ذهنها، كما كانت هي في حاجة إلى وقت حتى تستطيع استيعاب الحقائق التي كانت مقدمة على مواجهتها... ثم، وعلى الوجه الآخر، كانت خطابات نبيل سالم التي جاءته بها سامية، تحتاج منه إلى بعض الوقت كي يكمل من خلالها صورة العملية بقدر ما يستطيع من وضوح حتى في أدق التفاصيل وأصغرها... ولم يكن الأمر - فوق كل هذا - أمر قراءة أو تحليل واستنتاج فقط، بل كانت هناك علوم أخرى لا بد وأن تقول كلمتها في الأمر بعد تحليل الخط ونوع الورق والحبر وما إلى ذلك.

وعلى هذا، فما إن مر ذلك اليوم، وجاء الصباح التالي حيث موعد سامية معه، حتى كان على استعداد لسماع القصة منها، والسير بالأمر كله نحو نهاية كانت تبدو ضرورية إلى أقصى حد.

* * *

نظرت السيدة إقبال حسين نحو ابنتها وقالت باسمة:

- نمتي كويس الليلة؟!

- نمت يا ماما.. نمت فعلًا بس مش كويس قوي.

- ليه؟!

- بيتهيأ لي إني حانام الليلة نوم عميق جدًّا.

كان صوت سامية الآن، ونبرتها، وأسلوبها.. توحي جميعًا أن ثمة شيئًا جديدًا يلون فكر هذه الفتاة التي عاشت الأسابيع الماضية في أتون ملتهب من جحيم لا يرى.

- عندك ميعاد تنظيمي برضه؟!

- أيوه.

- نفس الميعاد؟!

رفعت سامية رأسها نحو أمها وكانت حضرة الناظرة تبتسم.. داخلتها الحيرة نحو أمها فتساءلت فيما بينها وبين نفسها إن كانت أمها تعلم أنها تذهب إلى المخابرات مثلما كانت تعلم أنها انضمت إلى التنظيم الطليعي؟ واجهت ابتسامة أمها بابتسامة واثقة، مدت يدها تمسك بيد أمها في حنان قالت هامسة:

- ماما.. ما تخافيش عليَّ.

- ما أقدرش.

- وإذا وعدتك إني مش حاتصرف إلا التصرف الصحيح.. تبطلي قلق؟!

هربت السيدة إقبال من نظرات ابنتها، غمغمت:

- على العموم إنتِ النهارده أحسن كثير.

وكان هذا بالضبط ما كانت تفكر فيه سامية منذ أن استيقظت في الصباح.. كان الحزن موجودًا والألم قائمًا ومرارة الهزيمة كالمر في

حلقها، لكنها كانت تشعر أنها الآن أقدر على مواجهة الأمر بعد أن عايشته طوال تلك الأسابيع.

وبالنسبة إليها، فقد كان الأمس عاصفًا، اعتزلت الحياة والناس، أرادت مواجهة كل شيء في أقصى مدى يمكن أن يصل إليه وفي أقسى صورة أيضًا... استقلت الأوتوبيس إلى حلوان، وهناك انزوت على شاطئ النيل في ذلك الركن الذي كان اسمه «ركن فاروق» ثم أصبح مشاعًا للشعب يرتاده ويحتسي فيه القهوة والشاي.. هنا كانت تلتقي بنبيل أحيانا.. راحت تحملق في النيل وفي رأسها عراك صارخ، مضت الساعات فإذا هي تواجه الأمر بافتراض أن نبيل قد خان بالفعل، فهل يستحق حبها إذا ما فعل؟! قالت وهي تنهض سائرة على الشاطئ:

- فليذهب إلى الجحيم.

أدركت وهي تجلس أمام أمها الآن على مائدة الإفطار أن عادل مكي كان على حق عندما أجّل اللقاء يومًا، قررت إذا ما ذهبت إليه والتقت به أن تقص عليه كل شيء بوضوح، ما حدث فعلًا وما خامرها من شكوك وما لفت نظرها من تصرفات.. هذا هو السبيل الوحيد للخلاص مما هي فيه.

- تحبي نوصلك بالعربية يا سامية؟!

- لا يا ماما.. أنا عاوزة أروح لوحدي.

كانتا الآن وكأنهما تتكاشفان وتتفاهمان على كل شيء مما أعاد الحياة بينهما صافية قبل أن تغادر أمها البيت قبلتها في جبهتها هامسة:

- ربنا يحرسك يا بنتي.

تأثرت سامية من دعاء أمها التي لم تكن قد تعودت أو عودتها على مثله، غادرت البيت بعد دقائق واستقلت سيارة أجرة... وفي الموعد المحدد بالضبط، كانت تجلس إلى عادل مكي.

- أولًا أنا عاوزة أعتذر من كل اللي حصل مني من ساعة ما جيت لك.

- مفيش ما يدعو للاعتذار على الإطلاق.

كان صوته جادًا ونبرته مستقيمة مما أكد أنه يعني ما قال تمامًا.

- ودلوقت... حضرتك عاوزني أبدأ من الأول خالص.

- إبدئي من أي حتة تحبي إنك تبدئي منها.

ولقد اختارت سامية فهمي أن تبدأ قصتها منذ وصول أول خطاب أرسله نبيل من نابولي.

- لأني حاسه بشكل ما، وما اعرفش ليه، إن الجواب ده بالذات كان بداية مرحلة جديدة خالص، مش في حياة نبيل بس... لكن كمان في علاقتي بيه.

ابتسم عادل مكي وكانت ابتسامته نابعة من قلبه... بدت له سامية فهمي وكأن الآلام قد طهرتها فجاءها الإحساس من خلال وجدان يقظ... كما كان يعلم الآن علم اليقين أن هذه هي سامية فهمي التي انتظرها، وعرف آراءها... فهل تكمل معه المشوار؟!

الفصل التاسع عشر
العودة منتصرًا

بدأت سامية فهمي الحديث مع عادل مكي وكأنها تختزن ما لديها من معلومات تحت سطح محكم فتحته يد سحرية فراحت تتدفق بلا توقف كمن يريد التخلص من عبء يجثم على صدره ويقيد حركته.. قالت إنها ظنت عندما وصلها ذلك الخطاب الأول الذي أرسله إليها نبيل سالم من نابولي، أنه ربما اضطر لإرساله بعد أن التقى بزينب درويش.. فسألها عادل مكي في دهشة لم يحاول أن يخفيها بقدر ما حاول أن يظهرها:

- مين زينب درويش دي؟!

- دي مندوبة إعلانات عندنا في المجلة.

- وإزاي قابلت نبيل؟!

- كانت مسافرة إيطاليا علشان تشتري عربية وقابلته هناك.

- ليها نشاط سياسي؟!

بدا لها السؤال غريبًا غرابة اهتمام عادل مكي بأمر كهذا، فأحست سامية أنها أدلت إليه بمعلومة هامة، ولذلك... فلقد راحت تستجلب ما حدث بدقة شديدة حتى تقدم له الصورة واضحة أشد ما يكون الوضوح... ولقد قالت لي سامية فهمي عن هذا اللقاء بالذات، إنها استشعرت لأول مرة

أهمية خاصة لتلك التفاصيل التي لا نتنبه لها عادة في حياتنا اليومية، فإذا بها عند هؤلاء الناس تعني الكثير مما لا ندركه نحن... عادت بالذاكرة إلى الوراء قليلًا كي تقول إنها لا تعرف الكثير عن زينب درويش، وهي لا تظن أن لها نشاطًا سياسيًّا بشكل أو بآخر، لأنه لو كان الأمر كذلك لعرفته بداهة، ولالتقت بها في الاتحاد الاشتراكي أو حتى في اجتماعات الوحدة بالمؤسسة.

وعلى كلٍّ... فالذي تذكره يقينًا أن قلقها على نبيل سالم في تلك الأيام وقبل لقائها بزينب درويش، كان قد وصل إلى ذروته... لكنه، وبالرغم من انشغالها الشديد في العمل السياسي، خاصة بعد التحاقها بالمعهد العالي للدراسات الاشتراكية، إلا أنها لم تستطع أن تمنع نفسها كل ليلة، قبل أن تأوي إلى فراشها، من التفكير في نبيل.

قالت سامية: إن ثقتها فيه لم تهتز حقًّا... إلا أنها كامرأة أو فتاة لها طبيعة خاصة لا يمكن التغلب عليها أو تغييرها، كانت تفكر فيما إذا كان نبيل قد وقع في حب فتاة أوربية أنسته حبهما وعلاقتهما... وكلما مرت الأيام، كان هذا الإحساس ينمو في صدرها ويتضخم مما أورثها نوعًا من الحزن اعتادت عليه واعتاد عليها، بل – وهذا ما أدهشها أشد الدهشة – أنها استراحت إلى هذا الحزن وكأنه ملجأ وجدت فيه راحة افتقدتها كثيرًا.

هكذا كان حالها حين طلبت زينب درويش أن تراها.. ولقد حدث هذا ذات صباح كانت تجلس فيه إلى مكتبها في المجلة عندما دق جرس التليفون، ومن الطرف الآخر جاءها صوت الفتاة:

– أنا زينب يا أستاذة سامية.

– زينب مين يا فندم؟!

– زينب درويش اللي في الإعلانات.

صاحت سامية معتذرة:

- أهلًا يا زينب.. أنا ما عرفتش صوتك.

- عندك وقت أشرب معاكي قهوة؟!

بدا لها السؤال غريبًا فلزمت الصمت لثوان خاطفة لكنها لم تلبث أن هتفت:

- اتفضلي.

ظنت سامية في البداية أن زينب سوف تطلب منها تحرير واحدة من تلك الصفحات الإعلانية التي تظهر في الصحف والمجلات في صورة تحقيقات أو مقالات حول شركة من الشركات أو مؤسسة من المؤسسات... كانت سامية في اجتماعات التنظيم الطليعي قد اشتركت في مناقشة تلك القضية التي أثيرت فأثارت زوبعة من المناقشات انتهت بهزيمة ساحقة لهؤلاء الذين كانوا يبغون صحافة خالية من الشوائب، فلقد اعتاد بعض المحررين - رغبة منهم في زيادة دخلهم - كتابة تلك الصفحات الإعلانية نظير أجر تدفعه إعلانات المجلة... وكان هناك فريق يرى أن هذا قد يؤثر - ولو في المدى الطويل - على أداء المحرر نفسه، خاصة وأن بعض الشركات المعلنة - وكان أغلبها شركات قطاع عام - بدأت تطلب أسماء معينة لكتابة تلك الإعلانات، وكان أصحاب هذا الرأي، من الرافضين للمبدأ، يطرحون فكرة الخوف من التناقض الذي قد ينشأ في رأس المحرر عندما يصبح عليه أن ينقد وضعًا في شركة، وفي الوقت نفسه يكتب إعلانا يتقاضى عن كتابته أجرًا، يمتدح كل أوضاع تلك الشركة، وكان هناك فريق آخر يرى أن الأمر لا غبار عليه، وأن زيادة دخل المؤسسة بالإعلان، ودخل المحرر بالأجر الحلال، ليس جريمة، بل واجب، وعلى كل الأحوال، فلقد كانت المعركة في تلك الأيام حامية ومستعرة، ولقد تصورت سامية فهمي، أن زينب طلبت لقاءها كي تعرض عليها تحرير واحد من تلك الإعلانات نظير أجر معين.. وبينها وبين نفسها، فلقد ابتسمت في سخرية، فهي تعرف أنها سترفض العرض

مهما كان الأمر، لأنها كانت من أشد أعضاء الفريق حماسًا لوقف مثل هذا الهزل الذي قد يحول الصحفي من قاض يحكم بما يراه عدلًا، إلى منتفع قد تمنعه مصلحته ذات يوم من القيام بواجب.. وعندما وصلت زينب، بالغت سامية في الترحيب بها حتى لا تظن تلك الفتاة الطيبة الكادحة، أن ثمة موقفًا شخصيًا في الأمر.

غير أن المفاجأة هزت سامية حتى الأعماق عندما جلست الفتاة إلى جوارها، وقبل أن تطلب القهوة التي وعدتها بها سألتها هامسة:

- إنتِ تعرفي واحد اسمه نبيل؟!

هتفت سامية وقلبها يخفق في عنف:

- نبيل سالم؟!

- نبيل الجيزي.

رددت سامية الاسم وراء زينب وقد بدت عليها خيبة الأمل:

- لأ.

هكذا قالت، لكنها عادت عندما أضاء ذهنها باسم عائلة نبيل - وكانت تعرفه طبعًا - تهتف:

- أيوه أيوه... هو نبيل سالم، إنتِ قابلتيه؟!

- وسهرت معاه.. وبيسلم عليكي.

- سهرتي معاه فين؟!

- في نابولي.

- بس اللي أنا أعرفه إن نبيل في ألمانيا.

- لأ... ده في نابولي، وسهرت معاه ليلة بحالها، واتخانقنا.

- ليه؟!

- أصلي غلطت في حقه من غير قصد.

وحكت لها زينب درويش قصة تلك الليلة التي سهرت فيها مع نبيل، قالت إنها سعدت سعادة حقيقية لغضب نبيل الذي كان يحترم نفسه احترامًا واضحًا لدرجة أنه رفض منها مداعبة بريئة.. قالت إن نبيل أنبأها أن سامية قريبته، فانقبض قلب سامية متسائلة:

- هو قال لك كده؟!

- طبعًا.. هو قريبك بصحيح يا آنسة سامية؟!

في ذلك اليوم أدركت سامية فهمي أن نبيل قد ابتعد عنها.. ففي الوقت الذي كانت تعلن فيه للناس جميعًا أنها تحبه، وأنهما مخطوبان... ينفصل هو، في بلد بعيد عن مصر، من هذا الحب.

غير أن سامية قد أحست - مع الحزن وخيبة الأمل - بسعادة خفية لأن نبيل يحترم نفسه ولقد سألت زينب عن العمل الذي يمارسه في نابولي، فقالت الفتاة:

- بيشتغل في العربيات، وكان ليلتها لسه ماسك شغل جديد.

- هو اللي اشترى لك عربيتك؟!

- هو عرض عليَّ ده بعد ما اعتذرت له، لكن أنا كنت اشتريت العربية خلاص.

ثم مضت أيام، ووصلها ذلك الخطاب الأول من نبيل الذي قال لها فيه إنه مر بظروف صعبة، وإن مرضًا قد ألم به فلم يشأ أن يكتب لها حتى لا يشغلها بأمره أو مرضه، وإنه اضطر إلى الرحيل جنوبًا إلى إيطاليا حتى وجد عملًا مستقرًا ومريحًا في نفس الوقت، ثم راح يحدثها في خطابه هذا عن الأمل في المستقبل، قال لها إنه يعمل في تجارة السيارات - هكذا لقنه أبو سليم قائلًا: «ليه تكذب؟!» - وما هي إلا شهور قليلة حتى يستقل ويصبح سيد نفسه... وفي نهاية الخطاب كتب حاشية يقول فيها: التقيت

هنا بفتاة اسمها زينب درويش تعمل في الإعلانات عندكم، قلت لها إنك قريبتي حتى لا أسبب لك أي نوع من الحرج، إن كان هناك ما يدعو إلى هذا الحرج بعد غيبتي الطويلة.

كان أبو سليم هو الذي أوحى إليه بكتابة هذه الحاشية بعد أن قص عليه نبيل عن تلك الليلة التي التقى فيها بزينب درويش... ولقد عاتبه الرجل إلى حد التعنيف على أنه لم يقل إن سامية خطيبته.

كانت تلك الحاشية سببًا من أسباب سعادة سامية التي دفعتها إلى الرد عليه بخطابها ذاك المشتعل بالحماس والأمل والثقة في المستقبل... وجاءت خطابات نبيل - التي تسلمها عادل مكي بالكامل - بعد ذلك، موحية بالإشراق والتفاؤل والنجاح، مما دفعها لأن تكتب له بانتظام... وعلى مدى شهور ثلاثة، تبادلا الرسائل معًا بحماس وحب جعل من سامية - كما قالت - أسعد فتاة في الدنيا.

* * *

كان عادل مكي يستمع إلى سامية فهمي وقلبه يتمزق حقًّا، ففي تلك الأيام التي كانت تتحدث عنها، كان يعرف يقينًا أن ثمة هدف يوجه إليه نبيل سالم، هدف بدا له غامضًا وإن كان متصلًا اتصالًا وثيقًا بتلك الممارسات الشيطانية التي كان يمارسها ذلك الشاب التعس في نابولي وكأنه يريد الانتقام من مجهول.

استطاع نبيل أن يصبح واحدًا من أشهر سماسرة السيارات في نابولي، وذاع صيته، ليس بين المصريين في ذلك الميناء الإيطالي فحسب، بل في مصر أيضًا... وما هي إلا بضعة أسابيع حتى كان العائدون بالسيارات من إيطاليا، يرشدون الذين يزمعون السفر إلى هناك لاقتناء سيارة إلى نبيل سالم... كانوا يعطونهم رقم تليفونه وعنوان الجراج الذي يعمل به... والغريب في الأمر، أن بعض هؤلاء العائدين، كانوا يؤكدون - وهم يحكون

عن نبيل - مما لاحظوه ورأوه بأنفسهم، أنه إن لم يكن مالكًا لهذا الجراج الكبير، فهو على الأقل شريكًا فيه.

وفي خلال أربعة أسابيع أو خمسة، استطاع نبيل أن يحقق للجراج رقمًا قياسيًا في المبيعات والأرباح لدرجة أدهشت ذلك السنيور إسكالكو صاحب الجراج.. كانت مواهبه تفصح عن نفسها بوضوح، وسرى اسمه بين المصريين وازداد عدد الباحثين والسائلين عنه.. وكان لا بد والأمر كذلك، أن تتطور علاقة نبيل بأبي سليم بسرعة.. حتى جاء وقت كان يكفي أن يدلي فيه الرجل بملاحظة، مجرد ملاحظة عابرة، حتى يلتقطها هذا، وقد استخفه النجاح، وينفذها على أكمل وجه.

ومن ثَمَّ.. لم تعد العلاقة بينهما تحتاج إلى تورية أو لف أو دوران حول الأمور.. أصبحت العلاقة واضحة تمام الوضوح.. وما كان على نبيل إلا أن يلتقي بالمصريين والمصريات، وأن يقوم بإنشاء علاقات تبدو حميمة مع الجميع... ثم ينقل أسماء الذين كان يلتقي بهم، مع ما استطاع أن يحصل عليه من معلومات عن صاحب كل اسم، حتى إذا طلب منه أبو سليم الاقتراب أكثر من صاحب اسم بعينه، حتى يصبح صاحب هذا الاسم، بين يوم وليلة، صديقًا حميمًا لنبيل سالم الذي كان يؤدي له كل ما يريد من خدمات، ويولم له الولائم ويصحبه إلى ما يبغى من سهرات، كي يضع يده على نقاط ضعفه، إن كان يشرب الخمر أو يعشق النساء أو يلعب الميسر، أو... أو... إلى كل نقاط الضعف التي من الممكن أن تجعل السيطرة على فرد من الأفراد مسألة مستطاعة في أقل وقت ممكن.

كان نبيل يفعل هذا بمهارة بالغة، حتى إذا أصبح هذا الشخص، من وجهة نظر أبي سليم، جاهزًا... قدمه نبيل إليه على أنه تاجر سيارات، قدمه إليه في سهرة، أو ماخور، أو في «برتيتة قمار» أو حتى بمصادفة في الطريق... فقط، يقدمه لأبي سليم ويترك له الباقي، مجرد تقديم ينسحب بعده نبيل ويختفي تمامًا من حياة هذا الشخص.

ولقد قال لي عادل مكي إن نبيل سالم في تلك الأيام، كان تحت السيطرة الكاملة للمخابرات المصرية، وإنهم كانوا يتابعون نشاطه بعين لا تغفل فلقد راحت خطورته تتزايد يومًا بعد يوم.. ولقد أدهشه أكثر، عدد هؤلاء الذين كان يوقعهم نبيل في براثن أبي سليم وكأنه تحول إلى متعهد أنفار - هذا تعبير عادل مكي بالتحديد، ولعله أراد بهذا التعبير أن يوضح أن عدد الذين أوقعهم أو حاول نبيل أن يوقعهم، في تلك الشبكة الجهنمية، كان كبيرًا - وبالرغم من ذلك، لم تكن المخابرات المصرية بقادرة على توجيه أي نوع من أنواع الاتهام إلى نبيل، فهو - أبدًا - لم يشترك في مناقشة أو مساومة أو سهرة من تلك السهرات التي كانت تسحب هؤلاء الذين وقع عليهم اختيار المخابرات الإسرائيلية.. أبدًا لم يشترك، وكان حريصًا كل الحرص، على أن يظل بعيدًا، وأن تكون كل وظيفته، هي تقديم الشخص المطلوب لأبي سليم أو واحد من أعوانه.

قال لي عادل مكي إنه حتى هؤلاء الذين أبلغوا عما حدث عند عودتهم من إيطاليا، لم يذكروا نبيلًا بسوء بل إنهم كانوا يذكرونه بالخير، ويتحدثون عن خدماته التي أداها لهم بعرفان واضح.

ولقد كانت نتيجة هذا النشاط الهائل الذي قام به نبيل... أن ارتفع دخله، وأصبح قادرًا على الانتقال من مسكنه المتواضع إلى مسكن آخر في حي متوسط... فبعد أقل من شهرين، انتقل نبيل إلى شقة مكونة من غرفتين في بناية تطل على حديقة صغيرة تتوسط ميدانا تتفجر في وسطه نافورة تدفق مياهًا من فم تمثال لملاك يكاد يطير بجناحيه المنحوتين من الرخام الأبيض... وكان كلما قدم لأبي سليم شخصًا، خصم هذا نسبة من الدين على ظهر الإيصال الذي وقعه نبيل... ولم تكن النسبة ثابتة، بل كانت تتراوح فيما بين مائة دولار، وخمسمائة حسب أهمية الشخص.

ضحك عادل مكي وهو يحدثني عن تلك المرحلة في مرارة قائلًا: إن معنى هذا أن المخابرات الإسرائيلية لم تدفع نبيل إلى الخيانة فقط، بل

لم تكن تدفع له قرشًا نظير خيانته تلك.. أي أنه كان يخون «ببلاش»... ثم عقب على هذا الحديث بقوله: إن بعض الأغبياء من ضعاف النفوس يظنون أنهم إذا ما خانوا، قبضوا ألوف الدولارات أو عشرات الألوف، وهذا غير حقيقي بالمرة... وإذا كان اليهودي قادرًا على ألا يدفع لك أجر ما تفعل، فلماذا يدفع أصلًا؟!

بعد شهرين من ذلك التاريخ الذي بدأ نبيل العمل فيه في الجراج، استطاع أن يتقن اللغة الإيطالية إلى درجة أدهشت «مارشيلا» تلك الفتاة الصارمة التي كانت علاقتها به، نتيجة للاحتكاك اليومي في العمل وفي دروس اللغة، تتوطد يومًا بعد يوم... وإذا كانت علاقته بالسنيور إسكالكو - صاحب الجراج - كانت علاقة عمل فقط، فلقد كان الرجل، مع سعادته الحقيقية بنبيل وما تفجرت عنه ملكاته ومواهبه وإمكانياته، يحاسبه بأمانة شديدة، يمنحه بين الحين والحين مكافآت لا بأس بها.

ودون شك، كان نبيل هو الآخر في تلك الأيام سعيدًا، ذلك أن ما كان يحظى به من نجاح، عاد يؤكد له قدرته على تخطي الصعاب، ثم... إن عمله مع أبي سليم، كان يجعله دائمًا في دائرة الأمان. كان سعيدًا لأن «مارشيلا» راحت تلعب معه دور «شيرلي هايمان»، لكنه هذه المرة، دخل إلى الحلبة مفتوح العينين - على حد قوله فيما بعد - وإذا كانت شيرلي هايمان قد أخبرته ذات يوم أنها يهودية وأنه مصري، وأن قومه يحاربون قومها، وإذا كانت قد انتزعت منه وعدًا بألا يشترك في هذه الحرب، فلقد كان من المنطقي أن تكون هناك علاقة خفيت عنه بينها وبين أبي سليم.

هكذا كان يفكر، وهكذا كانت الأفكار تروح وتجيء في بعض الأحيان في ذهنه مما دفعه ذات مرة لأن يسأل أبا سليم فجأة:

- إيه أخبار شيرلي هايمان يا ابو سليم؟!

- إيش عرفني.

قالها أبو سليم بحدة مشفوعة بتلك النظرة المخيفة التي كانت لا تزال تبعث بالرعب إلى نفس نبيل، فأدرك أن الحديث حول هذا الموضوع ممنوع تمامًا، فلم يعد إليه، ولم يفكر فيه.

ودخلت مارشيلا حياة نبيل تدريجيًا.. فلقد كانت هي - على سبيل المثال - التي تنتقي له الملابس والألوان، فأصبح واحدًا من أشد الشبان أناقة في تلك الأوساط التي كان يؤمها المصريون في المدينة مما أضفى عليه نوعًا من الاحترام والإعجاب.

وعندما طلبت منه مارشيلا ذات ليلة تناولا فيها العشاء معًا - ولقد رآه بعض المصريين في تلك الليلة يقود سيارة صغيرة في شوارع نابولي وبجواره تلك الفتاة الرائعة الجمال فحسدوه وتحدثوا كثيرًا عن إمكانياته - عندما طلبت منه أن يذهبا معًا إلى مسكنه، سألها في مرح الحصيف:

- ولم لا نذهب إلى مسكنك أنت؟!

ولم تمانع الفتاة، لكن هذا لم يمنعها من أن تعلن دهشتها - التي نظن أنها كانت صادقة، فليس من الطبيعي، حتى ولو كانت تعمل لحساب أبي سليم، أن تعرف شيئًا عن شيرلي هايمان وعن علاقتها بنبيل أو ما حدث له في آخر زيارة لها في بيته - ولقد أجاب نبيل سالم على تلك الدهشة وذلك التساؤل الذي كانت عينا تلك الفتاة الخضراوان تطلقه كسهام موجهة إلى عقله، بأن طلب منها أن تغفر له، فلقد مر بتجربة جعلته يفكر ألف مرة قبل أن يدعو فتاة يحبها إلى بيته.

- إذن فأنت تحبني؟!

ووقع نبيل في الحيرة، فاجأه السؤال فلم يكن في حقيقة الأمر يقصد إلى المعنى الذي التقطته مارشيلا واستخدمته ببراعة.. ولم يكن نبيل في تلك الأيام يفكر في الحب خاصة بعد شكوكه تلك التي ثارت في رأسه حول شيرلي هايمان وعلاقتها بأبي سليم.. أصبح الحب بالنسبة إليه عبثًا

ليس هناك ما يدعو لأن يتحمله وهو يبني مستقبله وحياته.. وعلى كلٍّ، فإن علاقة نبيل بمارشيلا كانت تختلف تماما عن علاقته بشيرلي هايمان.. كانت هذه علاقة يحكمها العقل بصرامة.. ولذلك، فلقد كان نبيل، إذا ما استشعر ذلك الاقتراب المحسوس الذي كانت مارشيلا تتسلل به إلى حياته بعد أسابيع من التعالي والتغاضي والتجاهل، ابتعد هو عنها محافظا على نفس المسافة بينهما.

* * *

كانت خطابات سامية تصل إليه الآن بانتظام، وكان لا بد وأن تنتبه مارشيلا إليها وأن تسأله عنها... لكن أبو سليم بالقطع، كان يقرأها.

حتى كان يوم التقى فيه بأبي سليم ذلك اللقاء السري الذي وضع له رجل المخابرات الإسرائيلية خطة دقيقة... وما كاد الحوار يبدأ بينهما، حتى أخرج نبيل خطابًا من جيبه قائلًا:

- الجواب ده وصلني النهارده.

- من سامية برضه؟!

قال أبو سليم هذا وهو يتناول المظروف.

ولقد كان الرجل قد طلب منه ألا يهمل خطابًا لسامية، ومهما كان عدد خطاباتها، فلا بد وأن يرد عليها، بل إنه في بعض الأحيان، وبعد قراءة الخطاب، كان يملي عليه ما يجب أن يرد به... وكان نبيل يطيع دون مناقشة، كان قد أدرك وبوضوح أن عليه أن يطيع ما يؤمر به بلا مناقشة... وفي ذلك اليوم راح يرقب الرجل وهو يقرأ الخطاب المشتعل بالحب والأمل، حتى إذا ما انتهى منه وطواه، قال مغمغًا وكأن الفكرة طرأت على رأسه فجأة:

- إنت ما فكرتش تسافر مصر يا نبيل؟!

فغر نبيل فاه دهشة وهو يحملق في الرجل لثوان طالت دون رد.

- إيه ما لك؟!

هكذا سأله الرجل ضاحكًا ضحكة خفيفة، فهتف نبيل:

- إنت عاوز تخلص مني يا ابو سليم؟!

- إزاي وأنا ما أقدرش استغنى عنك.

- إنت نسيت الإنتربول؟!

ضم أبو سليم ما بين حاجبيه وكأنه يحاول أن يتذكر فقال نبيل غاضبًا:

- إنت عاوز تفهمني إنك كنت ناسي؟!

- لأ... مش كده.

- أمال إزاي؟!

- أنا مندهش لإني ما اديتكش خبر.

- بإيه؟!

- بأن الحكاية دي اتصفت وخلصت من كام أسبوع.

مال عليه نبيل وقد اجتاحه من الفرح استفزاز جعله يهتف من بين أسنانه:

- من كام أسبوع ومخبي عليَّ.

اربدّ وجه أبي سليم وأطلقت عيناه تلك النظرة المخيفة وجاء صوته كحد السيف:

- أنا ما خبيتش عليك، أنا نسيت.

هم نبيل من مكانه مدمدمًا:

- اللي زيك ما ينساش يا ابو سليم.

- اقعد.

هم نبيل بالحديث فزمجر الرجل:

- باقول لك اقعد.

ولقد جلس نبيل، جلس وقد تذكر الدين الذي كان عليه أن يسدده، وجواز السفر المزور الذي كان يحمله، وعمله الذي أصبح يدر عليه من الأرباح ما مكنه من حياته تلك ونجاحه ذاك.

- إنت نسيت نفسك ولّا إيه؟!

- أنا متأسف.

قالها نبيل في انهيار مفاجئ فلم يرد الرجل وكان الغضب قد سيطر عليه، فغمغم نبيل مستطردًا:

- أنا اعتذرت يا ابو سليم وآديني باعتذر تاني.

لم يرد أبو سليم، فقط... مد يديه إلى جيبه الداخلي كي يخرج جواز سفر نبيل الأصلي ثم يلقيه فيما بينهما فوق المائدة... امتدت يد نبيل كي تلتقط جواز السفر في دهشة ذاهلة:

- إيه ده؟!

لم يرد عليه أبو سليم، بينما راح يتصفح جواز السفر في فرحة طفل تاه طويلًا ثم وجد في النهاية أباه وأمه.. بعد ثوان توقفت عيناه عند صفحة في الجواز، كان هناك خاتم الجوازات الإيطالية تمنحه تأشيرة دخول في نفس اليوم الذي دخل فيه نبيل إلى إيطاليا.

- معقول ده؟!

أرسلت عينا أبو سليم نظرة عتاب حادة، فمال نبيل نحوه:

- حقيقي أنا باعتذر.. أنا كنت متسرع.

هوت الجملة على رأس نبيل كمطرقة جلبت له الدوار، ها هو الرجل يعيد إليه جواز سفره كي يرفع عن كاهله عبئًا عانى منه، ثم... ثم إنه أنهى

موضوع الإنتربول الذي كان سيفًا مسلطًا على عنقه، كان الرجل قد حوله في لحظة من مطارد إلى إنسان شريف، فكيف يخطئ في حقه، وكيف يشك في صدقه؟!

- لك حق تقول أي حاجة وتعمل أي حاجة.. بس برضه أنا آسف.

- وافرض إني قبلت اعتذارك، أضمن منين إنك مش حاتتسرع تاني؟!

- أوعدك بشرفي.

- شرفك؟!

قالها أبو سليم في سخرية أحس بعدها نبيل أنه سوف يتقيأ أحشاءه... كان سؤالًا في كلمة واحدة اخترقت صدره كنصل حاد وكانت لها قوة التدمير ذاته.

- للدرجة دي إنت زعلان مني؟!

- على العموم حاول ما تعملش كده تاني وإلا...

قالها وصمت دون أن يكمل جملته، فسقطت عينا نبيل إلى سطح المائدة وهو يغمغم:

- ماشي كلامك يا ابو سليم.

- إحنا كنا في إيه؟!

- كنت بتسألني إذا كانت مصر وحشتني.

- بس إنت ما رديتش على السؤال.

تردد نبيل قليلًا لكنه قال أخيرًا:

- وهي وحشتني.. بس مش على طول.

- مين اللي قال على طول؟!

- يعني إيه؟!

في كلمات واضحة محددة جاءته كلمات أبو سليم:

- مطلوب منك إنك تسافر مصر لمدة أسبوعين.

- وحاعمل إيه هناك؟!

- ولا حاجة خالص.

- أمال حاسافر ليه؟!

- تتفسح.. تاخد أجازة بعد الشغل اللي إنت عملته.

- أجازة؟!

- مش عاوز تشوف أهلك... وتشوف سامية؟!

- سامية...

قال نبيل سالم فيما بعد، إنه أدرك بوضوح أن «سامية» هي الهدف وهي السر الكامن وراء هذا الطلب، ولقد ساد الصمت بعد ذلك لثوان قال بعدها أبو سليم:

- قلت إيه؟!

- اللي تشوفه.

- الباسبور التاني معاك؟!

أخرج نبيل جواز سفره المزور وناوله لأبي سليم.

- قدامك ٤٨ ساعة تحضر نفسك فيهم.

نظر نبيل إلى أبي سليم في توسل فسأله هذا:

- إيه... ما لك؟!

- تفتكر مفيش خطر من سفري؟!

أطلق أبو سليم ضحكة جلجلت في المكان وبددت سحب الغضب المتجمعة.

- إنت لسه ما تعلمتش.

- أبو سليم.

- من يوم ما عرفتك، فيه حاجة قلتها لك وطلعت غلط؟!

- لأ... الحقيقة لأ.

- ثم... افرض إنهم سألوك في مصر، حايسألوك على إيه؟!

فكر نبيل قليلًا، لم يكن في حاجة إلى تفكير، فاستطرد الرجل:

- إنت اللي قلت بعضمة لسانك أول ما عرفت إنت حاتشتغل إيه؟!

- وهم في مصر عاوزين إثبات علشان يمسكوني؟!

- مفيش حد في مصر يعرف عنك حاجة غير إنك سمسار عربيات.

هتف نبيل وكأنه يدافع عن نفسه:

- وهي دي الحقيقة.

- طب ما تقول لنفسك.

وهكذا انتهى الأمر.. وكان لا بد من الانصراف، لكن أبا سليم استطرد:

- ما تنساش الهدايا.

كانت الجملة مغموسة في حنان جعل نبيل يهتف:

- هدايا...

مد الرجل يده في جيبه وأخرج مجموعة من أوراق النقد قدمها لنبيل وهو يقول:

- مش ممكن تدخل على بابا وماما بعد الغيبة دي كلها وإيدك فاضية.

تناول نبيل النقود دهشًا، فعاد أبو سليم مردفًا:

- وسامية.

هز نبيل رأسه إيجابًا وكأنه يقول: «أنا عارف»...

- المفروض إنك راجع منتصر، ناجح، وكسبان، ومعاك فلوس.

وكان في هذه الجملة فصل الخطاب، فلقد نهض نبيل وصافح أبا سليم في حرارة، وعقله يطير إلى مصر، فقط... كي يرى كيف يكون موقف الجميع منه، إذا ما عاد منتصرًا.

الفصل العشرون

الزيارة

كانت الساعة قد أشرفت على الثانية بعد الظهر وسامية تحكي بلا توقف، كانت مثل مرجل يغلي بما تراكم في جوفه من بخار، حتى إذا ما وجد منفذًا، انطلق البخار منه في اندفاع وقوة.. ولقد قالت لي سامية إن تلك ساعات كانت شاقة بكل ما تحمل الكلمة من معنى، فمع إحساسها بالراحة الشديدة كلما حكت وأوغلت فيما حدث، وكأنها ترفع عن كاهلها عبئًا حملته طويلًا حتى قصم الظهر منها، كان إحساسها بالعذاب يتضاعف.. فلقد كانت كل كلمة تتفوه بها، تقربها من ذلك المجهول، من ذلك الكابوس الذي حول حياتها إلى جحيم، تقربها من حقيقة قاومت طويلًا، وكأنها تريد أن تلوي ذراع القدر، كي تهرب منها... فهل كانت في ذلك الوقت تشعر بأن نبيل سالم خائن بالفعل؟!

توقفت عن الحديث للحظات أرادت فيها أن تلتقط أنفاسها، فضحك عادل مكي قائلًا:

– الحمد لله على السلامة يا سامية.

رفعت حاجبيها دهشة لذلك التعبير الذي وجدته غريبًا، فأردف عادل:

- أصلي استنيتك كتير قوي.

أدركت سامية مقصده، فتساءلت فيما بينها وبين نفسها: أإلى هذا الحد كانت غائبة وسط مخاوفها وأحزانها؟!

تنهدت في حرارة وهي تغمغم:

- أصلي تعبت يا سيد عادل.

- وما كانش ممكن ترتاحي إلا إذا اتكلمتي وقلتي، ووقفتي قدام الحقيقة مهما كانت.

كان فيما قال إيحاء لم يخف عليها، فقالت وهي تخفض البصر:

- الغريبة إني كنت عارفة ده من الأول.

قالت هذا ثم عادت تحكي من جديد، كما راح عادل مكي يستمع ويتذكر ويربط فيما بين الأحداث فإذا قطع الصورة المتناثرة تتجمع، وإذا الحقائق تسفر عن نفسها.

* * *

في خلال ثماني وأربعين ساعة، كان كل شيء جاهزًا كي يطير نبيل سالم إلى القاهرة.. وفي صبيحة يوم السفر التقى به أبو سليم وكان يبدو عليه المرح والسعادة.. لكن نبيل بادره فجأة:

- أنا عاوز أعرف يا ابو سليم إيه اللي مطلوب مني بالضبط.

رد أبو سليم على سؤاله في بساطة قائلًا:

- ولا حاجة.. عاوزينك تتفسح وتشوف أهلك وحبايبك.

لزم نبيل الصمت مستغرقًا في التفكير وفي النظر إلى الرجل وقد استبدت به الحيرة... ذلك أنه - طوال اليومين اللذين انقضيا منذ لقائه الأخير مع أبي سليم - كان يضرب أخماسًا في أسداس في محاولة لمعرفة الغرض الحقيقي من ذلك الذي طلبوه منه بالسفر إلى مصر... كان خائفًا

متوترًا بالطبع، لكنه بالرغم من خوفه هذا الذي يتزايد كلما اقترب موعد السفر، وتوتره ذلك الذي كان يمزق أعصابه تمزيقًا.. كان يعلم علم اليقين أنه سوف يسافر ما داموا قد طلبوا منه السفر حتى ولو أدى ذلك إلى ما لا تحمد عقباه.. ولقد انتابه إحساس غامر بأنه مسوق إلى قدر لا فكاك منه، فهو لا يستطيع أن يرفض أو يتمرد، وعندما أمعن النظر في موقفه، تأكد أنه قد أصبح مقيدًا إلى عجلة جهنمية كانت تدور به ماضية إلى حيث لا يدري.. ولقد أجهد نفسه في التفكير، فلم يجد سببًا لسفره سوى «سامية فهمي» فماذا يريدون منه أن يفعل بها أو معها؟!

كان نبيل يعرف أن الرجل كاذب في أنهم يريدون له أجازة لزيارة الأهل والأحباب، وأنه يناور كي يصل به عبر الحوار - وكما هي عادته - إلى الهدف من وراء سفره.. فمنذ البداية، البداية التي تبدو له اليوم بعيدة بعد قرون سحيقة، كان يدهشه أشد الدهشة إصرار أبي سليم، بل وإلحاحه، كي يبقى على علاقته بسامية، وألا يقطع خيوط الود معها.. منذ أن التقى به ذات مساء فيما ظنه مصادفة في إحدى حانات هامبورج بألمانيا الغربية - ثم وهو غارق لأذنيه في حب شيرلي هايمان، وحتى بعد وصوله إلى إيطاليا، وبصرف النظر عن علاقته بمارشيلا، ولا شيء يعني هذا الرجل على علاقاته مع الناس في مصر، إلا علاقته بسامية فهمي.. حدث هذا قبل أن يصارحه بالحقيقة، وبعد أن صارحه أيضًا! ولذلك، ولأنه كان متوترًا إلى حد الاختناق، فلقد قرر - لضيق الوقت وحاجته إلى الأمور واضحة جلية - أن يختصر الطريق، وأن يوفر على أبي سليم مناورته، وأن يواجه الأمر مواجهة لا غموض فيها... فقال في محاولة للتخابث:

- تفتكر سامية ممكن تنفعنا في حاجة يا ابو سليم؟!

ابتسم أبو سليم استخفافًا، نظر إلى نبيل نظرة من يقول له: «العب غيرها».. ولكن سرعان ما تبدلت نظرته فكأنه فوجئ بالسؤال، فتساءل بدوره:

- إنت رأيك إيه؟!

- ما اعرفش... إنت اللي تقول.

صمت أبو سليم لثوان وكأنه يفكر في أمر طرأ عليه، ثم قال:

- على العموم ما يضرش إنك تعرف إيه اللي جد في حياتها.

نظر نبيل إليه نظرة مفعمة بالتساؤل فأردف الرجل:

- أنت عارف طبعًا إن الصحفيين بيعرفوا حاجات غير اللي بتتنشر في الجرائد.

همَّ نبيل بالحديث فأضاف الرجل منذرًا:

- من غير ما تسألها بشكل مباشر، ولا تخليها تحس بأنك حتى عاوز تعرف حاجة.

- ما تخافش عليَّ.

نهض أبو سليم سائرًا في الغرفة وهو يهتف معترضًا:

- لا يا حبيبي أنا لازم أخاف عليك.

قال هذا وهو يلتفت نحو نبيل وكأنه يتمعن رد فعل جملته عليه، وعندما اطمأن إلى أن سهمه قد أصاب من الشاب هدفه، أضاف باسمًا:

- خصوصًا إن سامية بتحبك، وعارفاك كويس.

- قلت لك ما تخافش عليَّ ولا تنعاش هم المسألة دي.

- طب إزاي؟!

- لأن سامية حاتقول لي على كل حاجة من غير ما اسألها.

قال نبيل هذا، فساد الصمت وكأن في قوله فصل الخطاب، لكن أبا سليم عاد يتشكك في مقدرة نبيل محذرًا وموحيًا في نفس الوقت:

- لما كنت بتغلط هنا، أو في أي حتة في الدنيا، كنت باقدر أعمل لك حاجة.. إنما في مصر، مش حاقدر أعمل حاجة... مش حايبقى في إيدي إني أعمل حاجة.. خصوصًا إننا دلوقت ما نقدرش نستغنى عنك.

ولقد عزفت الجملة الأخيرة على ذلك الوتر الحساس الذي يشعل الحماس في صدر نبيل، فدافع عن منطقه بحرارة قائلًا:

- لاحظ إن سامية بتحبني وبتخطط من زمان إننا نتجوز؟!

- طب وماله؟!

- إيه...

هكذا صرخ نبيل متسائلًا، كان قد أدرك بعد ثوان من الحوار أن الرجل قد تسلم مقود المناقشة وراح يوجهها كيف يشاء ويوجهه كيف يشاء... لم يرد أبو سليم على صرخته فعاد يهتف:

- يعني أتجوزها يا ابو سليم؟!

- أنا ما قلتش كده.

- أمال قلت إيه؟!

- قلت إن من حقها تفكر في الجواز، لكن إنت من حقك إنك تأجل المسائل لحد ما تبني مستقبلك في بلد غريب.

ساد الصمت بينهما وقد هدأ نبيل مستسلمًا لهذا الرجل الذي كان يملك حلًا لكل مشكلة وتفسيرًا لكل غموض، ساد الصمت بينهما لكن عيونهما راحت تتحاور وكان كل منهما قد استغرق فيما كان يفكر فيه.. ولقد مرت لحظات، ثم، وكأن أبا سليم وجد الحل، فلقد هتف:

- هي عندها عربية؟!

- لأ طبعًا.

- مش يمكن تكون اشترت عربية في الستتين اللي فاتوا؟!

كانت الرسالة التي يريد أبو سليم أن يوصلها إليه، تسفر عن نفسها تدريجيًّا، فتعجل نبيل الأمر وهو يتساءل متقدمًا نحوه:

- أنت بتفكر في إيه يا ابو سليم؟!

- أنا ما بافكرش، هي اللي لازم حاتفكر.

- في إيه؟!

تحول نبيل إلى كرة يتقاذفها الرجل في كل اتجاه.

- أصل مش معقول تبقى أنت بتشتغل في العربيات، وبتساعد كل المصريين اللي بيلجأوا لك، وتيجي لحد حبيبة القلب ولا تساعدهاش.

- سامية مش حاتطلب ده.

- يبقى إنت تفتح لها الباب، وتخليها تطلب.

- سامية ما يهمهاش إن يبقى عندها عربية.

- مين اللي قال؟!

جاءه السؤال هذه المرة حاسمًا قاطعًا فلزم الصمت.

وعلى كلٍّ... فلقد كان في هذا الكفاية حتى يفهم نبيل كل شيء، ولم يعد هناك ما يمكن أن يقال، أدرك في لحظة أن تخمينه قد أصاب، فالغرض الرئيسي من سفره إلى مصر قد اتضح بما لا يقبل شكًا أو تأويلًا.. ولقد قال نبيل فيما بعد، إنه أحس بقلبه ينتفض، كان الذي يريدونه منه هو آخر ما كان يمكن أن يفكر فيه.. فأطرق دون جواب ولزم الصمت، حتى إذا تظاهر أبو سليم بأنه يستعد للانصراف، قال:

- حد يعرف إنك مسافر؟!

- مفيش غير سنيور إسكالكو ومارشيلا.

- قلت لهم إنت مسافر فين؟!

ضحك نبيل قائلًا:

- مش أنا اللي قلت، إسكالكو هو اللي قال لي إن فيه صفقة عربيات في روما، وطلب مني أروح أعاينها، ولو كانت كويسة ممكن اتفق عليها.

- وبعدين؟!

- ولا قبلين... صرف لي بدل سفر لمدة عشرة أيام، وقال لي إن الصفقة مهمة جدًّا ولازم آخذ وقتي في الدراسة ولا استعجلشي، وإن لي نسبة محترمة لو الصفقة تمت بسعر كويس.

- وأنت قلت له إيه؟!

هتف نبيل ضيقًا بالأمر وقال:

- ما قلتش حاجة، إنما فهمت.

- فهمت إيه؟!

كانت أسئلة الرجل الآن صارمة، وكان وكأنه أستاذ وضع تلميذه في امتحان عسير، أرتج على نبيل ووقع في الحيرة لكنه غمغم:

- فهمت إنه عارف إني مسافر وإن...

قاطعه الرجل في حزم:

- تبقى ما فهمتش حاجة.

- إزاي؟!

- لأن فيه بالفعل صفقة عربيات في روما.

أدرك نبيل على الفور ما كان يقصد إليه الرجل فهاله ذكاؤه ووقف واجمًا، وعاد الرجل إلى الحديث:

- وبالفعل، السنيور إسكالكو حاطط أمل كبير على الصفقة دي.

- طب وبعدين يا ابو سليم؟!

نظر إليه أبو سليم نظرة استفسار، فتقدم منه نبيل موضحًا سؤاله:

- لما أرجع حاقول له إيه عن العربيات دي؟!

- لما ترجع حاتلقى الدراسة جاهزة وكل شيء تمام... ومش حايبقى فاضل، غير إنك تعاين العربيات في كام ساعة، وترجع نابولي وفي إيدك العقد.

قال أبو سليم هذا وهو ينهض كي ينصرف وكأن هذا هو آخر ما أراده من نبيل، كان الآن موقنًا أشد ما يكون اليقين أن نبيل قد ارتبط به ارتباطًا لا ينفصم، اقترب منه في حنان وهو يربت على كتفه متسائلًا:

- معاك فلوس كفاية؟!

- معايا.

في صوت مفعم بالتأثر قال:

- ما تتأخرش عن أسبوعين يا نبيل، لاحظ إننا محتاجين لك هنا جدًا.

وكانت تلك معزوفة أخرى على ذلك الوتر الذي يمس شغاف قلب نبيل بشدة، فامتلأت نفسه بالرضا والحماس.

* * *

قال لي عادل مكي إنه كان في انتظار نبيل سالم في مطار القاهرة الدولي في ذلك اليوم من أيام الشتاء المبكر لعام ١٩٦٨، وإنه رآه بعينه وهو يهبط من الطائرة وينفذ من الجوازات والجمارك دون أن يستطيع معه أو له شيئًا.. قال لي إنه كان موقنًا في ذلك الوقت يقينًا مطلقًا، أن نبيل خائن، وأنه يعمل لحساب المخابرات الإسرائيلية ضد بلاده.. لكنه بالرغم من ذلك، لم يكن يملك دليلًا واحدًا يدينه.. وحتى ذلك اليوم، لم يكن نبيل يقوم بعمل غير

مشروع، كان يعمل سمسارًا للسيارات، وكان أبو سليم يظهر في الصورة كسمسار للسيارات، فإذا ما كان معه أحد، قدمه إليه، ثم انصرف دون أن يعلم عنه شيئًا.. كان حرص نبيل الشديد وتخطيط أبي سليم قد جعلا المهمة شبه مستحيلة.

وعندما سألته باسمًا: ألم يكن يستطيع القبض عليه دون حاجة إلى دليل؟! أطلت من عينيه نظرة عتاب صارخ وكأنه يقول: «حتى إنت؟!»... لكنه بدا وكأنه يبتلع عتابه وضيقه بالأمر كله، ثم زفر زفرة حارة وهو يعتدل في جلسته مواجهًا إياي:

- فيه فرق بين الاعتقال وبين القبض على مواطن على ذمة قضية.

كان جوابه مباشرًا، كما كان أيضًا جوابًا صارخًا.. ولست أنكر أني أحسست بالخجل لسؤالي ذاك، غير أني بالرغم من هذا كابرت هاتفة في حماس:

- إذا كان إنسان خطر بالشكل ده، ليه ما تعتقلوش؟!

- الاعتقال له أسباب.

- والأسباب كانت جاهزة وموجودة.

- بس مفيش تهم قانونية نقدمه بيها للمحاكمة.

في تلك الأيام.. لم أكن قد فهمت الكثير مما كان لا بد أن يفهم ويعرف.. لم أكن قد فهمت أنه في مثل هذا الحقل من النشاط اللاإنساني، لا يصبح «شخص» نبيل سالم هو الهدف، لكن الهدف كان أبعد وأخطر، وأهم... لم أكن قد فهمت أن الهدف هنا هو «الشبكة» التي كان أبو سليم يديرها في أوربا ببراعة... وإذا كان نبيل قد قاد عادل إلى مركز نشاط أبي سليم الجديد، فإن أبا سليم سوف يقوده إلى غيره من الأعوان والعملاء والرجال وربما إلى فروع أخرى للشبكة، أو شبكات أخرى تعمل في مجالات مختلفة.. لم يكن نبيل إذن سوى فرد واحد في هذه المنظمة

الشيطانية.. وكان القبض عليه أو اعتقاله، محكومًا بظروف وحسابات شديدة التعقيد، كما كان القبض عليه في ذلك الوقت بالذات، كفيل بأن يوقف نشاط الشبكة لفترة قد تتغير فيها الوجوه والأساليب فيسود الظلام مرة أخرى ويصبح على عادل مكي أن يبذل نفس الجهد من جديد.. ويبدو أن سؤالي قد أثار كوامن عديدة في صدر الرجل، فلقد عاد إلى الحديث مرة أخرى:

- وافرض إننا اعتقلناه، حاتعتقله قد إيه؟!

حاولت الاعتذار لكنه أردف:

- ثم إن المفروض إنك لما تقبض على مواطن بأي تهمة، إنك تقدمه للقضاء.

لزمت الصمت تمامًا ورحت أستمع:

- تهمة التجسس لحساب دولة معادية تهمة مش سهلة، ومش صغيرة وعار من الصعب إننا نمحيه مهما عملنا.. وأضرارها - على المستوى الاجتماعي - مش حاتصيب الشخص لوحده، لكن ممكن - ويمكن بالتأكيد حاتصيب ناس مالهمش أي ذنب.

أشعل عادل سيجارة نفث دخانها في عنف وهو يستطرد:

- فيه هناك أبوه، وأمه، وإخواته، وأصحابه، وجيرانه، وزمايله، وقرايبه... و... وفي حالة نبيل سالم، عندك فكره أبوه، الراجل الطيب المسالم الوطني ده لما عرف إن ابنه بيتخابر مع دولة أجنبية للإضرار بمصالح الوطن، جرى له إيه؟!

كان صوته الآن مفعمًا بالانفعال، دق فوق المائدة التي تتوسطنا بإصبعه وهو يقول:

- علشان كده لازم يبقى فيه دليل، ودليل قاطع ودامغ وما يقبلش المناقشة.. وأهمية الدليل ده، مش في إقناع القاضي بس، بل أهميته أن أي

متهم يواجه باللي عمله في لحظة هو مش منتظرها، بيعترف على طول... لأنه بيحس إنه كان عايش في أكذوبة.

كانت مرارة الحديث قد بلغت ذروتها عندما قال عادل:

- يا إما كده، يا إما حياة الناس تبقى مباحة.

ثم... وكأنه يختم حديثه أردف:

- وفي حالة نبيل سالم، كنا حانقدمه للقضاء بتهمة إيه ومفيش دليل واحد يدينه.

* * *

عندما خطا إلى مبنى المطار لم يتلفت حوله ولم يأت تصرفًا واحدًا ينبئ عن ذلك القلق الذي كان ينخر عظامه.. بدا نبيل سالم في تلك الليلة وهو يخطو إلى مبنى المطار خطوات طبيعية ثابتة، مدربًا تمامًا.. واعيًا لما يجب عليه أن يفعل وألا يفعل... غير أنه، على الوجه الآخر، بدا له كل شيء في المطار طبيعيًّا إلى أقصى درجة... فازدادت ثقته في نفسه، واندفع ينهي إجراءات خروجه.

وهكذا... ومنذ اللحظات الأولى لوصول نبيل سالم إلى مطار القاهرة الدولي، والذي كان يسوده في تلك الأيام، كما يسود القاهرة، الظلام نسبيًا.. أحس هذا الشاب أن أبا سليم - مرة أخرى - كان على حق في كل ما قال... بل إن نظرته الأولى إلى المدينة التي تركها مشتعلة بالأضواء متفجرة بالحيوية والنشاط، أصابته بما يشبه الانقباض... كان آتيًا من بلاد تشتعل مدنها بالحياة والحركة ليل نهار، كما كان قد غادر القاهرة وهي في ذروة تألقها وانبعاث الحياة فيها ومنها.. وهو، عندما سمع ما سمع عن الحرب والهزيمة، لم يتصور، ولم يخطر بباله أنه سوف يرى ما رآه أمام عينيه منذ لحظة هبوطه من الطائرة... غير أنه، ومع مرور الوقت، تحول

انقباضه هذا إلى ما يشبه الاستخفاف... كانت الطائرة قد وصلت قبل منتصف الليل بقليل.

* * *

في تلك الليلة نفسها، وما كادت طائرة نبيل تقلع من مطار روما، حتى بثت برقية عاجلة إلى القاهرة.. وفي حقيقة الأمر - هكذا اعترف لي عادل مكي - فإن أبا سليم كان موفقًا إلى حد كبير في إخفاء سفر نبيل.. لا لشكه في أن نبيل كان مراقبًا، بل زيادة في الحيطة لا أكثر ولا أقل.

ذلك أن نبيل سالم لم يغادر نابولي طوال اليومين اللذين سبقا سفره إلى مصر.. بل إنه راح يمارس حياته، سواء بالنسبة للجراج، أو مع مارشيلا، أو في سعيه في أماكن تجمع المصريين، بشكل طبيعي تمامًا ولا يوحي بأي شيء.. لم يغادر نبيل نابولي إلا قبيل إقلاع الطائرة بساعات قليلة، حيث ركب القطار المتجه إلى روما - وكان هذا أمرًا طبيعيًّا للغاية ولا يلفت النظر، فلقد تعود نبيل بين الحين والآخر، حسب توجيهات أبي سليم، أن يسافر إلى روما لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، وفي العطلة كان يتعرف على معالم المدينة، كما كان يتعرف على أماكن تجمعات المصريين أو العرب... كان سفره إلى روما إذًا مسألة لا تلفت النظر، لكنه هذه المرة، عندما وصل إلى محطة سكة حديد روما بكل اتساعها وضوضائها وزحامها، لم يستقل سيارة أجرة إلى حيث البنسيون الذي تعود النزول فيه، بل استقل السيارة من المحطة، إلى المطار مباشرة.

ولم يكن هذا هو الخطأ الذي وقع فيه أبو سليم - وبالتالي نبيل سالم - ذلك الذي نبه عادل مكي - وهو في القاهرة - إلى أن نبيل سالم في الطريق إلى مصر.

كان كل شيء مدبرًا ومحكمًا ولا يلفت النظر، لولا أن الرجال - في نابولي - لاحظوا، خلال اليومين اللذين سبقا السفر أن نبيل راح يشتري مجموعة من الهدايا الغريبة، كان مثلًا - يشتري ملابس تليق برجل في

الخامسة والخمسين وسيدة في الخمسين... ولقد لوحظ أنه كان حريصًا على شراء تلك الأشياء بسرعة وعجلة شأن ما كان يقوم بواجب ثقيل... ولعب الفأر في عب الرجال الذين كانوا يعرفون كل علاقاته، بل كل شيء عنه... حتى إذا غادر بيته حاملًا حقيبة ملابس أكبر قليلًا من تلك التي كان يحملها عادة في زياراته لروما.. تكاثرت علامات الاستفهام، وما أن تحرك القطار من محطة نابولي، حتى أجريت مكالمة سريعة، من نفس محطة السكة الحديد، إلى مكان ما في روما... ولذلك، فإن نبيل لم يلحظ أن هناك من كان في استقباله في محطة سكة حديد روما، ومن تبعه منها، ولازمه في المطار حتى صعد إلى الطائرة المقلعة إلى القاهرة... وما كادت تلك الطائرة تحلق في الجو، حتى بثت تلك البرقية التي وصلت إلى عادل مكي قبل وصول الطائرة بساعة واحدة... وكان عادل في ذلك الوقت يستعد لدخول فراشه عندما دق جرس التليفون في بيته، رفع السماعة ووضعها فوق أذنه، استمع إلى محدثه في انتباه، ولم تطل المكالمة لأكثر من خمس عشرة ثانية، بدل بعدها ملابسه، وغادر البيت إلى المطار مباشرة.

وهناك، كان رجاله قد سبقوه، وكانوا جميعًا، في استقبال نبيل سالم.

* * *

عندما قدم نبيل جواز سفره إلى ضابط الجوازات، قلب هذا في الصفحات قليلًا، ثم وضع خاتم الوصول فوق إحدى صفحات الجواز، ثم أعاده إلى نبيل في تكاسل وهو يغمغم:

- الحمد لله على السلامة يا سيد نبيل.

وكان تفتيش الحقيبة في الجمارك روتينيًا، قلب رجل الجمارك محتويات الحقيبة وهو يتثاءب، ثم لوح بذراعه لنبيل طالبًا منه الانصراف إلى حال سبيله.

خرج هذا إلى ساحة المطار فإذا الظلام يسود الدنيا، تكالب عليه ثلاثة من سائقي سيارات الأجرة، فاختار أحدهم وألقى بنفسه في السيارة وهو يتنفس الصعداء... عندما غادر السيارة أمام باب البيت، تلفت حوله، وكان الشارع خاليًا تمامًا من المارة، والمحلات قد أغلقت أبوابها... رفع رأسه إلى أعلى نحو نوافذ البيت... وكان كل شيء غارقًا في الظلام.

في التفاتة طبيعية، تبدو وكأنها غير مقصودة بالمرة، ألقى نبيل ببصره إلى حيث ناصية الشارع وما وراءها... ولم يلحظ شيئًا غريبًا، بل كان كل شيء هاجعًا في سكون الليل، وكأن أحدًا لا يشعر به.

* * *

حتى مطلع النهار لم ينم نبيل... كانت فرحة والديه به لا توصف، كما كانت المفاجأة وراء كل تصورهما... أغرقه ترحابهما وحنانهما في بحر من الدهشة، وكأن تلك الخلافات والتوترات التي كانت سمة العلاقة بينه وبين أبيه لم تكن... بل المذهل في الأمر، أن الرجل بدا سعيدًا بعودة ولده سعادة لا توصف، وفقد سيطرته على نفسه إلى الحد الذي دفعه لأن يعد لولده كوب شاي بيديه تعبيرًا عن فرحته.. وعندما فتح نبيل حقيبته كي يقدم لكل منهما هداياه، كان هو أول من اكتشف أنه بالغ إلى حد كبير، ليس في انتقاء الهدايا فقط، بل في كميتها وتنوعها... وعندما قدم لوالده تلك البذلة الفاخرة التي اشتراها له، قال الرجل بصوت مرتجف:

- بدلة إيه يا بني... رجوعك بالسلامة هو هديتك ليَّ.

هتف نبيل:

- رجوعي إيه يا بابا... دانا جاي في أجازة.

قال نبيل سالم فيما بعد، إنه لن ينسى حتى آخر لحظة من عمره، ذلك التعبير الصارخ بخيبة الأمل الذي اجتاح ملامح أبيه اجتياحًا، بدا الرجل مغلوبًا على أمره وهو يردد:

- أجازة، حاتسافر تاني يا نبيل؟!

لم يكن نبيل قد تعود من أبيه مثل هذا الحب وهذا الحنان أو الاهتمام، فراح يستحلب طعم النجاح والانتصار في نشوة عارمة، وأخذ يرقب انبهار أبيه وأمه بما جلبه لهما من هدايا، بينما كانت أمه تغمر وجهه بالقبلات بين الحين والحين ودموعها لا تكف.. جلس بينهما وراح يقص عليهما قصة «كفاحه» في ألمانيا ثم في إيطاليا، وكانا يستمعان إليه بكل جوارحهما وقد شُدت إليه عيونهما شدا... ذات لحظة سأل نبيل أباه متحسسًا طريقه:

- وانتو أخباركم هنا إيه يا بابا؟!

- قاعدين مستنيينك.

هوت الجملة فوق رأسه كمطرقة، حاول الخروج من المأزق الذي أوقعه فيه أبوه، فصاح مستطردًا:

- أنا مش قصدي أنتم، أنا قصدي البلد.

- طبعًا سمعت اللي حصل؟!

- أنا مش سمعته بس، أنا شفته في التلفزيون.

نهض الأب لبعض شأنه وكأنه لا يريد الخوض في الموضوع وهو يرد:

- ربنا يلطف بينا.. ربنا يلطف بينا.

ولم يخض نبيل في الحديث لأبعد من هذا، كانت هذه تعليمات أبي سليم، أن يظل على شاطئ المناقشة مهما كان الأمر حتى لا يلفت النظر إلى شيء... وما هي إلا ساعة وبعض الساعة حتى نهض إلى فراشه الذي أعدته له أمه على عجل، قال: إنه متعب من الرحلة، وفي حاجة إلى الراحة.

* * *

في الصباح، كانت الساعة تشير إلى الثامنة عندما دخلت عليه أمه بكوب الشاي والتليفون معًا... كان قد طلب منها أن توقظه مبكرًا حتى يستطيع الاتصال بسامية قبل ذهابها إلى المجلة، وضعت كوب الشاي إلى جواره ثم انسحبت في اللحظة نفسها التي رفع فيها سماعة التليفون يدير القرص، في لحظة.. أحس بالشوق يجتاحه اجتياحًا إلى الماضي، ما أن انتهى من إدارة الرقم حتى جاءه صوت الجرس من الطرف الآخر، ثم انقطع الرنين كي يأتيه صوتها عبر الأسلاك صاحيًا نشطًا كعادتها:

- آلو...

- صباح الخير.

- صباح الخير يا فندم... مين؟!

- نسيتي صوتي؟!

مرت ثوانٍ قبل أن تخترق أذنه صرختها وهي تحمل فرح الدنيا بأسرها:

- مين؟! نبيل؟!

- إزيك يا سامية؟!

- بتتكلم منين؟!

- من البيت.

اختنق صوتها لهفة وحبًا:

- جيت إمتى؟!

- إمبارح بالليل.

- وقاعد عندك تعمل إيه؟! يلّا تعال.. تعال يا نبيل إنت وحشتني قوي.

* * *

أحس نبيل وهو يعيد السماعة إلى مكانها أن قلبه يكاد يقفز من حلقه مغادرًا صدره إلى حيث سامية فتساءل في دهشة إن كان لا يزال يحبها.. أصابه الاضطراب حتى عافت نفسه كوب الشاي فنهض من فراشه كي يستعد للقائها... و... ولقد كان اللقاء غريبًا، كان بعيدًا كل البعد عن أحلام سامية وعما تصوره هو... عندما وصلت سيارة الأجرة التي كان يستقلها إلى ناصية الشارع، وجدها تقف هناك في انتظاره وهي تتقافز في وقفتها وكأنها تتعجل الدقائق والثواني، هبط من السيارة فاندفعت نحوه وكادت ترتمي بين ذراعيه لولا جهد عظيم بذلته كي تحفظ لنفسها توازنها فراحا يتصافحان في حرارة وكأن يدها قد التصقت بيده لا تبغي لها فراقًا.. وعندما تذكرت سامية تلك اللحظات بعد شهور طويلة، أدركت حقيقة هامة... أدركت أن الفرح الشديد، أو الحزن البالغ، من الممكن أن يلهيا الإنسان عن حقائق لا يجب أن يغفلها أو يلتهي عنها... فمنذ اللحظة الأولى - هكذا قالت سامية فهمي - أدركت بشكل غامض أن نبيل هذا الذي تصافحه ليس هو نبيل الذي عرفته وأحبته وانتظرته وتعذبت من أجله كثيرًا... غير أنها في محاولة للدفاع عن حبها، أدركت في لحظة أخرى أن عامين كاملين قد انقضيا منذ أن التقت به آخر مرة.. ولا بد أن التجربة والمحن والسفر والغربة قد علمته الكثير، وغيرت من طباعه الكثير... ولقد كانت موقنة يقينًا كاملًا أن الجوهر الذي اكتشفته فيه ذات مرة وارتبطت به، لا زال بالقطع موجودًا وقائمًا... جرفها الحماس والأمل وهي تدلف إلى السيارة من جديد، ولقد هتفت بالسائق طالبة منه التوجه إلى هذا الكازينو المتواضع على شاطئ النيل، والذي شهد الأيام الأولى لحبهما، والذي تعودا اللقاء فيه كلما أرادا أن يلتقيا بعيدًا عن الناس، ما كادت تنطق باسم الكازينو حتى هتف نبيل:

- كازينو الجوهرة إيه يا سامية... إطلع يا اسطى على سميراميس.

والتفتت نحوه سامية وراحت تحملق فيه، ازداد إحساسها الغريب بأن نبيل هذا الذي يجلس إلى جوارها بعد غيبة دامت عامين، ليس هو نبيل الذي غادرها كي يبني مستقبله.

لكنها لم تكن تعلم، أن هذا الذي لفت نظرها، وآلمها، لم يكن سوى بداية سوف تجر وراءها ما لم يخطر على بال.

الفصل الحادي والعشرون

المصيدة

عندما كنت جالسًا ذات مرة مع سامية فهمي، لم أملك إلا أن أوجه لها سؤالًا بدت لي إجابته محيرة أشد ما تكون الحيرة.. فإذا كانت سامية - وهذا قولها بالحرف - قد أحست منذ لحظة لقائها الأول بنبيل سالم بعد عودته من الخارج، أن هذا الذي تصافحه، غير ذاك الذي غادرها منذ عامين مهاجرًا إلى الخارج، فلماذا استمرت في علاقتها به، ولماذا تركت لنفسها العنان كي تقص وتحكي وتقول له ما يجب وما لا يجب.. وعندما همّت بالرد عليّ، وجدتني - بدافع من تلك الصداقة الحميمة التي ربطتني بها - أتساءل بصوت عال: هل الحب شيء مجرد، هل هو عاطفة خالصة تجاه إنسان ما.. أم إن هذا الإنسان ليس سوى مجموعة من القيم والأفكار والطباع والأهداف والأحلام التي إذا ما اشتركت مع قيمنا وأفكارنا وطباعنا وأحلامنا وأهدافنا، كونت تلك العاطفة أو ذلك الرباط الذي نطلق عليه اسم: «الحب»، حتى إذا ما اختلفت تلك القيم في بعضها أو كلها، سقطت تلك العاطفة، أو على الأقل، تقلصت بتقلص العناصر المكونة لها؟!

كنت أعرف أني أقسو على سامية بمثل هذا السؤال، ولقد أدركت مدى قسوتي عندما لمحت الدمع يتصاعد إلى عينيها وهي تستمع إليّ

في صبر، حتى إذا ما فرغتُ، سألتني: «خلصت كلامك؟!»، قلت: أيوه.. وعاوز أعرف الرد بوضوح.

قالت سامية إنها بالفعل أحست أن نبيل سالم تغير حقًّا، ومنذ اللقاء الأول، لكنها أبدًا لم تظن ولم يخطر ببالها، ولم يكن ممكنًا أن يخطر ببالها أن تغيره هذا جاء نتيجة لشيء آخر غير تجربته المُرة التي مر بها، والتي كان يحكي لها عنها يومًا بعد يوم، وطوال أسبوعين عاشهما في القاهرة.

وإذا كان تأففه - عندما طلبت من سائق التاكسي التوجه إلى هذا الكازينو المتواضع والذي شهد بدايات حبهما - قد لفت نظرها، فلقد كان السبب في النهاية سببًا عاطفيًا خالصًا.. فبصرف النظر عن تلك الساعات التي قضياها معًا في هذا الكازينو، فلطالما ذهبت أثناء سفره إلى هذا الكازينو وحدها، ولطالما جلست بالساعات وهي تحملق في مياه النيل سابحة مع أحلامها وذكرياتها وحبها في انتظار هذه اللحظة التي سوف تلتقي فيها به... ولقد بدا نبيل وكأن الأمر لا يعنيه في كثير أو قليل، بدا وكأنه نسي كل شيء أو ترفّع على كل شيء فثارت في صدرها عواطف الشك - لم تذكر سامية أبدًا كلمة الغيرة في حديثها هذا!! - في أن يكون قد ارتبط بفتاة أوربية، عواطف شك عاطفي كانت، ولم تكن عواطف شك في أي شيء آخر... يومها ضحكت متباسطة وكانت تشعر بالخذلان وهي تهتف به:

- إنت بقيت برجوازي يا فتى؟!

قال وهو يبادلها الابتسام:

- إذا كان معانا فلوس، ليه نحرم نفسنا من قعدة حلوة؟!

هكذا أنبأها بنجاحه في كلمات موحية فاطمأنت إلى هذا التفسير واستردت على الفور فرصتها، أو تشبثت بها... وعندما وصلا إلى ذلك

الفندق الذي كان ملتقى الصفوة من المثقفين والفنانين لعقد كامل من الزمان، اختارا - رغم برودة الجو - أن يجلسا في الشرفة المطلة على النهر.

هناك جلس كل منهما قبالة الآخر وراحا يتبادلان الحب والأشواق، وتناثرت الكلمات فيما بينهما تقول أو لا تقول أشياء اختُزِنَتْ في الصدر لعامين كاملين.. ذات لحظة نظرت سامية فيها إلى ساعة يدها، فقال نبيل إنه لا يريد أن يعطلها عن عملها ففي الوقت متسع، وقتها صاحت فيه ضاحكة والدهشة تملؤها:

- اتعلمت الذوق ده فين أيها التعس؟!

ضحك وهو يومئ نحو ساعة يدها قائلًا:

- مش يمكن عندك ميعاد؟!

- لا.. ده مش ميعاد... دي المحاضرة بتاعة الدكتور إبراهيم اللي زمانها بدأت.

- محاضرة إيه دي؟!

- على العموم ما يهمكش... أنا أصلي اعتذرت بالتليفون قبل ما انزل من البيت.

- اعتذرتي عن إيه يا سامية؟

- عن المعهد.

بدت على نبيل الحيرة والدهشة معًا، فهي لم تكتب له عن المعهد أو دراسة أو محاضرات... فردد وراءها:

- معهد إيه ده؟!

- المعهد العالي للدراسات الاشتراكية.

هتف ضاحكًا وقد استبدت به الحيرة:

- أنا مش فاهم حاجة، إنتِ رجعتي تلميذة تاني؟!

وهكذا كان لا بد لسامية من أن تشرح له وظيفة هذا المعهد، وقالت - وكان الحماس يملؤها: إن هناك تطورًا كبيرًا في الحياة السياسية المصرية، وإن بيان ٣٠ مارس - إن كان قد سمع عنه - قد أرسى دعائم هذا التطور.. وهي في المعهد مع زميلات وزملاء آخرين، يقومون بمناقشة كل ما يجري في مصر، وإن لقاءات هامة ومناقشات على أكبر قدر من الأهمية، تتم بين القيادات السياسية وبين الناس، وهي لقاءات ومناقشات تطرح كل المشاكل، مهما كانت درجة خطورتها، بوضوح... وكان طبيعيًّا أن يسأل نبيل:

- قيادات سياسية زي مين يا سامية؟!

وكانت المفاجأة التي واجهها نبيل، هي أن سامية طرحت عليه أسماء لامعة لنواب رئيس جمهورية، ونواب لرئيس الوزراء، ومفكرين، وأساتذة جامعة، وعلماء، وصحفيين، وأدباء... و... ومرة أخرى قاطعها نبيل مداعبًا:

- خلاصة القول إنك عاوزة تفهميني إنك بتشوفي الناس دول كلهم؟!

- طبعًا... دي حاجة عادية خالص.

- أفهم من كده إنك بقيتي مهمة؟!

في مرارة وصدق هتفت:

- مش مسألة أهمية يا نبيل... أي إنسان في مصر النهارده، من خلال العمل السياسي، يقدر يقابل أي شخصية وأي اسم مهما كان مركزه.

هَمّ نبيل بالحديث فأردفت وقد جرفها الحماس:

- مش بس يقابله... لا... ده ممكن يقابله ويناقشه ويختلف معاه ويعلن اختلافه ده كمان!

- إنت مصدقة الكلام ده يا سامية؟!

- أيوه.

هكذا أجابته في استقامة، فعاد يسألها:

- طيب إحنا اتغلبنا ليه؟!

وهكذا اندفعت سامية في الحديث بلا روية، اندفعت تشرح وتحكي وتحلل وتعدد الأخطاء أيضًا.. وهكذا، ومنذ اللقاء الأول، قدمت لنبيل سالم أهم ما جاء إلى مصر من أجله دون أدنى قدر من المجهود اللهم إلا بعض الأسئلة التي كانت تثير حماسها وحميتها وتدفعها إلى الإسهاب في الحديث.. ولقد قالت لي سامية فهمي، إن الظاهرة الغريبة في الأمر كله، أن نبيل كان يبدو وكأن كل هذا الذي كانت تحكيه وتقوله لا يعنيه... فهو - مثلًا - لم يسمح للحوار بينهما في أي موضوع أن يستمر حتى نهايته، بل إنها في بعض الأحيان كانت تشعر بأنه عازف عن الحوار والخوض في تلك الموضوعات الخطيرة.. مما دفعها إلى الإحساس بأن من واجبها أن تستعيده مرة أخرى مهما قالت ومهما باحت.

ولقد قص عليها نبيل سالم ما رآه وسمعه وعاشه في أوربا بعد نكسة يونيو ١٩٦٧... وكيف عاش في ألمانيا أيامًا سوداء، وكيف ظل لأيام طويلة لا يبرح غرفته الصغيرة وهو يرتجف من البرد والألم والجوع أحيانًا، لأنه كان يخشى أن يلتقي بمن يسخرون منه ومن مصر وهزيمتها التي دوت في جميع أنحاء العالم... حكى لها عن تلك الصور التي نشرتها الجرائد والمجلات وأذاعها التلفزيون عما حدث في سيناء... ومن ناحيتها، فلقد كانت تعرف - في مصر قبل أوربا - عمق هذا الشرخ الذي صنعته النكسة في نفوس الناس... فراحت تحاول أن تلملم أشلاء حبيبها كي تعيده سويًا كما كان... قالت إنها في بعض الأحيان كانت كمن تهدهده كي تعيد إليه هدوء نفسه وإيمانه بوطنه... ولم يكن هذا هو الذي لفت نظرها على كل حال، فالناس في مصر كانوا يقولون أضعاف ما كان نبيل يقوله، وكانوا

يتألمون أضعاف ما كان يتألم، وهي... قد تعودت هذا في كل مكان كانت تذهب إليه، كانت تسمع البسطاء وهم يسألون، ويلحون في السؤال: «ليه... ليه ده كله حصل؟!»... لم يكن هذا هو الذي لفت نظرها، لكن الذي لفت نظرها هو عزوف نبيل عن كل ما كان يذكره بالماضي... كان يبدو وكأنه يريد أن يخلع جلده.

ذات مرة أرادت أن تدعوه إلى تناول الغداء في حي الحسين، فدعاها إلى تناول العشاء في فندق يقع تحت سفح الهرم... ولقد هتفت به مداعبة:

- ما اشتقتش للكباب والكفتة يا نبيل؟!

- اشتقت للهرم أكتر.

لكنه بدا مشتاقًا لشيء آخر غير الأهرامات، شيء غامض لم تستطع أن تعرفه أو تدركه... ولم يكن ممكنًا أن تغير عقلها كي تدركه وتتعرف على هويته... وكيف تدركه وهي ترى نبيل كل يوم، وفي كل أوقات فراغها موجودًا، وكأنه ما جاء إلى مصر إلا من أجلها... كانت تنتهي من الدراسة في المعهد، فتجده في انتظارها أمام حديقة «الميريلاند» كي تقضي معه بقية يومها، أو حتى دقائق إذا ما كان لديها عمل تؤديه، فكيف يمكن أن تشك؟!

في أول إجازة أسبوعية لها - وكانت يوم جمعة بطبيعة الحال - سافرا إلى الإسكندرية في الصباح، اشترط عليها قبل السفر ألا يتناقشا، وأن يعيشا يومهما دون خلاف... وكان هذا من أسباب سعادتها البالغة، وقضت معه يومًا رائعًا أكلا فيه سمكًا حتى الامتلاء... لكنها سألته وهما عائدان في القطار:

- ما فكرتش تقعد في مصر يا نبيل؟!

- ما فكرتيش إنتِ تيجي إيطاليا؟!

ضحكت من أعماقها ومالت عليه هامسة:

- أروح إيطاليا أهبب إيه؟!

- تشتري عربية.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يأتي فيها ذكر شراء سيارة من إيطاليا... وكانت هذه هي الخطوة الأولى نحو تحقيق الهدف الثاني الذي من أجله جاء نبيل إلى القاهرة... وبالرغم من غرابة العرض بالنسبة لسامية، فإنها هتفت في سعادة لم تحاول أن تخفيها:

- عربية؟! عربية منين يا سيد؟!

- ما لكيش دعوة... تعالي إيطاليا وأنا أدبر لك المسألة.

برزت مخالبها وهتفت به منذرة:

- يعني إيه؟!

- يعني لمي لك قرشين كويسين وأنا أقدر أتصرف لك في عربية كويسة.

قالت له سامية إن فكرة شراء سيارة كانت قد راودتها بالفعل من قبل، خاصة بعد أن تشعبت علاقاتها ومسئولياتها وتعددت الأماكن التي كانت تذهب إليها، مما جعل استعمالها للمواصلات أمرًا شاقًا، كما جعل استعمالها لسيارات الأجرة، أمرًا مرهقًا لميزانيتها المحدودة! ولكن حال دون تحقيق تلك الرغبة التي - أبدًا - لم تصل في يوم من الأيام إلى حد الحلم ضيق ذات اليد، فمن أين لها أن تجمع بضع مئات من الجنيهات قد تصل إلى خمسمائة جنيه بالتمام والكمال، كي تشتري بها سيارة؟!

قالت سامية فهمي إنها لم تكن تدري، ولم يكن ممكنًا أن تدري أو حتى تعقل، أن نبيل بما عرضه عليها، كان ينفذ جزءًا من خطة رسمت لاستدراجها إلى الخارج... ثم حتى وهو يغريها بشراء سيارة «برخص التراب»، كان كل ما ظنته أنه يريد أن يشتري لها السيارة من جيبه الخاص... ولذلك، وبالرغم من أنه أوضح موقفه من الأمر، فإنها أرادت أن تضع أمام

عينيه النقاط فوق الحروف، ربما - هكذا أكدت لي سامية - لأنها أرادته أن يفهم، أن أمواله مهما كثرت لا تعنيها في شيء... قالت له:

- نبيل... إنت يظهر نسيت طباعي.

- ليه؟!

- أنا لو اشتريت عربية فعلًا، حاشتريها بفلوسي مش بفلوسك.

ولقد قال نبيل سالم فيما بعد إنه في تلك اللحظة بالذات، أدرك أن أبا سليم كان على حق، وأن فكرة شراء سيارة لم تكن بعيدة عن ذهن سامية كما تصور هو، بل إنه لاحظ أن الفكرة راقتها بالفعل، فراح يضغط عليها مرحًا:

- وهو أنا قلت كلام تاني؟!

- تقدر تقول لي بقى، اللي زيي ممكن تشتري عربية منين؟!

وهكذا راح يشرح لها أن ثمة سيارات تقع تحت يده في أوقات يكون أصحابها في حاجة ماسة إلى المال، فيستطيع أن يشتري أية سيارة محترمة بأبخس الأثمان... ولقد أعطاها مثلًا بهؤلاء المقامرين الذين أدمنوا داء الميسر إلى الحد الذي يدفعهم، عندما يكسبون مالًا، إلى شراء أفخم السيارات والملابس، وإلى الحد الذي يدفعهم، إذا ما خسروا أموالهم، إلى بيع، لا سياراتهم فقط، بل وملابسهم أيضًا.

قال لها نبيل: إن مائتين من الجنيهات، أو ثلاثة، تكفي لشراء سيارة تغنيها عن ركوب المواصلات، أو استنزاف مرتبها في سيارة الأجرة.

- طيب وأجيب المتين جنيه دول منين؟!

- خدي سلفة من المجلة.

قبل أن ترد ساخرة بأن سلفة المجلة لا يمكن أن تزيد على مرتب شهرين أي ما يوازي مائة جنيه فقط، أردف بأسلوب الخبير:

- وماما ممكن تسلفك الباقي.

ولقد حدث هذا بالفعل... فاتحت سامية أمها في الأمر، وكان هذا في نفس الليلة التي تحدثا فيها حول الموضوع.

❋ ❋ ❋

عندما علمت السيدة إقبال حسين من ابنتها أن نبيل سالم قد وصل في إجازة إلى القاهرة، بدا عليها الامتعاض ولم تعلق على الأمر... حاولت سامية أن تحكي لها بعضًا مما قصه عليها نبيل، فاستمعت دون أن تتفوه بكلمة... أحست سامية أن أمها لا تزال عند موقفها من نبيل فلم تشأ أن تخوض معركة، كانت ترى أن أوانها لم يحن بعد... غير أنها عندما تحدثت إليها في أمر السيارة بعد ذلك، لم تجد لديها معارضة للفكرة - فكرة شراء سيارة - في حد ذاتها لكنها نظرت إليها بجانب عينها متسائلة:

- هو نبيل اللي حيشتريها لك؟!

- لو حضرتك وافقتي يا ماما.

لم تجب السيدة إقبال بالإيجاب أو السلب، وجدتها سامية فرصة قد تصلح للحديث عن نبيل، فهتفت وهي تميل نحو أمها:

- نبيل اتغير خالص يا ماما... إنتِ لو شفتيه دلوقت حا...

- أنا مش عاوزه أشوف حد.

هكذا قاطعتها السيدة إقبال حسين حاسمة الأمر، قالت ما قالت وهي تنهض منصرفة إلى غرفتها، لكنها قبل أن تصل إلى الباب، توقفت ملتفتة نحو ابنتها قائلة:

- إنت ما بقتيش صغيرة يا سامية، وأنا مهما اختلفت معاكي.. إلا إني واثقة إنكَ تقدري تتحملي مسئولية نفسك وتصرفاتك وتختاري الطريق اللي انتي شايفة إنه صح.

واختفت حضرة الناظرة في غرفتها تاركة سامية وحدها تتمزق فيما بين عواطفها التي أججها وجود نبيل بالقاهرة، واقتناعها بأن خبرة أمها وتجربتها لهما وزنهما في تقديرها للأمور... غير أنها أحست، بشكل واضح، أنها - منذ تلك اللحظة - سوف تتحمل وحدها مسئولية علاقتها بنبيل سالم، وأن أحدًا لن يُسأل في المستقبل عن هذه العلاقة سواها.

* * *

راحت الأيام تتطاير يومًا بعد يوم وموعد رحيل نبيل يأزف... كانت الأيام تؤكد لسامية أن ثمة شيئًا هائلًا قد تغير في نبيل بالفعل، شيئًا لا تستطيع أن تمسكه بيديها ولا أن تحدده بعقلها، كان - بالنسبة لعواطفها - هو هو نبيل الذي أحبته، ولكن عقلها كان يقول شيئًا آخر... ولقد فاض بها الأمر ذات ليلة كانا يجلسان فيها في ذلك الفندق المطل على النيل، فواجهته بإحساسها، وطرحت بين يديه قلقها، واستمع هو إليها جيدًا، حتى إذا انتهت، سألها:

- إيه اللي اتغير فيّ بالضبط يا سامية؟!

- ما اقدرش أقول لك إلا إن نبيل اللي قاعد قدامي ده مش نبيل اللي سافر من سنتين علشان يبني مستقبله.

في تمرد مرح هتف بها:

- وهو أنا لازم أوافقك على كل آرائك علشان أبقى نبيل اللي انتي عاوزاه؟!

- إنت عمرك ما وافقتني على آرائي أو وجهة نظري قبل كده.

- طب إيه بقى؟!

- فيه حاجات أساسية في حياتنا يا نبيل ما بقتش بتاخد بالك منها، أو... أو يمكن ما بقتش تهمك، لا من بعيد ولا من قريب.

- زي إيه؟!

صمتت سامية طويلًا، وكان نبيل- في تلك اللحظات وكما اعترف فيما بعد - متوترًا أشد ما يكون التوتر، وكلما طال صمت سامية وترددها، ازداد توتره، حتى إذا ما قالت:

- زي إنك فكرت إننا نتجوز وانت لسه طالب ما حلتكش حاجة... دلوقت بسم الله ما شاء الله، معاك فلوس ومبسوط، ورغم كده، ما فكرتش حتى إنك تفاتحني في الموضوع ولو من باب المجاملة.

تنفس نبيل الصعداء، وانفثأ توتره، وقال بصوت مرتجف:

- وهو أنا لسه حافاتحك في حاجة زي دي يا سامية؟!

- ليه لأ يا أخي... هو أنا مش إنسان بيحس وعنده كرامة؟!

- أنا كنت متصور إن دي مسألة منتهية من زمان.

- إزاي... وإمتى؟!

واندفع نبيل يحكي لها عن الحياة في أوربا، عن المستقبل الباهر الذي ينتظره... راح يحكي لها عن المكاسب التي من الممكن أن يجنيها إذا ما استطاع أن يدعم مركزه في الشهور القادمة، وكيف أن أبواب الثراء مفتوحة أمامه وليس عليه سوى أن يخطو بحذر كي يعبرها بضربة حظ قد تأتي اليوم أو غدًا، فكيف يفلت من يده فرصة عاش طوال عمره يحلم بها ويتحينها... ترفق نبيل في الحديث فعاد إلى ذاكرة سامية عبير تلك الأيام الخوالي عندما كان نبيل يحملها على أجنحة الأمل نحو مستقبل مشرق زاهي الألوان... غير أنها - في لحظة انتبهت فيها إلى ما يحدث - لم تستطع إلا أن تصيح فيه:

- يا أخي بدل ما تبذل الجهد ده كله في بلاد بره، إبذله في بلدك، مصر أولى بيك.

هذه المرة لم يخالفها نبيل ولم يختلف معها، بل استخدم أسلوبًا آخر... قال:

- مانا باخدم بلدي بره برضه يا سامية.

- بتخدم بلدك ببيع العربيات؟!

- يكون في علمك إن أي قرش باوفره بره لأي مصري، باوفره برضه للبلد.

كان حديثه منطقيًا فراحت سامية تتأمله في صمت، لكنه أردف وكأنه - بمنطقها هي - يُجْهِز عليها:

- وأي قرش باكسبه أنا نفسي بره، ما هو في الآخر راجع لمصر.

نظرت إليه دهشة... فاستطرد:

- إنتِ متخيلة إني حافضل طول عمري في أوربا؟!

- يعني إيه؟!

- يعني لما ربنا يفرجها ويبقى عندي قرشين كويسين، في دماغي بدل المشروع عشرة وعشرين وميت مشروع عاوز أعملهم هنا في البلد.

قبل أن تفتح فمها عاجلها:

- البلد محتاجة لعملة صعبة يا سامية... ولو كل مصري في الخارج حول إن شاء الله ميت دولار كل شهر، البلد حتلقى العملة الصعبة اللي هي محتاجاها.

كادت سامية تطير من الفرح، كان منطقه عظيمًا، وكانت فكرته تصلح لكي تُطرح للمناقشة ثم تتحول إلى دعوة لكل المصريين في الخارج كي يقفوا إلى جوار وطنهم في محنته.

أما نبيل سالم، فلقد لزم الصمت بعدها، وقد أدرك أنه هذه المرة أصاب الهدف تمامًا... كان يعلم يقينًا سحر كلمة «البلد» إذا ما قيلت أمام فتاة مثل سامية فهمي كانت تصحو وتنام وتأكل وتشرب وتتنفس حبًا لهذا البلد...

كان نبيل يعرف هذا يقينًا، فراح يعزف على ذلك الوتر الحساس فإذا هي تستمع إليه بقلبها قبل أذنيها.

- الحرب مش بالمدافع بس يا سامية في العصر ده، الحرب بالفلوس كمان.

- ومين قال كلام تاني يا نبيل؟!

- ثم إنك بتتكلمي عن الحرب وإزالة آثار العدوان والتحرير والكلام الفاضي اللي شبعنا منه ده... تقدري تقولي لي إزاي إحنا ممكن نحرر سيناء وجيشنا كله مضروب؟!

هكذا راح نبيل يطبق - ببراعة - دروس أبي سليم، نقلها من الحلم إلى الواقع فارتطمت به، كان لا بد من أن يثير هذا كل ملكاتها للدفاع عن هذا الواقع، كي تنزلق إلى الحديث عما لا ينبغي الحديث فيه، ولقد أفلح تمامًا... فما إن قال نبيل ما قاله عن التحرير حتى انبرت هي في حماس:

- إحنا مش أول دولة انهزمت، ولا حانكون آخر دولة تنهزم.

- برضه إزاي حنحرر سيناء ونزيل آثار العدوان؟!

- بالشغل يا نبيل، بتعبئة الشعب، بإعادة بناء القوات المسلحة... بالعمل السياسي.

- إوعى تفتكر بس الاتحاد الاشتراكي؟!

هكذا انزلقت ولم تكن تدري أنه يسير معها في الحوار حسب مخطط يبغي استدراجها إلى البوح بما لا ينبغي البوح به... وفي حقيقة الأمر فإن نبيل، بالفعل، كان مستفزًا من آراء سامية... فلقد انتابه ذلك الإحساس الرهيب والمرير بأن كل كلمة كانت تتفوه بها، لم تكن سوى أمر بكشفه والقبض عليه والزج به في السجون أو إرساله إلى حبل المشنقة... وكان عليه أن يتحمل إحساسه هذا، وأن يستحلب المر في كل لحظة يلتقي فيها بها... ثم، ثم إنه لم يستطع - ربما دفاعًا عن نفسه وعما اقترفه - إلا أن

يقارن بين المجتمع الذي كان يعيش فيه في ألمانيا وإيطاليا، وبين ذلك السهوم البادي على وجوه الناس في مصر، وقد بدت البلاد وكأن سحابة من الهم تظللها... استفزه ذلك التناقض الرهيب بين ما نشر وقيل وأذيع في الخارج عن تلك الهزيمة المروعة، وما كانت سامية تردده على مسامعه، فإذا هو يتساقط فيما بينهما قبل أن يصل إلى أذنيه... عندما فاهت بما فاهت به، لوح بذراعه في ضيق وهو يميل نحوها:

- أنا مصري زيي زيّك، ويهمني مصر تبقى قوية، يهمني إنها تبقى زي ألمانيا وإيطاليا وفرنسا أو حتى زي اليونان.

- إنت نسيت إننا كنا محتلين من عشر سنين بس؟!

- طب ما هي دي دول ما زالت محتلة لحد النهارده لكن بنت نفسها.

- إحنا كنا دولة مستعمرة لمئات السنين ولسة ما أخدناش نَفَسْنَا، ضربونا علشان نفضل زي ما احنا.

- ولما أخذنا الاستقلال، عملنا بيه إيه؟!

- نبيل.

هكذا زمجرت في وجهه وقد كشرت عن أنيابها فضحك هاتفًا:

- إذا كنت أنا اتغيرت زي ما بتقولي، يبقى موقفي أحسن من اللي مش عاوز يتغير، ويعيش حياته زي قالب أو بغبغان بيقول نفس الكلام.

دقت بأصابعها فوق المائدة التي كانت تفصلهما وهي تقول:

- اللي ما تغيرش فيّ يا نبيل هو إيماني بالبلد دي، وإيماني بأن اللي حصل ده قدرنا... وإيماني كمان، بأن المستقبل بالتأكيد حايبقى أفضل.

- بالاتحاد الاشتراكي برضه؟!

كانت سامية تشعر بأنه ليس سوى شاة شردت بعيدًا عن هموم الوطن وعليها أن تعيدها إلى ناسها من جديد... راحت تشرح له كيف يمكن تنظيم الشعب ودفع عجلة البناء في نفس الوقت... وأن هذا ممكن أن يتحقق عن طريق عناصر وطنية تعمل داخل الاتحاد الاشتراكي دافعة الشعب من خلال تنظيم منضبط، نحو الهدف الأسمى.

- والعناصر دي حانجيبها منين؟!

- ما هي موجودة... مصر ولادة.

- بيتهيأ لك، بصي على الناس في الشوارع.

- أنا مش باتخيل، دي حقيقة يا نبيل.

- يعني إيه الكلام ده بقى؟!

- يعني فيه تنظيم بيشتغل فعلًا من قبل النكسة كمان.

- أنا بقالي عشرة أيام في البلد، ما سمعتش عن حاجة زي دي.

- لأنه تنظيم سري.

- يعني ضد النظام والحكومة؟!

- لا... ده تنظيم اسمه التنظيم الطليعي... العناصر اللي...

توقفت سامية عن الحديث وقد أحست أنها انساقت وراء عواطفها بلا روية فباحت بما لا ينبغي أن تبوح به... طال الصمت لثوان... قال نبيل بعدها ساخرًا:

- سكتي يعني؟!

- إسمع يا نبيل... المسألة دي سرية جدًا، ومش كل حاجة لازم أي حد في الدنيا يعرف عنها حاجة.

كان صوتها يرتجف انفعالًا، وكانت ثقتها فيه بلا حدود رغم كل ما كان يبدر منه... لكنها لم تكن تدري وهي تشرح له فكرة التنظيم الطليعي،

وكيف كان يعمل، وماذا كان يعمل، أنها كانت تدلي إليه بمعلومات لم تخطر ببال نبيل، أو حتى أبي سليم نفسه.

* * *

قال لي عادل مكي إن نبيل استطاع في تلك الزيارة أن يحقق كل الأهداف التي من أجلها جاء إلى مصر، ببراعة يُحسد عليها... استطاع أن يحسم موضوع الزواج دون أن يقطع على نفسه وعدًا... كما استطاع أن يغريها بشراء سيارة، وكان معنى هذا أنه سيستدرجها إلى الخارج كي يسلمها لُقمة سائغة لأبي سليم وزبانيته الذين كانوا - الآن - يستعدون بكل ما لديهم من إمكانات ودهاء وخبث... لكن الضربة التي حققها في مصر حقًا، هي معرفته بأمر التنظيم الطليعي ومعرفته - بالتالي - بعلاقات سامية ومدى اتساع نشاطها.

ولقد كان لظهور سامية في الصورة رد فعل عنيف على عادل مكي... فلم تكن سامية في ذلك الوقت مجرد صحفية من الممكن أن تحصل لنبيل سالم على معلومات أو أخبار، لكنها كانت «كادرًا» سياسيًا تعتز به بعض القيادات الهامة في البلد اعتزازًا دفع البعض منهم إلى التفكير في إسناد مسئوليات هامة إليها... ولذلك، فلقد أصيب عادل في تلك الأيام بما يشبه الأرق... لا لأنه شك في سامية، ولكن لأنه كان يراها مدلهة في حب هذا الشاب الخائن، وطوال الأسبوعين اللذين قضاهما نبيل في مصر، لم تكن ترى - في أوقات فراغها - سواه... ولقد ظل نبيل تحت أعين الرجال منذ أن هبط من الطائرة حتى صعد إليها مغادرًا مصر، فلم يتصرف تصرفًا واحدًا يؤخذ عليه أو يلقي عليه أية شبهة... التقى بأصدقائه لقاءات لم تطل، فلقد كان كل ما يعنيه في تلك اللقاءات التي سعى إليها، أن يؤكد للجميع أنه نجح، وأنه قادر على إثبات وجوده... ولقد بلغ به الحرص حدًا فاق كل توقع... فعندما وضع عادل مكي في طريقه بعضًا

من هؤلاء الذين قدمهم نبيل لأبي سليم في نابولي، كان يصافحهم بفتور وهو يتصنع النسيان... وعبثًا حاول بعضهم دعوته إلى الغداء أو العشاء أو حتى فنجان قهوة، ردًّا لبعض الجميل الذي طوق به أعناقهم في نابولي... لكنه كان دائمًا ما يعتذر ولا يلبي الدعوة.

شخص واحد كان نبيل حريصًا كل الحرص على لقائه كل يوم حتى ولو لم يدم اللقاء سوى دقائق قليلة... هذا الشخص هو «سامية فهمي».

ولقد كانت سامية في وداعه في المطار يوم السفر، وكان الوداع مؤلمًا لها، بكت كثيرًا، تأثر نبيل لبكائها فدمعت عيناه... وكان لا بد أن يفترقا فافترقا، وعادت سامية إلى بيتها وحيدة.

* * *

ابتسم عادل مكي وهو يقول: إنه لم يكد يمضي يومان على رحيل نبيل سالم إلى إيطاليا، حتى دقت في رأسه، وفي مكتبه، وفي الأوراق، وفي رءوس رجاله أيضًا، كل نواقيس الخطر... ذلك أن الأنباء كانت قد وصلته بأن سامية فهمي تستعد للسفر إلى إيطاليا، كي تشتري سيارة.

الفصل الثاني والعشرون

التحرك نحْو الهَدف

وجد عادل مكي نفسه في موقف لا يحسد عليه... وإذا كان مثل هذا النوع من الرجال يحسن التصرف مع المواقف ويجيد إخضاع الظروف لمتطلبات أمن وطنه... إلا أنه وجد نفسه أمام موقف يضطره أن يفعل ما كان يعز عليه أن يفعله.

كان قد أصبح موقنًا أشد ما يكون اليقين أن زيارة نبيل سالم إلى القاهرة، لم تكن تستهدف سوى سامية فهمي بالتحديد... ذلك أن نبيل طوال الأسبوعين اللذين قضاهما في مصر - كان يبدو وكأنه كَرَّسَ كل وقته وجهده لسامية وحدها دون غيرها - فوق أنه - بالتأكيد - لم يجر أي اتصال، ولم يلتق بأي أحد، ولم يتصرف تصرفًا واحدًا يثير أدنى قدر من الشك أو الريبة... ولم يكن الأمر في مثل هذه الحالة - وبالنسبة لرجل مثل عادل مكي - في حاجة إلى تفكير أو تحليل، فلقد كان مدركًا - الآن - أن الإسرائيليين قد قنعوا من وراء نبيل سالم بهذا الدور الذي كان يلعبه، وهو دور «الصياد» الذي كان يقدم لهم صيده من أبناء وطنه... وهذا الدور الذي برع فيه - رغم قصر المدة - براعة ملفتة للأنظار... وأنه ما جاء إلى مصر، إلا لكي يلعب نفس الدور مع الفتاة التي أحبته، وواجهت الدنيا كلها من

أجله، ووضعت فيه كل ثقتها... جاء نبيل سالم إلى القاهرة كي يستدرج سامية فهمي إلى براثن أبي سليم وزبانيته.

فأي إنسان هذا؟!

هناك الكثيرون ممن يظنون أن رجل المخابرات إنسان بلا عاطفة، أو هكذا يجب أن يكون... ذلك أن أمن أمة بأسرها - في لحظة - قد يصبح رهن قرار يتخذه، أو تصرف يتصرفه... وهو هنا لا بد أن يتجرد تمامًا من العواطف، كي يزن الأمور بميزان لا يقبل الخلل، وقد يصبح الخطأ فيه كارثة.

وبالرغم من تعاطف عادل مكي الشديد مع سامية فهمي، الذي كان إعجابه بها كصحفية وكمواطنة وممارسة للسياسة في حقل مليء بالألغام، يتزايد يومًا بعد يوم... إلا أنه كان عليه أن يتخذ عددًا من الإجراءات... أو فلنسمها احتياطات، من حول سامية فهمي نفسها.

فماذا كان عليه أن يفعل؟!

* * *

كان أمرًا طبيعيًا، وقد عرف الإسرائيليون علاقة نبيل بسامية، أن يحاولوا معرفة من تكون تلك الفتاة التي ارتبطت بعميلهم بمثل تلك القوة والحرارة... وبصرف النظر عما حكاه نبيل عن علاقته بسامية... فإن خطاباتها إليه، سواء تلك التي أرسلتها إلى ألمانيا، أو تلك التي أصبحت منتظمة بعد أن انتقل إلى إيطاليا... كانت تحت سيطرتهم الكاملة حتى من قبل أن تصل إلى نبيل، وكانت تلك الخطابات - دون شك - تشير إلى مدى ارتباط هذه الفتاة بذلك الفتى... وعلى ذلك، فلا بد أنهم بذلوا جهدًا في محاولة الإلمام بظروف سامية وشخصيتها وأسلوب تفكيرها... ومن وجهة نظر عادل مكي، فإن الأمر لم يكن في حاجة إلى الكثير من الجهد، فلقد كان يكفي أن توضع مجموعة من التحقيقات الصحفية أو

المقالات التي كتبتها سامية في مجلة الفجر - مع صور من تلك الخطابات التي أرسلتها - تحت مجهر التحليل العلمي، كي تشير إلى أهم العناصر المكونة لهذه الشخصية، ومعرفة نقاط ضعفها بالذات، فوق تعرفهم على إمكانيات هذه الكاتبة أو الصحفية ومدى خطورة وتشعب علاقاتها واتصالاتها خاصة بقيادات التنظيم السياسي في مصر.

دون أدنى شك كانت سامية صيدًا ثمينًا لا بد من محاولة إيقاعه في شباكهم... ولذلك، وما إن طار نبيل سالم عائدًا إلى إيطاليا، حتى وجد عادل مكي نفسه أمام ذلك الموقف الصعب، والذي ازدادت صعوبته، بعد أن نما إلى علمه أن سامية فهمي تستعد للسفر إلى إيطاليا خلال الأسابيع القليلة القادمة... كي تشتري سيارة.

بداية، كانت هناك حقيقة هامة لا يمكن إغفالها أو التغاضي عنها، وهي أن حوارًا ما قد دار بين نبيل وسامية حول الحياة السياسية في مصر... فما الذي قالته سامية في هذا الحوار؟!

وإلى أي مدى سارت بهما المناقشات... وهل باحت له ببعض ما كانت تعرفه ولا يجب أن يعرفه نبيل؟! وما الذي باحت به مما لا بد وأن ينقله إلى أبي سليم فور عودته إلى إيطاليا... ثم... إذا كان الغموض يلف هذه المنطقة من المعرفة بالنسبة لعادل، إلا النذر اليسير... فلا بد أن الظلام سوف يزداد كثافة إذا ما سافرت هي إلى إيطاليا... فهناك، بالقطع، سوف تلتقي بمن هم أقدر من نبيل، ولا بد أن هذا الشاب سوف يقدمها إلى واحد من أساتذة الإثارة الذين يعرفون كيف يبتزون المعلومات من الناس، هؤلاء المدربين تدريبًا عاليًا على فن استخلاص المعلومات من البشر، خاصة من هذا النوع الرومانسي - مثل سامية - الذين قد يدفعهم حماسهم إلى البوح - بحسن نية - بمعلومات ما إن تسقط في يد العدو حتى تحقق كارثة... أو على الأقل، تفتح نافذة جديدة يستطيع أن يطل منها علينا ويهتك أسرارنا.

مرة أخرى... ما الذي قالته سامية فهمي لنبيل سالم، وما الذي باحت به؟!

كانت هناك خطوتان على عادل مكي أن يخطوهما فورًا ودون إبطاء.

كانت الخطوة الأولى: هي التحكم - بقدر الإمكان - في المعلومات التي تصل إلى سامية.

أما الخطوة الثانية: فكانت بذل محاولة لإثنائها عن السفر في الوقت الحاضر.

* * *

كانت صعوبة الخطوة الأولى تتمثل في أن التحكم في المعلومات التي من المحتمل أن تصل إلى سامية، يجب أن يتم، ليس عن طريق المسئولين الذين تلتقي بهم فقط، سواء في عملها الصحفي أو السياسي، بل أيضا عن طريق اجتماعات التنظيم الطليعي، أو حتى العلاقات الخاصة فيما بينها وبين الآخرين.

ذلك أن الرجل كان لا بد وأن يضع في اعتباره، أن سامية أولًا وأخيرًا صحفية، وهي بحكم عملها، تملك العديد من مصادر المعلومات سواء من المسئولين أو ممن هم دونهم، الذين - دون شك - تعوّدوا منها الالتزام والحرص ومعرفة الفارق بين ما ينشر وما لا يجب أن ينشر في بلد تعيش في حالة حرب... ثم، هناك تلك الثقة الكبيرة في سامية نفسها، والتي أكسبتها إعجاب الجميع بلا استثناء وتلك المكانة التي احتفظت بها لنفسها، والتي جعلت مناقشة الأمور معها أو أمامها أمرًا طبيعيًا ولا غبار عليه.

وإذا كانت هذه النقطة - نقطة التحكم في المعلومات - تعتبر حجر الزاوية فيما يختص بسامية فهمي... فإنها كانت تحمل مخاطر عديدة بالنسبة لشخصيتها ومستقبلها معًا.

كان عادل مكي مدركًا أن مثل هذه الأمور، حتى ولو فوتح فيها البعض بأسلوب حساس أو أوحي بها إليهم، قد تثير الشكوك حول شخصية سامية، مما قد يصبح التخلص من آثاره فيما بعد أمرًا بالغ الصعوبة... بمعنى أن التحذير، حتى ولو بالإيحاء، قد يُلقي ظلالًا من الشك حول الفتاة التي كان عادل مكي مقتنعًا أشد ما تكون القناعة بأنها مواطن شريف، بل مواطن من نوع فاخر وممتاز... فكيف يمكن أن يتم الأمر في وقت واحد... كيف يمكن حجب المعلومات بالتحذير أو الإيحاء أو الرجاء، دون أن تمس شخصية تلك الفتاة ذات الحظ التعس.

عندما سألت عادل مكي كيف استطاع أن ينفذ خطته فيما يتصل بهذا الأمر، أطبق شفتيه تمامًا ورفض الحديث... وفي محاولة مني للضغط، بدا عليه الغضب، وكان رأيه أن الناس لا يعنيهم معرفة مثل هذه التفاصيل بقدر ما يعنيهم أن يعرفوا النتائج.

وعلى كلٍّ... إذا كان عادل مكي قد استطاع أن ينفذ خطته فيما يختص بحجب المعلومات عن سامية دون المساس بشخصها بشكل أو بآخر، فلقد كان عليه الآن وبعد أن اطمأن، أن يحاول إثناءها عن السفر حتى يجنبها مزالق كانت هي في غنى عنها تمامًا، ولسنا ندري كيف فعل عادل هذا بالتحديد... غير أني عندما سألت سامية إن كان هناك من حاول إثناءها عن السفر، بدت عليها الدهشة لثوان لم تطل، ثم قالت: إن أحدًا لم يتحدث معها في هذا الموضوع سوى أمها؛ لأنه لم يكن من حق أحد أن يتحدث معها في هذا الموضوع سوى السيدة إقبال حسين التي وقفت بحزم ضد رغبتها تلك... لا لأنها لا تريد لابنتها أن تشتري سيارة، بل

لأن السيارة كانت ستأتي أصلًا عن طريق نبيل سالم... ولم تقتنع سامية بالطبع ليس لاختلاف وجهة نظرها عن وجهة نظر الأم في نبيل فقط، ولكن لأن السفر في حد ذاته كان هدفًا من أهدافها... قالت لأمها ذات مرة أثناء مناقشة الأمر:

- إنت نسيتي يا ماما إن عمري ما طلعت بره مصر، وإن سفري لأي مكان في الدنيا فايدة كبيرة لي.

غير أن سامية هتفت بي ذات لحظة، وكنا قد تركنا هذا الأمر وانتقلنا من حديث إلى حديث عن موضوعات أخرى، هتفت وكأنها تذكرت شيئًا هامًا... ولَزِمْتُ الصمت تمامًا وحبست أنفاسي وكأني تلقيت أمرًا بالصمت المطلق وعليّ أن أطيع... كانت تبدو لعيني بنظارتها الطبية الرقيقة ووجهها المستدير المليح الذي يحيطه ذلك الإطار اللامع من الشعر الأسود، وكأنها شدت إلى الماضي بقوة... وما لبثت أن قالت:

- حصل في واحد من اجتماعات المجلة الأسبوعية أني طرحت فكرة سفري لإيطاليا، وسألت الأستاذ أحمد مختار - رئيس التحرير - إن كان عايز مني شغل معين أعمله هناك... لكن... لكن...

صمتت سامية وبدت وكأنها تغوص في الماضي بعنف، فرُحت أستحثها: لكن إيه؟!

اعتصرت رأسها بأصابعها وهي تغمغم:

- هو ما طلبش مني إني ما أسافرش، إنما قال كلام تاني.

- زي إيه؟!

- زي إن البلد محتاجة لوجودنا في مصر دلوقت... وإن سلسلة التحقيقات اللي كنت باكتبها لازم تكمل... و... وحاجات بالشكل ده... إنما... إنما...

كانت الذكريات الآن تترى على ذهنها في تدفق فهتفت مستطردة:

- آه... افتكرت، كلهم، كلهم ما وافقوش على سفري... رغم إن فيهم ناس كانوا سافروا فعلًا واشتروا عربيات.

واجهتهم بالواقع، وقلت لهم إني محتاجة زيهم لعربية.

صمتت لثوان ثم أردفت وكأنها تحلم:

- ويمكن ده اللي خلاهم في الآخر يسكتوا.

لم يخطر ببال سامية فهمي أن حوارًا مثل هذا من الممكن أن تكون له أهمية من نوع خاص، كان حوارًا عاديًا وكان طبيعيًا للغاية أن تحدث مناقشة من هذا النوع في اجتماعات التحرير فلا تثير إلا زوبعة في فنجان الاجتماع تنتهي آثارها بمجرد الانتقال إلى موضوع آخر.

وهكذا... رفضت سامية كل الحجج التي سيقت إليها حتى تعدل عن السفر... بل إننا نستطيع القول: إن مثل تلك الاعتراضات لم تكن إلا لتزيد رغبتها في الطيران إلى إيطاليا مهما حدث.

و... وسافرت سامية.

* * *

عاد نبيل سالم إلى إيطاليا وهو تحت السيطرة الكاملة، بل والمطلقة لعادل مكي، كانت الحاجة إلى ملازمة ذلك الشاب المتردي في مهاوي الخيانة قد أصبحت لازمة أكثر من أي وقت مضى... وضع عادل خطة شديدة التعقيد لمراقبته، خطة كلفت الأبطال الذين طاروا إلى إيطاليا، أو الذين كانوا هناك، الكثير من الجهد... كان يعلم أن نبيل سوف يعود إلى روما كي يبقى فيها أيامًا قبل عودته إلى نابولي لإنهاء صفقة السيارات التي لم يكن صعبًا على رجاله في نابولي أن يعرفوا كل شيء عنها... وإذا كانت خطوات نبيل وتحركاته قد وضعت في القاهرة تحت مجهر لا شك في نتائجه... إلا أنه - أي نبيل - لم يشعر في لحظة أن هناك من

يرقبه ويعد عليه خطواته... ولذلك، فلقد عاد إلى إيطاليا وهو يشعر بثقة لا حدود لها، ليس في نفسه فقط، ولكن... في تلك المنطقة التي يعمل لحسابها التي أكدت له زيارته للقاهرة، أنها بالفعل قادرة على حمايته، وإخفاء أي اتصال به.

دون استباق للحوادث، فلقد كان هذا بالضبط، هو ما يريده عادل مكي... وإذا كانت كل المحاولات التي بذلت مع هذا الشاب كي يعود إليه صوابه قد فشلت، وإذا كان حضوره إلى القاهرة يفرض أنه كان محاصرًا في الخارج، كانت فرصة ذهبية له كي يُبلّغ عما حدث له ولم يفعل، بل أمعن في تنفيذ مخططات العدو ضد أقرب الناس إليه وأكثرهم حبًا له وإيمانًا به... فلقد كان على عادل مكي الآن أن يوقع بهذا الخائن... وإذا كان الإيقاع به من الصعوبة بمكان، لعدم وجود دليل واحد يدينه، ونتيجة لحذر نبيل الشديد وحيطته التي كانت تتقدم كل الأولويات... فلم يعد أمام عادل سوى طريق واحد... أن يُدخل الطمأنينة إلى نفس نبيل تمامًا، وأن يشعره بأن مخلوقًا في الدنيا لا يعرف عنه شيئًا... هنا، لا بد أن يفقد نبيل - إن آجلًا أو عاجلًا - حذره ذات لحظة، هي كل ما يريده عادل كي يُوقع به متلبسًا بجرمه.

عاد نبيل إلى إيطاليا إذن، وهو يشعر بثقة لا حدود لها... وكان بالطبع يتعجل لقاءه بأبي سليم كي يزف إليه بشرى ما فعل في مصر وما حصل عليه من معلومات... أحس أنه الآن يستطيع أن يطالب بإسقاط الدين كله عنه، بل تنامى إحساسه إلى حد أن فكر في مساومة أبي سليم... فها هي سامية قد باحت له فوق ما باحت به حول عملها وعلاقاتها بوجود ذلك التنظيم السري الذي يعمل لحساب النظام لا ضده... كان قد التزم تمامًا بتعليمات أبي سليم وعاد بنتائج جد طيبة، عاد يحمل إليهم كنوزًا عليهم أن يقدروها حق قدرها.

غادر مطار روما - ليلة وصوله من مصر، وهي الليلة التي حددها أبو سليم بالضبط - إلى ذلك الفندق المتوسط الذي كان عليه - حسب تعليمات أبي سليم أيضًا - أن ينزل فيه، ثم ينتظر إلى أن يتصل به الرجل، ومهما طال الانتظار، فليس له أن يغادر روما، وليس له أن يعود إلى نابولي، وليس له أن يغير الفندق قبل أن يتم هذا الاتصال... وحتى يعاين السيارات ويعود إلى السنيور إسكالكو برأيه، أو يبرم الصفقة إن كانت مجزية.

لكن الاتصال لم يتم طوال أسبوع كامل.

طوال سبعة أيام كل يوم فيه أربع وعشرون ساعة، وكل ساعة فيها ستون دقيقة، لم يتصل به أحد، فلم يعره مخلوق اهتمامًا.

عندما مضى يومان بدأ القلق يتسلل إلى نفسه... ولما كان يعلم يقينًا أن أبا سليم سوف يطلب منه كتابة ما حدث مهما حكى له أو قص عليه، فلقد راح في اليوم الثالث يكتب، بالتفصيل، كل ما حدث له في القاهرة منذ لحظة هبوطه إلى مطار القاهرة الدولي حتى لحظة عودته إلى مطار روما، كتب كل ما دار بينه وبين سامية فهمي من حوار حول كل شيء، حتى هذا الحوار «الشديد الخصوصية» الذي دار بينهما... كتبه.

في البداية... أراد أن يكتب كي يقطع الوقت ويبدد الملل، لكنه كلما كتب وأمعن في الكتابة، تضاربت في نفسه الأحاسيس والمشاعر، فإذا هو أسير معركة احتدمت في صدره احتدامًا مخيفًا.

كان مع تزايد قلقه يومًا بعد يوم لغياب أبي سليم وعدم اتصاله به وكأنه يتعرى حتى من نفسه - كان هذا تعبيره بالضبط - ولقد جسدت له سامية فشله تجسيدًا كان يشعل النار في صدره... وبلا أدنى شك، فلقد ساعده على هذا الإحساس، شعوره بأنه قد تلوث وانتهى الأمر، مضافًا إليه شعوره بذلك النقاء الذي لم يتلوث في سامية، وذلك النجاح الذي حققته ولم يعد يستطيع أن يحتمله، حتى جاء عليه وقت واجه نفسه بسؤال اهتز له حقًا:

هل هو يحب سامية أم يكرهها... لم يكن هناك ما يدعو إلى كراهيتها، بل العكس هو الصحيح... فلقد أحبت سامية في نفسه ذلك الإحساس البعيد بُعْدَ قرون من الزمن السحيق في أغوار نفسه، بأنه ينتمي، بشكل ما، إلى عالم نظيف... وكان في نفس الوقت يتساءل إذا كان يحب سامية حقًّا، ويجتاحه الحنين إلى عالمها... فما هذا الذي كان بينه وبين شيرلي هايمان، وكيف كانت سامية تبدو له - في تلك الأيام - وكأنها شيء فاتر لا حياة فيه؟! وما هذا الذي كان بينه وبين مارشيلا، تلك التي أدخلته جنة ما حلم يومًا أن يرتاد أرضها، والتي أشعرته - ربما لأول مرة في حياته - بأنه رجل من نوع خاص.

مضت الأيام السبعة وهو صريع تلك الأفكار والمشاعر، وكان ما يملكه من مال قد بدأ ينفد خاصة وأنه أنفق في القاهرة عن سعة، بل كان يبذّر في محاولة لإعطاء سامية إحساسًا بأنها إذا كانت متفوقة عليه بذاتها، فهو يستطيع التفوق عليها بماله... لكنها للأسف لم تكن تهتم بما ينفق بقدر ما كانت تهتم بما يفكر فيه، فأخذت النار تزداد اشتعالاً في صدره.

كان نبيل سالم حريصًا على أن يكون التقرير الذي كتبه مصاحبًا له في كل مكان، كان يضعه في جيبه إذا ما خرج ويضعه في حقيبة أوراقه إذا ما عاد إلى الغرفة... حتى كان يوم عاد فيه من جولة في المدينة، وجد رسالة تقول إن «مارلو» قد اتصل به... وكان اسم «مارلو» هذا هو الاسم الكودي الذي اتفق معه أبو سليم على استعماله إذا طلبه في التليفون... يومها لازم الفندق ولم يغادره، أحس في الغرفة بالاختناق عندما طالت به الساعات، هبط إلى البهو بعد أن أعطى لعاملة التليفون خبرًا بمكانه... جاء الليل وانتصف دون أن يتصل به مارلو هذا مرة أخرى... حاول أن يتناول العشاء لكن نفسه عافت الطعام فعاد إلى الغرفة يجرجر ساقيه... ما إن دلف إلى الفراش حتى راحت الأفكار تداهمه مرة أخرى، بدأ النوم يغزو

جفونه فإذا صور لأشباح تحوم في مخيلته وتهاجمه... فجأة قفز جالسًا في الفراش إثر كابوس رأى نفسه فيه يهوي من حالق... تفصد جسده بالعرق وكانت أنفاسه لاهثة وجرس التليفون يدخل بإلحاح إلى دائرة وعيه، انتبه إلى الجرس فاختطف سماعة التليفون في لهفة:

- برونتو.

- إنت نمت ولّا إيه؟!

- إنت فين يا أخي؟!

هكذا هتف في توسل فإذا الرد يأتيه هادئًا:

- في الأوضة اللي جنبك؟!

وسقطت السماعة من يده.

مضت ساعتان وهو يحكي لأبي سليم كل ما حدث له في مصر بالتفصيل... عندما فتح الباب لاستقبال الرجل كان ينتفض بالحماس، صافحه في شوق لكن يد أبي سليم كانت فاترة... اندفع يحكي فإذا هذا يبدو وكأنه يتشاغل بأي شيء عنه... وكلما أمعن أبو سليم في تجاهله كلما ازداد حماسه، لكنه أصبح حماسًا انطفأت شعلته وبهتت ألوانه وذهب بريقه... وحتى عندما وصل إلى الحديث عن التنظيم الطليعي، استقبل أبو سليم الأمر وكأنه يستمع إلى حديثه عن نوع جديد من الصابون... توقف في لحظة متسائلًا في قلق:

- إيه الحكاية يا ابو سليم؟!

- حكاية إيه؟!

- هو الشغل مش عاجبك؟!

تجاهل أبو سليم سؤال نبيل، ثم سأله سؤالًا آخر:

- مش تقول لي إنت لقيت إيه في مصر؟!

- أمال أنا كنت باحكي عن إيه من ساعة ما قعدنا سوا.

هز أبو سليم رأسه نفيًا وهو يردد:

- لا... لا مش ده... مش ده.

وقع نبيل في حيرة وفي عينيه تساؤل قلق، اعتدل الرجل في جلسته مغمغمًا:

- إنت نسيت اللي انت اتعلمته يا نبيل ولّا إيه؟!

- قصدك إيه يا ابو سليم؟!

- فيه حد أخد باله منك في مصر؟!

وصلت الرسالة إلى نبيل أخيرًا فانطلق يحكي ويقص، قال إنه منذ الدقيقة الأولى كان ملتزمًا بكل احتياطات الأمن التي علمها له أبو سليم، وإن الناس في مصر يبدون وكأنهم يعيشون عالمًا مختلفًا، قال:

- ولعلمك يا ابو سليم، لو كان المصريين أخدوا بالهم من حاجة، مكانش ممكن سامية تتفتح معايا بالشكل ده.

- يعني محدش مشي وراك؟

- بالمرة.

- حد اتعرض لك في الدخول أو الخروج؟

- ما حصلش... بس كان فيه مشكلة.

- إيه هي؟!

- مشكلة خاصة بالتجنيد.

- وليه ما قلتليش عليها؟!

- بصراحة كنت ناسي الحكاية دي خالص وما اعرفش إزاي؟!

- وازاي حليت المشكلة دي؟!

- سامية هي اللي حلتها.

في حقيقة الأمر، لم تكن سامية هي التي حلت المشكلة رغم أنها تحدثت في الموضوع مع واحد من المسئولين... لكن الذي قام بالجهد كله هو عادل مكي الذي أوعز إلى صديق له في مصلحة الجوازات بأن ييسر مهمة الخروج لنبيل بعد بضع عقبات كانت تحل واحدة بعد أخرى حتى بدا الأمر طبيعيًا تمامًا.

ساد الصمت بينهما لثوان تساءل بعدها نبيل والقلق ينهش صدره:

- إيه الحكاية يا بو سليم؟!

مال أبو سليم نحوه وركز عينيه في عيني نبيل وهو يقول:

- مش كان لازم تنتبه لحكاية التجنيد دي؟!

- ما هي انحلت والباسبور اتجدد.

- وحليتها ليه قبل ما أقولك؟!

تذمر نبيل ناهضًا من مكانه:

- إذا كان الشغل مش عاجبك قول وخلصني.

- مين اللي قال إن الشغل مش عاجبني؟!

- أمال ما لك كده زي ما تكون...

قاطعة أبو سليم ناهضًا هو الآخر:

- هو أنا لما أخاف عليك، تزعل؟!

هرب نبيل من الموقف متسائلًا:

- يعني الشغل كويس؟!

- المهم إنك تكتب لي كل الكلام اللي انت...

هتف نبيل مندفعًا نحو حقيبة أوراقه:

- كله مكتوب بالحرف الواحد.

التقط نبيل الأوراق التي كتب فيها تقريره عائدًا إلى أبي سليم فهالته تلك النظرة التي كانت تنطلق من عيني الرجل وكأنها طلقات رصاص محموم، ارتد نبيل إلى الخلف خطوة وهو يتساءل:

- فيه إيه تاني؟!

مد أبو سليم يده إلى الأوراق المطوية وهو يغمغم:

- إنت كتبت الكلام ده إمتى؟!

- طول الأسبوع اللي فات.

أصاب نبيل الذهول وهو ينظر إلى الرجل الذي أخرج ولاعته وأشعلها، ثم قرب الأوراق من النيران التي راحت تلتهمها أمام عينيه، لم ينظر أبو سليم في الأوراق، لم يفضها، لم يكلف خاطره عناء قراءة سطر فيها أو مناقشة واقعة مكتوبة.

- بتعمل إيه يا ابو سليم؟!

- أنا علمتك تكتب حاجة قبل ما أقول لك؟!

كانت الأوراق تحترق أمام عينيه وجسده يتفصد عرقًا وقلبه يخفق انفعالًا، وعندما أتت النيران على آخر قطعة ورق، قال أبو سليم:

- تقدر دلوقت تكتب اللي انت قلتهولي.

ظل نبيل سالم جامدًا في مكانه وكأن صاعقة أصابته... سار الرجل نحو الباب وهو ينظر في ساعته، مد يده إلى المقبض ثم استدار نحو نبيل:

- تعمل حسابك تخلص التقرير قبل الساعة تمانية الصبح.

هتف نبيل:

- دانا ما نمتش لحد دلوقت.

- ما انت نايم بقالك تلات أسابيع.

كان نبيل سالم يشعر بنفس الإحساس الذي انتابه وهو يهوي من حالق، في ذلك الكابوس الذي أيقظه مع جرس التليفون.

الفصل الثالث والعشرون

ليس سوى الطّاعة العَميَاء

مضت خمسة أيام لم يذق فيها نبيل طعم النوم إلا نادرًا، ما إن جاء صباح اليوم التالي حتى كان قد انتهى من كتابة التقرير... في تمام الثامنة صباحًا دق الباب، وكان أبو سليم هو الطارق، تسلم منه التقرير ثم صحبه إلى سيارة كانت تنتظرهما في شارع جانبي... قال له أبو سليم إنهما ذاهبان إلى الوكالة التي تم الاتفاق على الصفقة معها... كان أبو سليم عند وعده فلقد وجد نبيل كل شيء جاهزًا والصفقة مجزية، ولم يكن باقيًا سوى تلك الإجراءات الرسمية التي لا بد من أن ينهيها بنفسه بصفته وكيلًا عن السنيور إسكالكو... سأل نبيل وهما في السيارة يقطعان طرق روما إلى حيث وسط المدينة:

- مش المفروض إني أتصل بالسنيور إسكالكو في نابولي؟!

- المفروض إنك كنت طول الأسابيع التلاتة اللي فاتوا في مفاوضات مع السنيور ألبرتو إجنازيو مدير الشركة اللي اشتريت منها العربيات.

- مش كتير تلات أسابيع؟!

- لاحظ إنك لفيت معاه كام بلد حوالين روما علشان تشوف باقي السيارات.

همَّ نبيل بالحديث، لكن أبا سليم استطرد:

- وإن المفاوضات كانت صعبة وأخدت وقت طويل.

قال أبو سليم هذا وهو يدس يده في جيبه كي يخرج ظرفًا متوسطًا منتفخًا بالأوراق... قدم الظرف لنبيل الذي تهلل وهو يتناوله متسائلًا:

- إيه ده؟!

- دي الإيصالات وتذاكر السفر والفواتير بتاعة المطاعم واللوكاندات في البلاد اللي انت زرتها برة روما، ولاحظ إن كلها باسمك.

انتاب نبيل ضيق مفاجئ... فلقد خاب ظنه في أن الظرف كان مفعمًا بالأوراق المالية... ساد الصمت لثوان قال بعدها أبو سليم:

- ولازم طبعًا في الكام يوم اللي جايين تسافر البلاد اللي المفروض إنك رحتها وتشوف اللوكاندات اللي نزلت فيها، علشان إسكالكو لو سألك، تبقى عارف كل حاجة.

- طب إحنا رايحين فين دلوقت؟!

- رايحين عند سنيور ألبرتو إجنازيو، مدير الوكالة اللي انت اتفقت معاها على العربيات، وده حايديك مكتب في شركته علشان تستعمله لحد ما تخلص كل الإجراءات اللي فاضلة.

- مكتب؟!

كانت دهشة نبيل كبيرة... لكن أبا سليم عاجله:

- لاحظ إن فيه شوية إجراءات لازم تتم، صحيح هي حاجات خاصة بالتسجيل والعقود، لكن الراجل حط لك سكرتيرة علشان تفهمك كل حاجة وتسهل لك الإجراءات كمان.

قال أبو سليم هذا وهو يرمي نبيل بنظرة جانبية من عينه، فتهرب هذا من نظرات الرجل مدمدمًا في حدة وضيق:

- يعني أتصل بإسكالكو ولا لأ؟!

لم يجبه أبو سليم، وإنما انطلقت من عينه نظرة حادة متسائلة، أجاب عنها نبيل هاتفًا:

- ما هو مش معقول يا ابو سليم أروح مصر واشتغل واعمل كل اللي مطلوب مني وأكتر... ولما أرجع ما ألاقيش حتى كلمة الحمد لله على السلامة.

- الحمد لله على السلامة.

قالها أبو سليم باسمًا فلم يتمالك نبيل نفسه من الابتسام، فعاد الرجل إلى الحديث:

- ألبرتو إجنازيو ده مدير أكبر وكالة لبيع العربيات المستعملة، مش في روما بس، إنما في إيطاليا كلها... والفرع الرئيسي للوكالة في ميلانو، لكن ألبرتو ممكن ينفعك في الكام يوم اللي حاتقعدهم هنا لو حاولت تتعلم منه هو بيشتغل إزاي... لأن ده حاينفعنا في المستقبل.

أدرك نبيل أن وراء حديث أبي سليم ما وراءه... عندما تحدث إليه بالأمس وعندما سلمه التقرير منذ أقل من ساعة لم يقل كلمة حول زيارته للقاهرة... تهاوت أحلامه وتقلصت وهو يرى الرجل يتجاهل الحديث حول ما ظنه ضربة موفقة... استدار بجسده كله نحو أبي سليم وقد أراد حسم الأمر حسمًا نهائيًا:

- يعني ما قلتليش رأيك يا ابو سليم؟!

- في إيه؟!

- في التقرير اللي في جيبك.

- مش لما اقراه؟!

أحس نبيل برغبة عارمة في الثورة، لكنه كبح جماح غضبه وسأله:

- طب رأيك في الكلام اللي قلتهولك إمبارح بالليل؟!
- عاوز تعرف رأيي في إيه بالظبط يا نبيل؟!
- عاوز أعرف رأيك في اللي حصل مع سامية.
- مش لما تيجي سامية؟!

أسقط في يد نبيل، كشف الرجل الغطاء بقسوة عن كل الحقائق مجردة عارية فإذا هو يرتجف... لم يكن هناك ما يقوله وإن كان صدره يغلي بغضب مكبوت وإحساس مشين بالعار، وزفر ذات لحظة هاربًا مما هو فيه:

- يعني أكلم إسكالكو ولا بلاش؟!
- وبلاش ليه؟!
- هو انت ما تقولش كلمة تبل الريق أبدًا.
- مش مهم الخطوة الأولى يا بلبل... المهم النتائج.
- بس أنا عملت اللي علي.
- كل ده علشان خمسميت دولار عاوز تنزلهم من اللي عليك؟!

قال نبيل سالم فيما بعد إنه أحس بوضوح في ذلك الصباح أن الرجل يربطه بإحكام إلى عجلة تسعى إلى حيث لا يدري، انتابه اليأس من كل شيء لكنه كان فاقد الحيلة... توقفت السيارة أمام بناية هائلة من تلك البنايات التي أقيمت حسب الأسلوب الأمريكي والتي كانت تبهر نبيل كلما مر بإحداها... في مدخل البناية اختطفت عيناه أسماء لعدد من الشركات ذات السمعة العالمية... خرج من المصعد في الدور الثالث والعشرين ودلف خلف أبي سليم من باب كان يفضي إلى عالم يشغي بالحركة والحياة، وجد نفسه يخوض في غابة من الحِسان والشبان ذوي الأناقة الملحوظة... قبل أن يدخل إلى مكتب السنيور إجنازيو كان يتصوره

كهلًا تعدى الخمسين من عمره لكنه وجد نفسه أمام شاب في الثلاثينيات وسيم، شديد الأناقة، فتساءل، كيف غابت عنه السينما الإيطالية؟ صافحه ألبرتو في حرارة من كان يعرفه منذ سنوات خلت، عندما قدم أبو سليم كلًا منهما للآخر هتف ألبرتو ضاحكًا:

- تستطيع أن تعتبرني من الآن صديقًا لك سنيور جيزي.

لم يمكث أبو سليم سوى دقائق تركهما بعدها كي يتفقا على إتمام إجراءات صفقة وصلت إلى مائتي سيارة... همَّ نبيل بسؤال أبي سليم - قبل انصرافه - متى سيلتقيان؟ لكنه تراجع خوفًا من نظرة قد تصيبه من عيني الرجل الذي أصبح همزة الوصل الوحيدة بينه وبين عالمه هذا الجديد، الذي كان يطل عليه من الطابق الثالث والعشرين في إحدى بنايات روما الحديثة... غادر ألبرتو مقعده وأعد لنبيل فنجانًا من القهوة الإيطالية المركزة حمله إليه بنفسه، ثم جلس إليه وراح يشرح له طبيعة الصفقة... استمر الحوار بينهما لأكثر من نصف ساعة خرج بعدها نبيل بانطباع أدهشه أشد ما تكون الدهشة... كان يشعر بالفعل بأن هذا الشاب الوسيم الثري قد أصبح صديقًا له... تذكر فريدريك الألماني وكيف قادته صداقته له إلى المخدرات، ومن المخدرات إلى التجسس... فإلى أين يقوده هذه المرة ألبرتو إجنازيو هذا الذي يشبه نجوم السينما؟ عندما ناداه نبيل ذات مرة: «سنيور إجنازيو» هتف هذا معترضًا:

- تستطيع أن تناديني ألبرتو.

عندما انتهى الحوار حول الصفقة ومجموع السيارات وما إلى ذلك، قال ألبرتو:

- وكما ترى، لم يعد باقيًا سوى الإجراءات القانونية، وهي إجراءات معقدة بعض الشيء، لكن أنطونيلا سوف تساعدك وتسهل لك الأمور.

- أنطونيلا؟!

هكذا تساءل نبيل فقال ألبرتو:

- هذا هو اسم سكرتيرتك طوال مدة إقامتك في روما، وهي فتاة طيبة ودءوب.

ثم ضحك وهو يدور حول المكتب ويرفع سماعة التليفون كي يطلب رقمًا داخليًا:

- لا يعيبها شيء سوى حيويتها وصرامتها أثناء العمل... أما بعد العمل...

قطع حديثه مع نبيل في التليفون:

- أنطونيلا... إن سنيور جيزي هنا.

قبل أن ينصرف نبيل مع أنطونيلا من مكتب ألبرتو صاح هذا:

- إياك أن ترتبط بأي موعد في المساء، فأنت مدعو الليلة على العشاء.

قادته أنطونيلا إلى المكتب الذي خصص له فوجد نفسه في غرفة كالحلم... في صدر الغرفة مكتب، وأمام المكتب مقعدان وثيران، ومن خلفه ستارة نصف مسدلة على حائط زجاجي يطل على الحديقة العريقة... كانت هناك موسيقى تنتشر ألحانها الخافتة في الجو كي تختلط بشذى ورد وضع على جانب من المكتب بينما زينت الحيطان بلوحات تشي بقيمتها حتى لهؤلاء الذين لا يتذوقون فن التصوير.

وقف نبيل في منتصف الغرفة دهشًا فاغر الفم دون أن ينطق بحرف... انتبه إلى الفتاة التي كانت تقف إلى جواره وكانت ترميه بنظرة اخترقت عظامه حتى النخاع، ابتسم لها فأشارت إلى ملف أنيق فوق المكتب ممتلئ بالأوراق، سبح صوتها إلى أذنيه كالنغم:

- هذه هي الأوراق الخاصة بالصفقة، ولا بدّ من أنك مشوق لقراءة ما فيها.

خطا نبيل نحو المكتب فتابعه صوت أنطونيلا متمسحًا به:

- لقد علمت أنك لا تتقن الإيطالية بالقدر الكافي.

التفت نحوها في دهشة فاستقبلته ابتسامتها في رقة:

- لا تشغل بالك بمثل هذا الأمر، فأنا هنا لتلبية كل رغباتك.

وصلته الرسالة واضحة أشد ما يكون الوضوح، مد يده نحو الدوسيه فاستطردت وهي تشير إلى ظرف متوسط الحجم أنيق اللون والورق:

- أما هذا الظرف الصغير فهو يخصك أنت.

لفتت الجملة نظره وامتدت يده إلى الظرف الذي ما إن لامسته أصابعه حتى تيقن من أنه محشو بالأوراق المالية... رفع عينيه نحو أنطونيلا قالت بابتسامة شديدة العذوبة:

- إنه مصروف الجيب لثلاثة أسابيع مضت.

مرة أخرى تصله الرسالة واضحة فابتسم هامسًا في اقتضاب:

- جراتسي.

- هل تأمر بشيء سنيور جيزي؟!

همّ بشكرها لكنه تذكر إسكالكو فهتف:

- هل أستطيع التحدث إلى سنيور إسكالكو في نابولي؟!

- بالتأكيد.

قالت هذا وهي تستدير مغادرة الغرفة، فوجد نبيل نفسه يهتف بصوت عال: إيه ده؟!

كان موقنًا أشد ما يكون اليقين أن وراء كل هذا يكمن هدف لأبي سليم لا يستطيع الآن إدراكه، ومهما كان الأمر ومهما كان الأسلوب أو الهدف فلا بد له من الاعتراف بأن أبا سليم كان يحقق له أحلامه.. استخفه مع السعادة زهو بالغ فطرد الوساوس من رأسه وفض الظرف فإذا رزمة من ورق النقد الإيطالي من فئة الخمسة آلاف ليرة تطالعه... أعاد الظرف إلى جيبه مبتسمًا فلقد أدرك السر في أن أبا سليم لم يعرض عليه مالًا... انكبّ في حماس فوق الملف وراح يقرأ أوراقه بقدر ما أسعفته معرفته باللغة الإيطالية... دق جرس التليفون وأعلنته أنطونيلا بأن سنيور إسكالكو على الخط... جاءه صوت الرجل مغموسًا في القلق:

- نبيل... أين أنت؟! وأين كنت طوال تلك الأيام؟! ولماذا لم تتصل بي من قبل؟! لقد حاولت الاتصال بك في روما عبثًا فأنا لا أعرف حتى الآن في أي فندق نزلت...

تركه نبيل حتى أفرغ شحنة انفعاله ثم زف إليه بشرى التعاقد على مائتي سيارة بأسعار مجزية تمامًا... سرعان ما ابتلع الرجل قلقه وغلفت اللهفة نبراته وهو يسأل ويستفسر...

راح نبيل يجيبه حينًا ويراوغه حينًا وقد اضطجع في مقعده وهو يدخن في التذاذ، راح ينظر إلى كل ما حوله وقد استعاد ثقته بنفسه... سأله سنيور إسكالكو إن كان في حاجة إلى المال فضحك نبيل قائلًا:

- سوف يصبح عليك أن تدفع مبلغًا طائلًا فيما بعد، فكل الإيصالات والتذاكر في جيبي.

- ومتى تعود إلى نابولي يا نبيل؟!

- عندما أنتهي من كل الإجراءات... إلى اللقاء.

كما يفعل الأمريكيون وأرباب الأعمال وضع السماعة دون أن ينتظر ردًا من الرجل، حاول من جديد أن يفك طلاسم تلك الأوراق التي امتلأ

بها الملف فلم يستطع... طلب أنطونيلا، فجاءته تسعى كي توضح له ما خفي عليه... كانت جادة كل الجد مستقيمة كل الاستقامة مؤدبة غاية الأدب، مضت ساعتان أنجزا فيها الكثير من العمل فأحس برغبة مفاجئة في مغادرة المكان:

- ألا أستطيع أن ألقي نظرة على بعض من تلك السيارات؟!

ابتسم في محاولة للتبسط قائلًا:

- تستطيعين أن تناديني نبيل.

التفتت إليه بسرعة وأطلقت عيناها نظرة كأنها لسان من نار، قالت:

- ليس هنا... ليس في أوقات العمل.

هذا وجه آخر يتسلل إلى حياته فكيف حال مارشيلا، وكيف غاب عنه أن يتحدث إليها أو حتى يسأل إسكالكو عنها، استأذنته أنطونيلا لدقائق فاستغرق في أفكاره، وكان أكثر ما أدهشه أنه تذكر «شيرلي هايمان»... كانت هي البداية، فأين تكون النهاية؟! عندما غادر المبنى إلى الجراج قدمت له أنطونيلا سلسلة صغيرة بها مفتاح واحد، تناولها منها متسائلًا:

- ما هذا؟!

- إنها مفاتيح سيارتك التي ستستعملها طوال وجودك في روما.

قالت هذا وهي تدور حول سيارة أنيقة إيطالية الصنع، دلف إلى السيارة وجلست الفتاة إلى جواره... انتبه نبيل وهو يغادر الجراج بالسيارة إلى سطح الأرض إلى حقيقة غابت عنه وإن كان قد أحس بها... إن هذه الفتاة الجالسة إلى جواره في صمت تتصرف وكأنها تعرفه وتعرف ما يريد بالضبط، بل تكاد تعرف كيف يفكر... راحت ترشده أثناء الطريق حتى وصل إلى ساحة هائلة في أطراف المدينة... ساحة رصت فيها مئات السيارات المستعملة والناس يسعون من حولها وفيما بينها، وهم

يسألون ويجوبون ويتناقشون ويفاصلون وتختلط كلماتهم لتصنع في المكان جوًا خاصًا... استقبله المسئول عن الساحة في حرارة واحترام، لكنه عندما صافح أنطونيلا انحنى على يدها كي يقبلها، فتساءل نبيل سالم: من تكون هذه الفتاة؟!

قادته أنطونيلا إلى مجموعة من السيارات في أحد أركان الساحة، سُوّرت بسور من الحبال وكتب عليها أنها مباعة... كانت الصفقة مجزية إلى حد لا يصدق، كان معنى أن تتحقق صفقة بمثل هذه الأسعار أن سنيور إسكالكو سوف يكسب مبلغًا باهظًا... وجد نبيل نفسه يتساءل، دون قصد منه، إن كان هذا هو الثمن الذي يدفعه الإسرائيليون للرجل كي يسمح لهم باستعماله واستعمال جراچه في نابولي؟!

أزاح الأفكار جانبًا وهو يجري في عقله عملية حسابية عن نصيبه من الصفقة وكان المبلغ الذي سيجنيه فوق كل خيال... حان وقت الغداء فصحبته الفتاة إلى كافتيريا في نفس الساحة تناولا فيها الشطائر الإيطالية مع كأسين من النبيذ... طوال اليوم وحتى عودتهما إلى المكتب، التزمت أنطونيلا بحدود الأدب ولم ترفع الكلفة لحظة... عندما انتهى يوم عمل كامل وهمّ بالانصراف ذكّرته بموعد العشاء مع ألبرتو... أسقط في يده فهو لم يسأل ألبرتو أين سيكون العشاء ومتى سيلتقيان؟... وكأن أنطونيلا قرأت أفكاره.. قالت:

- سألت سنيور إجنازيو عن الموعد والمكان، وكان رده أنه سيمر عليك في الفندق حوالي الساعة السابعة.

ودعها وقاد السيارة إلى الفندق وأخذ يستعد لتلك السهرة، حلق ذقنه وتحمم وارتدى أغلى بذلة عنده... في السابعة وعشر دقائق، دق جرس التليفون، وكان المتحدث ألبرتو من بهو الفندق... عندما التقيا كانت

بصحبة ألبرتو غادة شديدة الجمال... ما إن وصلوا إلى ذلك المطعم ذي الطابع الخاص والذي يقوم عند سفح تل تكسوه الخضرة، حتى سأله ألبرتو:

- أليست لك صديقة في روما؟!

أجاب نبيل بالنفي فصاح هذا مهرولًا:

- أنا آتيك بها.

بعد أقل من نصف ساعة، انضمت إليهم أنطونيلا وكانت ترتدي فستانًا ذا لون شاحب، فكأنها إحدى أميرات الرومان خرجت من التاريخ كي تصحبهم ليلة... كانت أنطونيلا التي جاءت في المساء إنسانًا آخر... كانت... كانت سفينته التي أبحرت به إلى عالم فريد من نوعه.

في تلك الليلة عاش نبيل ساعات وكأنها حلم، أكل وشرب ورقص ومرح، وأحس أن ألبرتو هذا صديق قديم قدم العمر نفسه... ذات لحظة صاح من خلفه صوت أجش عريض كان يرحب بألبرتو الذي نهض إلى صاحب الصوت وكان رجلًا ضخم الجثة ضخم التقاطيع عالي الصوت، قدم ألبرتو الرجل إلى نبيل قائلًا:

- سنيور جارديني، واحد من أهم الصحفيين في إيطاليا.

صافح الرجل نبيل بحرارة، وكان ألبرتو يقدمه للرجل بقوله:

- هذا سنيور جيزي، صديق قديم فرعوني الأصل.

- مصري؟!

هكذا هتف الرجل وهو يقبض على يد نبيل وكأنه يتشبث به، أجاب نبيل:

- نعم.

- هل لك علاقة بالصحافة؟!

كان السؤال مفاجئًا فتلعثم نبيل لثوان لكنه قال:

- ليست علاقة مباشرة على أي حال.

جلس جارديني إلى جواره ملتصقًا به، راح ينفث دخان سيجارته الأمريكية في وجهه، استأذن ألبرتو في كأس فقدمها له هذا، قال لنبيل:

- إن لي صديقًا إنجليزيًا أنشأ في روما وكالة جديدة للأنباء... وهو ليس ثريًا كما أن رأسماله محدود، لكنه يريد مراسلين لمنطقة الشرق الأوسط.

- ولكني لست صحفيًا.

- لقد قلت إن لك علاقة غير مباشرة، فما كنه هذه العلاقة؟!

همَّ نبيل بالرد لكن الرجل لاحقه:

- استمع إليّ جيدًا، إن أدريان صديق عزيز... وهو...

قاطعه نبيل:

- من هو أدريان هذا؟

- إنه صحفي إنجليزي... ألم أخبرك الآن؟!

- وماذا أستطيع أن أفعل من أجله؟

بدا على الرجل التذمر، فنهض بعد أن ابتلع كأسه كاملة وهو يقول:

- إن كنت تعرف من يصلح لأن يكون مراسلًا له في مصر، فلم لا تساعده؟!

قفزت سامية - بالقطع - إلى ذهن نبيل، وكان الرجل يستطرد مشيرًا إلى ألبرتو:

- إن هذا الشيطان الوسيم يعرف كيف يجدني... إلى اللقاء.

قال الرجل هذا ثم مضى... هم نبيل بسؤال ألبرتو، لكن هذا كان قد نهض كي يراقص صديقته وكأن الأمر لا يعنيه في كثير أو قليل... التفت نحو أنطونيلا، وكانت هذه تنظر إليه في عتاب صارخ... دعاها إلى الرقص فلبت الدعوة، احتواها بين ذراعيه فكأنه يحتوي حلمًا، راح يخطو فوق أرض المرقص وكأنه يسبح فوق السحاب.

الفصل الرابع والعشرون

بذور الشك

قالت لي سامية فهمي إنها - في تلك الأيام - اندفعت تجهز للسفر وكأنها تستعد للزفاف، ارتبطت فكرة السفر في رأسها بداية بشراء السيارة... نعم... لكن الفكرة بعد مرور أيام كانت تختمر وتتوالد في ذهنها فإذا هي تكتشف أنها في شوق عارم لرؤية الدنيا خارج مصر... عادت لبعض الكتب فهالها أن إيطاليا زاخرة بما يمكن أن يزار، أصبحت زيارة إيطاليا هدفًا من أهداف السفر حتى قالت لأمها ذات ليلة:

- أنا لازم أزور الأماكن دي يا ماما... مش ممكن أروح إيطاليا ولا أزورش الفاتيكان، وبركان ڤيزوف وبيزا وبرجها المايل وڤينسيا وكنوز الفن اللي هناك.

كانت الساعة قد تعدت العاشرة، وكانا قد تناولا طعام العشاء معًا لأول مرة منذ أيام طالت إلى أسابيع... أمام التلفزيون جلستا وقد تدثرت كل منهما بروب من الكستور، أمام كل منهما كان كوب الشاي تتصاعد منه أبخرة بعثت بالدفء إلى جسديهما وإلى الجلسة معًا... كان من طبع السيدة إقبال حسين أنها إذا ناقشت أمرًا ووصلت في المناقشة إلى نهاية، سواء بالسلب أو الإيجاب، ألا تعود مرة أخرى... غير أن سامية قالت فجأة:

- ماما... أنا عاوزة أتكلم.

ضحكت سامية...

- إنتِ عاوزة إذن؟!

- أيوه.

هكذا قالت سامية وهي تنهض إلى التلفزيون كي تغلقه... عادت إلى مكانها كي تجلس القرفصاء إلى جوار أمها وكأنها عادت طفلة من جديد... أدركت السيدة إقبال ما الذي كانت سامية ترمي إليه، طافت بملامحها سحابة من ضيق، فلم تكن راغبة في مناقشة أمر علاقة ابنتها بنبيل سالم، طردت عنها الضيق وابتسمت قائلة:

- عاوزة تقولي إيه؟!

- عاوزة أناقش فكرة السفر معاكي.

- ما احنا ناقشناها.

- من زاوية واحدة.

- وهو فيه زاوية تانية؟!

وهكذا انطلقت سامية تتحدث عن رغبتها في رؤية تلك المعالم الفنية في إيطاليا، هتفت أمها ذات لحظة:

- تفتكري نبيل حايسيب شغله علشان يوديكي الحتت دي كلها؟!

- ونبيل ما له يا ماما؟!

- أمال حاتجيبي فلوس منين؟!

- ما أنا مسافرة ومعايا فلوس.

- علشان تشتري بيها عربية.

- ما هو ده اللي أنا عاوزة أتكلم معاكي فيه.

هكذا اعتدلت السيدة إقبال حسين ملتفتة بكُليتها نحو ابنتها.

- إتكلمي يا سامية.

- أولًا أنا مش حاسمح لنبيل إنه يدفع لي قرش صاغ واحد لا في اللوكاندة ولا في الفسح ولا في تمن العربية.

- يا بنتي لاحظي إن...

- عارفة إن الفلوس اللي حاخدها يادوبك تجيب عربية أي كلام وتكفيني كام ليلة في لوكاندة درجة تالتة.

- يبقى مفيش قدامك غير إنك يا تشتري العربية.. يا تتفسحي.

- إنتِ إيه رأيك؟!

اجتاحت ملامح السيدة إقبال ابتسامة عبرت عن سعادة تفوق الوصف، انطلق من عينيها وهي تحتضن ابنتها بنظراتها ذلك البريق الذي اختفى طويلًا... قبل أن تجيب، طافت بملامح سامية سحابة من هَمٍّ مكبوت اعتدلت في جلستها، ومدت يدها إلى كوب الشاي قائلة:

- مش بس كده يا ماما... فيه حاجة تانية أهم من الفسحة.

- إيه هي؟!

- أنا لو رحت إيطاليا، حاعرف نبيل عايش إزاي هناك.

توقفت لحظة وتطلعت إلى أمها بنظرة متوسلة.

- إسمعيني للآخر يا حضرة الناظرة أنا ما ليش حد غيرك أتكلم معاه.

- قولي يا بنتي... قولي.

- نبيل لما جه هنا كان باين عليه مرتاح قوي... كان بيبعزق الفلوس ببساطة غريبة.

لزمت السيدة إقبال الصمت، راحت تتطلع إلى ابنتها التي استطردت:

- هو كان مرتاح من بره... إنما من جوه..

قالت هذا ثم صمتت، ولم تكن في حاجة إلى أن تكمل فقالت السيدة إقبال:

- أمر طبيعي.

- ليه؟!

- لأنه عايش في غربة، ولأن الشغل في البلاد دي محتاج لحاجات كتير إحنا ما نعرفهاش.

- أهو أنا عاوزة أسافر علشان أعرفها.

- إنتِ حاتسافري إمتى؟!

- الڤيزا حاتطلع بكره.

- ونويتي على السفر إمتى؟!

- مش عارفة يا ماما... مش عارفة.

قالت هذا وهي تميل برأسها نحو صدر أمها، وكان الصدر في استقبالها بكل ما يملك من حنان.

* * *

انقضت خمسة أيام ونبيل يعمل بلا كلل توطدت علاقته بألبرتو كما كانت أنطونيلا هي ذراعه اليمنى... سافر إلى تلك المدن التي كان من المفروض أن يسافر إليها... عاين السيارات وشاهد الفنادق التي كان من المفروض أنه نزل فيها... كان يعمل ويعمل بحماس ونشاط وكأنه يهرب من واقعه إلى واقع صنعه لنفسه حتى استطاع أن يلم بالكثير من خفايا تجارة

السيارات المستعملة وخباياها... حتى إذا كان صباح دق جرس التليفون فوق مكتبه وعندما رفع السماعة جاءه صوت أنطونيلا تقول:

- هناك من يُدعى سنيور باروخ يريد التحدث إليك.

انقبض قلب نبيل بعنف وقد أعاد إليه اسم باروخ ذكرى أيامه الأولى في إيطاليا ووجه ذلك الرجل الذي ظل يعتصره لعشر ساعات كانت هي العذاب المقيم، عندما حولت أنطونيلا الخط التليفوني إليه جاءه صوت أبي سليم:

- إزيك يا بلبل؟

كان يعلم أن أبا سليم لا يحدثه إلا إذا كان هناك ما يدعو إلى ذلك، ترك له قيادة الحديث حتى سأله الرجل إن كان قد ذاق البيتسا الإيطالية الأصلية، كان السؤال غريبًا، لكن نبيل أدرك أن الرجل يريد أن يلتقي به... التقيا في المساء وصحبه الرجل إلى مطعم خارج المدينة بدا له وكأنه قصر صغير من تلك القصور الرومانية التي يرجع تاريخها إلى قرون مضت... كان المطعم منعزلًا في غابة صغيرة، ما إن دلفا إليه حتى قوبلا بعاصفة إيطالية من التحيات أطلقها صوت أجش لرجل ضخم الجثة ضخم التقاطيع لا يكف عن تدخين اللفائف الأمريكية، كان الرجل هو السنيور جارديني الذي صافح نبيل بحرارة وكأنه صديق قديم، وتلعثم نبيل وهو يرى نظرات أبي سليم تنطلق من عينيه كالشرر تهرّب من الرجل، أمسك بذراعه قائلًا:

- لقد أخبرت أدريان بالحديث الذي دار بيننا وهو في انتظار رد منك.

ما إن جلس نبيل إلى جوار أبي سليم حتى زمجر هذا من بين شفتيه:

- إيه الحكاية؟!

ألقت نظرات أبي سليم وصوته الرعب في قلب نبيل الذي قال:

- ده راجل قابلته وأنا باتعشى مع ألبرتو أول ليلة.

- وما قلتليش ليه؟!

- لأني ما شفتكش غير النهارده يا ابو سليم.

بعد دقائق احتلت زجاجة من النبيذ الفاخر مكانها فوق المائدة، وكان نبيل قد بدأ يقص على الرجل كل ما فعله وما صادفه وما مر به وما حدث طوال تلك الأيام التي انقضت... حتى إذا وصل إلى حديثه عن السنيور جارديني وما دار بينه وبين ألبرتو من حوار قال أبو سليم وعيناه تلمعان وكأن الفكرة فاجأته:

- والله فكرة.

- هي إيه اللي فكرة يا ابو سليم؟!

- إنت مش بتقول إن سامية حاتيجي علشان تشتري عربية؟!

- ده اللي قالتهولي في مصر.

- خلاص... لما تيجي عرفها على جارديني أو أدريان ده وآهي تكسب لها قرشين كويسين.

همَّ نبيل بالحديث فاستطرد أبو سليم:

- وبدل ما تشتري عربية كهنة، تشتري عربية عليها القيمة.

- طب إزاي أعرفها بيهم وأنا حابقى في نابولي؟!

- بسيطة.

- إنت مش لك مكتب في الشركة هنا مع ألبرتو؟!

- أيوه.

- وسكرتيرة؟!

- أيوه.

همّ أبو سليم بالحديث فلاحقه نبيل:

- إوعى تنسى إن ده كله مرهون بفترة وجودي في روما، وأنا ما أعرفش سامية جاية إمتى.

- ما هو سامية لو جت، إنت لازم تستقبلها في المطار.

- تمام.

- وبعد ما تتم الصفقة، حايبقى من حقك تطلب من إسكالكو أجازة كام يوم.

- وافرض.

- خلص صفقة السيارات... إنما ما تسحبهاش كلها.

- يعني إيه؟!

- أكيد حاتلاقي كام سيارة عاوزين شوية تصليح أو إعادة نظر.

- ولما آجي روما، أقدر أستعمل المكتب.

- والسكرتيرة كمان، لأنه حايبقى عاوز يخلص منك!

أضاءت الفكرة في رأس نبيل تمامًا، راح ينظر إلى أبي سليم في دهشة وخوف معًا، كان تفكير الرجل شيطانيًا إلى حد يبعث على الذهول، بدا لنبيل داهية يستطيع أن يطوع كل شيء وأي شيء لما يريد... جاءت فطائر البيتسا وهو مستغرق في حلم فرض نفسه عليه فرضًا، تخيل سامية وهي تخطو إلى الشركة وتمر بأنطونيلا وتدلف إلى المكتب وترى ألبرتو... انتبه ذات لحظة فإذا أبو سليم قد انكب بكُليته وراح يلتهم فطيرة البيتسا بشراهة وهو يحتسي النبيذ بين لقمة وأخرى وكأنه لم يأكل منذ أسابيع... أدرك أن كل شيء قد أصبح واضحًا أمام عينيه ليس في حاجة إلى تفسير أو إعمال فكر... أدرك أن كل ما حدث منذ وصل إلى إيطاليا كان مخططًا، أحس - بشكل بدا له في البداية غامضًا - أن هناك مخططًا دقيقًا ليس كل هؤلاء - حتى هو - سوى أدوات تسعى لتحقيق هذا المخطط... وأحس، بل أيقن أن سامية لا بد آتية، مثله، إلى قدرها... فانتابته راحة عميقة، زفر

بعدها وهو يرشف من كأس النبيذ رشفة، وقبل أن يبدأ طعامه، قال أبو سليم وكأن الأمر مجرد شيء عارض:

- تعمل حسابك تسافر بكره على نابولي.

همَّ نبيل بالاعتراض لكن الرجل أردف:

- إسكالكو بدأ يقلق.

فأطبق شفتيه، فلقد كان مدركًا أنه الآن لا يملك سوى الطاعة العمياء.

* * *

قالت سامية فهمي لعادل مكي إنها يوم أن ركبت الطائرة من القاهرة إلى روما لأول مرة، كانت تشعر فعلًا بأنها تطير فوق السحاب، لم يكن ذلك الإحساس وبعد ذلك الواقع الذي تراه بعينيها والطائرة - بالفعل - تخترق ركام السحب التي تلبدت بها سماء القاهرة إلى ما فوق السحاب، ولا منظر السحب من الناحية الأخرى المواجهة للسماء الذي كانت تراه لأول مرة، ولكنه، إحساس آخر تمامًا إحساس داخلي امتلأت به نفسها.

ففوق أنها كانت تغادر مصر لأول مرة في حياتها إلى الخارج، إلى أوربا ثم ذلك الإحساس الفياض الذي استجلبه خيالها وهي تتصور نبيل يقف في المطار في انتظارها كانت هناك تلك الخطط التي وضعتها لمشاهدة تلك المعالم التي طالما قرأت عنها، وهذا الخليط الغريب من اللهفة والخوف والترقب والأمل، كل هذا جعلها وكأنها بالفعل تسبح فوق السحاب... كانت سامية فهمي سعيدة بالرغم من كل ما كان ينتابها من شكوك راحت تردعها بعنف وتخفيها عن وعيها في أعمق أعماقها.

وعندما أعلنت المضيفة عن قرب هبوط الطائرة في مطار روما، كان قلب سامية يخفق بعنف وهي تطل من النافذة على تلك المدينة العريقة من الجو.

وعلى كلٍّ... فما كادت سامية تخرج إلى ساحة المطار الخارجية، حتى وجدت نبيل هناك، كان يبدو أنيقًا وسيمًا باسمًا مفتوح الذراعين، وبالرغم من كل ذلك، فلقد أجفل شيء في أعماقها... وهي لا تدري لم أجفلت بالتحديد، كل ما استطاعت أن تصل إليه، هو أنها - مرة أخرى - لم تجد نبيل الذي عرفته... كان هذا الذي يستقبلها يبدو وكأنه شابٍ آخر، ربما كان شابًّا إيطاليًّا، أو مكسيكيًّا، أو يونانيًّا... لكنه ليس مصريًّا بأي شكل من الأشكال.

وعندما رأت سامية في عينيَّ نظرات تتساءل قالت:

- مش الهدوم بس اللي كان لابسها على آخر موضة، لكن... لكن تصرفاته، وحركاته، وحتى لغته وكلامه مع الناس، مكانش فيها نبيل اللي أنا عرفته واللي أنا حبيته.

وعندما تحدثت إلى عادل مكي في هذا الأمر، ابتسم وهو يقول إن تقديره الشخصي إن هذا الإحساس بالذات، كان درعًا وقى سامية شر الغفلة، وكان تفسيره البسيط والعميق في نفس الوقت هو:

- أصل سامية بنت مصرية، مصرية قوي وهي لما أحبت، أحبت شاب مصري زيها، وكانت عايزة الشاب ده بالذات، مكانتش عاوزة شاب طلياني بيتصرف وبياكل ويشرب وبيتكلم زي الطلاينة.

صمت عادل مكي بعدها قليلًا وكانت ابتسامته لا تزال معلقة فوق شفتيه، ثم أردف بعد قليل:

- وهي دي الغلطة الكبيرة اللي وقع فيها أبو سليم.

ولم يزد حرفًا فوق ذلك.

* * *

كانت المدة التي غاب فيها نبيل سالم عن نابولي حوالي شهر، ولكنها كانت كافية تمامًا لأن يعود إلى المدينة التي شهدت البدايات الأولى

لنشاطه المُعادي لوطنه، والتي خَبَرَها وعرف شوارعها ودروبها وكون فيها صداقات وعلاقات... وكأنه تحول إلى إنسان آخر تمامًا.

بداية...

كانت زيارته لمصر، وإحساسه بأن أحدًا لم ينتبه إليه ولم يعرف عنه شيئًا خاصة مع تشعب علاقاته وكثرتها مع المصريين الذين كانوا يفدون إلى نابولي لشراء سيارات، قد أمدته بكم هائل من الإحساس بالأمان والثقة بالنفس... ثم كانت علاقته بألبرتو إجنازيو، ذلك الشاب الذي كان يدير وكالة هائلة لبيع وشراء آلاف السيارات المستعملة، قد أمدته بإحساس واثق بالندية، ذلك أن ألبرتو لم يبخل عليه بالنصيحة أو إزجاء الخبرة، مما جعله يخوض في أسرار تلك التجارة المعقدة والمركبة... كل هذا جعله يشعر بالفارق الكبير بين ألبرتو وبين سنيور إسكالكو، مخدومه في نابولي، والرجل الذي أعطاه الفرصة الأولى في إظهار مواهبه.

وإذا كانت مارشيلا، تلك الفتاة التي بدت اللهفة في كل حركة من حركاتها وسكنة من سكناتها، قد أبدت مع اللهفة حبًا وغيرة اشتعلت في صدرها، فراحت مع العتاب تضيق عليه الخناق، وتسأله عما فعل في روما، ومن عرف من الفتيات ومن صادق منهن... إذا كانت مارشيلا قد فعلت هذا، فلقد أمده ذلك أيضًا بإحساس متعاظم بالثقة جعله يشعر أنه يخطو لأول مرة في حياته، فوق أرض صلبة، وأنه قادر على اكتساب القلوب وإبهار الآخرين.

عاد نبيل سالم إلى نابولي كي يجد لهفة من الجميع على عودته، لهفة من إسكالكو ومارشيلا والموظفين والسماسرة والمصريين الذين انتظروه طويلًا والذين عقدوا معه صداقات والوافدين بحثًا عن سيارة... غير أن أكثر الجميع تعبيرًا عن تلك اللهفة، كان السنيور إسكالكو الذي استقبله بترحاب عاصف واحترام بالغ وهو يمطره بعشرات الأسئلة عن

الصفقة والسيارات وعددها وما تم وما حدث والأثمان وموعد شحن الدفعة الأولى...

غمغم نبيل:

- لقد كانت الرحلة شاقة بكل المعاني.

رد إسكالكو واضعًا نظراته في عيني الشاب الجالس أمامه:

- إن أصدقاءك من المصريين كانوا متلهفين على عودتك... إن الكثيرين ممن جاءوا عن طريق البحر، أحجموا عن الشراء إلى حين عودتك.

قال نبيل وثقته بنفسه تتزايد:

- وها أنا قد عدت سنيور إسكالكو.

رد الرجل وكأنه يمنحه وسامًا:

- تستطيع أن تناديني چيوڤاني.

وهكذا... وعندما كان نبيل سالم يجلس إلى أبي سليم بعد يومين في مسكنه ذاك المتواضع الذي كان لا يزال يشغله، كان يتيه فخرًا وسعادة بما أحرزه من نجاح هنا وهناك... راح يقص على الرجل كل ما حدث منذ أن وصل إلى نابولي، وفيما هو مستغرق في الحديث عن انتصاراته المتتالية، فاجأه الرجل وكأنه يرده إلى حيث يجب أن يكون:

- اتحاسبت مع إسكالكو ولا لسه؟!

هتف نبيل:

- طبعًا... وبصراحة الرجل اداني حقي على داير ليرة.

- أخذت كام؟!

كان السؤال طبيعيًّا من أبي سليم، لكن الأسلوب الذي ألقاه به، جعل نبيل يجفل لثوان وهو يتلقى نظرات تلكما العينين النفاذتين اللتين انطلقت منهما تلك النظرات التي جعلته يهتف:

- إيه الحكاية يا ابو سليم؟!

لم يجب أبو سليم، فقط، راح يرمي نبيل بتلك النظرة التي جعلته كمن يتلوى ألمًا... كانت نظرة ترد كل شيء إلى أصله، وتعيد كل شيء إلى نصابه... وإذا نبيل في لحظة تعيسة يدرك أن قيمة كل ما أحرز من نجاح مرتبطة برضاء أبي سليم وموافقته... كان المبلغ الذي حصل عليه نبيل ضخمًا بكل المعاني، وكان چيوڤاني إسكالكو قد قدم له شيكًا لم يصرفه نبيل بأكمله، بل فتح به حسابًا في نفس البنك الذي صدر إليه الشيك... ولقد رضخ نبيل وهو يذكر كل شيء لأبي سليم، فإذا الرجل يقول:

- مش ناوي تسدد حاجة من اللي عليك؟!

قفز نبيل من مكانه صارخًا:

- بقى ده معقول يا ابو سليم؟!

- إيه هو اللي مش معقول؟!

- والشغل اللي أنا عملته في مصر... والأسامي اللي أنا محضرها لك عن المصريين اللي هنا؟!

- على عيني وراسي، بس انت ناسي حاجة مهمة قوي.

- إيه هي؟!

وبقدر ما كان نبيل متوترًا منفعلًا، كان أبو سليم هادئًا هدوءًا خافت الصوت يرسل إلى الفتى نظرات كانت شديدة الوطء على نفسه، مرت لحظات بدت مثل دهور، وكان نبيل يشعر وكأن عشرات الأطنان تقيده إلى واقع شديد البشاعة، تكشفت له الحقيقة بأنيابها تسخر منه. فإذا هو أمام لا نجاح حاول أن يخدع نفسه به... قال أبو سليم وهو يشعل سيجارة:

- إنت عارف إنت فاضل عليك كام مارك؟!

- مهما كان.

- لسه فاضل مبلغ كبير.

- يعني إيه يا ابو سليم؟!

ولدهشته البالغة، شعر نبيل سالم في داخله بذلك الانهيار الغريب والمهين يقتحم كل ما بنى من ثقة في نفسه كي يهدمها، أحس أنه لم يملك شيئًا حيال حياته ومستقبله، وأنه مقيد إلى هذا الرجل الشيطاني التفكير... وجد نفسه يعود إلى مقعده وقد تبدد انفعاله وهو يقول كمن يتوسل:

- خلي مكسبي من العربيات ليَّ يا ابو سليم، واخصم الدين من الشغل.

في بساطة مذهلة، قال أبو سليم:

- براحتك.

هكذا انتهى الأمر، وهكذا تنفس نبيل الصعداء، لكنه أدرك بعد لحظات شديدة القصَر، أنه وقع في فخ رهيب، وخبيث... وأن عليه أن يخون ويخون ويخون... بلا مقابل سوى الهوان.

* * *

كان نبيل يقف في مطار روما في انتظار سامية فهمي، وهو موقن أشد ما يكون اليقين، بأن أبا سليم هناك، في مكان ما من المطار، يربض كالثعلب ويرقب ما يحدث... وهو لم يكن يدري لمَ انتابه ذلك الإحساس، ربما لأن أبا سليم، في الليلة السابقة، كان قد دعاه إلى العشاء - شأنه كلما أراد منه القيام بمهمة خاصة - وراح يثرثر معه كالعادة ملقيًا إليه آخر تعليماته التي كان يقولها وكأنها جاءته عفو الخاطر... لكنه في تلك الليلة بالذات - هكذا قال نبيل فيما بعد - لم يستطع التظاهر باللامبالاة طويلًا، أو بأن الأفكار تأتيه عفو الخاطر... بل راح يلح، وفي وضوح أدهش نبيل وكشف عن اهتمامه البالغ، على ضرورة اتباع تعليماته بدقة متناهية.

كان على نبيل أن يرحب بسامية ترحيبًا يبث في نفسها السعادة، وأن يمد لها في حبال الأمل كيفما أراد دون أن يرتبط معها بموعد أو كلمة،

وكان عليه أن يحقق لها كل رغباتها وأن يدفعها إلى أن تطلب أكثر، وأن يصحبها في جولة تشمل كل معالم روما القديمة والحديثة معًا وأن... وأن... وأن... مما اضطر نبيل إلى مقاطعته قائلًا:

- حيلك يا ابو سليم.

- إيه ما لك؟!

- الفلوس اللي مع سامية مش ممكن تقضي الحاجات دي كلها.

- وانت رحت فين؟!

- ما أنا قلت لك قبل كده إن سامية ما تحبش حد يدفع لها قرش.

- طب وماله؟!

- ومالو ازاي... دي جاية تشتري عربية، وأكيد الفلوس اللي معاها يا دوبك تغطي تمن العربية وأجرة اللوكاندة.

- وهي حاتشتري العربية يوم ما توصل؟!

- لأ طبعًا.

- خلاص... على ما تلاقي العربية المناسبة، لازم تفسحها.

همّ نبيل بالحديث لكن أبا سليم استطرد في لهجة آمرة:

- ولازم تنزلها في لوكاندة عليها القيمة.

هنا هتف نبيل محتجًا:

- لحد هنا أنا مش فاهمك.

بوضوح صارخ ولهجة جافة ونبرة حادة قال أبو سليم وكأنه يضع كل النقاط فوق كل الحروف:

- لأنك مش عاوز تفهم... ولا عاوز تتعلم.

الفصل الخامس والعشرون

لحظات بَيْن عَينَيه

عاد إلى نبيل ذلك الإحساس المرير بالضعة أمام الرجل، فتراجع انفعاله وهو يقول:

- طب فهمني يا ابو سليم.

- لو فلوس سامية خلصت قبل ما تشتري العربية، حاتجيب فلوس منين؟!

- وهي تعرف حد غيري في إيطاليا؟!

- طب ما تقول لنفسك.

كانت ملامح نبيل تبدو الآن مبعثرة فيما بين آلاف المشاعر والأحاسيس التي راحت تحتدم في صدره لحظة بعد أخرى، وكل شيء يتكشف له فجأة، وكأن ضوء ألف شمس قد سلط عليه... جاءه الآن صوت أبي سليم وكأنه يأتي من أغوار سحيقة، صوت عميق شرير بكل ما تحمل الكلمة من معنى:

- وفي الحالة دي، حاتفضل انت البطل بتاعها على طول.

لم يكن هناك ما هو أحب إلى نبيل من هذا، لكنه، وقد اكتسب بعضًا من شر أبي سليم، واجه الرجل وكأنه يعود إلى الحياة بعد أن شارف على الموت:

- خلاصة القول إنت عاوز سامية فهمي بأي ثمن.

أطلقت عينا أبي سليم تلك النظرة المخيفة، لكن نبيل استطرد غير مبال:

- وأنا بالطبع معنديش مانع... بس اللي أوله شرط، آخره نور.

- قصدك إيه يا نبيل؟!

- قصدي إني سافرت مصر وعملت لكم شغل كويس وجبت معايا معلومات مهمة و... و...

قاطعه أبو سليم وقد عادت إلى شفتيه - لدهشة نبيل - ابتسامته الواسعة:

- مانا قلت لك.

- قلت لي لما تيجي سامية، وأهي سامية جايه أهيه.

- طب إنت عاوز إيه دلوقت؟!

- عاوز حقي يتخصم من الدين اللي عليّ.

قبل أن يرد أبو سليم، هتف نبيل مردفًا:

- وعايز حقي المرة دي على قد الشغل اللي أنا عملته.

* * *

قال لي عادل مكي وهو يتحدث عن تلك المرحلة... إن نبيل سالم كان قد بدأ يفهم ألاعيب أبي سليم، وكان أبو سليم - بالتالي - مدركًا لهذا كما كان مستعدًا له... ففي الوقت الذي ظن نبيل أنه يصارع أبا سليم وينتصر عليه، لم يكن يدرك أن هذا بالضبط ما كان يبغيه أبو سليم... أن يعلن نبيل

عمالته له في وضوح ودون لف أو دوران، ولقد وقع نبيل في الفخ، وسار بنفسه إلى المصيدة التي نصبها له الرجل... ومنذ تلك اللحظة، أصبح للعلاقة بينهما شكل جديد، شكل كان نبيل يتعامل فيه مع ضابط المخابرات الإسرائيلي كعميل محترف، واضح العمالة... وكان هذا بالقطع في حاجة إلى نوع آخر من المعاملة... وأسلوب جديد في السيطرة.

* * *

بالرغم من ذلك الإحساس الواضح الذي انتاب سامية فهمي تجاه نبيل سالم منذ اللحظة الأولى للقائها به في مطار روما، ذلك الإحساس الغامر بأن هذا الشاب المتألق ليس هو شابها المصري الذي أحبته، إلا أنها عاشت الأيام الثلاثة الأولى في روما، أجمل أيام عمرها على الإطلاق.

ومنذ التقيا في المطار نشبت في صدرها معركة ضارية بين إحساسها هذا الغريب والوافد، وبين حبها الذي كان يقاوم كل محاولة منها لعزله عما يحيطه من أحداث أو ظواهر، أو وضعه في الإطار الصحيح... وهي، ما إن ركبت إلى جوار نبيل في تلك السيارة الأنيقة التي خصصها له ألبرتو إجنازيو مدير وكالة السيارات، حتى عبّرت عن هذا الإحساس هاتفة في مرح:

- إيه الشياكة دي كلها أيها الشاب؟!

- شياكة إيه بس يا سامية؟!

- مش الهدوم بس يا فتى... العربية كمان.

- دي حاجة عادية جدًّا بالنسبة لأي واحد بيشتغل هنا.

كانت الجملة موحية بقدر كاف، ورغم بساطتها البادية، كان لا بد لها أن تدفع سامية، أو من يستمع إليها إن كان من مصر، إلى المقارنة بين هذا الذي يعيشه شاب مثل نبيل في روما، وبين أمثاله الذين يعيشون في مصر، وتصبح أعظم أحلامهم هي السفر إلى الخارج لشراء مجرد سيارة مستعملة

وبشق الأنفس... لم تكن سامية فهمي بطبيعة الحال تعرف أن نبيل سالم كان بجملته تلك يخطو خطوته الأولى في ذلك المخطط الجهنمي الذي وضعه له أبو سليم للإيقاع بها في براثنه... وعلى كلٍّ، فمع فتاة مثل سامية، كان لا بد للحوار أن يستمر طوال الطريق من المطار إلى المدينة. وكان لا بد لسامية أن تشرح وتحلل وتقارن وتتحدث عن أقدار الشعوب... حتى قال نبيل في لحظة:

- يظهر إنك اتعودتي على اشتراكية الفقر بتاعة جمال عبد الناصر.

التفتت نحوه في عنف وهي تهتف محذرة منذرة:

- نبيل.

كان نبيل متوقعًا رد الفعل هذا، ولذلك فلقد ضحك تلك الضحكة التي تعودتها منه كلما أراد مداعبتها، في تلك الليلة أوصلها إلى ذلك الفندق الصغير الشديد الأناقة المنزوي في أحد شوارع روما الجانبية، فكأنه فندق من نوع خاص...

كان هذا فندقًا من نوع خاص بالفعل، كانت صاحبته إسرائيلية تتحدث العربية في طلاقة، لكن سامية لم تعرف ذلك بطبيعة الحال، وكانت الموساد، في أحيان قليلة جدًا، وخاصة جدًا، تستعمله لاستضافة هؤلاء الذين تريد أن تتعامل معهم معاملة من نوع خاص أيضًا.

دعاها نبيل إلى العشاء فإذا هي تحيا معه حبها خالصًا... في تلك الليلة لم يعد نبيل إلى الحديث في السياسة، وطوال اليومين التاليين حملها على أجنحة الحب إلى كل ما أرادت أن تشاهده في روما، من الكولسيوم إلى الڤاتيكان إلى النافورة حيث ألقت بقطعة برونزية من العملة وهي تتمنى النصر لمصر، هامت سامية في ثنايا تاريخ إيطاليا الحافل، وقفت أمام كنوز الڤاتيكان مبهورة، تذكرت جاليلو جاليلي الذي حكموا عليه بالموت حرقًا عندما قال بدَوَرَان الأرض حول الشمس، في الكولسيوم دمعت عيناها

فسخر منها نبيل، ذكّرته بشهداء المسيحية الأوائل الذين ذهبوا طعامًا للسباع، في تلك الليلة ولفرط انفعالها، أسَرّت إلى نبيل بأحلامها في زيارة فلورنس وبيزا وڤينسيا ساحرة الأدرياتيك، فرش لها نبيل الأرض بالورد، وطوال ثلاثة أيام لم يكن له من عمل سواها، حتى إذا كانت الليلة الثالثة بعد وصولها طلب منها أن ترتدي أجمل ما تملك من ملابس... هتفت به متسائلة:

- إشمعنى؟!

- لأن النهارده آخر يوم في إجازتي، وأنا عازمك على العشا قبل ما أرجع للطاحونة اللي باشتغل فيها.

كان نبيل بقوله هذا ينفذ تعليمات أبي سليم في دقة... لكنه لم يكن يدري أنه كان أيضًا يجيب عن أسئلة طالما داعبت رأس سامية وحيرتها في نفس الوقت... كانت تعلم أنه يعمل في نابولي، وكان بقاؤه معها في روما، أو بقاؤهما معًا فيها، وتفرغه الكامل لها ومصاحبته إياها من الصباح حتى المساء، من شأنه أن يثير دهشتها وتساؤلاتها التي راحت تتراكم في رأسها وتغذي شكوكها تلك الغامضة والمحيرة... فسألته:

- هو انت كنت في أجازة؟!

- أمال كنت حافسحك إزاي؟!

- دا انت لسة جاي من أجازة في مصر أسبوعين.

- معلش... أصل هنا كله بتمنه يا سامية.

أحست بالذنب فقالت:

- أنا عطلتك عن شغلك يا حبيبي؟!

ولم يجب نبيل، لكنه أعطاها عنوان البناية التي تشغل وكالة السيارات واحدًا من طوابقها، كما أعطاها أرقام التليفونات، وشرح لها كيفية الوصول

من فندقها إلى مكتبه... ثم طلب منها أن تزوره في الثانية عشرة ظهرًا كي يتناولا طعام الغداء معًا.

ظلت سامية صامتة وهي تحملق فيه وقد اضطربت اضطرابًا شديدًا، عادت الشكوك تعصف بها وكانت ترى أنه لا مبرر لها... سألها نبيل وقد أدهشه سهومها:

- ما لك يا سامية؟

- عاوزة أسألك سؤال محيرني.

- إتفضلي.

- اللي أنا أعرفه إنك بتشتغل في نابولي... ودلوقت أنت بتفاجأني بأنك بتشتغل هنا.

كان نبيل ينظر إليها باسمًا، همس منفعلًا بالفعل:

- إنتِ قلقانة عليَّ يا سامية؟!

- قوي يا نبيل.

- طب انتي عاوزة تعرفي إيه؟!

- عاوزة أعرف إنت بتشتغل هنا ولا في نابولي؟!

أطلق نبيل ضحكة صاخبة مرحة وهو يقص عليها قصة صفقة السيارات التي اضطر إلى البقاء في روما بعد عودته من مصر كي يبرمها، وكيف نجح، وكيف أبرمها بالفعل، وكيف اكتشف أن هناك بعض التفاصيل الخاصة بعدد من السيارات اضطرته للعودة إلى روما من جديد، كانت القصة محكمة كما كانت مقنعة لسامية... لكنها بالنسبة لنبيل بدت له عبقرية وهو يتذكر هذا الذي دفعه إليه أبو سليم دفعًا، كي يأتي كل شيء متقنًا لا ثغرة فيه... ولقد كانت سامية الآن منفعلة حقًّا، تشعر بالذنب تجاه شكوكها هذه

المتتالية، في حنان مدت يدها كي تمسك بيد نبيل وهي تهمس، وكان قلبها قد تربع على شفتيها:

- أنا باحبك قوي يا نبيل.

* * *

كانت سامية فهمي سعيدة حقًّا بهذا الذي قاله نبيل، والذي بدد شكوكها وقلقها وبعث بالطمأنينة إلى نفسها... وهي - عندما تحدثت في هذا الأمر - لم تكن تشك في ولائه لوطنه أو إخلاصه له، بل إن هذا الأمر لم يخطر ببالها لحظة واحدة، هي... هي كانت تخشى أن يكذب عليها أو أن يكون مرتبطًا بعمل مشين من تلك الأعمال التي مارسها الكثيرون ممن هاجروا إلى الخارج وقبلوا أن يكونوا خدمًا عند الأجانب، ورفضوا أن يعيشوا في بلادهم أسيادًا... كانت سامية فهمي سعيدة مقتنعة بما قاله نبيل، لكنها أيضًا كانت سعيدة لأنها سوف تتخلص منه أخيرًا بعد أن عاشت تحت جناحه لثلاثة أيام شعرت فيها وكأنها طفل يتعلم المشي... عندما التقيا في المساء كانت جميلة ذلك الجمال الذي ينبئ عن عقل صاحبته... صحبها في سيارته إلى واحد من تلك المطاعم الفاخرة التي لم تحلم يومًا بارتيادها، صارحته بسعادتها لأنها سوف تتخلص منه منذ الغد وهما يحتلان مكانيهما حول مائدة صغيرة في ركن من المحل... ضحك نبيل وهو يقول لها إنها منذ الغد تستطيع أن تفعل ما تشاء، لأنه يظل مشغولاً في عمله طوال اليوم وفي بعض الأحيان تمتد ساعات العمل إلى وقت متأخر من الليل إذا كان هناك عملاء من مدن بعيدة... قال لها إنه قد يضطر في الأيام القادمة، وحسب سير المفاوضات بالنسبة لصفقة السيارات، أن يسافر إلى إحدى المدن البعيدة وقد يغيب فيها يومًا أو يومين... قالت سامية وقد أحست بالقلق:

- أمال أشوفك إزاي يا نبيل؟!

- إلا تشوفيني إزاي... هو مفيش تليفونات في روما، ولا انتي فاكرة إن التليفونات هنا بتعطل زي مصر؟!

عاد من جديد يضغط على ما لا تحب أن تسمع فغاضبته:

- وبعدين معاك؟!

أجابها بابتسامة ساخرة فمالت نحوه وقالت له عبر المائدة:

- إنت نسيت إنك مصري؟!

هرب من الموضوع ببراعة إلى الحديث عما ظنت أنه نسيه تمامًا... قال:

- ما تنسيش إننا بكره حنَّاقش موضوع عربيتك وانتي عندي في المكتب.

- تو ما افتكرت.

- كل شيء في وقته يا سامية.

- لاحظ إني عاوزة عربية على قد حالي، مش سراية زي اللي انت راكبها.

ما كاد يفتح فمه بالحديث حتى دوت في المكان صيحة رجل ثقيل اللسان:

- ها أنت أخيرًا أيها الشيطان المصري الماكر.

التفتت سامية إلى حيث رأت صاحب الصوت.

كان رجلًا ضخم الجثة هائل التقاطيع عريض الصوت أجشه... وكان يدخن كقطار، ويترنح وكأنه شرب أطنانًا من الخمر... وكان يقبل على نبيل الذي قدمه لها بالعربية قائلًا:

- سنيور جارديني، واحد من أكبر الصحفيين والمعلقين السياسيين في روما.

مال جارديني نحو نبيل حتى كاد أن يلتصق به وهو يشير إلى سامية:

- ماذا قلت لهذه الحسناء عني... وبأية لغة تحدثت معها.

ابتسم نبيل وهو يقدم له سامية بالإيطالية:

- سنيورينا فهمي... سامية فهمي، صحفية مصرية.

وكانت المفاجأة التي أدهشت سامية، وأسعدتها لدقائق، أن الرجل أمسك بتلابيب نبيل مداعبًا وهو يصيح بالإنجليزية:

- ألم أطلب منك مندوبًا بوكالة أدريان تومسون: الشرق الأوسط؟!

ضحك نبيل، كما ضحك جارديني وهو يلتفت نحو سامية منحنيًا متحدثًا بإنجليزية طلقة:

- آنستي... اغفري لي تطفلي ولكن، صديقك هذا يَعِدُ ولا يفي بوعوده.

- ألا تجلس معنا قليلًا بدل هذا الضجيج الذي يلفت الأنظار؟!

هكذا طلب نبيل من الرجل الذي سرعان ما سحب مقعدًا جلس عليه إلى جوار سامية وهو يقول بصوته المتلعثم:

- هل تتصورين أنني في انتظارك منذ وصول نبيل من مصر؟!

ابتسمت سامية، ابتسمت بالرغم من ذلك الخوف الذي انتابها فلقد كانت هذه هي المرة الأولى التي تجلس فيها إلى رجل مخمور إلى هذا الحد، نظرت إلى نبيل مستفسرة فقال هذا:

- أحب أقول لك إن جارديني ده واحد من أهم الصحفيين الطلاينة دا الكاتب الأول لجرنال اسمه «لاريبوبليكا»، ده جرنال يساري... يعني شيوعي زيك.

وكانت تلك خطوة أخرى في طريق سارت فيه سامية حتى أدمت قلبها.

في كثير من الأحيان، تصبح مواجهة النفس بالحقيقة هي مفتاح الأمان لأي إنسان يقدم على شيء خطير أو غامض، كي ينجلي الغموض وتنقشع سحب الخطورة... ولقد كانت سامية فهمي في تلك الليلة، رغم تصرفات جارديني، سعيدة بذلك العرض الذي يفتح لها آفاقًا لم تحلم بها في يوم من الأيام... هكذا واجهت سامية نفسها بوضوح بالرغم من كل ما حدث، وبالرغم من إحساسها نحو جارديني هذا الذي كان ينفث رائحة الخمر في وجهها قائلًا:

- لي صديق إنجليزي هو أدريان تومسون، افتتح وكالة للأنباء هنا في روما... وهو في حاجة إلى مندوب لوكالته في الشرق الأوسط، في مصر بالتحديد.

قال الرجل هذا ثم توقف ريثما يجذب من سيجارته أنفاسًا شرهة، فإذا وجهه تحيطه سحابة كثيفة من دخان رديء الرائحة... عاد إلى حديثه وهو يشير إلى نبيل:

- ولأن هذا الشيطان المصري الفاتن صديق قديم لي، فلقد لجأت إليه... فوعدني بمساعدتي في هذا الأمر.

صاح نبيل محتجًا:

- ولكن سنيورينا فهمي لم تصل إلى روما إلا منذ يومين فقط سنيور جارديني.

لم يلق الرجل بالًا إلى ما قاله نبيل، ولقد أحست سامية لوهلة وَمَضَتْ في إحساسها وذهنها معًا، أن الرجل الذي يجلس أمامهما ليس سكرانًا لكنه يحاول أن يتظاهر بالسكر... ذلك أنه عندما عاد إلى الحديث مرة أخرى، برقت عيناه ببريق غريب، قال:

- أنت تعرفين ما الذي يعانيه الشباب إذا ما فكروا في إنشاء مشروع جديد في أرض مليئة بالديناصورات... إن أدريان لا يملك الكثير من المال،

لكنه سوف يملكه قريبًا، فهو صحفي حتى أعماقه... وهو في حاجة لمن يغطي له هذه المنطقة الملتهبة من العالم... إن الصحف كما تعرفين تتلهف لمعرفة أخبار الشرق الأوسط هذه الأيام، فهل تقبلين العمل معه؟!

قالت سامية وكل خلجة في وجهها تشي بفرحتها:

- ليس قبل أن ألتقي به وأعرف بالضبط كيف يريد التعامل.

- ما رأيك في أن نلتقي به غدًا؟!

أحست سامية بالارتباك فالتفتت نحو نبيل مستنجدة، لكنه لم يجبها بأكثر من ابتسامة ارتسمت على شفتيه بلا معنى... عادت بنظراتها إلى الرجل الذي هتف:

- ما رأيك... غدًا... هه؟!

- نبيل.

هكذا هتفت، فقال نبيل محدثًا جارديني:

- هل تعرف مقهى بالبو؟!

- ومن لا يعرف هذا المقهى في روما؟!

- إذن فليكن موعدنا في الثانية عشرة والنصف ظهرًا هناك.

كان نبيل يتحدث إلى الرجل في ثقة صاحب القرار، لذلك... فلقد نهض جارديني وهو ينحني أمام سامية في أدب استخفت به في أعماقها، وكان يقول:

- أؤكد لكي يا آنستي أنك لن تندمي على التعاون مع أدريان... إنه صحفي ممتاز.

ألقى عليها التحية وانصرف... مالت سامية نحو نبيل متسائلة:

- إيه الحكاية يا نبيل؟!

- الحكاية هي اللي قالها لك كده بالضبط.

- وما قلتليش ليه؟!

ضحك نبيل ضحكة خفيفة وكأنه يعلن عن حرج وقع فيه دون قصد، أجاب:

- بصراحة أنا كنت فاكر المسألة كلام سُكْر.

- على كلٍّ إحنا فيها يا سامية.

- مش ده المهم يا نبيل.

في استنكار صاح نبيل:

- ليه بقى... إذا كان فيه رزق ربنا باعتهولك، ليه ترفضيه؟!

- أنا ما رفضتش.

- طب انتي عاوزة إيه دلوقت؟!

نظرت في عينيه فهرب بهما منها، مالت عليه متسائلة:

- إنت مش عاوزني أشتغل معاه؟!

- أنا؟!

هكذا هتف، فعاجلته:

- أنا عاوزة أعرف رأيك في الموضوع.

- رأيي إن دي فرصة تبقي عبيطة لو سبتيها تفلت من إيدك.

بدا على وجهها الارتياح، وتمتم نبيل محذرًا:

- بس ما تخليهوش يضحك عليكي.

- قصدك إيه؟!

- الناس دي بتدفع كويس، ولازم يدفعولك كويس، بأسعار هنا مش بأسعار مصر.

- أنا زعلانة منك.

- ليه تاني؟!

- لأنك سبت الراجل ده يتصرف معايا بالشكل الهمجي اللي اتصرف بيه من غير ما توقفه عند حده.

- همجي؟!

- طبعًا همجي، إنت ما شفتش كان شارب إزاي وبيتصرف إزاي؟!

- الراجل ما عملش حاجة غلط.

- ده كان حايقع عليّ وهو واقف.

- لاحظي إن الشرب هنا مش عيب، كل الناس هنا بتشرب.

- أنا ما ليش دعوة بيهم، يشرب زي ما هو عاوز... إنما...

قاطعها نبيل متأففًا:

- سامية... لاحظي إنك مش في مصر.

كشرت عن أنيابها:

- ما لها مصر يا نبيل؟!

مد ذراعيه أمامه كمن يدفع عن نفسه هجمة شرسة، وهو يقول ضاحكًا ملطفًا من حدة الموقف:

- ولا حاجة، غلطة لسان، مش قصدي... حقك عليَّ.

وكان الساقي، قد بدأ يجهز المائدة للعشاء المنتظر.

الفصل السادس والعشرون

أدريَان تومسُون

لا بد لنا من الاعتراف بأن أبا سليم قد خطط لاصطياد سامية فهمي وإيقاعها في براثنه بصبر وأناة وذكاء لا سبيل إلى إنكاره... وأن محاولات جادة كانت قد بذلت لتحليل شخصية تلك الفتاة - سواء من خلال كتاباتها في المجلة، أو خطاباتها إلى نبيل - لمعرفة خباياها ونقاط ضعفها على وجه التحديد... ذلك أن سامية، منذ أن وطئت قدماها مدخل تلك البناية الشاهقة في قلب روما، واحتوتها تلك الضخامة، راحت تتداخل في أعماقها وتتضاءل وهي تتلفت حولها في ذهول دون أن تملك نفسها من المقارنة بين مباني القاهرة وعماراتها، وبين تلك البنايات الحديثة التي كانت وكأنها تنبئ عن عصر جديد وعالم آخر غير هذا الذي تنتمي إليه.

لم تملك سامية فهمي نفسها من المقارنة بين كل شيء هنا وهناك، قارنت بين جمالها وجمال مارشيلا، بين ملابسها وملابس مارشيلا، بين حدتها في الحديث ورقة تلك الفتاة الإيطالية الممشوقة القوام ذات الخطوات الإيقاعية وكأنها تسير راقصة... كما قارنت سامية فهمي بين مكتب أحمد مختار، رئيس التحرير، ومكتب نبيل الفاخر هذا الذي كان يطل من الدور الثالث والعشرين على العاصمة الإيطالية.

حتى إذا ما اقتحم ألبرتو إجنازيو الغرفة كالإعصار، ورحب بها ذلك الترحيب الذي اختلطت فيه الرقة بالغزل، ثم انحنى كي يلثم أطراف أناملها... أصابها الدوار بالفعل، وراحت تردد النظرات فيما بين ألبرتو ونبيل وكأنها تستغيث بحبيبها كي ينتشلها مما هي فيه... غير أن الشابين كانا قد انهمكا في حديث مرح بالإيطالية فلم تفهم مما كانا يقولانه شيئًا... اجتذبتها تلك الدوامة من الأحاسيس والمشاعر اجتذابًا لا رحمة فيه، فإذا هي تقارن - أيضًا - بين نبيل سالم، هذا الذي تراه أمامها ذروة في الأناقة والثبات والثقة بالنفس، وبين نبيلها المتواضع الذي أحبته في القاهرة، وإذا بها تتساءل والدهشة تملؤها: ما الذي يجبر شابًا مثل نبيل على حبها والارتباط بها، وأمامه عشرات، بل مئات، وربما ألوف الفتيات مثل مارشيلا؟!

وبقدر ما كان التساؤل يبدو منطقيًا، فقد كان جارحًا... فلم تملك، أمام هذا الضعف الذي أخذ يسري في أوصالها كالسم، إلا أن تقاوم... لم يكن أمامها طريق آخر سوى المقاومة، فراحت تستجمع ذاتها كي تدفع عنها كل ما كان يحيط بها، لا في الخارج فقط، ولكن في الداخل أيضًا... حيث كانت الضربات تهوي عليها في كل خطوة بلا رحمة.

وفي حقيقة الأمر، فإن الاستسلام لتلك الضغوط التي كانت تبدو في الظاهر بريئة كل البراءة، طبيعية تمامًا، لم يكن واردًا في ذهنها ولا حتى في خيالها... ولقد قال لي عادل مكي وهو يحلل تلك اللحظات الشديدة الخطر في حياة سامية فهمي، إن هذه النقطة بالذات، كانت أضعف ما في التخطيط الذي وضعه أبو سليم للإيقاع بسامية، فإن هذا الرجل لم يضع في حسبانه وهو يخطط للسيطرة عليها، أنها سوف تقاوم حتى الموت، وأن مقاومتها كانت أكبر من كل المغريات التي أحاطها بها، وأن تلك المقاومة سوف تدفعها إلى بر الأمان حتى ولو كان الطريق مليئًا بالأشواك والعقبات.

في تلك الجلسة في مكتب نبيل سالم كانت سامية حاضرة نعم... وكانت تسمع أيضًا.

لكنها كانت حاضرة بجسدها غائبة بعقلها، وكانت تسمع بأذنيها كلامًا لم تفهم منه حرفًا.

وإذا بها تدرك، وإن لم تكن قد فهمت معنى الكلمات، أن الحديث بين نبيل وصديقه هذا كان يدور حولها، فاستشاطت غضبًا، وكان الغضب بالذات، هو طوق نجاتها.

وهي، حتى تلك اللحظة، لم تكن تعرف من هو هذا الشاب الجذاب الأنيق الخفيف الظل الشديد الوسامة الذي أسعدته زيارتها إلى هذا الحد، والذي كان يتناقش مع نبيل مناقشة الصديق للصديق والند للند... وإذا بها تصيح قاطعة عليهما حبل مناقشتهما:

- مهلًا أيها السيدين.

توقفا عن الحوار والتفتا نحوها، فاستطردت بالإنجليزية:

- ألا تعلمان أني لا أتحدث الإيطالية ولا أفهم منها كلمة؟!

بدا الحرج عليهما لثوان غير أن ألبرتو سرعان ما انحنى في رشاقة وهو يتحدث معها مداعبًا:

- أرجو أن تعذريني سنيوزينا... فإن صديقك المصري هذا فتى مراوغ.

صاح نبيل محذرًا وكأنه يقدم ألبرتو لسامية:

- ألبرتو إجنازيو... هل نسيت أنك مدير هذه الوكالة، وأنك تملك الجزء الأكبر من أسهمها؟!

- هذا حقيقي... لكنه لا يمنع من أن تعطيها سيارتك كما اتفقنا.

بدا على نبيل الحرج وهو يردد البصر فيما بين ألبرتو وسامية وراح يخطو من خلف مكتبه مغاضبًا:

- أنت تعلم أننا لم نتفق على شيء، كما تعلم أني لا أملك هذه السيارة إلا بقدر بقائي في روما.

همّ ألبرتو بالحديث فأردف نبيل:

- أم إنك تريد أن تظهر كرمك أمام سامية.

ضحك ألبرتو وكأن الحرج الذي أوقع فيه نبيل قد انتقل إليه، قال:

- إذن... فأنا على استعداد لأن أبيعها إياها.

جاءت الكلمات وكأنها ضربة هوت فوق رأس سامية جعلتها تفيق تمامًا مما كانت فيه، اكتشفت أن الحديث كان يدور حول تلك السيارة الأنيقة الغالية الثمن التي يستعملها نبيل، والتي لم تفكر، بل لم تحلم بأن تمتلك مثلها في يوم من الأيام... ولقد اضطربت سامية، ومع اضطرابها أحست بشكل غامض أن ثمة فخًا ينصب لها، وهو إحساس غامض لا دليل عليه، وليس هناك ما يشير إليه فلقد كان الحديث كله مرحًا بسيطًا... وما إن قال ألبرتو ما قال حتى التفت نبيل نحوها متسائلًا:

- إيه رأيك يا سامية؟!

هتفت وهي تبذل جهدًا عظيمًا كي تسترد لياقتها العقلية:

- نبيل... أنت تعلم أن إمكاناتي المالية لا تحتمل شراء مثل هذه السيارة.

ضحك ألبرتو وهو يضع عينيه في عينيها:

- ولم كان الأصدقاء إذن؟!

- للصداقة سنيور إجنازيو وليس لبيع السيارات التي تفوق قدرة الآخرين على الشراء.

- إن هناك شيئًا اسمه التقسيط، ألم تسمعي عنه؟!

هتفت في عناد:

- ولا بالتقسيط.

همّ ألبرتو بالحديث لكنها هاجمته في إصرار:

- لا تحاول أيها السيد فأنا أدرى الناس بما أملك، وبما أستطيع أن أدفع.

التفت ألبرتو نحو نبيل وكأنه يستنجد به:

- نبيل... ألا تخبرها أني أملك ستين في المائة من أسهم هذه الوكالة؟!

- وما الذي يعنيه أن تكون مالكًا للأسهم كلها؟!

هكذا تساءلت سامية وقد أحست أن عليها أن تخوض معركة كرامتها بضراوة... وكان نبيل يقترب منها وهو يضع ذراعه حول كتفها قائلًا في فخر:

- هذه فتاتي يا ألبرتو... ولقد أخبرتك أنها فتاة من نوع خاص.

أثلج صدرها تصرف نبيل فاستكانت إلى ذراعه وقد استمدت من كلماته قوة:

- لن أشتري سوى السيارة التي أستطيع أن أدفع ثمنها.

- وهل ترفضين أيضًا دعوة على العشاء؟!

كانت لهجة ألبرتو الآن تختلف، وكان صوته مغموسًا في رقة لا تخطئها أذن، وراحت عيناه تلتمعان بذلك البريق الذي يخلب لب الأنثى إذا ما رأته يصرخ بالإعجاب في عيني رجل... ولا تدري سامية كيف حدث هذا الذي حدث ولا كيف قالت هذا الذي قالته... كل ما في الأمر أنها زجرت نفسها ذات لحظة لإحساسها ذاك بالتضاؤل أمام البنايات والشوارع والملابس

والمظاهر، فأمشقت حسام كرامتها وراحت تذود عن نفسها... لذلك، فلقد كانت تكمل الطريق وهي ترد على دعوة ألبرتو إلى العشاء بقولها:

- هذا يعود إلى نبيل، فالشرقيات لا يقبلن دعوة على العشاء بدون رجالهن.

أطلق ألبرتو من بين شفتيه صفير إعجاب استطال بعض الشيء تمتم بعده في نغمة موحية:

- ولكن كليوباترا كانت وحدها عندما تناولت العشاء مع أنطونيو ليلة لقائهما الأول.

- لأن كليوباترا في ذلك الوقت لم يكن لها رجل.

هم بالرد فألجمته:

- ولا تنس أن كليوباترا لم تكن مصرية بالأصل، ولكن بالانتساب.

رفع ألبرتو إجنازيو ذراعيه مُسَلمًا وهو يتراجع خطوة إلى الوراء.

- رباه... لو كان جيش عبد الناصر من هذا النوع من النساء لما هُزم.

احتقن وجه سامية فجأة. انتفضت كمن لدغتها عقرب، قالت في حدة :

- لكن جيش عبد الناصر لم يهزم؛ لأنه لم يحارب أصلًا.

هتف نبيل محذرًا:

- حذار يا ألبرتو، إنك تخطو إلى منطقة مليئة بالألغام.

قال ألبرتو متجهًا نحو الباب:

- ولم الدخول أصلًا... إني أنسحب راضيًا.

وعندما وضع يده على مقبض الباب، استدار نحو نبيل قائلًا:

- لا تنس موعدنا على العشاء.

قالها بلهجة بدت لسامية غريبة، لم تكن دعوة، بل كانت - بكل المعاني - أمرًا واجب الطاعة.

اختفى ألبرتو فالتفتت سامية نحو نبيل وقد همّت بالاحتجاج، لكن هذا كان ينتفض متحركًا:

- يلّا بينا يا سامية أحسن ميعاد سنيور جارديني قرب.

وهكذا ابتلعت سامية احتجاجها، بينما صدرها يغلي بالتساؤلات.

❁ ❁ ❁

في الطريق إلى مقهى «بالبو» وهو مقهى ذو طابع خاص، يؤمه بعض الفنانين والصحفيين وذوو المهن الغامضة... حاولت سامية أن تناقش مع نبيل ذلك الذي حدث قبل دقائق في مكتبه، لكنها وجدته مشغولًا بما هو مقدم عليه... ومنذ أن غادرا البناية في طريقهما إلى السيارة، وهو لا يكف عن الحديث عما يجب عليها أن تفعله مع جارديني أو صديقه هذا الذي يملك وكالة جديدة للأنباء... ولقد أحست سامية أن نبيلًا كان يريد أن يهرب من الحديث معها عن ألبرتو إجنازيو... كانت تعرفه جيدًا، كما كان يعرفها جيدًا، لذلك... فلقد آثرت ألا تضعه في حرج هو في غنى عنه، فراحت تستمع إليه وهو يشرح لها في حماس أسلوب التعامل في الدول الأوربية، وكيف أن اتفاقها مع جارديني أو سواه يجب أن يكون واضحًا وحاسمًا منذ البداية، وأنها يجب ألا تترك شيئًا للظروف، وألا تترك تساؤلًا دون أن تطرحه بلا تردد أو خجل... كان نبيل يبدو حريصًا عليها حرصًا لا شك فيه، وكأنه كرّس كل تفكيره في تلك اللحظات من أجلها ومن أجل مصالحها، حتى لقد صاحت فيه مقاطعة:

- إنت خايف عليَّ يا نبيل؟!

- أنا خايف حد يضحك عليكي.

- طب ما انت حاتكون معايا.

- فين؟!

هكذا سألها وكان سؤاله مفاجئًا فقالت:

- لما أقابل الراجل.

- طب إزاي؟!

- إلا إزاي... مش انت اللي مدي له ميعاد؟!

- أنا اللي مدي له الميعاد صحيح، بس انت اللي حاتتفقي.

- مش فاهمة.

قال وهو يميل بالسيارة إلى مكان وجده خاليًا بجوار الرصيف:

- إنتِ نسيتي إن فترة الغدا بتعتي حاتخلص بعد...

قاطعته:

- يعني إنت حاتسبني لوحدي معاه؟!

- لأن وجود شخص تالت وقت الاتفاق بيعتبر هنا عيب.

- بس انا ما اعرفش جارديني ده.

- وانا ما اعرفش صاحبه اللي انتي حاتشتغلي معاه.

همت بالرد لكنه كان يغادر السيارة فغادرتها هي الأخرى... لم يكن أمامها سوى الاستسلام، لم تكن تملك أن ترفض أو تتراجع، ففي الطريق إلى المقهى القائم في أحد شوارع روما الجانبية، قال نبيل وهو يوسع خطاه:

- إنت لو عملتي اتفاق كويس مع الراجل ده ممكن تشتري العربية اللي أنا راكبها بسهولة.

كانا قد وصلا إلى باب مغلق علقت عليه لافتة تنبئ بوجود ناد أو مطعم أو مقهى... فوق الباب كانت ثمة مظلة ذات لون رقيق وجذاب،

أما الباب نفسه فكان ذا طابع معماري خاص... وفيما عدا هذا لم يكن هناك ما ينبئ عن وجود مقهى أو محل... كانت سامية قد توقفت وهي تمعن النظر إليه مفكرة فيما قاله، ولا بد أن نبيل قد أدرك ما كان يجول بخاطرها فاستدار نحوها قائلًا:

- لولا إني خايف منك كنت قلت لك على حاجات كتير.

- طب ما تقول.

- من غير زعل؟!

- من غير زعل.

- لما تخلصي مع الراجل اللي مستنيكي جوه ده، إبقي انزلي البلد واشتري لك كام فستان يكونوا...

أطلقت عيناها تلك النظرة الغاضبة فتوقف نبيل عن الحديث زافرًا:

- مش قلت لك.

- وما لها هدومي يا نبيل؟!

- المسألة مش مسألة ما لها يا سامية، المسألة مسألة مظهر، والمظهر هنا مهم جدًا، ثم ... ثم إنك معزومة الليلة على العشا... فاهمة ده معناه إيه؟!

- نلغي العشا يا أخي.

- وليه نلغيه يا سامية إذا كنا حانلاقي فايدة من وراه؟!

- لأن فلوسي...

قاطعها:

- يا ستي أنا تحت أمرك.

- تاني يا نبيل؟!

- خلاص... أنا آسف... يلّا بينا.

فجأة أمسكت بيده فتوقف. استدار نحوها، قالت:

- طب ما تيجي انت تنقي لي الفساتين اللي انت عاوزها.

أشرق وجه نبيل وهو يهتف:

- بعد ما تخلصي إبقي كلميني في التليفون، لو قدرت أسيب المكتب، حابقى آجيلك.

قال نبيل هذا وهو يفتح الباب موسعًا الطريق لسامية كي تدلف إلى مقهى بالبو... كان الآن سعيدًا سعادة لا شك فيها، فلقد استطاع أن ينفذ واحدة من تعليمات أبي سليم الهامة.

كان أبو سليم قد طلب من نبيل سالم - بنفس الأسلوب الذي يطلب به دائمًا تصرفات تتسم بنوع من الخطورة أو النذالة - أن يدفع سامية دفعًا لأن تنفق أغلب ما معها من مال، حتى تلجأ إليه إذا ما أرادت شراء سيارة.

❊ ❊ ❊

كان مستر «أدريان تومسون» صاحب وكالة «إيه . تي. إن» للأنباء، نموذجًا مختلفًا تمامًا عن كل من التقت بهم سامية فهمي، منذ أن هبطت مطار روما، وحتى تلك اللحظة التي التقت فيها به وهو يتقدم من المائدة التي همّت بالجلوس إليها في انتظار السنيور جارديني... كانت سامية - عندما دلفت إلى ذلك المقهى - تتلفت حولها في دهشة لم تحاول أن تخفيها، وقد جذب اهتمامها ذلك المكان الغريب الذي بدا لها وكأنه نوع من المنتديات الخاصة... كان من الممكن أن تطلق على المكان اسم مقهى، وكان من الممكن أن يكون ناديًا من نوع خاص، كما كان يمكن أن يكون بارًا لا تباع فيه سوى الخمور، أو مطعمًا يقدم أنواعًا معينة من الأطعمة.

وجدت سامية نفسها في مكان فريد في نوعه مليء بالأعمدة والحيطان المتقاطعة والممرات وكأنه أنشئ لأغراض معينة قد تخفى على من كان مثلها... وعندما دلفت قبل نبيل، راحت تجول ببصرها في المكان بحثًا عن سنيور جارديني دون جدوى... انتقى نبيل إحدى الموائد التي تبدو منزوية في ركن من المكان، وما كادا يستقران حولها، حتى تقدم منهما شاب إنجليزي متوسط الطول، متوسط العمر، أحمر الشعر، خشن الجلد، أكثر ما يميزه حاجبان كثيفان يصنع شعرهما فوق العينين مظلتين هائشتين... كان أدريان تومسون يبدو وكأنه جاء لتوه من إحدى غابات إسكتلندا في الشمال البارد لبريطانيا العظمى، أو ربما من أحد الحقول الجرداء في أرض أيرلندا المحيرة.

- سنيور جيزي؟!

- أنا هو.

مد الشاب يده نحو نبيل:

- أدريان تومسون.

صافحه نبيل في الوقت الذي كان أدريان يلتفت فيه نحو سامية:

- لا بد أنك مس فهمي.

- أنا هي.

- هل يمكنني أن أشارككما المائدة؟!

هتف نبيل:

- لقد جئنا إلى هنا خصيصًا كي نلتقي بك.

جلس أدريان فوق أحد المقاعد وهو يقول كمن لا يريد للوقت أن يمضي عبثًا:

لقد اضطر جارديني للاعتذار عن الموعد لعمل طارئ... ولقد تحدث إليّ تليفونيا وقال إنه يعتمد على ذكائي في التعرف عليكما.

ما كاد المقام يستقر بهم حتى نظر نبيل في ساعة يده مغمغمًا:

- كم كان يسعدني أن أشارككما الحديث، لولا ارتباطي بمجموعة من المواعيد من الصعب إلغاؤها.

أخذت سامية وهي تلتفت نحوه في تساؤل ودهشة، فاستطرد نبيل بالعربية:

- أنا آسف يا سامية، لكن انتي عارفة أنا ورايا شغل قد إيه.

قال هذا دون أن يعطيها فرصة للرد... نهض، وأحنى رأسه في تحية مقتضبة... ثم هرول مغادرًا المكان.

* * *

ولقد احتاجت سامية فهمي إلى دقائق عديدة حتى استطاعت أن تعيد التوازن إلى رأسها... كانت تعلم، منذ أن كانت مع نبيل في السيارة، أنه لن يبقى معها، لكنها لم تتصور أنه سوف ينصرف بمثل هذه السرعة... بدا لها كل شيء، كل شيء منذ أن دخلت إلى تلك البناية الشاهقة وحتى لحظتها تلك، وكأنه من صنع شيطان ماكر... وها هي تجد نفسها مع رجل لا تعرف عنه شيئًا، ولا يعرف عنها شيئًا... وكان المفروض أن يتحدثا في عمل لا تعرف أبعاده أو مداه بعد.

- حسن... لندخل في الموضوع مس فهمي حتى لا أضيع وقتك.

- وأنا على استعداد لسماعك.

هكذا بدأ أدريان تومسون الحديث مع سامية فهمي.

قال لي عادل مكي، وكانت سنوات طويلة قد انقضت على ذلك اللقاء الأول في مقهى بالبو... إن أدريان تومسون هذا، لم يكن سوى واحد من

ضباط الموساد المدربين والمشهود لهم بالكفاءة، وإنه أولًا ليس إنجليزيًا كما ادعى، لكنه يهودي من إحدى دول وسط أوربا التي اشتهر شعبها، قبل قيام دولة إسرائيل، بكراهيته الشديدة لليهود... وإنه كان في ذلك اليوم، مسلحًا بمعلومات كافية عن سامية فهمي، مما جعل تأثيره عليها أقوى بكثير من تأثير كل هؤلاء الذين ما كان لقاؤهم بسامية، سوى تمهيد لتلك الجلسة الشديدة الأهمية في تلك المرحلة من مراحل تجنيدها لحساب المخابرات الإسرائيلية.

وبالفعل كان أدريان تومسون بالنسبة لسامية مختلفًا، كان يبدو بهيئته تلك الغريبة وشعره الأحمر وكلماته البسيطة الهادئة، وكأنه يعرف ما الذي يريده بالضبط.

بدأ أدريان حديثه بقوله:

- لست أدري ما الذي قاله سنيور جارديني عني... ولكن الذي أدريه عن يقين، أن أهل البحر المتوسط والذين يعيشون حول شواطئه، قوم تغلب عليهم عواطفهم... ولذلك، فإني أخشى أن يكون قد بالغ في تقديره لشخصي أو إمكاناتي.

أدهش سامية أسلوب الرجل فقالت:

- ألا تدخل في الموضوع مباشرة مستر تومسون؟!

- إذا كان مقدرًا لنا أن نتعاون معًا، فإني أفضل أن تناديني باسمي الأول.

قال هذا وهو يبتسم، وبدت ابتسامته لسامية ساحرة - كان هذا هو تعبيرها بالضبط والذي أصرت عليه وحتى الآن - ذلك أنها كانت ابتسامة رجل مهذب يتحسس مواطئ كلماته مع محدثه بكثير جدًا من الاحترام... لذلك، فلقد بادرت سامية برد المجاملة قائلة:

- إني أوافق على أن تفعل نفس الشيء معي.

وكأن أدريان قد تذكر شيئًا، فلقد بدا عليه الارتباك وهو يتلفت حوله مغمغمًا:

- ألا ترين أنه قد حان الوقت كي نشرب نخب ذلك اللقاء؟!

- لست أرى أي مانع.

- فماذا تشربين إذن؟!

- إن فنجانًا من الكابوتشينو يكون ملائمًا تمامًا.

- وهل تسمحين لي باحتساء كأس من النبيذ؟!

ذاب الجليد في دقائق قليلة... وانطلق أدريان يقص عليها قصة طويلة حول وكالته الحديثة ومكتبه المتواضع في روما... قال إنه فقير، وهو لا يملك مالًا كثيرًا لكنه يعد بألا يغمطها حقها، وأن يكون كريمًا معها بقدر ما تسمح به إمكاناته.. إن وكالته للأنباء ليست سوى شقة متواضعة تساعده فيها زميلة جاءت معه من لندن، واثنان من الموظفين... و... ولا شيء سوى هذا.

- استمعي إلي جيدًا يا سامية، فأنا لن أخفي عنك شيئًا على الإطلاق، فأنا أحب لمن يتعامل معي أن يعرف الحقائق بلا زيف ولا تزويق.

جاءه صوت سامية من خلال ابتسامة انبهار لم تخف على عينيه، قالت:

- بلا مقدمات، هات ما عندك.

راح يحدثها عن حيتان الصحافة الذين يسيطرون على العالم سيطرة تجعلهم يخفون ما يريدون إخفاءه عن الناس، ويقدمون ما يريدون تقديمه، ويصوغون الأنباء صياغة تتلاءم مع مصالح هائلة تسيطر كالأخطبوط على مقدرات الأنباء وأذهان الناس وتشكل عقولهم في جميع أنحاء المعمورة.

كانت سامية تستمع إليه وقلبها يخفق بالسعادة والحماس معًا... ولقد ازداد حماسها وهي تستمع إليه وهو يقول: إنه قد آن الأوان للخروج من كنف تلك السيطرة الفولاذية لوكالات الأنباء العملاقة تلك، وهو يرى أن مجموعة من الشباب، من جنسيات مختلفة، تملك طموحًا لوضع أساس جيد لعمل كبير، سوف تكون قادرة دون شك على الوقوف في وجوه العمالقة، وأن ذلك لن يتحقق إلا بضربات صحفية، تجعل النجاح أمرًا مؤكدًا، والاستمرار أمرًا محتملًا.

ساد الصمت بينهما لثوان كانت سامية تنتفض فيها بالحماس حقًّا، ولقد خفق قلبها وهو يستطرد:

- ولذلك يا سامية، فلقد كان اهتمامي بالشرق الأوسط، ومصر بالذات أهم من أية منطقة أخرى من العالم... إن بؤرة الصراع العالمي، تتركز في الشرق الأوسط، فإذا استطعنا أن نغطي تلك المنطقة، فإننا نكون قد تغلبنا على ستين في المائة من مشاكلنا الفعلية.

- وما نوع الأخبار التي تريدها مني بالضبط؟!

ابتسم أدريان في خجل بدا لسامية طبيعيًّا تمامًا وهو يقول:

- لعلك لا تريدين أن تقللي من شأن ذكائي؟!

- لست أفهم ماذا تقصد على وجه التحديد.

- أقصد أنني أعرف أنك صحفية ممتازة... وعندما أخبرني جارديني باسمك، كان عليّ أن أعرف عنك كل ما أستطيع معرفته، ولم يكن صعبًا أن أحصل على بعض أعداد من مجلة «الفجر» المصرية، وأن أعثر على صديق يتقن العربية، يترجم لي بعض ما كتبت.

- ألا تفصح عن غرضك أكثر؟!

- ليس لي غرض سوى أن أذكرك بأني أعرف أنك صحفية محترفة، وأنك لا بد تعرفين بالضبط ما الذي يمكننا أن نحتاج إليه من أنباء.

كان الحوار ممتعًا بكل ما تحمل الكلمة من معنى، كما وجد الإطراء طريقه إلى نفس سامية، ولذلك، فلقد استمر لأكثر من ساعتين، دعاها أدريان فيهما على الغداء في نفس المكان، وكان الغداء متواضعًا حقًّا، فلقد طلب الرجل فطيرة واحدة من «البيتسا» الإيطالية اقتسماها معًا.

كانت سامية سعيدة.

هذه حقيقة اعترفت بها لعادل مكي كما اعترفت بها وهي تتحدث إليّ عن ذلك اللقاء الأول مع من أطلق على نفسه اسم «أدريان تومسون»... الذي حملها على أجنحة من التحدي حلقت بها في آفاق العالم كله... راحا يناقشان المشروع وكأنهما ينشئانه معًا، كانت هناك عقبات حقًّا، فلم يكن للوكالة في القاهرة مكتب ولا تليفون، وكان الجهد المطلوب مضنيًا بكل ما تحمل الكلمات من معنى... جهدًا ذكرها بتلك الخطوات الأولى لها في عالم الصحافة، مما دفعها إلى التخلي عن التحفظ الذي لازمها منذ وصولها إلى العاصمة الإيطالية... حتى إذا حان وقت الرحيل، وكانت ساعات ثلاث قد انقضت منذ أن التقيا، سألته:

- ولكن... كيف يمكنني أن أرسل لك بالأخبار؟!

- ألا تريدين أن تفكري في الأمر مليًا؟!

قالت مؤكدة:

- سوف أفكر في الأمر حتمًا.

- وعليك أن تفكري أيضًا، أني لن أستطيع أن أدفع لك مرتبًا مجزيًا.

تذكرت على الفور حديث نبيل معها وتحذيره لها، لكنها وجدت نفسها تقول:

- لا عليك من هذا الأمر.

- ولكني أريد، قبل مناقشة أي شيء، أن أعرف كم تريدين مني؟!

ارتبكت سامية، لم يكن ممكنًا بعد حديث مثل هذا أن تضع رقمًا... ولقد ترددت، ولحظ أدريان ترددها، فقال كمن يحسم الأمر:

- لسوف أعفيك من الحرج... ولقد سألت عن قيمة الجنيه المصري سواء بالإسترليني أو بالدولار أو الليرة الإيطالية، ووجدت أني لن أستطيع - في البداية - أن أدفع لك أكثر مما يعادل مائتي جنيه في كل شهر.

خفق قلب سامية بعنف، وكان لا بد أن يخفق، دار رأسها لثوان خاطفة، وكان لا بد أن يدور... فلقد كان الرقم المعروض عليها يكاد يعادل مرتب رئيس التحرير، كان كل ما تتقاضاه من المجلة خمسة وثلاثين جنيهًا، بينما كان مرتب أحمد مختار لا يزيد على مائتين وخمسين جنيهًا... ولقد ظلت صامتة وهي ترقب أدريان الذي بدا عليه الخجل وهو يغمغم:

- إني أعلم أن المبلغ صغير، ولذلك، فأنا أعدك بمكافأة مجزية لكل خبر يستحق المكافأة.

أرادت سامية أن تخفي عنه اضطرابها وفرحتها فقالت:

- مرة أخرى، أنا أسألك عن نوعية الأخبار التي تريدها مني؟

- ولكنك لم تخبريني بعدُ إن كنت قد وافقت على العمل معي أم لا؟

- أعتقد أن الأمر جدير بالتفكير فيه.

- إذن، فلتأخذي فرصتك في التفكير، على أن نتفق قبل رحيلك على كافة التفاصيل.

وهكذا افترقا بعد أن تبادلا أرقام التليفونات، على أن يحددا موعدًا آخر، بعد يومين أو ثلاثة.

* * *

صاح نبيل مستنكرًا:

- بقى ده معقول يا ابو سليم؟!

- اللي باقول لك عليه تعمله بالضبط.

صاح نبيل محتجًا مستنكرًا في نفس الوقت:

- بقى معقول أبقى سايبها مع الراجل لوحدها... ولما أقابلها، ما اسألهاش حتى انتي عملتي إيه معاه؟!

- سيبها هي اللي تقول لك.

- وإذا ما قالتش؟!

- مستحيل.

- إفرض يا ابو سليم.

- إنت مش بتقول إن سامية عمرها ما تعرف تخبي عنك حاجة؟!

- أيوه بس...

قاطعه الرجل وكأنه ينهي الأمر تمامًا:

- ولما تحكي لك، عاوزك تفتح ودانك كويس، لأني عاوز أعرف هي حاتقول لك إيه بالضبط.

ولم يكن أمام نبيل، سوى الطاعة.

الفصل السابع والعشرون

المــأزق

انتشر في أوربا - إبّان العقد السادس من هذا القرن، خاصة بعد حرب ١٩٦٧ - ما أطلق عليه رجال المخابرات المصريون، اسم «بيوت الملذات»... ولم تكن هذه البيوت سوى مصيدة للشباب العرب الباحثين عن الملذات، أقامتها المخابرات الإسرائيلية في العديد من الدول الأوربية، خاصة تلك التي كان العرب يكثرون من التردد عليها في رحلات سياحية كانت تطول في بعض الأحيان، وتتكرر في غالب الأحيان... كان الشباب العرب - في أحضان الحسناوات المدربات تدريبًا عاليًا - مع كئوس الخمر والدخان الأزرق يبوحون بما يجب ألا يبوحوا به، ولقد استطاعت المخابرات المصرية - في وقت مبكر - أن تكتشف هذه البيوت، وأن تخترق معظمها... ويحكى - ولست أملك الدليل على هذا - أن بعض هذه البيوت كان مرتعًا لكثيرين من الشباب العربي الذي تطوع بإبلاغ المخابرات المصرية عما حدث، ثم تطوع بالاستمرار في التظاهر في البحث عن ليال حمراء، كي يبوحوا بمعلومات مغلوطة كانت بالقطع تنقل إلى المخابرات الإسرائيلية التي كثيرًا ما أوقعت قيادتها السياسية في تلك السنوات، في مآزق تكاد تكون مضحكة، نتيجة لتلك المعلومات الخاطئة والمغلوطة التي كانوا يلتقطونها من ضحاياهم الموهومين... كما استطاع

رجال المخابرات المصرية، في نفس الوقت، أن يوقعوا بهؤلاء الذين أفاقوا مما انزلقوا إليه، كي يجدوا أنفسهم قد تورطوا حتى آذانهم في الخيانة.

وفي نفس الوقت - وليست هذه معلومة جديدة - كانت هناك مقاهٍ مثل مقهى بالبو في روما الذي كان يستعمل في بعض نشاطات الموساد المختلفة، سواء بعلم صاحب المقهى أو بدون علمه... وكان هذا النوع من المقاهي المريبة، يستعمل كستار من الممكن أن يلتقي فيه رجال الموساد، مع من يريدون اللقاء بهم بعيدًا عن عيون المتطفلين... تمامًا، مثلما فعل من أطلق على نفسه اسم أدريان تومسون مع سامية فهمي.

ولقد قال لي عادل مكي، إنه عرف بالموعد الذي ضربه نبيل سالم للسنيور جارديني في مقهى بالبو عن طريق ذلك الكونت الإيطالي المفلس، وصديقته المزيفة... لكنه، وقد كان أحد رجاله هناك، لم يعرف طبيعة الحوار الذي دار بين أدريان تومسون وسامية فهمي لأسباب عديدة، أبسطها، أن المائدة التي وقع عليها اختيار نبيل سالم - ولم يكن الأمر في حقيقته اختيارًا، بل كان توجيهًا من أبي سليم - كي يجلس عليها مع سامية وأدريان، تقع في ركن من العسير الاقتراب منه، أو الاستماع إلى ما يدور فيه... وحتى تلك الوسائل التكنولوجية - مثل الميكروفونات وما إلى ذلك - لم يكن من السهل استعمالها في ذلك اليوم... لهذا، فلقد عرف كل شيء عن اللقاء، دون أن يعرف ما الذي دار بين سامية وأدريان على وجه التحديد... ومع أنه كان قد استطاع أن يخمن وأن يكون تخمينه قريبًا من الحقيقة، إلا أن معرفة تفاصيل ما دار بينهما كان على أكبر قدر من الأهمية، خاصة بعد عودة سامية إلى القاهرة.

وعلى كلٍّ... فلم يكن أمام عادل مكي، بعد هذا اللقاء الذي تأكد منه - بما لا يدع مجالًا لشك أو تأويل - أن هناك محاولات مستميتة لتجنيد سامية فهمي لحساب المخابرات الإسرائيلية، فلقد كان المدعو أدريان تومسون، معروفًا تمامًا لرجال المخابرات المصرية... فلم يكن

أمام عادل سوى تكثيف الرقابة حول سامية ونبيل في روما، لعله قبل عودتها إلى القاهرة، يستطيع أن يمسك بطرف خيط يوصله إلى الحقيقة سافرة ودون تخمين.

في ذلك اليوم غادرت سامية فهمي مقهى بالبو وهي تشعر وكأن بابًا في السماء قد فتح لها، ففوق إحساسها ذاك بالتحدي والرغبة في مساعدة شاب مثل أدريان تومسون يريد أن يكسر احتكار تلك الإمبراطوريات العظمى للأنباء، والتي تسيطر على سوق الأخبار في الكرة الأرضية، وتوجه خلال سيطرتها الرأي العام العالمي لصالح القوى العظمى... كان هناك ذلك الحلم الذي ينتاب كل شاب، بأن يحقق في مهنته انتصارًا وطموحًا يصبو إليهما.

ولقد غادرت سامية فهمي مقهى بالبو وحدها تاركة ذلك الشاب الأحمر الشعر... آثرت أن تسير على قدميها حتى تستمتع بمشاهدة معالم المدينة، وحتى تعطي لنفسها الفرصة كي تفكر في ذلك العرض الذي عرضه عليها شاب إنجليزي طموح بالاشتراك في بناء مشروع، إذا قدر له النجاح، فلسوف يكون - بكل المقاييس - شيئًا عظيمًا.

غير أن إمعان التفكير، مع وقع خطواتها من شارع إلى آخر، جعل الأفكار في رأسها تصبح أكثر انتظامًا، وأكثر وضوحًا.

كانت، بداية، قد اتخذت قرارًا بشراء فستان جديد كي تحضر به تلك الدعوة على العشاء التي وجهت إليها من ذلك الشاب الفاتن ألبرتو إجنازيو... وبالرغم من أنها كانت تعلم، أن ثمن أي فستان متوسط، سوف يكلفها ما لا تطيق، وقد يؤثر على مشروعها في شراء سيارة، إلا أنها أحست، عندما طلب منها نبيل ذلك، بإهانة من نوع غامض ومثير... أحست باستفزاز جعلها تصمم، بعصبية لا مداراة فيها، على أن تشتري الفستان... وربما كان السبب في هذا الشعور بالاستفزاز، وهو ذلك التأثير الغامض بالغيرة، الذي تركته في نفسها تلك الفتاة الإيطالية الحسناء مارشيلا.

راحت سامية تتسكع في الشوارع وهي تنتقل من ڤاترينة إلى أخرى، كي تشاهد وتنتقي ما يناسب قدرتها على الشراء... ولكن ذهنها أخذ يعمل بعنف أفسد عليها متعة المشاهدة، ومتعة الإحساس بأنها في روما، وحتى متعة الأنثى التي ترغب في شراء فستان تبدو فيه فاتنة.

كان أكثر ما أزعجها هو أن نبيل وقد تركها مع أدريان تومسون بدا لها فجًا لا ذوق فيه، وغامضًا لا منطق له... فلم يكن منطقيًا أن يتركهما نبيل بمثل تلك السرعة وقد كان يعلم منذ الأمس بالموعد... وحتى لو كان مشغولًا، فلقد كان يستطيع أن يؤجل، أو يرتب مواعيده حتى يكون إلى جوارها ولو لدقائق تتعرف فيها على هذا الغريب الذي جاء - عن طريقه - كي يعرض عليها عملًا.

مرة أخرى تثور في صدرها الشكوك عاصفة... توقفت عند مفترق طريقين وراحت ترقب بعين تائهة حركة المرور والحياة في شوارع تلك العاصمة الصاخبة... أحست أنها متعبة، لا مما يحدث لها، ولكن من نفسها ومن شكوكها التي كانت تروح وتجيء كالموج الصاخب... فما الذي حدث أو يحدث؟! وما الذي يمنعها من الاستمتاع بالحياة؟! وهل أفسد العمل السياسي وجدانها؟! هل صنع حب مصر حاجزًا بينها وبين السعادة؟!

لغو... كل هذا لغو... هي تعلم عن يقين أن الحب قوة قاهرة لا تغلب، وأن العمل السياسي نضال من أجل مستقبل أفضل وأبناء تتمنى أن تتركهم للوطن كي يواصلوا المسيرة، وأن هذا وذاك يبعثان إلى النفس بالسعادة، فَلِمَ كل هذا الذي يصطرع في صدرها ويحرمها حتى من متعة مشاهدة ما حولها... وهي، إذا كانت ترى في كل ما حدث أمورًا طبيعية ولا غبار عليها، فلم تكن تستطيع أن تغفل تلك الأحاسيس المصطرعة في صدرها بلا توقف... مرة أخرى يداهمها ذلك الإحساس الغامر بالأسى وبأن زيارتها لإحدى دول أوربا، التي كانت حلمًا اندفعت نحوه بقلب مفتوح،

قد أصبحت كابوسًا... ولم يعد أمامها الآن سوى طريق من اثنين: إما أن تشد الرحال وتعود إلى القاهرة وتعفي نفسها من كل شيء... وإما أن تطرح شكوكها جانبًا، وتعيش أيامها تلك في روما بعقل متفتح ووجدان قابل للحياة، ثم... ثم لتعطي شكوكها وأفكارها فرصة أن ترتع وتحلل وتشك كيفما شاءت، متى عادت إلى القاهرة.

وهكذا... وللمرة الثانية، ومع انبعاث الأحلام التي فجرها أدريان تومسون في صدرها قررت أن تطرح شكوكها جانبًا، وأن تعيش أيامها في روما كما يجب أن تعيش، وكما تحب أن تعيش... وما دامت مدعوة على العشاء الليلة من شاب فاتن مثل ألبرتو إجنازيو. والذي - لا بد - سوف يصحب معه صاروخًا نسائيًا قد تكون صديقة له أو زوجة فلم لا تذهب إلى «الكوافير» أيضًا وتصفف شعرها، وتستعد لهذا العشاء وهي على «صنجة عشرة».

لم لا تبدو جميلة في عيون الناس، تدخل حلبة المنافسة مع «مارشيلا»، تلك الإيطالية الرائعة الجمال، والتي تعمل كسكرتيرة لرجلها وحبيبها وحلم عمرها؟!

وعادت سامية فهمي تفتح صدرها لهواء روما المنعش... توقفت للحظة فلمحت على الضفة الأخرى من الشارع الذي كانت تسير فيه فاترينة، هائلة لواحد من تلك المحلات التي تشبه المدن الصغيرة... رأت على البعد مجموعة هائلة من الفساتين التي تخلب لب أية فتاة في الدنيا، اندفعت تعبر الطريق في حماس ومرح وإذا بصيحات تحذير تملأ الدنيا من حولها، وإذا عجلات سيارة تصرخ محتكة بالأرض والسيارة تندفع نحوها في سرعة لولا أنها قفزت في لحظة بدت كمعجزة كي تنجو من موت محقق، وإذا المارة يتوقفون والسيارة تتوقف، وسائقها يهبط منها مندفعًا نحوها رادحًا بالإيطالية في غضب، وإذا الناس يتجمعون، والشرطي يقتحم الجمع نحوها، وإذا هي لا تجد ما تقوله سوى الاعتذار، راحت

تعتذر وتعتذر حتى قبل الشرطي والسائق اعتذارها فانطلقت تخترق الجمع الذي أطبق عليها من كل ناحية وكأنها تولي الفرار... نسيت أمر الفستان وراحت تضرب في الشوارع على غير هدى... مضت دقائق حتى استردت أنفاسها ونفسها، فراحت ترقب الفاترينات من جديد، وقفت أمام إحداها وتشبثت عيناها بفستان ما إن تخيلت نفسها فيه حتى خفق قلبها... دون تفكير دخلت المحل وطلبت الفستان وصحبت البائعة إلى ما خلف ستار كي تقيس الفستان فكأنه فصل خصيصًا من أجلها... كان الثمن مناسبًا فطلبت أن تشتريه، توجهت نحو الخزينة كي تدفع الثمن، فتحت حقيبتها ومدت يدها كي تخرج حافظة نقودها... لكن الحافظة لم تكن هناك.

تلك كانت لحظات لا تنسى في حياة سامية فهمي، لحظات مادت بها الأرض فيها واسودت الدنيا في عينيها وخفق قلبها في عنف أوجعها فكأنه يوشك على التوقف... في لهفة راحت يدها تجوس خلال الحقيبة بحثًا عن الحافظة دون جدوى، قلبت الحقيبة فوق السطح الزجاجي وتناثرت محتوياتها جميعًا أمام عينيها ولم تكن الحافظة هناك... في الحافظة كل نقودها وبطاقة هويتها وبطاقتها الصحفية وتذكرة الطائرة وبعض الأوراق الخاصة، تحولت نظرات البائعة من الترحيب إلى الدهشة إلى الامتعاض وتوقفت يداها عن طي الفستان وتجهيزه لها... رفعت سامية عينيها وكانتا دامعتين نحو البائعة التي تساءلت:

– ماذا حدث سنيورينا؟!

– حافظة نقودي...

– هل فقدت منك؟!

– لقد سرقت.

– كان لا بد أن يحدث هذا.

– لماذا بالله عليك؟!

- لقد شاهدتك وأنت تدلفين إلى المحل، وكيف كنت تعلقين حقيبة يدك فوق كتفك في إهمال لا يصح في مدينة مثل روما.

- ماذا تقصدين؟!

- إن النشالين هنا لا يتورعون عن شيء.

تقدمت منهما سيدة في الأربعين ممشوقة القوام هادئة الجمال متزنة الخطى فكأنها جندي يخطو بمقدار... أدركت سامية أنها رئيسة البائعات أو مديرة المحل:

- ماذا هناك سنيورينا؟!

- لقد سرقت حافظة نقودي.

- أين كنت قبل أن تدخلي إلى هنا.

حكت لها سامية قصة عبورها للطريق والسيارة التي كادت تدهمها والناس الذين تجمعوا من حولها فتبادلت السيدة مع الفتاة بضع كلمات بالإيطالية لكن لهجتهما أوحت لها بالحقيقة سافرة... التفتت السيدة نحوها وهي تقول:

- إنها لم تكن حادثة حقيقية سنيورينا.

- ماذا تعنين؟!

- لقد كان الأمر مدبرًا من أوله وحتى آخره.

قالت السيدة هذا ثم استدارت نحو البائعة وأصدرت لها أمرًا لملمت البائعة بعده الفستان وهي تتمتم:

- آسفة سنيورينا... إني آسفة حقًّا.

- أين أجد أقرب قسم للشرطة؟!

ابتسمت الفتاة ساخرة وهي تقول:

- إنه على مقربة من هنا، ولكن لماذا؟!

- أليس من حقي أن أطالبهم بالبحث عن حافظة نقودي؟!

لوت الفتاة شفتيها امتعاضًا:

- لا تضيعي وقتك فيما لا يفيد.

عادت سامية فهمي إلى الطريق وهي تحاول أن تمنع الدمع المنهمر من عينيها، همّت بالسؤال عن قسم الشرطة لكنها تراجعت وقد عادت كلمات الفتاة ترن في أذنيها، ولم يكن أمامها سوى العودة إلى الفندق... كانت في شارع لا تعرفه وفي مكان لم تطأه قدماها من قبل، ولم يكن أمامها إلا أن تستجمع كل ذاكرتها حتى تعود، دون جدوى. أدركت أنها في مأزق فهي لم تكن تملك قطعة معدنية تصلح لأن تتصل بنبيل تليفونيًا، استوقفت سيارة أجرة وألقت إلى السائق باسم الفندق... مضت الدقائق مثل دهور حتى توقفت السيارة أمام الفندق فاستأذنت السائق لثوان واندفعت إلى البهو فلمحت مدير الفندق في ركن منه، اقتربت منه في تردد ورجته أن يرسل من يدفع للسائق أجره... نظر الرجل إليها في دهشة وكانت عيناها لا تزالان مبللتين بالدموع.

- هل حدث لك مكروه سنيورينا فهمي؟!

همت بأن تذكر له الحقيقة لكنها تراجعت في آخر لحظة وأعادت رجاءها على الرجل مرة أخرى... هز الرجل رأسه موافقًا وهو يشير إلى أحد رجال الفندق أن يوافيه... توجهت نحو موظف الاستقبال وطلبت مفتاح الغرفة فأعطاها الرجل مع المفتاح ورقة مطوية:

- هذه رسالة وصلت إليك منذ دقائق قليلة.

أحست بالراحة فلا بد أن الرسالة كانت من نبيل، دلفت إلى المصعد دون أن تقرأ الرسالة فلقد أرادت أن تخلو إلى نفسها أولًا، وأن تفكر كيف ستدبر أمرها... ما إن دلفت إلى الغرفة وأغلقت بابها حتى فضت الرسالة... جرت عيناها فوق السطور فكادت تصرخ فزعًا... كانت الرسالة من نبيل

بالفعل، وكان يعتذر فيها عن عشاء تلك الليلة لعمل اضطر من أجله أن يغادر روما.

ما إن قرأت الرسالة، حتى مادت بها الدنيا، ألقت بنفسها فوق الفراش وانخرطت في البكاء.

* * *

قال لي عادل مكي إن «حكاية» النشل هذه لم تكن غريبة أو حتى جديدة على الموساد بالذات، وإنهم يستعملونها في الوقت المناسب تمامًا حتى تصبح الضحية في موقف الحاجة الماسة إليهم فيسهل عليهم إتمام الأمر... وقال: إن ما قالته تلك البائعة لسامية حقيقي تمامًا... فلقد كانت حادثة السيارة مدبرة بالفعل، وكانت سرقة حافظة نقودها نوعًا من الضغط البالغ العنف عليها، كي تلجأ في النهاية إلى نبيل سالم، أو... تضطر لموافقة أدريان تومسون على كل ما يريد.

أفاقت سامية مما كانت بعد دقائق لم تطل كثيرًا، كان لا بد لها من أن تجد مخرجًا من المأزق الذي وجدت نفسها فيه، أحست بشكل غامض أن ثمة قوى عاتية تتعمد إيذاءها وإفساد رحلتها... هبت واقفة واتجهت إلى الحمام وغسلت وجهها وعادت إلى الغرفة وعقلها يعمل بسرعة، وإذا كانت رسالة نبيل قد وصلت - كما أخبرها موظف الاستقبال - منذ دقائق، فمن الممكن أن تلحق به قبل أن يغادر المكتب، اندفعت إلى التليفون وطلبت الرقم، بعد ثوان جاءها صوت مارشيلا فهتفت في لهفة:

- سنيور جيزي من فضلك سنيورينا مارشيلا.

هتفت مارشيلا مرحبة:

- بوناسيرا سنيورينا فهمي.

- هل نبيل موجود؟!

- أخشى ألا يكون موجودًا، فلقد رحل منذ دقائق.

- هل سافر إلى نابولي؟

- لا أعتقد، ربما صعد شمالًا إلى ميلانو فلقد استمعت إلى حوار بينه وبين سنيور إجنازيو حول صفقة لا بد أن تتم في الصباح الباكر.

- هل تعرفين اسم الفندق الذي ينزل فيه؟

- أخشى سنيورينا فهمي ألا أستطيع مساعدتك، فهو لم يترك عنوانًا أو رقم تليفون وكان في عجلة من أمره.

- كم يومًا سوف يغيب؟

- لست أدري وإن كان سنيور إجنازيو بالقطع يعرف أكثر مما أعرف.

- هل أستطيع أن آخذ رقم تليفونه؟

- سوف أرى إن كان موجودًا.

قالت مارشيلا هذا وانقطع الحديث وساد الصمت، ظلت سامية ممسكة بالسماعة في توتر وقلق، حتى إذا جاءها صوت ألبرتو على الطرف الآخر مرحًا، وجدت نفسها تنتفض فزعًا.

- ها أنا قد تخلصت من وغدك المصري... وسأنفرد بك الليلة فما قولك.

حاولت سامية أن ترد فلم تستطع، أحست وكأنها تسير نحو مصيدة غامضة، عاد الصوت مرة أخرى:

- سامية... هل أنت هناك؟!

- نعم سنيور ألبرتو، ولكني أخشى ألا أستطيع تلبية دعوتك الليلة.

- لماذا؟!

- أعتقد أني لست على ما يرام.

- هل حدث شيء؟

- ليس شيئًا ذا بال.

- هل أستطيع مساعدتك؟

- لا شكرًا... ولكن...

قالت هذا وعادت تمسك عن الحديث..

- سامية... ماذا حدث؟!

- متى يعود نبيل؟

- ليس أكثر من يومين أو ثلاثة.

- هل أستطيع الاتصال به؟

- بالتأكيد... فلقد وعد أن يتصل بي فور وصوله.

- شكرًا لك سنيور إجنازيو.

- هل أنت واثقة أني لا أستطيع تقديم أي مساعدة؟!

مضت لحظات صمت كانت سامية تنتقي فيها الكلمات بعناية لكنها قالت:

- شكرًا على دعوتك سنيور إجنازيو، وأرجو أن أستطيع أن ألبيها بعد عودة نبيل.

* * *

قال نبيل سالم فيما بعد، إنه في ذلك اليوم لم يكن يدري ماذا حدث لسامية... قال إن لقاءه بأبي سليم - قبل أن يصحب سامية إلى أدريان تومسون - كان مشوبًا بالتوتر، خاصة بعد أن طلب إليه أن يترك سامية مع أدريان تومسون... لقد جعله هذا الطلب بالذات، يستشعر الخطر عليها.

وربما كان نبيل صادقًا فيما قال، لكن الحقيقة المؤكدة، أنه مهما شعر أو أحس فهو لم يكن يستطيع سوى الطاعة العمياء وتنفيذ ما يؤمر به... وعلى كلٍّ فلقد كان عليه أن يعود إلى مكتبه بعد مغادرته لمقهى «بالبو» لإنجاز

بعض الأعمال... غير أنه ما إن وصل إلى المكتب، حتى وجد رسالة من أبي سليم يطلب إليه أن يلتقي به على الفور... ولذلك؛ فلقد طلب إلى مارشيلا أن تبلغ سنيور ألبرتو إجنازيو، أنه سوف يتصل به لتحديد موعد اللقاء ومكان العشاء... لكنه عندما التقى بأبي سليم كان هذا يحمل إليه مفاجأة... فلقد طلب إليه أن يسافر إلى نابولي.

- إمتى؟

- دلوقت.

همَّ نبيل بالاحتجاج عندما نظر الرجل في ساعته مغمغمًا:

- فاضل على ميعاد القطر ساعة وربع.

في تخاذل جاء صوته:

- بقى ده معقول يا ابو سليم؟!

- إنت نسيت إن وراك شغل هناك؟!

- ما نسيتش بس...

- وإن إسكالكو بدأ يتضايق من قعادك في روما؟!

- طب وسامية؟!

- سامية معزومة على العشاء.

- طب ما أنا معزوم معاها.

- اعتذر لها.

- واسيبها تسهر مع ألبرتو لوحدها؟!

- إنت بتغير عليها يا نبيل؟!

كانت نظرات الرجل تخترق عينيه اختراقًا جعل من محاولة المقاومة عبثًا، لا طائل من ورائه... تحرك أبو سليم خطوة نحو الباب كما هي عادته عندما ينتهي من جولة مع نبيل قائلًا:

- إنت حتطلب سامية دلوقت وتعتذر لها.

- ما اعتقدش إني حالاقيها رجعت دلوقت.

- خلاص... سيب لها رسالة.

- وأقول لها أنا حارجع إمتى؟

- ما تقولش حاجة.

صمت أبو سليم لثوان ثم أردف:

- ولا تقولهاش انت مسافر فين.

انقبض قلب نبيل - هكذا قال بالحرف الواحد - أحس بوطأة الذنب تكاد تكتم أنفاسه، أحس أن سامية سوف تدخل اليوم ذلك الجحيم الذي خطا إليه من قبل، جاءه صوت الرجل قبل انصرافه:

- ولا ترجعش من نابولي إلا لما أقول لك.

* * *

ظلت سامية لساعات ضائعة النفس مبددة الخواطر مشتتة الفكر، لم تكن تدري ماذا تفعل، وكيف تكون خطوتها الأولى، ألقت نظرة سريعة على رسالة نبيل - ربما للمرة العاشرة - وعادت شكوكها تجتاحها اجتياحًا، فكرت في اللجوء إلى الشرطة لكنها عدلت عن الخاطر فلقد بدا لها حديث البائعة منطقيًا، مرت الساعات فإذا كل الطرق قد سدت في وجهها... لم يكن أمامها سوى أدريان تومسون... همّت إلى حقيبة يدها بحثًا عن رقم تليفونه لكنها في لحظة جمدت في مكانها وقد استبد بها اليأس، فلقد تذكرت أنها وضعت رقم التليفون في حافظة نقودها زيادة في

الحرص... هبت في الخارج ريح اهتز لها زجاج النافذة فأحست بجسدها كله يرتجف... كانت الآن عارية من كل حماية، كانت مفلسة، وفي دولة غريبة، ونبيل قد اختفى، ولا سبيل أمامها سوى الانتظار، فإلى متى؟!

* * *

وانتظرت سامية لثلاثة أيام كاملة... وهي، عندما تتذكر تلك الأيام الثلاثة، وحتى اليوم يشحب وجهها شحوبًا عظيمًا، دون أن تستطيع مرة أن تحكي كيف كانت وكيف أحست وكيف عاشت... كانت تنتظر مكالمة من أدريان تومسون في كل يوم دون جدوى، كما كانت تنتظر - بجنون - مكالمة من نبيل سالم... ولقد فكرت في لحظات يأس مميت، أن تتصل بألبرتو إجنازيو وأن تطلب عونه... لكنها دائمًا ما كانت تتذكر جملته تلك المرحة الظاهرة البراءة بكثير من الوجل والشك، عندما قال: «ها أنا قد تخلصت من وغدك المصري وسأنفرد بك الليلة»... اجتاحها ذلك الرعب الذي عزته في البداية إلى تربيتها الشرقية لكنها كلما أمعنت التفكير في الجملة كان الشك ينشب مخالبه في صدرها... وكان آخر ما توصلت إليه هو الاتصال بالسفارة المصرية في روما، ولكن، ليس قبل أن تعطي لنبيل الفرصة كاملة... ولقد قالت لي سامية فهمي إنها كانت موقنة من شيء واحد، فلو أنها اتصلت بالسفارة، فلسوف تكون تلك الخطوة هي آخر المطاف مع نبيل... ولم يكن هذا الأمر سهلًا.

حتى كان اليوم الثالث، تناولت طعام الإفطار في غرفة الطعام الصغيرة الأنيقة، وكانت قد قررت مغادرة الفندق في جولة تروح بها عن نفسها بعد ليلة لم يزر فيها النوم عينيها إلا لمامًا... تقدمت من موظفة الاستقبال كي تسلمها المفتاح عندما اعترض طريقها مدير الفندق... وفي أدب شديد حياها الرجل:

- بونجورنو سنيورينا فهمي.

- بونجورنو سنيور.

- إن لك الآن سبعة أيام في الفندق، ألا تفكرين في أن تدفعي شيئًا تحت الحساب؟!

بدا السؤال بريئًا ومنطقيًا في نفس الوقت، لكن الأرض مادت تحت قدميها حتى لقد ترنحت وكادت تسقط لولا أن لحقتها يد الرجل بسرعة:

- ماذا بك سنيورينا فهمي؟!

بذلت أقصى ما كانت تملك من جهد كي تتماسك وتتمالك نفسها حتى تواجه الرجل في ثبات:

- سنيور... هل أستطيع التحدث إليك لدقائق؟!

- بكل تأكيد... ولكن...

قاطعته في حدة:

- إنني بخير، كل ما أرجوه أن تستمع إلي لدقيقة أو دقيقتين.

وعندما جلست على المقعد المواجه لمكتبه قالت وقد استعادت بعضًا من قوتها:

- منذ يومين سرقت حافظة نقودي.

- آه...

قالها الرجل في ابتسامة ساخرة وهو يضطجع في مقعده شأن من استمع إلى مثل هذا الكلام كثيرًا ويعرف كيف يعالج الأمر... صعقت ابتسامته سامّية فانتبهت كل حواسها واعتدلت في جلستها وهي تواجهه في حدة:

- إن لي صديقًا هو في الواقع خطيبي، غادر روما لبضعة أيام ولسوف يعود اليوم أو غدًا.

- آه.

مرة أخرى يطلق الرجل تلك الصيحة الساخرة وهو يتأرجح بمقعده ذات اليمين وذات اليسار فانفجرت رافضة أسلوبه:

- إذا لم يأت حتى مساء اليوم، فلسوف أتصل بالسفارة المصرية في صباح الغد كي أدبر الأمر.

قالت هذا وهي تخرج جواز سفرها وتلقيه أمامه بينما كان يعتدل في جلسته فاغر الفم وكأنه أخذ على حين غرة، واستطردت سامية:

- وها هو جواز سفري تستطيع أن تحتفظ به حتى تطمئن.

نهض محاولاً الحديث لكنها أردفت:

- هذا مع العلم بأني لن أغادر الفندق حتى أتصل بالسفير ويأتي من يحل المشكلة.

اندفعت نحو الباب لكن الرجل كان أسبق إليه منها وكأن مسًا كهربيًا قد أصابه:

- سنيورينا فهمي... أنا لم أقصد إلى...

- حتى ولو كنت تقصد، فهذا حقك.

في لحظة تحول الرجل من النقيض إلى النقيض وهو يقول وكأنه يستعطف:

- أقسم لك بأني لم أقصد إلى إزعاجك وليس هناك ما يدعو إلى الاتصال بالسفارة، كما أنه ليس هناك ما يدعو إلى ترك جواز سفرك ولك أن تغادري الفندق وقتما شئت حتى يعود خطيبك من رحلته.

اجتاحت الدهشة سامية وهي تنظر إلى الرجل الذي كان يتوسل بالفعل، لزمت الصمت فبدا لها وكأنه يرتجف، انتابها إحساس رهيب بأن كل شيء في حياتها أصبح عبثًا فما هذا الذي تراه... ازداد توتر الرجل مع صمتها فإذا به يضع يده في جيبه كي يخرج حافظة نقوده:

- وإذا كنت في حاجة إلى بعض المال فأنا على استعداد لإمدادك بما تريدين!

مع الدهشة البالغة، سرت الراحة إلى نفس سامية، مع شكوكها المتنامية اكتشفت أن الرجل لم يخطئ تمتمت وكأنها تعتذر عن حدتها:

- آسفة... ربما كنت عصبية بعض الشيء بعد هذا الذي حدث.

- هل أستطيع لك شيئًا؟!

- أشكرك.

- أرجو ألا تقلقي بخصوص الفندق.

- دعنا ننتظر حتى مساء اليوم ولسوف نرى.

قالت جملتها الأخيرة وكأنها تحدث نفسها، همّت بمغادرة الغرفة عندما قفز الرجل نحو مكتبه كي يختطف جواز سفرها ويعود به إليها:

- سنيورينا فهمي... جواز سفرك.

* * *

صعدت سامية إلى غرفتها وقد اتخذت قرارًا بألا تغادر الفندق حتى صباح اليوم التالي... فإذا لم يتصل بها نبيل، أو أدريان تومسون، فلسوف تذهب إلى السفارة وتطلب مقابلة السفير، وتضع الأمر بين يديه.

في تمام الواحدة والنصف ظهرًا، دق جرس التليفون في غرفة سامية فهمي، كانت مستلقية فوق الفراش فيما بين اليقظة والنوم، انتفضت جالسة وهي تختطف السماعة:

- ألو.

جاءها صوت أدريان تومسون من الطرف الآخر:

- لقد انتظرت لثلاثة أيام دون جدوى، ويبدو أنك صرفت النظر عن الأمر كله.

تساءلت في لهفة وكأنها لا تصدق أذنها:

- مستر تومسون؟!

- أنا هو.

- أنا لم أصرف النظر عن الأمر... كل ما هنالك أني وقعت في مأزق.

- رباه... أي مأزق هذا؟!

همت بأن تذكر له ما حدث، لكنها تراجعت في اللحظة الأخيرة خوفًا من أن ينتابه الظن بأنها تبحث عمن يقرضها مالًا، ضحكت ضحكة خفيفة وهي تقول:

- لقد ضاع مني رقم تليفونك.

- وهل أستطيع أن أراك؟!

- أرجوك.

- إذن فلنلتق في...

قاطعته.

- لا... أرجو أن تمر علي في الفندق.

- أوكي... متى تريدين أن أمر عليك؟!

- الآن إذا أحببت.

- سأكون عندك بعد نصف ساعة.

أعادت سامية سماعة التليفون وهي تتنفس الصعداء، لكن دموعها كانت أسرع حتى من أنفاسها.

الفصل الثامن والعشرون

لو عَرفت كم أحبك

قال لي عادل مكي: إن كل ما حدث لسامية في روما، كان بالطبع موضوعًا ومصنوعًا ومرتبًا ترتيبًا شديد الدقة... وإن أبا سليم كان هدفه الأول هو أن تفقد سامية نقودها حتى تحتاج إلى نبيل، وتصبح حاجتها تلك هي بداية الطريق الذي أراد أن يقودها فيه... غير أن موقف سامية الصارم - حتى مع نبيل - فيما يختص بالمال - كان بلا شك عقبة في سبيل تحقيق تلك الخطوة الهامة... لذلك، فلم يكن كافيًا - من وجهة نظره - أن تفقد سامية نقودها فقط، بل كان لا بد من إضعافها وتحطيم مقاومتها.

لكنه، وهو يحكي عن تلك المرحلة، ضحك فجأة ضحكة بدت لي غريبة... وعندما سألته عن سبب ضحكته تلك، قال وعيناه تسبحان إلى بعيد وكأنه يلتقط المعاني بنظراته من مكان مجهول:

- الغريبة إن الراجل اللي سمّى نفسه أبو سليم ده، رجل مخابرات ممتاز. ومدرب تدريب على مستوى عالي جدًّا، وفوق كل ده له تجربته الغنية... ورغم كده، وقع في غلطة صغيرة قلبت له كل حساباته.

صمت عادل ريثما أشعل سيجارة راح ينفث دخانها في الهواء على مهل، ثم التفت نحوي وقال:

- ولما انتبه للغلطة اللي غلطها، ولقى نفسه قدام واقع جديد ما عملش حسابه، ارتبك، واتصرف تصرفات ما تصدرش عن مبتدئ... وخلى بذور الشك في نفس سامية تنمو وتكبر ويبقى لها في الوقت المناسب، تأثيرها الواضح.

ففي نفس اليوم الذي ركب فيه نبيل القطار المتجه إلى نابولي، كان أبو سليم يطير إلى إسرائيل على متن طائرة شركة العال... ولم يكن منطقيًا أن تكون سامية فهمي بالتحديد هي سبب سفره إلى إسرائيل، ولا بد من أن تكون هناك أمور أخرى استلزمت سفره، غير أن المؤكد، أن سامية فهمي كانت واحدًا من الموضوعات التي أراد أن يناقشها مع قيادته في تل أبيب.

وفي حقيقة الأمر، فإن قليلًا من التفكير سوف يقودنا إلى الحقيقة دونما قدر كبير من الجهد... فإن سفر أبي سليم في ذلك الوقت بالذات، كان يعني ثقته المطلقة في أن كل ما أمر به أو خطط له سوف يسير بدقة نحو الهدف... كان مثلًا قد اطمأن على خطة نشل حافظة سامية فهمي، ولم يكن صعبًا عليه أن يستأجر نشالًا، وأن يضع له الخطة، كي ينفذها بدقة، حتى ولو كان النشال في غير حاجة إلى هذه الخطة... ولقد كان سفر أبي سليم يعني أيضًا أنه قرر أن يطيل المدة التي ستعاني فيها سامية فهمي من قلة المال، وأن يضغط - في نفس الوقت على أعصابها ضغطًا متصلًا حتى تصبح أكثر ما تكون ضعفًا... ويصبح تدخله - بواسطة أدريان تومسون - مضمون النجاح.

ولولا ما تفوهت به سامية، أمام واحد من عملائه، وهو مدير الفندق، من اعتزامها الاتصال بالسفارة المصرية في روما، ومقابلة السفير حتى تحل الإشكال، لطالت مدة غيابه أكثر... فلقد كان هذا الذي تفوهت به بالضبط، بمثابة قنبلة ستنفجر في كل ما بناه طوال شهور مضت ، وكان هذا بطبيعة الحال آخر ما يريدونه أو يتصورونه... ولقد أدهش سامية ذلك الارتباك

الذي حدث لمدير الفندق لمجرد ذكر السفارة، أدهشها هذا كما لفت نظرها انقلاب موقف الرجل من النقيض إلى النقيض لغير سبب واضح أو مقنع... فهي نزيلة عادية من نزلاء الفندق، وهي منذ أن وصلت، لم يبد على المدير أو الموظفين أنهم يولونها رعاية من نوع خاص، أو أن أحدهم - على الأقل - يعرف نبيل.

فما الذي بدّل موقف المدير، فبعد أن كان متنمرًا ساخرًا مما قالته عن سرقة حافظة نقودها، تحول إلى إنسان يكاد يتوسل حتى تقبل منه قرضًا... ما الذي غيّر موقفه بهذه السرعة؟!

وبالتأكيد، فلقد كانت سامية فهمي على حق في ظنونها... فإن اتصالها بالسفارة أو السفير كان يعني انهيار العملية برمتها، أو على الأقل تأجيلها إلى فترة طويلة حتى يُنْسَى الأمر تمامًا.

وعلى كلٍّ فإن سامية لم تجد تفسيرًا لما حدث، ولم يكن أمامها سوى أن تطرحه جانبًا دون أن تنساه، كان يكفيها أنها خرجت من المأزق... لذلك، عندما جاءتها مكالمة أدريان تومسون، كانت بمثابة القشة التي ستنقذها من غرق محقق، فتشبثت بها.

* * *

بدا أدريان تومسون لسامية فهمي نموذجًا مثاليًّا للشاب المتحضر المثقف في نفس الوقت، ولقد وصل إلى الفندق بعد نصف ساعة بالضبط... وما إن دلفت إلى جواره في السيارة، حتى التفت نحوها متسائلًا:

- ماذا هناك يا سامية... يبدو أنك لست على ما يرام.

لم تدهش سامية لسؤال أدريان ، كان أمرًا طبيعيًّا أن يبدو على وجهها آثار إرهاق أيام ثلاثة مضت عليها في قلق متصل... ولقد همّت أن تذكر له ما حدث لها بعد مغادرتها إياه في مقهى بالبو مباشرة، لكنها أمسكت عن

ذكر ما حدث حتى لا يظن بها ظنًا قد يضعها في موقف ضعف أو حرج... ولذلك، وعندما غمغمت بكلمات تعني أنها أصيبت بصداع مفاجئ، بدا على أدريان أنه لا يصدق ما تزعمه، لكنه التزم الصمت ولم يعلق... بل راح يقود السيارة في شوارع روما المزدحمة، حتى وصل إلى شارع يقع في وسط المدينة، لكنه شارع ضيق يبدو وكأنه شق بين الجدران... في هذا الشارع كان ثمة مطعم صغير ذو باب من طراز معماري قديم... دلفا إليه فإذا المكان شبه خال من الرواد، تنساب في أرجائه موسيقى «مانتوفاني» الخفيفة فكأنها تعطر الهواء بعطر خفي... ما إن اتخذا مكانيهما حول إحدى الموائد المنزوية، حتى دخل أدريان في الموضوع مباشرة:

- هل فكرت فيما تحدثنا فيه؟!

- الحقيقة أنني فكرت كثيرًا.

- وماذا كان قرارك؟!

نظرت إليه سامية طويلًا، بدا لها وجهه وكأنه اكتسى بقناع خفي لا ملامح له، كان عليها أن تجيب، وكانت تريد أن تجيب... لكن شيئًا ما كان يمنعها من الإجابة فراحت تتلاعب ببعض الأشياء الموضوعة فوق المائدة... حتى إذا طال انتظار أدريان... عاد يسألها:

- هل أنت متأكدة من أن كل شيء على ما يرام؟!

أرادت سامية أن تهرب من سؤاله فقالت:

- إني فقط أريد أن أعرف نوعية الأخبار التي تريدها.

هم بالنطق لكنها رفعت يدها كمن تطلب منه الانتظار حتى تفرغ من حديثها، لزم الصمت فأردفت:

- إن الذي فهمته منك، أنه ليس للوكالة مكتب في القاهرة، وبالتالي، فليست هناك وسائل اتصال مباشرة... وقد أستطيع الحصول على أخبار لا

تحتمل الانتظار، فكيف أرسلها إليك قبل أن تعرفها أو تقع عليها وكالات الأنباء الأخرى التي تملك من الوسائل ما تعرفه أنت خيرًا مني؟!

قال أدريان وكأنه كان في انتظار ما قالته تمامًا:

- إن معك الحق في كل ما ذهبت إليه يا عزيزتي سامية... ولكن السؤال يبقى معلقًا بلا إجابة.

- ما الذي تعنيه بالله عليك؟!

- هل تقبلين العمل معنا؟!

- نعم... وإلا لما كنت هنا الآن.

ابتسم أدريان وهو يشير إلى إحدى فتيات المطعم قائلًا:

- إذن، فلنحتفل أولًا، ونشرب نخب الاتفاق.

- ليكن.. فأنا في حاجة إلى كأس من العصير.

- وهل يضايقك أن أطلب لنفسي بعضًا من النبيذ؟!

- إطلاقًا.

وهكذا... راح أدريان يتحدث إلى سامية في هدوء وتؤدة من يختار مواقع كلماته ومعانيها بدقة... قال إنه عندما فكر في إنشاء هذه الوكالة مع مجموعة من أصدقائه، لم يدر بخلدهم أنهم سوف يستطيعون - من البداية - منافسة وكالات الأنباء العظمى، لذلك... فإن خطتهم تعتمد على ذلك النوع من الأخبار الذي لا تنشره الصحف عادة، لا لأنه غير مهم، ولكن لأن أهميته تجعل من العسير الحصول عليه.

- هل لك أن توضح أكثر؟!

قال أدريان إنه سوف يعطيها مثلًا بسيطًا وحيًا في نفس الوقت... فلقد نما إلى علمه أن ثمة خلافًا قد وقع بين المهندسين السوفيت والمهندسين المصريين حول بعض التفاصيل الخاصة بالسد العالي في مرحلته الأخيرة

التي كان العمل يجري فيها على قدم وساق... ورغم أن مصدر هذا الخبر لا يرقى إليه الشك، فإنه لم ينشر بطبيعة الحال في الصحف المصرية، ولم تهتم به أو لم تحصل عليه بعد وكالات الأنباء العالمية... وأن خبرًا مثل هذا إذا ما وُضع في مكانه الصحيح من مجموعة الأخبار التي تعرف عن السد العالي... فمما لا شك فيه أن قيمة الخبر، في الوقت المناسب، سوف تصبح ذات فعالية لا شك فيها، كما أنها - بالتأكيد - سوف تتبنى وجهة النظر المصرية... لأنها - كمصرية - ستعرف بالضبط ما الذي حدث... وبدلًا من التشويش الذي تتعمده بعض وكالات الأنباء حول التجربة المصرية التي يرى أنها مثيرة بكل المعاني، فإن تقريرًا يصدر عن وكالتهم، سوف تتلهف الصحف لنشره، كما أنه سيضع الأمور في نصابها الصحيح.

جاء النبيذ كما جاء عصير الفاكهة الذي طلبته سامية، واستطرد أدريان يشرح كيف تم الاتصال بينه وبين شركائه في لندن، وأن الاتفاق قد تم بينهم فيما يختص بها، على كل التفاصيل... وأن أية أخبار اقتصادية كانت أو سياسية أو صناعية أو حتى حربية، سوف تلقى اهتمامًا شديدًا من الوكالة التي قررت أن تتعاقد معها على أن تكون تحت الاختبار لمدة ثلاثة أشهر بمرتب يعادل مائتي جنيه مصري... على أن يزيد المرتب بعد ذلك حسب تقييم نشاطها في هذه الشهور الثلاثة، مع وعد يلتزم به أمامها، بمكافآت مجزية عند الحصول على أخبار تستحق المكافأة.

ما إن انتهى أدريان من حديثه، حتى أحست سامية بأن رأسها يدور، وأن الأرض تميد تحت قدميها... كان الشاب الجالس أمامها يتحدث في ثقة وبساطة من سوف يصدق في كل كلمة يقولها، ومرة أخرى راحت تبذل جهدًا حقيقًا كي تتماسك أمامه حتى لا يبدو عليها أثر ذلك الانفعال أو بالأصح تلك الفرحة التي تفجرت في رأسها... فسألته:

- ولكنك لم تخبرني عن كيفية الاتصال بك أو إرسال الأخبار إليك في حينها.

- هناك وسائل عديدة، فكلما تجمعت لديكِ مجموعة من الأخبار يكفي أن ترسلي لي خطابًا على مكتبنا في لندن تقولين فيه إن لديكِ أخبارًا سارة... وإذا ما كان...

قاطعته هاتفة:

- مهلًا عزيزي أدريان، ما معنى كلمة أخبار «سارة» هذه؟!

- هل تفكرين أن لديكم رقابة على البريد في مصر؟!

- قد يكون الأمر كذلك ولكن...

قاطعها في حسم:

- ليس هناك محل لكلمة «ولكن» هذه يا صديقتي... فأنت لا تعرفين ما الذي يمكن أن يحدث لو أن إحدى الوكالات العملاقة عرفت تلك الأخبار، إن معنى هذا هو تحطيم المشروع تمامًا، إنهم يسحقون كل من يقف في طريقهم أو يحاول منافستهم دون رحمة... لذلك فالسرية هنا مطلوبة حتى نستطيع مواجهة أسماك القرش المفترسة تلك التي تسيطر على أنباء العالم، ولا تسمح، ولن تسمح، للأسماك الصغيرة بأن تعبث من حولها... أو... أو أن تسبقها بخبر.

كان حديثه مليئًا بالحرارة، كما كان - بالنسبة إليها - منطقيًا ولا غبار عليه فسألته:

- وماذا بعد أن أرسل الخطاب؟!

- بعدها تأتي مسئوليتي... فإما أن أطير إلى القاهرة، أو أرسل إليك من يتسلم منك ما جمعت من أخبار... أو إذا استطعت أن تطيري أنت إلى لندن أو روما.

عاد الصمت يلفهما من جديد، استغرقت سامية في التفكير... لم يبد لها فيما قاله أدريان تومسون شيء يتناقض مع ما تعرفه... انتبهت من أفكارها فإذا هو يقول:

- وليس لنا سوى شرط واحد أعتقد أنك - بعد هذا الذي ناقشناه معًا - سوف تفهمينه جيدًا.

- وما هذا الشرط؟!

- السرية.

رفعت حاجبيها دهشة فأردف:

- إن للوكالات الكبرى عندكم في القاهرة مندوبين معتمدين من الحكومة، ومعروفين لكم جميعًا، أليس كذلك؟!

- هذا طبيعي.

- لكن غير الطبيعي والذي ربما لا تعرفينه، أن لكل وكالة من تلك الوكالات جيشًا جرارًا من المندوبين الذين يتسقطون الأخبار من كل مكان دون أن يعرفهم أحد.

غمغمت سامية:

- لعلي سمعت شيئًا عن هذا.

- ولذلك فالسرية مطلوبة حتى لأقرب الناس إليك.

- ما الذي تعنيه بالله عليك؟

- إن كلامي واضح.

- فماذا عن مستر جيزي وهو الذي عرفني بك وجاء بي إليك.

- إن مستر جيزي يعلم أننا التقينا لكنه لا يعرف كيف سنعمل.

- وماذا عن أمي مثلًا؟!

- من الأفضل ألا تعرف حتى تستقر الأمور.

- وكيف أفسر لها حصولي على المال؟

- إنك - في البداية على الأقل - لن تحتاجي إلى هذا.

- أعترف لك أني لم أفهم مقصدك.

- أعتقد أن الأمر في البداية لن يكون في حاجة إلى تفسير، أما فيما بعد... فإن الحصول على عقد مع إحدى المجلات أو الصحف الإيطالية، من الممكن أن يكون مبررًا كافيًا.

- هل معنى هذا أني سأراسل إحدى الصحف أو المجلات الإيطالية أيضًا؟!

- هذا يتوقف على مدى كفاءتك.

- ولكن... لم كل هذا التعقيد والأمر كما يبدو لي بسيط؟!

- لأن الواقع المحيط بنا مُعَقّد بالفعل.

أطرقت سامية قليلًا بينما كان أدريان يرقبها بعينين يقظتين، حتى إذا ما رفعت رأسها إليه قالت:

- أوكي... ليكن لك ما تريد.

تنفس أدريان الصعداء وهو يتمتم:

- إننا نسبح في بحر مليء بالحيتان يا سامية.

انتابها حماس مفاجئ فهتفت:

- ولكننا قادرون على إثبات وجودنا.

أشرق وجهه بابتسامة واسعة وهو يقول:

- كل ما أرجوه ألا تخذليني أمام شركائي، وألا تخذلي الوكالة وهي تخطو خطواتها الأولى في الشرق الأوسط.

أثرت جملته فيها تأثيرًا قويًا فهتفت مرة أخرى:

- لا عليك، لن أخذلك ولن أخذل الوكالة.

- هل هذا وعد؟!

مد يده نحوها فلم تتردد طويلًا، وجدت نفسها تمد يدها نحو يده كي يتصافحا عبر المائدة:

- إنه وعد يا أدريان.

أخرج أدريان من جيبه، على الفور، مظروفًا قدمه إليها:

- في داخل هذا الظرف مرتب الأشهر الثلاثة القادمة، وهي أشهر الاختبار.

خفق قلب سامية خفقانًا شديدًا، أحست وكأن طاقة في السماء قد انفتحت لها... كان معنى هذا أن الظرف يحتوي على ما يوازي ستمائة جنيه مصري بالليرة الإيطالية أو الدولار أو الإسترليني... تناولت منه الظرف وعيناها تبرقان ببريق امتنان لا حدود له، ما إن وضعت الظرف في حقيبة يدها حتى تذكرت نقودها التي نشلت فنقلت الحقيبة كي تضعها فوق ساقيها، وكان أدريان يقول:

- لم يعد باقيًا كي نستكمل الإجراءات الشكلية إلا أن تكتبي طلب التحاق بالوكالة.

وصل طعام الغداء وبدأت فتاة المطعم في وضع الأطباق وملأت خياشيم سامية رائحة الشواء فجرى لعابها وتذكرت أنها - منذ ثلاثة أيام - لم تتناول وجبة كاملة... ساد الصمت بينهما حتى مضت فتاة المطعم فسألته وهي تقبل على الطعام بشهية:

- وماذا أكتب في هذا الطلب؟

كان هو الآخر مقبلًا على الطعام فقال بسرعة:

- كل شيء عنك.

- ما معنى هذا؟!

– أعلم أن ما سأقوله سيبدو لك غريبًا بعض الشيء، ولكنه النظام المتبع في أوربا كلها.

– لم أفهم بعد مقصدك.

– عليك أن تكتبي كل شيء عنك، عن والدك ووالدتك وأقربائك وأصدقائك ومعارفك ووظائفهم وعلاقاتك، إلى آخر كل هذه الأشياء الروتينية.

بدت عليها الدهشة فأردف:

– إن مثل هذه الأشياء تصبح ذات فائدة عظيمة في الوقت المناسب، ولسوف تدركين – إذا ما قدر لنا أن نستمر معًا – أن الحصول على خبر أصبح الآن علمًا علينا أن ندرسه جيدًا وأن نتقن فنونه ونتدرب عليه.

– ولكنك لم تعطني ذلك العنوان الذي سأراسلك عليه.

– سوف نلتقي قبل سفرك مرة، كي تعطيني طلب الالتحاق وأعطيك العنوان.

– ألا ترى أن ما تطلبه مني غريب بعض الشيء؟!

توقف أدريان عن الأكل، سدد إليها نظرات بدت لها غريبة ومخيفة أيضًا، سرت في جسدها رعشة خفيفة لكنها سرعان ما اختفت مع انسياب صوته العميق:

– إن قيمة الصحفي تتوقف إلى حد كبير على قيمة علاقاته بنوعيات مختلفة من الناس ومصادر متعددة للأخبار... وإذا فرضنا أني مقتنع بكفاءتك وقدرتك على إمدادنا بما سوف نحتاج إليه... فكيف يقتنع هؤلاء الذين يُكوِّنون مجموعة الإدارة في لندن؟!

صمتت سامية مليًّا، أحست أنه دائمًا ما يجد إجابة عن كل سؤال وسرعان ما ابتسمت وكأنها تعلن اقتناعها بما قال وهي تغمغم:

- إني أفكر في السفر بعد غد.

- بمثل هذه السرعة؟!

- لقد غبت طويلًا عن المجلة، ولا بد من العودة.

- ولكني فهمت منذ البداية أنك جئت لشراء سيارة، فهل عثرت على ضالتك؟!

قالت سامية وهي تزفر:

- لقد صرفت نظري عن شراء السيارة، فليس معي ما يكفي من نقود.

- ولكن...

قاطعته في حسم:

- لا عليك يا أدريان... إن الأمر يبدو خاصًا للغاية.

طلبت سامية فهمي من أدريان تومسون ألا يوصلها إلى الفندق، قالت له إنها في حاجة إلى أن تتجول في شوارع روما وحدها... ضرب لها موعدًا في السابعة من مساء اليوم التالي في مقهى باليو... غادرت المطعم وهي تحتضن حقيبة يدها في حرص، وفي صدرها عشرات المشاعر وفي رأسها أمواج بلا نهاية من أفكار كانت تتلاطم دون أن تعثر لها على إجابة شافية... راحت تتساءل كيف عرف أدريان تومسون برغبتها في شراء سيارة فهي لم تتحدث إليه في الأمر كما أنها لا تذكر أن نبيلًا قد ذكره أمامها لسنيور جارديني... بدت الأمور مختلطة أشد ما يكون الاختلاط، في حقيبة يدها مبلغ من المال لم تحلم يومًا بأن تمتلكه... كانت قادرة الآن على شراء سيارة من القاهرة بالجنيهات الستمائة التي حصلت عليها... اكتشفت وهي تسير في شوارع روما قابضة على حقيبة يدها أنها لا تريد أن تفكر في نبيل، وأنه كلما خطر ببالها هربت بأفكارها منه... اكتشفت أن شكوكها لا بد من أن تكون ذات صلة بما حدث ويحدث... وليس منطقيًا أن يكون

هناك دخان بلا نار موقدة، نار وضعها نبيل سالم فيها بتصرفات قد تبدو عادية تمامًا، لكنها صنعت بها وهي غريبة في بلد غريب ما لم يخطر لها على بال... انتابها إحساس غامر بأنها ستذهب إلى الفندق كي تجد رسالة من نبيل، ألح عليها هذا الخاطر إلحاحًا لم تجد له مبررًا... اتخذت قرارًا بأن تستميت في العمل مع أدريان حتى تبرهن لنبيل أنها تستطيع - وهي في القاهرة - أن تحقق ما حققه هو في الخارج... عندما كلت قدماها من السير أوقفت سيارة أجرة، وأعطت السائق اسم الفندق وعنوانه، وكانت قد انتوت، فور وصولها، أن تدفع الحساب استعدادًا للعودة.

* * *

- هل لك أن تخبرني بكم أنا مدينة لكم؟!

هكذا قالت لموظف الفندق الذي نظر إليها في دهشة:

- هل ستغادريننا بمثل هذه السرعة سنيورينا فهمي؟!

- لقد انتويت العودة إلى القاهرة بعد غد.

- وهل تريدين أن أحجز لك مكانًا على الطائرة؟!

- نعم... المصرية من فضلك.

- حسن سنيورينا... وحتى أجهز لك كشف الحساب، هناك من ينتظرك منذ ساعة.

قال الموظف هذا وهو يومئ نحو الصالون الملحق ببهو الفندق، التفتت سامية إلى حيث أشار وإذا نبيل يجلس هناك مستغرقًا في قراءة مجلة إيطالية.

* * *

- إزيك يا نبيل؟!

فاجأته بالسؤال ولم يكن قد انتبه لوصولها، انتفض واقفًا، كان شاحبًا، زائغ العينين قلقًا.

- إيه اللي حصل يا سامية؟!

- خيرًا.

- الراجل مدير اللوكاندة قال لي إن...

قاطعته:

- وده يهمك؟!

- سامية.

- أرجوك يا نبيل... أنا مش عاوزة أزعل معاك قبل ما أسافر.

- تسافري؟!

- بعد بكره إن شاء الله.

- والعربية؟!

- مش عاوزه عربيات... خلاص.

- إذا كانت فلوسك انتشلت ما يهمكيش يا سامية، فداكي، وأنا تحت أمرك.

كان نبيل الآن يرتجف حقًا، كان بادي القلق... في توسل قال:

- أنا اضطريت أسافر غصب عني.

- ضروري.

- إنتِ ليه بتعامليني بالشكل ده؟!

- نبيل.. أنا تعبانه.. ممكن ما نتكلمش في الموضوع ده النهارده؟!

- لا مش ممكن.

- نبيل.

- ومش ممكن تسافري وانتي زعلانة.

- أنا مش...

- ومش حتسافري من غير عربية كمان.

- لاحظ إن الناس بتتفرج علينا.

كان صوت نبيل يعلو لحظة بعد أخرى.

- أنا ما يهمنيش الناس، ولعلمك كمان، الناس هنا ما بيهتموش بمشاكل غيرهم.

- سامية...

- نبيل... أرجوك.

- أنا اللي بارجوكي ما تظلمنيش، بارجوكي تسمعيني.. أنا من ساعة ما وصلت وعرفت اللي حصل لك من مدير اللوكاندة وانا حاتجنن.

كان نبيل بالفعل في حالة ارتباك وقلق وخوف، ولم يكن في حاجة إلى أن يؤكد هذا لسامية، فلقد كان ارتباكه وقلقه وخوفه تعربد جميعًا فوق ملامحه وحركته... ولقد قال نبيل فيما بعد إنه كان خائفًا بالفعل، مرتبكًا حقًّا... ليس لأن سامية فقدت نقودها، ولكن لأنه أدرك أن أبا سليم قد قذف بها إلى عجلته الجهنمية التي عانى منها كثيرًا من قبل... وإنه فكر في أن يحذرها، لكنه تراجع فماذا يمكن أن يقول لها، وماذا يمكن أن تفعل هي؟! قال إنه كاد يبكي أمامها متوسلًا أن تغفر له، ولقد تصاعدت الدموع بالفعل إلى عينيه وقد أدرك أن ثمة حاجزًا هائلًا قد هبط فيما بينهما، وأنه لن يصل إلى سامية فهمي بعد الآن.

- سامية.

- ممكن أروح أدفع الحساب وبعدين نتكلم؟!

- الحساب؟!

- طبعًا.

- أمال إيه حكاية الفلوس اللي...

- أنا اتنشلت صحيح إنما...

صمتت، وكان عليها أن تنتقي الكلمات، هتف:

- إنما إيه؟!

- أصلي قدرت أتصرف.

- إزاي؟!

رمته بنظرة عتاب صارخ:

- إنت نسيت إنك قدمتني لأدريان تومسون؟!

- واتفقتوا؟!

- ودفع لي مقدم ثلاثة شهور.

سَرَت إلى ملامح نبيل ابتسامة واهنة أدهشت سامية، لكنه قال:

- طب مش دي حاجة تستحق إننا نحتفل بيها؟!

رفعت إليه عينيها فإذا نظرته تترقرق فيهما تلك النظرة الفاقدة الحيلة التي تعودتها منه في القاهرة... خفق قلبها بالحنان وهي تغمغم مازحة:

- أنا مش عارفة أنا لسه باحبك لحد دلوقت إزاي.

عندما عادت إلى موظف الفندق كي تدفع الحساب، كان نبيل قد غادر كي يبدل ملابسه ويستعد للاحتفال باتفاقها مع أدريان تومسون... دفعت الحساب وصعدت إلى غرفتها وقد صفا ذهنها قليلًا... اجتاحها الحنين اجتياحًا نحو نبيل فأدركت، وقلبها مليء بالأسى، كم هي في حاجة إليه... فكرت في لحظة تفاؤل أن تناقشه في أمر عودته إلى مصر... عادت الأفكار تتجاذبها من جديد... ألقت بنفسها فوق الفراش وراحت تحملق

في السقف... وكانت الآن تحلم بمستقبل تصبح فيه واحدة من الصحفيات اللواتي تتردد أسماؤهن على كل لسان.

كان الطريق يبدو لها معبدًا، وممتدًا إلى مستقبل غارق في الألوان الطبيعية.

* * *

في مساء ذلك اليوم تناولت سامية العشاء مع نبيل سالم... كان يبدو مثل طفل ارتكب ذنبًا يود لو أنها غفرته له... لانت عواطفها تمامًا فلقد كانت عواطفه جياشة... طال بينهما الصمت فانتظرت منه أن يسألها عما بينها وبين أدريان تومسون، لكنه لم يفعل... كان ضوء المطعم الخافت يحيل المكان إلى واحة تنساب فيها موسيقى فرقة مكونة من أربعة عازفين كانت أنغام عزفهم تسري في أوصالها.

- بتبص لي كده ليه؟!

هكذا سبح صوتها إليه عبر المائدة، فهمس:

- مش مصدق إنك هنا.

- أمال حاتعمل إيه لما اسافر؟!

- حافضل استنى لحد امّا أشوفك تاني.

ضغطت العواطف على أعصابها ضغطًا أفزعها، أحست أن حبها لذلك الفتى يفوق كل ما تصورته، فهي بالرغم من كل شيء، لا تستطيع إلا أن تحبه.. أرادت الهرب مما كانت فيه فقالت:

- يعني ما سألتنيش عملت إيه مع أدريان تومسون ؟!

- مستني إنك تقولي لي.

وهكذا راحت تحكي له ما حدث، فبدا مستغرقًا في الاستماع إليها بانتباه شديد، قصت عليه ما دار بينها وبين أدريان لكنها أغفلت مسألة

العنوان وطلب التوظيف... ماجت الدنيا من حولهما بالأنغام فمد لها يده عبر المائدة ولم تستطع سوى الاستجابة، نهض فنهضت، أوسع لها الطريق فسارت إلى حلبة الرقص... وقف كل منهما تجاه الآخر لثوان لكنها سرعان ما أسلمته يديها، وراحت تسبح به وسط الناس، فكأنها فوق السحاب.

* * *

ظلا يرقصان طويلا حتى خالت أن الزمن قد توقف أخيرًا عند لحظات سعادة طالما حلمت بها... لزم نبيل الصمت ولم يفه بحرف... عندما رفعت إليه عينيها كانت عيناه تائهتين:

- ما لك يا نبيل؟!

- مش عارف.

- إيه هو اللي انت مش عارفه؟!

- أنا مش عاوزك ترجعي مصر.

ضحكت.

- واقعد هنا أعمل إيه؟!

- ما هو ده اللي أنا مش عارفه.

- طب ما ترجع انت مصر.

- طب لو رجعت، حاشتغل إيه هناك؟!

هتفت:

- اللي انت بتشتغله هنا، اشتغل في العربيات.

أطبق شفتيه ولم يرد... عادت تسأله في إلحاح:

- ما لك يا نبيل؟!

- كل امّا أحس إنها هانت، وإننا حانتجوز، كل ما ألاقي السكة قدامي طويلة.

في لمح البصر تصاعد الدمع إلى عينيها:

- تو ما افتكرت يا نبيل؟!

توقف عن الرقص فتوقفت.

- أنا ما نسيتش علشان أفتكر.

- طب انت عاوز إيه دلوقت؟!

- أولًا تسامحيني إذا كنت قصرت في حقك.

- وثانيًا؟!

- نلبس الدبل.

- إمتى؟!

- بكره... قبل ما تسافري.

انحدر الدمع من عينيها وكأنه كان في انتظار الإذن بإعلان مدى سعادتها، اتسعت ابتسامتها حتى ملأت وجهها... همس نبيل وهو يرفع يدها إلى شفتيه كي يُقبلها:

- سامية.

من خلال الدمع المتدفق، قالت:

- لو تعرف قد إيه أنا باحبك... لو بس تعرف.

الفصل التاسع والعشرون

الفَزع

قضت سامية فهمي مع نبيل سالم ليلة من أجمل ليالي عمرها، إن لم تكن أجملها على الإطلاق... هكذا قالت، وهكذا كان تعبيرها... كان نبيل في تلك الليلة عطوفًا حنونًا محبًا إلى الحد الذي بدد فيه شكوكها وجعلها تستعيد - كالحلم - حبها الضائع بين أمواج حيرة عربدت في صدرها طويلًا... وعندما ودعها عند باب الفندق، كانا على موعد في صباح اليوم التالي كي يشتريا دبلتين... وفي الموعد تمامًا كان هناك، وكان أنيقًا سعيدًا محتفلًا بكل ما تحمل الكلمة من معنى... لكنه - عندما دلفا إلى محل الجواهرجي- فاجأها بأن طلب من الرجل خاتمًا ذا فص من الماس.

دق قلبها بعنف واجتاحتها الدهشة والسعادة ابتهاجًا والرجل يقدم لهما قاعدة من المخمل الأسود رصعت بعدد من الخواتم المرصعة بالماس، راح يعرضها عليها في أسلوب رفيع وكأن أصابعه - وهي تعرض الخواتم - تعزف لحنا موسيقيًا... وقع اختيار نبيل على أحدها، وعندما وضع الخاتم في إصبعها، لم تملك نفسها من البكاء... غادرا المحل والخاتم يزين إصبعها، وعلى لسانها ألف سؤال وسؤال... ولكن الإجابة جاءتها كالبشرى المضيئة في ليلة حالكة الظلام، فلقد قال لها نبيل: إنه ظل يفكر طوال الليل في أمر الدبلتين، وإنه فضَّل ألا يتم هذا بعيدًا عن

القاهرة، والمباركة من الأهل جميعًا... وعندما همّت بالحديث وضع أصبعه فوق شفتيها هامسًا:

- أنا عارف إنك خايفة من موقف والدتك... سيبي الحكاية دي على الله وعليَّ.

أرادت أن تنبهه إلى حقيقة موقف أمها، لكنه أردف:

- تأكدي إني حاقنعها... لازم حاقنعها.

حتى كلماته تغيرت. حتى أسلوبه ارتفع إلى مستوى المسئولية، حتى عيناه كانتا مغلفتين بطبقة ندية من دمع جعل لها بريقًا أخاذًا... كان كل شيء يتغير فجأة لتدير لها الدنيا وجهها الباسم بعد طول عبوس... ولم تكن سامية تريد، بل لم تكن تحلم بأكثر مما كانت فيه... فألقت بنفسها في أحضان الساعات الباقية لها في روما، وراحت تغمر الروح بفيض من سعادة لا تأتي ولا في الأحلام.

ولقد قضيا يومهما الأخير في روما محلقين في سماء طال الشوق إليها... حتى إذا حان موعدها مع أدريان تومسون، أوصلها بالسيارة حتى ناصية الشارع الذي يقع فيه مقهى بالبو... كانت الساعة تقترب من السابعة عندما أوقف السيارة على جانب من الطريق، التفتت إليه دهشة وهي تسأله إن كان سيأتي معها، فقال:

- في البلاد اللي زي دي يا سامية، يبقى عيب جدًا إن حد غريب يحضر اتفاق على شغل.

أطلت من عينيها نظرة تساؤل... فاعتدل في جلسته ملتفتًا نحوها بكليته وهو يقول:

- الشغل هنا يا سامية غير الشغل في مصر؛ لأن الشركات هنا كبيرة... كبيرة قوي.

مضت لحظات صمت قال بعدها:

- الشركات هنا إمبراطوريات مهولة، لها مصالح في كل بلد وكل دولة، وكل مكان على وجه الأرض... وعلشان كده الشركات دي بتحارب بعضها وعاوزة تعرف أسرار بعضها زي الدول بالضبط، ويمكن أكتر.

- أمر طبيعي مع المنافسة في السوق العالمية.

- تعرفي إن فيه شركات هنا ميزانيتها أكبر من ميزانيات دول بحالها؟!

- أكيد.

- علشان كده كل شركة، مهما كانت صغيرة، بيبقى لها أسرارها اللي مش لازم حد غريب يعرفها ولو كان أقرب الناس ليكي.

- إنت بتخوفني ليه يا نبيل؟!

- أنا مش باخوفك... أنا بانبهك يا حبيبتي.

كانت مستكينة تمامًا لصوته المتدفق في دفء السيارة المغلقة، راحت تنظر إليه فإذا هو نبيل الذي طالما حلمت به، كان هادئًا حكيمًا واثقًا من نفسه... كانت قد قصت عليه ملخصًا لما دار بينها وبين أدريان تومسون في اليوم السابق، أحست وكأنه يطلب منها - بطريق غير مباشر - ألا تحكي له شيئًا وألا تقص عليه شيئًا... استطرد، وكأنه يؤكد ما دار في ذهنها:

- إنتِ من يوم ما جيتي إيطاليا، سمعتي مني حاجة عن شغلي؟!

ابتسمت في خجل وهي تتمتم:

- تعرف إن ده مزعلني منك؟!

- ملكيش حق تزعلي... لأن هنا حاجة، وفي مصر حاجة تانية.

لم تغضبها المقارنة هذه المرة فهتفت في وجل:

- للدرجة دي؟!

- عارفة معنى إن سر من أسرار أي شركة مهما كانت صغيرة، ومهما كان السر نفسه صغير ويبان وكأن ما لوش قيمة، يوصل لشركة تانية، معناه إيه؟!

- طبعًا مش كويس.

- لا مش كده يا سامية... معناه خسارة ملايين، اللي زيك واللي زيي مش قدها.

الآن، نظرت إليه في امتنان، تمنت لو أنها استطاعت أن تُقبله لولا حياء تربت عليه، غمغمت وهي تتلاعب بخاتمها الماسي الثمين.

- تعرف إن أدريان إمبارح قال لي الكلام ده؟!

- أكيد.

نظرت في ساعة يدها وكان أمامها بضع دقائق لا تزال باقية، فهتفت في مرح:

- اتعلمت الحاجات دي فين يا فتى؟!

- اتعلمتها بعد ما جُعت واتلطمت وشفت النار وحرقتني كمان.

- تعبت يا نبيل؟

- قوي يا سامية... وعلشان كده مش عاوزك تتعبي زيي، ومش عاوز الفرصة تروح من إيدك.

انتبهت إلى شيء كان يقلقها، لكن السعادة أنْسَتها إياه فوضعت يدها فوق يده متسائلة:

- حاتقف جنبي؟!

- أمال أنا باعمل إيه دلوقت؟!

- فيه حاجة عاوزة آخد رأيك فيها.

- إيه هي؟!

- أدريان طلب مني إني أكتب طلب التحاق بالوكالة... وقال لي...

قاطعها ضاحكًا:

- وقال لك تكتبي فيه اسم والدك ووالدتك ووظايفهم وأشغالهم ومعارفك وأصحابك وقرايبك وأشغالهم ومراكزهم و...

- استنى أيها الفتى... عرفت منين الحاجات دي؟!

- هو انا عرفتها بس... أنا كنت باكتب الطلب من كذا نسخة علشان ما اكتبوش في كل مرة أتقدم فيها لوظيفة من الوظايف.

- طب ليه كل المعلومات دي؟!

- نفس السؤال اللي أنا سألته.

- طب فهمني...

- لما كنت بأقول لك إن هنا غير مصر، كنتي بتزعلي مني.

- عاوزه أفهم من غير ما تتمنظر عليّ.

- إنت لما تجمعي معلومات عن إنسان ما، أي إنسان في الدنيا، وتعرفي أصحابه وَقرايبه وأهله ومعارفه وعلاقاته وجيرانه، باختصار... لما تعرفي المحيط اللي اتولد واتربى وعاش وبيعيش فيه دلوقت... مش كده بيديكي فكرة كاملة عن الإنسان ده، عن إمكانياته وقدراته وطبيعته؟!

- طبعًا.

- أديكي قلتيها، عاوزه إيه بقى؟!

- أصل الحكاية دي كانت قلقاني حبتين.

- لازم تعرفي إن رأس المال ابن كلب... بيديكي قرش علشان ياخد منك قرشين... وكل مليم بتقبضيه منه لازم تشتغلي بيه... وإلا مع السلامة.

- أمر طبيعي.

- بس على الوجه الآخر، كل ما كانت همتك أكبر، كل ما اداكي أكتر.

كان صوته عميقًا متزنًا ثابتًا.. كان صوتًا ناضجًا فاهمًا واعيًا... امتلأت نفسها بالثقة كما امتلأت براحة مشوبة بذلك القلق الغامض الذي لم يبارحها أبدًا... زفرت زفرة حارة وهي تمد يدها نحو مقبض باب السيارة وقد أزف موعدها مع أدريان متسائلة:

- حاتعدي علي الساعة كام؟!

- الليلة مش حاقدر أشوفك.

همت بالاحتجاج فأردف:

- لاحظي إني بقالي أربعة وعشرين ساعة متفرغلك... وإذا كان ألبرتو إجنازيو صاحبي، فهو صاحبي بره الشغل، إنما في الشغل ما يعرفش أبوه.

- يعني مش حاشوفك تاني.

- حضري شنطتك قبل ما تنامي، وبكره الصبح حاعدي عليكي علشان أوديكي المطار.

عندما غادرت السيارة، كانت المسافة إلى مقهى بالبو لا تزيد على بضع مئات من الأمتار، وكانت تفكر مع كل خطوة تخطوها، في ذلك الإحساس الغامر الذي سيطر على مشاعرها، إحساس كان ينبئها بأنها تخطو الآن نحو عالم آخر، عالم غريب ومثير... كانت سعيدة حقًّا، لكنها سعادة تشوبها شوائب غامضة، كانت موقنة من أنها ستنجح مع أدريان فهي أدرى الناس بكفاءتها وبما يمكن أن تحققه، لكنها لم تكن راغبة في هذا النجاح.

توقفت أمام باب المقهى وهي تملأ صدرها بالهواء، وعندما مدت يدها كي تدفع الباب المغلق، كانت - للمرة الأولى - قد اتخذت قرارها بأن

تطرح شكوكها جانبًا، وأن تعطي للدنيا حقها، وأن تأخذ هي من الدنيا، ما تستحقه.

* * *

قال نبيل سالم فيما بعد، إنه عندما استدعي من نابولي إلى روما بعد ثلاثة أيام، بدا له الأمر غريبًا لكنه لم يكن يستطيع إلا أن يلبي، كما لم يكن يستطيع - أو يجرؤ - أن يلتقي بسامية قبل أن يلتقي بأبي سليم الذي كان ظاهر الاهتمام بشكل لافت للنظر، كما كان حريصًا كل الحرص على تلقينه كل كلمة وكل إيماءة فيما يختص بتعامله مع سامية... أخبره أبو سليم بأنه سمع أن سامية وقعت في مأزق سخيف، ويبدو أن نشالي روما قد سرقوا نقودها.

وعندما بدا الجزع على وجه نبيل، حذره هذا من الإفصاح عن معرفته بالأمر إلا إذا أخبره أحد موظفي الفندق... ذلك أن سامية قضت أيامًا عصيبة وأن عليه أن يزيل كل أثر لتلك الأيام بكل ما يستطيع من جهد... طلب منه ألا يسألها عما تم بينها وبين أدريان تومسون إلا إذا قصت هي عليه ما دار بينهما... فإذا ما فعلت، فإن عليه أن يفتح أذنيه جيدًا لكل كلمة حتى لا ينسى حرفًا مما ستقول... ليس هذا فقط، بل كان عليه أن يتعرف على أحاسيسها ومشاعرها وأفكارها دون أن يوجهها إلى شيء أو يوجه إليها سؤالًا... قال أبو سليم هذا ثم استطرد:

- وبالتأكيد يا نبيل سامية حاتبقى عاوزة تفهم حاجات كتير عن طبيعة الشغل هنا.

- زي إيه يا ابو سليم؟!

- زي مسألة السرية مثلًا... أصلا المصريين فاكرين إن الشركات في أوربا زي الشركات عندهم... سامية لازم تعرف يعني إيه شركة هنا، ويعني إيه ملايين الدولارات أو الليرات، وإن دي إمبراطوريات ميزانية

الشركة فيها قد ميزانية مصر كذا مرة... ولازم تعرف يعني إيه أسرار، وأديك شفت بنفسك.

قال نبيل - فيما بعد - إنه لم يدهش لهذا الحرص الذي بدا من أبي سليم، فلقد كان مدركًا أن العجلة قد دارت، وأن سامية سوف تجد نفسها - أرادت أو لم ترد، وأراد هو أو لم يرد - داخل نفس الدوامة التي أخذته ذات يوم أخذ عزيز مقتدر... ولقد ظل الرجل جالسًا معه لخمس ساعات كاملة لم يترك فيها كبيرة ولا صغيرة إلا وتحدث فيها حتى سأله نبيل وقد فاض به:

- إيه الحكاية يا ابو سليم، هي سامية...

لكنه أمسك عن الكلام عندما انبثقت من عيني الرجل تلك النظرة الملتهبة التي كانت تبعث بالرعب إلى قلبه فترتجف لها أوصاله... أدرك أنه أخطأ عندما فكر في السؤال، أدرك للمرة المليون، أن عليه فقط أن يطيع وأن ينفذ بدقة كل ما يطلب منه دون سؤال.

ولقد صمت نبيل طويلًا بعد حديثه هذا... كان ساهمًا تتساقط قطرات العرق من فوق جبينه كأنها تأتي من نبع لا ينضب، وكان واضحًا أنه يعاني من ذكرى ذلك اليوم إلى الحد الذي جعل الكلمات تتساقط من بين شفتيه كقطع الحجارة... غمغم وقد تكست عيناه والتصقت نظراته بالأرض، إن فكرة الخطبة واختيار الخاتم بدل الدبلتين، كانت فكرة أبي سليم الذي أعطاه ثمن الخاتم وحدد له المحل الذي يشتري منه... وإنه عندما صحب سامية إلى ذلك المحل، قدم له البائع ذلك الخاتم بالذات وسط مجموعة الخواتم الأخرى - بشكل خاص لم تشعر به سامية - وعندما تظاهر بأن اختياره قد وقع على هذا الخاتم، وجد أن ثمنه بالضبط، هو الذي أعطاه له أبو سليم.

* * *

لم يطل لقاء سامية بأدريان تومسون في ذلك اللقاء... كانت في الليلة السابقة سعيدة كل السعادة حتى كادت تهمل كتابة ذلك الطلب الذي كان عليها أن تقدمه لوكالة الأنباء... لكنها كانت حريصة على أن تكتبه وأن تضع فيه كل ما طلبه أدريان... غير أنها - بعد أن كتبت الطلب - راحت تنظر إلى الأوراق في حذر، فلقد كانت تحوي أسماء كثيرة ووظائف هامة، وأن شكوكها عاودتها في تلك اللحظة، لكن حديث نبيل معها في اليوم التالي، وقبل أن تلتقي بأدريان مباشرة، طمأنها بعض الشيء... لذلك فلقد قالت وهي تقدم الطلب لأدريان:

- قد لا يرضيك طلب التوظيف هذا، فاغفر لي غفلتي.

ابتسم أدريان ابتسامة اهتزت لها سامية، لكنه قال وهو يدس الطلب في جيبه:

- إن أي خطأ من الممكن تداركه في الوقت المناسب يا صديقتي.

- أين العنوان الذي سأراسلك عليه؟!

اعتدل أدريان في جلسته، وضم ما بين حاجبيه شأن من يفكر في أمر يشغله، ثم قال:

- أتعرفين يا سامية أن أمر العنوان شغلني كثيرًا.

- ولِمَ؟!

ابتسم معتذرًا:

- هل أكون صريحًا معك بلا حساسيات؟!

- بالتأكيد.

- لو أنك أرسلت خطاباتك باسمي، أو حتى على عنوان مقرّنا في لندن... ألن يلفت هذا أنظار الرقابة على الخطابات عندكم في مصر؟!

همت سامية بالنطق لكنه رفع أصبعه في وجهها:

- لست أريد أن أجرح شعورك، إني فقط أحاول أن أنبهك.

- إذا كان ما تقوله صحيحًا... فكيف إذن سيكون اتصالنا؟!

- هناك فكرة لو أنها راقت لك، لكانت مخرجًا لا بأس به.

- ما هي بالله عليك؟!

- أنتِ تراسلين مستر جيزي بانتظام... أليس كذلك؟!

رفعت خاتمها الماسي أمام عينيه قائلة:

- إننا مخطوبان.

- إن هذا يجعل الأمر منطقيًا تمامًا.

- أي أمر هذا؟!

- ماذا لو أنك أرسلت خطاباتك لي باسمه هو؟!

- ولكنك طلبت مني السرية، ونبيل لا يعرف شيئًا عن...

قاطعها في رقة:

- أنا لم أطلب منك أن ترسلي الخطابات إلى مستر جيزي يا سامية.

- لكنك...

قالت هذا وتوقفت ممسكة عن الكلام... فلقد أضاءت الفكرة في رأسها وبدت لها عبقرية فابتسمت، وهنا، مال نحوها أدريان متسائلًا:

- كيف تراسلين نبيل؟!

- أكتب له على عنوانه في نابولي... أنت تعرف أنه يعمل أساسًا هناك.

- إذن فلسوف أعطيك عنوانًا في روما.

ساد بينهما الصمت قليلًا، كان الأمر يبدو لها غريبًا، لكن أدريان استطرد بعد ثوان وكأنه يرد على ما كان يدور في ذهنها:

- إن نبيل، كما ترين، يعمل في روما كما يعمل في نابولي... وأنت، والآخرون، يعرفون عنوانه في نابولي فقط، لكن أحدًا لا يعرف عنوانه في روما.

رغم أن ما قاله أدريان كان منطقيًا، فإن قلب سامية انقبض لسبب لا تدريه، أحست أن هناك شيئًا غامضًا لا تستريح إليه، لكنها في تلك اللحظات، لم تكن تملك سوى الموافقة... قدم لها العنوان مكتوبًا فوق إحدى صفحات نوتة صغيرة وطلب منها أن تنقله... لفت نظرها الأمر فماذا لو أنه كتب العنوان في ورقة وأعطاها إياها؟ لكنها وسط دوامة الغموض ووطأة إحساسها بأنها تقاضت مرتبًا لثلاثة أشهر قادمة، لم تتوقف طويلًا أمام هذا الأمر، نقلت العنوان فقال باسمًا وكأنه يكشف سر اللعبة:

- هذا هو عنوان مكتبي... فإذا ما وصلني خطاب باسم مستر جيزي فلسوف أعرف على الفور أنه منك.

- أليس هناك احتمال أن تقع السكرتيرة في خطأ وأن ...

قاطعها ساخرًا:

- خطأ... ما معنى خطأ في معركة كالتي نخوضها؟!

لزمت الصمت فاستطرد شارحًا لها الأمر، في أناة وفي صوت واضح محدد الكلمات، راح يقول لها كل ما يجب عليها أن تفعله، وحتى تكتب خطابها الأول، وما الخطوات التي يجب عليها اتباعها... ثم، متى تكتب خطابها الثاني... و... و... و... وإذا ما انتهى من حديثه الذي كان واضحًا كل الوضوح، سألها:

- والآن... هل تعرفين ماذا عليك أن تفعلي؟!

ابتسمت لسؤاله لكنها قالت:

- بعد أسبوعين أو ثلاثة، أرسل لك خطابًا عاديًا أطمئنك فيه أن كل شيء على ما يرام.

كالمدرس الذي يلقن تلميذًا الإجابة الصحيحة قال:

- على أن يكون الخطاب معنونًا في الخارج، وموجهًا في الداخل إلى مستر جيزي بنفس الأسلوب الذي تعودت أن تكتبي له به.

- فإذا ما تجمعت لدي مجموعة من الأخبار التي تستحق اللقاء، فسأرسل لك خطابًا آخر أقول لك فيه: إنني أصبحت على استعداد لشراء سيارة.

- عظيم.

- ولكنك لم تخبرني كيف سيكون ردك علي؟!

اتبسم ابتسامة واثقة وهو يقول:

- إما أن تجديني في القاهرة، وإما أن أطلب إليك الحضور إلى روما.

- وبالقطع، ستوقع على خطابك باسم نبيل.

- ليست هذه مشكلة على ما أعتقد.

- لكن المشكلة أنك لا تعرف العربية؟!

لكن أدريان في استخفاف وهو يقول:

- إن لدينا محررين من جميع أنحاء العالم العربي.

- آه... ولكن يبقى أمر آخر... فبأية حجة سوف أطير إلى روما إذا طلبت مني ذلك؟!

- لشراء السيارة.

- ولكن...

- وإذا كان ما تحملينه من أخبار يستحق، فلسوف تعودين، وبالتأكيد، بسيارة تغنيك عن مشقة المواصلات في القاهرة.

همت بالحديث لكنه استطرد:

- لا تنسي أنك ستعودين إلى القاهرة هذه المرة دون سيارة، ومعنى هذا أنك لم تنفقي ما معك من مال... وأن هذا المال، سوف يزداد بالقطع خلال شهرين أو ثلاثة لو أنك اقتصدت قليلًا في مصروفاتك حتى تستطيعي شراء سيارة تليق بك.

أرادت أن تعلق لكنها لم تجد شيئًا تقوله، بدا لها حديثه وكأنه خطة محكمة، وكان واضحًا أنه لم يترك شيئًا للظروف أو حتى التخمينات... مضت ثوان ساد فيها الصمت بينهما، نهض بعدها أدريان وهو يقول:

- كنت أنتوي أن أدعوك إلى العشاء الليلة؛ احتفالًا ووداعًا... لكني مضطر لحضور مؤتمر صحفي هام، سوف يعقبه بالتأكيد عمل قد يستغرق جزءًا كبيرًا من الليل.

راحت تنظر إليه في إعجاب، كانت لغته الإنجليزية وأسلوبه يصنعان جوًا لم تعشه إلا في الكتب أو الأفلام السينمائية، سرَّها هذا الخاطر فابتسمت، مد يده نحوها مصافحًا:

- والآن... أتمنى لك حظًا سعيدًا، وأرجو، مرة أخرى، ألا تخذليني.

انصرف أدريان ولم يكن قد انقضى على لقائهما أكثر من نصف ساعة أحست سامية، دون سبب واضح، أن جسدها أصبح ثقيلًا، وكأنه امتلأ بالرمال... أحست أنها غير قادرة على مغادرة مقعدها، وأن شيئًا غريبًا ومسمومًا أصبح يسري في دمائها... فتمنت الموت.

* * *

قالت سامية لعادل مكي وهي تجلس أمامه إنها تمنت الموت فعلًا في تلك اللحظات الغريبة... غادرها أدريان تومسون وتركها تتردى فيما بين النقيض والنقيض، راحت أحساسيسها تتقاذفها في عنف لوقت لا تدري

إن كان قد طال أو قصر، وإن كل ما تذكره أنها عندما غادرت مقهى بالبو، عادت إلى الفندق فورًا، وجهزت حقيبتها بسرعة بدت لها غريبة، انتهت إلى ذلك وقفت في منتصف الغرفة متسائلة عما حدث لها، وعما اجتذبها من السعادة إلى اكتئاب وحزن غريبين وشديدين في آن... ولما لم تجد جوابًا مقنعًا، قبعت في فراشها مقتنعة تمامًا بأنها «وش نكد»، وقضت ليلة من أسوأ ليالي عمرها.

عندما انتهت سامية من الحديث عما وقع لها في روما، كانت قد وصلت إلى حالة من الإرهاق والتعب والعصبية، جعلت عادل مكي يطلب منها أن تكتفي، هذا اليوم، بذلك القدر من الحديث، وأن تعود إلى البيت كي تستريح ليوم أو يومين... كانت أربعة لقاءات قد تمت بينهما الآن، شعر فيها عادل مكي أنها كانت تجرف من ذاتها وذكرياتها ونفسها بعنف، ولأعمق ما تستطيع حتى تضع الحقيقة بين يديه كاملة، لدرجة أنها كانت، إذا ما اكتشفت ـ وهي مندمجة، في السرد ـ أنها نسيت واقعة أو حادثة أو حتى كلمة، عادت إلى مجريات الواقعة أو الحادثة أو الكلمة كي ترويها في إطارها الصحيح...

بدت له سامية فهمي وكأنها تريد أن تتطهر من دنس غاصت فيه دون أن تدري... وعندما طلب منها الكف عن الحديث والاكتفاء - في ذلك اليوم - بما قالت سألته:

- إنت وراك شغل؟

- أنا دايمًا ورايا شغل يا سامية...

نهضت في عصبية وهي تهتف:

- على العموم، آهو ده كل اللي حصل.

- إزاي بقى؟

التفتت نحوه في حدة وهي تصيح:

- لأن نبيل جاني تاني يوم ووصلني المطار.

- وبعدين؟!

- وبعدين إيه؟ ما خلاص.

ابتسم عادل مكي وقد أدرك أن المعركة التي أراد تـأجيلها، قادمة كالإعصار لا محالة... كان مدركا أنه الآن سيخوض بها في المنطقة الحرام التي لا تريد سامية الحديث عنها.. وأنه لا مفر، اليوم، بل الآن، وهي في تلك الحالة العصبية، من مواجهة الأمر... لأنها، وإن كانت تريد الهرب، فهي - على الوجه الآخر - تريد مواجهة الواقع كي تصل فيه إلى قول فصل، حتى تريح وتستريح... ساد الصمت بينهما قليلا سألها بعده:

- وبعد ما رجعتي مصر؟!

أطلت من فوق شفتيها ابتسامة مجهدة متعبة وهي تقول:

- إنت مفيش في قلبك رحمة؟!

ضحك عادل، حقا من قلبه... فلقد أدرك أن هذه الفتاة الشجاعة الممتلئة بحب الوطن إلى حد الموت، لا تزال، رغم كل ما مر بها، متيقظة الحواس والعقل إلى حد يبعث حقا على الإعجاب، تشاغل عنها بإشعال سيجارة فهتفت فيه:

- إنت مش ملاحظ إنك بتدخن كتير قوي؟!

رفع رأسه نحوها في مواجهة صريحة:

- وبعد ما رجعتي مصر... حصل إيه؟!

- اشتغلت.

- جمعتي الأخبار اللي طلبها منك أدريان؟!

- ما هي المصيبة إنه ما طلبش مني أخبار معينة.

ظلت عيناه مسددتين إلى عينيها فغمغمت:

- ممكن تديني سيجارة؟!

مرة أخرى لم يملك عادل مكي نفسه من الضحك فضحكت معه وهي تعود إلى مكانها، أشعلت السيجارة التي قدمها لها، هدأت قليلا وهي تنفث دخانها فكأنها تزفر روحها، جاء صوتها الآن عميقا، راحت تحكي كيف عادت إلى القاهرة تلتقي أول ما تلتقي بنظرات أمها المتسائلة المستريبة، كانت تعلم علم اليقين أن في صدر أمها عشرات الأسئلة التي أجابت عنها، في ثرثرة حكت عن نبيل ونجاحه ومركزه وعلاقاته وسيارته وسكرتيرته... قصت عليها كيف اتفقا على أن يشتريا دبلتين، لكن نبيل أصر على إهدائها خاتمها الماسي مؤجلًا الخطبة إلى القاهرة حتى تباركهما... همّت ذات لحظة بأن تذكر قصة نشل نقودها لكنها تراجعت فلقد تذكرت ما قاله لها أدريان... قالت لأمها إن أسعار السيارات ارتفعت نتيجة لإقبال المصريين على شراء السيارات المستعملة، وإن نبيل عرض عليها أن يدفع لها الفرق في سيارة رائعة لكنها رفضت، وقالت إنها سوف تعود يوم تجد معها ثمن السيارة بالكامل، وجدت نفسها - دون أن تعي - تسد الثغرات في قصتها التي أخذت ترويها للأصدقاء والزملاء والصديقات والزميلات، ولكثرة ما قصت القصة كادت ذات يوم أن تصدقها، وأن تنسى كل ما حدث لها... مضت الأيام فإذا هي تعود إلى حياتها وإذا كل شيء كما هو، وإذا نفسها تهدأ، وإذا هي ترى أن ليس في الأمر ما يدعو لكل هذا القلق، وأن عملها مع أدريان باب رزق ليس من الصواب أن تغلقه بيدها خاصة أنها تقاضت مرتب شهور ثلاثة... وهكذا بدأت تعمل في حماس راحت تستجلبه استجلابًا... ذلك أنها كانت كلما ذهبت إلى اجتماع أو التقت بصديق أو مسئول، وجدت بيديها أخبارًا ومعلومات كانت تدونها في نوتة خاصة... بعد أسبوعين أرسلت لأدريان خطابًا تقول فيه إن كل شيء على ما يرام، ولأنها كانت - رغم قصر المدة - قد جمعت كمًّا لا بأس به من الأخبار الاقتصادية والسياسية، بل إنها دونت بعض الأخبار عن معدات عسكرية

وصلت حديثًا... لذلك فلقد كتبت له إنها قد تستطيع - قريبًا جدًا - أن تشتري السيارة.

توقفت سامية عن الحديث ريثما تلملم نفسها، ساد الصمت طويلًا لكنها عادت إلى الحديث من جديد:

- لحد ما كان يوم.

كان - دون شك - يومًا مشهودًا في حياة سامية فهمي... فلقد عقد في هذا اليوم اجتماع هام لأعضاء التنظيم الطليعي في المجلة، تم الاجتماع في مكان ما وسط حي من أحياء القاهرة الراقية... في هذا الاجتماع نوقشت أمور على جانب كبير من الأهمية، وجدت نفسها منخرطة في مناقشات دامت لساعات طالت حول السياسة الإعلامية الواجب اتباعها في الفترة القادمة... كانت الآراء متعددة، والمناقشات حادة، والمعلومات تتناثر بين يديها بلا تحفظ... حضر الاجتماع ثلاثة من مستويات التنظيم العليا، والذين كانوا، في نفس الوقت، يشغلون إلى جوار مواقعهم السياسية الهامة، مراكز تنفيذية خطيرة... وجدت سامية فهمي نفسها تعرف أكثر مما ينبغي، وموثوقًا فيها إلى الحد الذي بعث الرعب إلى قلبها... كان كل ما يجري حولها وأمامها وما تشترك فيه، يصلح لأن يكون ضربات مخيفة ومؤثرة في سياسة الشرق الأوسط الذي كان في تلك الأيام بؤرة ملتهبة للصراع العالمي.

في تلك الليلة لم تنم سامية فهمي، لم تذق للنوم طعمًا حتى طلع النهار... كان ما أفزعها حقًا، أنها - قبل أن تأوي إلى فراشها - قد جلست إلى تلك النوتة الخاصة وراحت تدون فيها كل ما التقطته من أخبار، وهي تتصور فرحة أدريان تومسون بما حصلت عليه، وربما لا يمكن لصحفي في العالم أن يحلم بالحصول عليه... في ذلك الصباح كانت قد استعرضت كل ما دار في روما، كل ما حدث، كل كلمة قالها نبيل، وكل حرف نطق به أدريان، وكل حادثة وقعت... ولم يكن هناك مفر، كان لا بد لها من التيقن،

كان لا بد لها من معرفة الحقيقة، انغرست مخالب الشك في قلبها فأدمته، ولم يكن أمامها من طريق... فلجأت إلى أحمد مختار.

- فاكرة إنتِ كتبتي إيه في الجواب اللي بعتيه لأدريان؟!

هوى السؤال مثل لطمة جعلتها تنتفض، بل تفيق... كانت قد غادرت منطقة الحديث عن هذا الخطاب وغاصت فيما عذبها بلا حدود... رفعت عينيها نحو عادل مكي في دهشة، كانت مستفزة وهي تقول:

- مش فاهمة معنى السؤال.

- إنتِ مش قلتي...

قاطعتَه في ضيق لم تحاول أن تخفيه:

- أيوه أيوه قلت... لكن إحنا في إيه ولا في إيه.

- فاكرة اللي انتي كتبتيه يا سامية؟!

- مش فاكرة بالحرف طبعًا إنما...

- لأ يا سامية، لازم تفتكري بالضبط.

- إنت معاك حق، إنما كل اللي أقدر أفتكره دلوقت...

أمسكت عن الحديث عندما مد عادل مكي يده إلى جيب سترته الداخلي، وأخرج منه ورقة مطوية قدمها لها:

- هو ده الجواب اللي انتي بعتيه؟!

كان الفزع هو المعنى الوحيد والشيء الوحيد والعنصر الوحيد الذي اجتاح سامية فهمي في تلك اللحظات اجتياحًا... مدت إلى الورقة يدًا مرتجفة ارتجافًا فشلت كل جهودها في السيطرة عليه، عندما أمسكت بالورقة كانت شاحبة شحوب الموتى، سقطت الورقة من بين أصابعها، فانحنى عادل كي يلتقطها ويعيدها إليها من جديد، فضّت الورقة، فإذا صورة من خطابها بين يديها.

الفصل الثلاثون

الطّريق إلى المجْهُول

كانت سنوات طويلة قد انقضت عندما قال لي عادل مكي، إن ذكرى ذلك اليوم الذي واجه فيه سامية فهمي بأنه كان يعرف كل شيء منذ البداية، لم تمحها الأيام من ذاكرته أبدًا ليس على مستوى أنه ضابط مخابرات دُربت ذاكرته على ألا تفقد شيئًا، وإنما على المستوى الإنساني الخالص، فلقد كان الأمر بالنسبة إليه مأزقًا بكل ما تحمل الكلمة من معنى لأن سامية فهمي كانت بالنسبة إليه نمطًا خاصًا ونموذجًا من النادر أن يتكرر... ولذلك فلقد حاول في ذلك اليوم أن يتجنب مواجهتها بالحقيقة،كانت خمسة عشر يومًا قد انقضت منذ أن التقيا لأول مرة، وكان عدد المرات التي التقيا فيها لا يزيد على الأربع... وهو في كل مرة من هذه المرات الأربع، كان يصمم على أن تأخذ إجازة أو تستريح يومين أو ثلاثة أيام، لأنه كان يعلم مقدار ما كانت تعانيه هذه الفتاة الصغيرة السن، الكبيرة العقل، الشديدة الذكاء المتقدة الموهبة... كان يعلم أنها من هذا النوع «المتطهر» من البشر، الذي يشعر في وعيه ولا وعيه بأنه ارتكب إثمًا لا يغتفر، لمجرد أنه التقى بمن شك، ثم أيقن أنهم أعداء الوطن... ولم تكن سامية تريد التطهر فقط من إثمها المزعوم، وإنما أرادت أيضًا أن تعاقب نفسها على ما اقترفته... كانت الحقيقة تحاصرها طوال الأسبوعين اللذين انقضيا يومًا بعد يوم... حتى

إذا ما وصلت إلى نهاية المطاف، ولم يعد هناك مفر من مواجهة الأمور مواجهة صريحة وحاسمة، كانت حالتها العصبية قد وصلت إلى ذروة من الصعب التكهن بنتائجها في لحظة معينة ، وفي مواجهة لواقع كان موقنًا من أنه سيزلزلها تمامًا... ولذلك، ففي هذا اليوم بالذات، كان هناك طبيب يجلس في انتظار أن يستدعيه عادل مكي في أية لحظة.

- طبيب؟!

هكذا هتفت في دهشة، فأكد لي عادل مكي أنه كان راغبًا، قبل أن يواجهها بتلك الصورة للخطاب الذي أرسلته إلى أدريان تومسون، في الاستماع إليها حتى يعطيها الفرصة كي تستريح وتصبح في حالة تسمح لها بمواجهة هذه الحقيقة... غير أنه - بالطبيعة - لم يكن ليترك أمرًا للمصادفة، ولذلك، فلقد وضع في اعتباره أنها، مع تصاعد المشاعر والأحداث والاقتراب من الحقيقة، قد تصمم على مواجهة كل شيء كي تنتهي من الأمر برمته... وإنه كان موقنًا من أن مواجهتها بأنه كان يعرف كل شيء - وكان هذا أمرًا لا مفر منه - قد يصيبها بصدمة مروعة مما يجعل الإشفاق عليها أمرًا واجب الاحتياط له.

وعلى كلٍّ ... فلم تكن سامية فهمي، أو حالتها العصبية، هي السبب فقط، كان هناك عامل آخر دفع هذا الضابط الشاب دفعًا إلى التعجيل بإنهاء الأمر... وهو أن نبيل سالم قد خلع برقع الحياء، وسلم سامية إلى المخابرات الإسرائيلية - ولقد كانت دون شك تعني بالنسبة إليه الكثير - فلم يعد هناك ما هو، أو من هو، أغلى منها يحرص عليه... فإذا أضفنا إلى هذا، إحساسه الكامل بالاطمئنان إلى أن أحدًا لا يعرف عنه شيئًا ولم يكتشف أمره، خاصة بعد زيارته للقاهرة، كان لزامًا على عادل مكي أن يضع في اعتباره أن نبيل سالم، بعد عودته إلى نابولي، وتردده بينها وبين روما، ولقائه بعدد لا بأس به من المصريين والشباب العرب من مختلف المجالات والمهن... قد أصبح يمثل خطرًا حقيقيًا على الوطن، بما كان

يقدمه للمخابرات الإسرائيلية من خدمات تتمثل في دفع أبناء الوطن تحت ستار شراء سيارة أو أداء خدمات - مهما كان شأنها - إلى أيدي رجال الموساد... وراحت التقارير تصل إليه من روما ومن نابولي على السواء، تحمل نُذُرَ شر حقيقي نتيجة لنشاط نبيل... وكان لا بد من حسم الأمر نهائيًّا، كان لا بد من وضع حد لهذا الخطر الذي راح يستشري يومًا بعد يوم.

هذا هو ما دفع عادل مكي لأن يواجه سامية بصورة من خطابها الذي أرسلته إلى أدريان... ولقد أمسكت بالورقة أخيرًا دون أن تكف يدها عن الارتجاف، وشحبت شحوبًا جعل قلب عادل مكي ينقبض... ساد الصمت بينهما لدقائق طالت، كانت تحملق في وجهه وقد بدا عليها ذعر من اكتشف فجأة أنه كان يسير في الطريق العام عاريًا دون أن يدري... ارتجفت شفتاها ارتجافًا شديدًا وقد ابيضتا وكأنهما شفتا ميت، حاولت أن تتحدث فاستعصت عليها الكلمات، قدم لها عادل سيجارة في محاولة لخلق حوار معها لكنها رفضت ولم تعتذر، بل ظلت جامدة وقد تحجرت عيناها وجفت مآقيها... ولم يكن أمام عادل سوى أن يبدأ الحديث قائلًا:

- سامية... أنا عاوزك تفهمي...

قاطعته وكان صوتها خشنًا أجوف كأنه يصدر من أعماق بئر:

- يعني انت كنت عارف كل حاجة من الأول؟!

- شوفي يا سامية...

قفزت واقفة وهي تصرخ في فحيح:

- أنا مش عاوزة أشوف حاجة.

- لازم تفهمي...

- ولا عاوزة أفهم.

- المسألة...

- المسألة إنك إنسان معندكش رحمة، ومفيش في قلبك ذرة من الإنسانية.

لزم عادل مكي الصمت وهو يزفر في راحة شديدة... كان هذا بالضبط هو صمام الأمان لكل ما كان يعتمل في نفسها من غضب... كان لا بد لها أن تترك حمم البركان الذي يغلي في صدرها تتناثر حتى ولو أصابه منها رذاذ... ولقد انفجرت سامية بالفعل، راحت الكلمات تتدفق من بين شفتيها كتدفق الدموع من عينيها سواء بسواء... كانت تتحرك في الغرفة على غير هدى وفي غير اتجاه... كانت تسأل فيم كان كل هذا العذاب الذي تعذبته إذا كان يعرف منذ البداية كل شيء، لماذا لم يخبرها، لماذا لم يوفر عليها كل تلك المعاناة التي ظلت تكويها لأكثر من شهر... هتفت ذات لحظة وقد بلغ الغضب مداه:

- يا أخي... يا أخي ليه ما قلتليش حتى من الأول، ومن قبل ما أسافر ليه ما حذرتنيش من الجحيم اللي أنا كنت رايحة له برجليَّه؟!

- لأن فيه غيري حذرك.

كانت هذه هي المرة الأولى التي ينطق فيها منذ أن تفجرت حمم غضبها، همّت بالاعتراض فقال في حسم:

- وفيه ناس قالوا لك بلاش سفر.

كمن أصيبت بمس راحت تتحرك وقدماها مسمرتان في الأرض، يداها مع ذراعيها مع رأسها وعينيها وجسدها كله.. كان وكأنه نطق كفرًا، فاستطرد:

- اتقال لك بوضوح يا سامية بلاش سفر... واتقال لك بوضوح أكتر، اشتري العربية من هنا.

همت بالحديث لكنها توقفت فاغرة الفم وقد عاد إليها جمودها القاتل، فراحت تحملق فيه غير مصدقة... كان ما يقوله صحيحًا بكل المعاني، كان

هناك من حاولوا منعها من السفر... كانت هناك أمها، وأحمد مختار رئيس التحرير، وكان هناك زملاء في التنظيم الطليعي، وآخرون في المجلة... فمن... من منهم بالضبط الذي حذرها بإيعاز منه؟!

- أقدر أعرف مين اللي...؟

صاح فيها كمن فاض به وقد استفزه عنادها:

- أنا متأكد إن ظنونك تشَرّق وتغَرّب... لكن تأكدي من حاجة واحدة... هي إن أنا ما طلبتش من أي حد من اللي طلبوا منك عدم السفر إنه يقول لك ده، لسبب بسيط جدًا.

- إيه هو؟!

- إني ما كنتش في حاجة إني أطلب منهم الطلب ده.

- بس فيهم ناس اشتروا عربيات من إيطاليا بالذات، إيه المنطق اللي يخليهم يحرموا عليّ اللي حللوه لنفسهم، واللي عملوه بنفسهم؟!

في حدة، وفي حسم، وضع عادل النقاط فوق الحروف:

- مش فيه احتمال إن حد فيهم يكون وقع في اللي إنت وقعتي فيه، وجه بلّغ زي إنتِ ما جيتي وبلغتي... وإنه حب يوفر عليكي كل اللي حصل معاه؟!

- رباه.

كانت سامية - الآن - مجنونة تمامًا... اقتربت منه عائدة إلى مقعدها:

- معنى كلامك ده إن نبيل له دخل في الموضوع؟!

- وهو نبيل هو اللي طلب منك معلومات عن بلدك؟!

- يعني انت عارف مين الناس دول؟!

- طبعًا عارف.

- طب هم مين؟!

- من غير لف ولا دوران؟!

- ريّحني ربنا يريّحك.

- المخابرات الإسرائيلية.

ولا تعرف سامية فهمي ما الذي حدث في داخلها بالضبط في تلك اللحظات الرهيبة، حتى عادل مكي بدت عليه الدهشة البالغة وهو يواجه هذا التحول الغريب من النقيض إلى النقيض، من ثورة عارمة ودموع كالشلال ووجه شاحب مربد الملامح، إلى هدوء نفسي غريب، وصفاء لون لا يتأتى إلا لمن استراح ضميره وتخلص من عبء هائل كان يثقل كاهله، أحست سامية - لدهشتها البالغة - أنها تريد أن تبتسم دون أن تدري السبب في هذا الإحساس الذي بدا لها غريبًا كل الغرابة... ثم أحست أنها تريد، بل لا بد لها، أن تضحك، أحست بالدمع كالخدر يزيل كل الآلام، أحست بما لم تشعر به من قبل، إحساس غريب ورهيب في نفس الوقت... وكان كل ما استطاعت أن تقوله، هو:

- يا ولاد الكاااالب.

وانفجر عادل مكي ضاحكًا وقد غطت عينيه طبقة شديدة الرقة من دمع تمنى لو أنه استطاع أن يطلق له العنان... كانت سامية، من وجهة نظره، قد اجتازت الأزمة بسلام.

❊ ❊ ❊

لم يعد هناك وقت، ولم تعد هناك حاجة إلى المزيد من الحديث... بسطت الأوراق وانكشف المستور، وكان لا بد من استشراف المستقبل وما قد يحدث فيه... صمم عادل أن يدعوها إلى الغداء في ذلك اليوم، بداية... طلب كأسين من عصير الليمون كي يرطب ذلك الجحيم المتأجج في صدرها... رفض الحديث في الأمر قبل أن يتناولا الطعام، دقيقة بعد

أخرى، بل لحظة بعد لحظة، كان ذهن سامية فهمي يصفو، وتبدو الأمور جلية واضحة أشد ما يكون الوضوح... شرح لها عادل مكي، وهما يرشفان من كأسي الليمون، ثم من بعد الغداء الذي جاءهما شهيًا مزينًا بالخضراوات ومشفوعًا بالفاكهة - خطورة أن ينبهها قبل السفر... قال إن الإسرائيليين يشعرون أنهم يتحركون في ملعب لا خصم لهم فيه، وإن أية بادرة كانت ستجعلهم يتنبهون إلى أن أمرهم - أو أمر نشاطهم في إيطاليا - قد انكشف فيأخذون حذرهم ولا نستطيع الإيقاع بمن أوقعوا به، ولسوف يتخذون بعد ذلك أساليب أخرى قد تغمض عليه لفترة، فتتاح لهم فرصة أن يخربوا ويخترقوا ويعرفوا عنا ما لا يخطر بالبال... قال وكأنه يشكو همًا لصديق عزيز: إن الأمر ليس بسيطًا كما تظنين، وليس تسلطًا كما يعتقد البعض... بل هو مركب ومعقد إلى حد لا يخطر بالبال.

عندما انتهيا من الطعام كانت سامية - في حماس متأجج - على استعداد لأن تبدأ جولة جديدة من الحديث ، لكنه رفض بشدة وإصرار..

- ليه يا سيد عادل؟!

- لأنك لازم تاخدي أجازة.

- ليه برضه؟!

- لأنك محتاجة للراحة أولًا، ولأنك لازم تدي لنفسك فرصة للتفكير ثانيًا.

- تفكير، تفكير في إيه؟! ما خلاص.

- هو إيه اللي خلاص؟!

في دهشة قالت:

- خلاص، مانا قلت لك على كل حاجة.

- وده معناه إنه خلاص؟!

- مش فاهمة.

ران الصمت لثوان قبل أن يقول عادل:

- أنا عاوزك تفكري يا سامية، وإذا كان عندك استعداد تتعاوني معانا.

هتفت في اندفاع:

- حتى ولو مكانش عندي استعداد... في موقف زي ده لازم أتعاون معاك... بس...

قالت هذا وأمسكت عن الكلام حتى سألها:

- بس إيه؟!

- إيه موقف نبيل من ده كله؟!

- لازم تحسمي أمرك... مصر ولا نبيل.

صرخت:

- تصور... هو ده نفس السؤال اللي كنت عمالة أسأله لنفسي طول المدة اللي فاتت... لو أن نبيل طلع له يد في الموضوع... مصر ولا نبيل؟!

- وكان إيه جوابك؟!

- مصر طبعًا ومن غير تفكير... بس أنا عاوزة أعرف.

زفر عادل زفرة خالتها سامية تكاد تخرج من بين شفتيه كاللهب... سألته...

- إيه ما لك؟!

قال وهو يعتدل في جلسته:

- أنا لحد دلوقت ما أقدرش أتهم نبيل بحاجة... إنما...

- يا أخي خلي عندك رحمة وريحني.

- ما حنا حانرتاح سوا.

- إمتى؟!

- لما نعرف سوا.

عندما غادرت سامية فهمي جهاز المخابرات العامة في ذلك اليوم، فوجئت بعادل مكي يوصي لها بسيارة حملتها إلى باب خلفي غادرت منه الجهاز إلى المدينة... عندما وجدت السائق يتجه بها إلى طريق غير الذي تعودت أن تسلكه دخولًا وخروجًا، سألته عن وجهته فقال لها: إنه يبدو أن بعض الشخصيات الهامة، وربما كانوا ضيوفًا، يزورون الجهاز... ولذلك فالساحة هناك، عند الباب الرئيسي، تبدو مزدحمة بالحراس، وهناك بعض التنظيم الذي لن ينتهي قبل ساعة أو ساعتين.

قنعت بالإجابة وهي ترى السيارة تخترق بها طريقًا وسط حقول ممتدة إلى ما لا نهاية... دار السائق حول السور المحيط بالجهاز في طريق بدا غير معبد، عبر بها من جوار السور الجنوبي للجهاز لتجد نفسها في ميدان القبة...

أرادت أن تغادر السيارة لكن السائق قال: إن السيد عادل طلب منه أن يوصلها إلى حيث تشاء، قالت:

- ما هو أنا عاوزه أنزل هنا.

تردد الرجل قليلًا، لكنه أمام إصرارها أوقف السيارة، فغادرتها شاكرة.

كانت سامية فهمي تريد الانفراد بنفسها، راحت تخترق الطريق المؤدي إلى شارع الخليفة المأمون حيث السير في هذا الشارع يعطيها الفرصة كي تطلق لعقلها العنان، كان لا بد لها أن تفكر فيم اتفقت عليه مع عادل مكي، وكانا قبل انصرافها قد توصلا إلى أن أنسب الأماكن لإجازة مثمرة، هو

الإسكندرية، حيث تعيش خالتها الصغرى التي تقاربها في السن، والشديدة القرب منها، والصديقة البعيدة عنها... قالت بعد ذلك:

- بس تفضل حاجتين.

- إيه همه؟!

- ماما... وشغلي.

- ما اعتقدش إن ماما ممكن تتضايق لو أخدتي أجازة.

- أصل أنا لسة جاية من إيطاليا، وهي عارفاني كويس، وعارفه إني مش ممكن آخد أجازة دلوقت.

- حتى ولو كنتي تعبانة ومحتاجة للراحة؟!

- ما هو أنا لو كنت تعبانه دلوقت، مفيش حاجة حاتتعبني إلا نبيل.

- وهو المطلوب.

- إزاي بقى؟!

همَّ بالحديث فأردفت:

- إوعى تكون متأكد إن نبيل متورط ومش عاوز تقولّي.

- أنا مش قلت لك إننا حانعرف سوا؟!

في لوعة قالت:

- أصل أنا عندي أمل إن نبيل يطلع ما لوش دعوة.

- لكن فيه احتمال إنه يكون متورط.

قبل أن تتفوه بكلمة استطرد:

- علشان كده قلت وهو المطلوب، لأن لو فرض وكان متورط ولو بنسبة واحد في المية... تبقي مهدتي لماما إن فيه خلاف بينكم.

كان حديثه مقنعًا،كان دائمًا يجد مخرجًا، فتساءلت:

- طب والمجلة؟!

- شغلك في المجلة ممكن تعويضه بعدين.

- لأ...

- إيه هو اللي لأ؟!

- أنا لو رحت إسكندرية أسبوع من غير ما أغطي شغلي في المجلة الأسبوع ده، حزب النميمة حايبدأ يشتغل، وانت مش عاوز حد ينتبه لحاجة خالص، ولا حد ياخد باله من شيء.

ضحك عادل مكي لذكرها حزب النميمة، لكنه ضحك إعجابًا أيضًا.

كان ردها من الوضوح بحيث يغني عن كل مناقشة... كانت - كما قال لي - قد دخلت في «الفورمة»، وأصبحت بحسها المرهف ووطنيتها الشامخة، تحجب ما يجب أن يحجب... كما كانت في نفس الوقت، تستعيد قوتها بما يكفي لأن يجعله يعتمد عليها بالفعل.

- وإيه لزوم السفر يا سامية... وانتي لسه جايه من أجازة؟

هكذا قالت السيدة إقبال حسين لابنتها... كانت هذه السيدة قد احتملت في صبر ما لا تحتمله أم من ابنتها، ولولا ذهنها المتفتح، وثقتها البالغة في سامية، لكان للأمر - بالقطع - وجه آخر... غير أنها في ذلك المساء، لم تملك إلا أن تغضب... ذلك أن سامية كانت تختفي، طوال الأيام التي مضت، دون أن تعرف أين تذهب ابنتها على وجه التحديد، وفوق هذا وذاك فهي، بمعرفتها بابنتها، كانت موقنة من أنها عادت من إيطاليا وقد تحطم حلمها الجميل... وإذا كانت قد هيأت نفسها لأن تقف إلى جوار ابنتها في اللحظة التي يتطلب منها الأمر ذلك، فإن تلك اللحظة لم تبد حتى الآن في الأفق...وإذا سامية شاردة فيما هي فيه، غير ملقية بالا إلى أم تنظر

إليها في صمت، وترقب في صبر، وينفطر قلبها خوفًا وقلقًا وحزنًا... أليس من حقها أن تستريح؟!

- إنتِ اللي تاعبة نفسك يا ماما.

- إسمعي يا بنت إنت، أنا مش عاوزة تلاعب بالألفاظ، وأنا مش تاعبة نفسي لأني عارفة كويسَ أنا بافكر إزاي... اللي تاعبه نفسها، وتاعباني معاها، هي انتي... وده شيء لازم تعرفيه كويس، علشان لو كان عندك أدنى قدر من الحب، أو الاحترام، أو حتى الحنان ناحية أمك، كنتي لازم تفهمي إني ما استحقش منك كل ده.

كان المنطق قويًا والحديث مرتبًا والأفكار واضحة والصوت مرتجفًا والعينان دامعتين... أحست سامية بدبيب الهزيمة يقترب منها، قاومته بابتسامة وهي تتقدم من أمها، وجلست إلى جوارها غير بعيدة عنها، قالت:

- برضه مش حاتضحكي علي بكلمتين.

ما كادت سامية تفتح فمها حتى صاحت السيدة إقبال:

- يا بنت إنت مش ملاحظة إني باتعامل مع ألف ومتين بنت زيك، وإني علّمت وخرّجت أكتر من عشرين ألف بنت... وإني أقدر أعرفك من مجرد النظر ليكي.

ابتسمت سامية في حنان:

- طب انتي شايفة إيه؟!

- شايفة إنك تعبانة ولازم ترتاحي بقى من الهم اللي انتي شايلاه على دماغك علشان تتفرغي لشغلك ومستقبلك.

- عشرة على عشرة.

- وانتي طول ما انتي بتهربي مش حاترتاحي.

- سفري إسكندرية مش هرب يا ماما.

قبل أن ترد السيدة إقبال، نهضت سامية زافرة:

- أنا هناك حارتاح... لازم... لازم ارتاح.

- ما لك يا سامية؟!

كان السؤال مباغتًا فارتدت سامية إلى الخلف، اختنق صوت الأم وهي تسأل:

- إيه اللي بيكي يا بنتي؟!

راودت سامية نفسها أن تقص على أمها كل شيء وهي موقنة أنها سوف تحفظ السر، لكن وعدها الذي قطعته على نفسها أمام عادل كان حاجزًا يسد عليها الطريق، فإذا هي تقول:

- أنا بالفعل تعبانة يا ماما، ويمكن عمري ما تعبت في حياتي قد مانا تعبانه اليومين دول.

- طب ما تكلميني.

- ما اقدرش... بس أرجوكي... خلي ثقتك فيّ زي ما هي.

تململت الأم في تذمر فأردفت سامية في رجاء:

- أنا محتاجة للثقة دي أكثر من أي شيء في الدنيا دلوقت.

- وحاتقولي لهم إيه في المجلة؟

- حاسلم لهم موضوع بكرة الصبح قبل ما أسافر... وحاقول للأستاذ مختار إني رايحة أعمل تحقيق في ميناء إسكندرية حوالين العربيات اللي بتوصل وثمنها، إيه اللي بيدخل منها وقد إيه... وبيتهيألي إن الوقت ده مناسب.

لانت ملامح الأم وتفجر الحنان من عينيها كسيل منهمر، اختنق صوت سامية متوسلة:

- بلاش تبصي لي بالشكل ده... أنا النهارده مش حاقدر أستحمل حنانك، وإلا حاتحصل كارثة... صدقيني يا ماما كارثة.

ابتلعت الأم نظراتها وابتسمت ناهضة:

- تحبي أسيب لك العشا في المطبخ، ولا عاوزه تتعشي دلوقتي؟!

- لا ده ولا ده... سيبيني أعشي نفسي علشان إحساسي بالذنب ناحيتك ما يبقاش زي البلونة اللي حاتنفجر.

راحت كل منهما تنظر إلى الأخرى في صمت، كانتا وكأنهما تتغذيان على تلك النظرات، همّت سامية بالاندفاع نحو أمها، لكن السيدة إقبال لم تكن لتحتمل مثل هذا الموقف، لذا فلقد هربت إلى الداخل وهي تقول:

- تصبحي على خير.

* * *

جلست سامية إلى مكتبها في غرفتها المتواضعة كي تكتب موضوعا للمجلة قبل أن تسافر... لم يكن في ذهنها شيء، حتى تلك الأوراق التي كتبتها في روما لم تكن تصلح لأن تخرج منها موضوعا يتناسب مع ما كان يعتمل في نفسها... غير أنها فجأة، وجدت نفسها تكتب عنوانا لموضوع يقول:

- يوليوس قيصر يدعوني لزيارته.

وعندما ظهر الموضوع في الأسبوع التالي،أثار كثيرا من اللغط... كانت فكرته الخيالية تقوم على أساس أنها تلقت دعوة من يوليوس قيصر لزيارة روما الجديدة... وهي، عندما ذهبت إلى هناك، كان ما أدهشها، رغم التغير الذي وجدته في الملابس والشوارع والبنايات، أن روما كانت هي هي روما يوليوس قيصر... حتى تلك الرياضة الوحشية التي اشتهر بها قياصرة روما وأغنياؤها، عندما كانوا يطلقون الأسود على العبيد كي تصارعهم، وجدتها تماما، فقط استبدل القياصرة بالحيوانات المفترسة، حيوانات

أكثر وحشية، حيوانات من حديد تدور في مصانع وتستعبد الإنسان في إنتاج السلع، ثم يبيعون هذه السلع لنفس هذا الإنسان...

قالت إن زيارتها لروما كانت رائعة... عرض عليها يوليوس قيصر في نهايتها، أن يبيعها سيارة مستعملة نظير قطرات من عرق تساقطت من جبهتها وهي تعمل، لكن قطرات العرق لم تكن كافية لأن تشتري منه سقط المتاع، سيارة مستعملة، فعادت صفر اليدين.

* * *

قضت سامية فهمي سبعة أيام في الإسكندرية، قضتها بالكامل رغم رغبتها، ربما منذ يوم وصولها، في العودة إلى القاهرة، ولقاء عادل مكي، ووضع نفسها تحت أمره... يوما بعد يوم كانت الرؤية تزداد في عقلها ، وضوحا... كان أكثر ما ساعدها وأدهشها في تلك الأيام السبعة أنها عندما أعادت ترتيب الأحداث كما وقعت، وجدت أن إحساسها هذا الذي غلب عليها بأن في الأمر شيئا غير طبيعي، كان صادقا... وأن ترددها هناك وعذابها لم يذهبا هباء أو سدى... غير أنه فيما تلا هذا من أيام أدركت وبشكل يكاد يكون قاطعا أن نبيل سالم لا بد من أن يكون على علاقة بكل هذه الأطراف... لا بد من أن يكون على علاقة بالسنيور جارديني الذي كان يظهر ويختفي في توقيتات محددة كي يوصل إليها، أو إلى نبيل بمعنى أصح، رسالة ذات معنى غمض عليها... وإنه لم يحدث أن التقت بجارديني بعد ذلك، لا في مقهى بالبو، ولا في أي مكان آخر. انتهت مثلًا، إلى أن حادثة النشل وقعت بعد مغادرتها أدريان تومسون مباشرة، وبعدها، اكتشفت رحيل نبيل المفاجئ... وهي قد اكتشفت كل هذا، وقادها إليه، ذلك الإحساس الذي طالما غمرها بالمهانة كلما تذكرت أنها قبلت مرتب ثلاثة أشهر من أدريان رغم شكوكها التي ثارت، فلقد كانت في وضع من لا يستطيع أن يفعل شيئا آخر.

وعلى كلٍّ، فلقد كانت صحبة خالتها فاطمة، المتزوجة من ضابط بحري في رحلة من تلك الرحلات التي يتغيب فيها لأسابيع، خير معين لها على مواصلة التفكير في هدوء، كانت فاطمة صديقة حقيقة تعرف متى تسأل ومتى تصمت ومتى تترك لها العنان كي تستغرق وتفكر، كانت تتركها كي تفعل ما تشاء، حتى إذا عادت إليها، كان حديثهما الحميم خير معين لها على النوم العميق، ذلك النوم الذي اشتاقت إليه، والذي أضناها وأهلك جسدها غيابه الطويل عنها.

* * *

عندما عادت من الإسكندرية، كانت بالطبع أحسن حالًا... في صبيحة اليوم التالي تحدثت إلى عادل مكي بالتليفون كي تطلب منه موعدا، فحدد لها الموعد في اليوم التالي، وعندما همّت بإعادة السماعة إلى مكانها وجدته يصيح:

- حاتيجي إزاي يا سامية؟!

دهشت لسؤاله لكنها أجابت:

- إلا إزاي، في تاكسي زي كل مرة.

- عظيم، فيه واحد صاحبي عنده تاكسي شغل عليه ولد سواق إنما مؤدب جدًّا.

- مش فاهمة.

- التاكسي ده نمرته ٢٥٣٤ جيزة... حاتلقيه الساعة عشرة واقف لك على الباب.

- برضه مش فاهمة.

- ودي عاوزه فهم.. كل ما في الأمر إني عاوز أنفّع صاحبي في مشروعه الصغير ده... عندك مانع ؟!

عندما أعادت السماعة إلى مكانها استبدت بها الدهشة والقلق، وهي لا تدري لم خطرت ببالها تلك السيارة التي حملتها آخر مرة من الباب الخلفي لجهاز المخابرات المصري، واخترقت بها الحقول كي توصلها إلى ميدان القبة... ولم يدهشها أنها وجدت التاكسي في الموعد تماما أمام الباب، ولم يدهشها أيضا أن التاكسي سلك بها نفس الطريق الغريب الذي سلكته السيارة عند مغادرتها الجهاز لآخر مرة.

* * *

- فكرتي يا سامية؟!

- قبل أي كلمة... إيه حكاية التاكسي دي؟!

- مانا قلت لك في التليفون.

- عادل بيه...

- ردي على سؤالي يا سامية وبطلي تهتمي بحاجات هايفة... فكرتي؟

- طبعا... فكرت في كل حاجة، من ساعة ما نزلت روما لحد ما رجعت مصر.

- ده مش جواب على سؤالي.

- قصدك إيه؟!

- عندك استعداد تتعاوني معانا؟!

في حزن حقيقي قالت:

- وهي دي مسألة عاوزة تفكير يا سيد عادل؟!

- على خيرة الله.

- بس فيه حاجة عاوزة أسألك عليها.

- إتفضلي.

- فيه حاجات من اللي أنا كنت عاوزة أبعتها لأدريان تومسون، هايفة قوي.

هنا.. وجدت عادل مكي إنسانا آخر، كان رجلًا شديد الصراحة:

- مفيش حاجة اسمها هايفة يا سامية، لأنك مش بتتعاملي مع فرد، إنت بتتعاملي مع جهاز... جهاز عنده مندوبين في كل حتة... حاجة هايفة من هنا، وحاجة من هنا، وتتجمع عنده كل الهيافات، وبشوية علم يقدر يرتبها، وبشوية تحليل، يقدر يطلع بنتائج غير عادية، ولا تخطرش على بالك.

- فيه سؤال تاني إذا مكانش ده حايزعلك.

- أنا مش زعلان، ومش حازعل.

- إنت لما قلت لي إن الناس دي من المخابرات الإسرائيلية، الموساد يعني، كان ده استنتاج ولا حقيقة ؟!

- الاستنتاج يا سامية ممكن يصيب وممكن يخطئ، واللي زينا معندهمش استعداد يتعاملوا مع حاجات تحتمل أي نوع من أنواع الخطأ، إحنا مش ممكن نتعامل مع استنتاجات، تعاملنا كله لازم يكون مع الحقائق المجردة مهما كانت بشعة أو مخيفة.

- طب إيه الحقيقة بالنسبة لنبيل؟!

- تاني...

- وتالت وعاشر... أنا عاوزه أطمن.

- وأنا عاوزك في الوقت ده تنسي نبيل خالص، ولا تفكريش في حد غير مصر.

كانت جملته لا تقبل جدلًا أو مناقشة، صمتت لثوان قالت بعدها:

- طب انت عاوزني أعمل إيه دلوقت؟!

- إنتِ جمعتي شوية معلومات علشان تبعتيها لأدريان؟!

- مش شوية، دول كتير وأنا قلت لك عليهم.

- عظيم... اكتبي بقى جواب لأدريان قولي فيه ده.

صاحت في هلع:

- أقول له إيه؟!

- قولي له - حسب اتفاقه معاكي - إنك حوشتي تمن العربية وزيادة.

- إيه اللي انت بتقوله ده يا سيد عادل؟!

- ما لك؟!

- إنت عاوزني أبعت الكلام ده لأدريان؟!

- ما هو...

لم تدعه يكمل، كان الذعر قد سيطر عليها تمامًا، قاطعته في توسل:

- عادل بيه... إنت موديني على فين؟!

الفصل الحادي والثلاثون

المعرفة عَلى قَدر الحاجة

- شوفي يا سامية... إنت وعدتي بإنك تتعاوني معانا، أبديتي استعدادك بشكل لا يحتمل تردد أو ضَياع دقيقة واحدة من الوقت، ولازم تفهمي كويس قوي، إن أنا إذا كنت باحترم الأزمة اللي إنتِ بتمري بيها، وباحترم أكثر شجاعتك ووطنيتك... إلا إني قبل كل شيء، قبل منك، وحتى قبل أولادي، فيه بلد إحنا بندافع عنه بضوافرنا قدام عدو شرس، بنحاول نحميها من قطيع من الذئاب متربص بيها من كل ناحية وفي كل مجال... وإذا كنتي على مستوى المسئولية وقادرة تقفي على رجليكي من غير لوثة الفنانين والصحفيين اللي فيكي دي، لازم تكوني جاهزة بأسرع ما يمكن... وإلا... وإلا...

كان هذا الواقف أمامها الآن شخصًا آخر بكل المقاييس، كان رجلاً غاضبًا تنطلق من عينيه نظرات كالحمم، لم يكن يرتجف، ولم يكن منفعلاً بأي معنى من المعاني... بل كان ثابتًا كالطود لا يهتز، كان يقول ما يقول وكأنه اتخذ قرارات لا عودة فيها... لكنه ما لبث دون أن يشعل سيجارة هذه المرة، أن استطرد:

- الوقت اللي أنا قعدته معاكي كان كافي جدًّا لأنك تفهمي وتدركي إن المسألة مش محتاجة لكل اللي إنت فيه ده، ولو كنتي عاوزه تعرفي قيمة

البلاوي اللي انتي جمعتيها علشان تبعتيها لأدريان، وإيه مدى الأضرار والمصايب اللي ممكن تحل بالبلد لو إنك بعتيها بالفعل، حاقول لك، حاقولك دلوقت، حالًا... بس بعدها، أنا اللي حاعتذر عن التعاون معاكي... وقبل ما أعتذر لازم حاشكرك لأنك قمتي بواجبك نحو وطنك، إذا كنتي محتاجة لشكر على واجب.

على استحياء جاءته كلماتها:

- أصل فيه حاجات محيراني جدًّا يا عادل بيه.

- زي إيه؟!

- زي حكاية التاكسي دي.

- ولو جاوبتك، تبطلي تسألي؟!

- أوعدك.

- إنت أبديتي استعدادك إنك تتعاوني معانا، مش كده؟!

- ولاَ زلت، وحافضل.

وراح عادل مكي يشرح لها أن مسألة السيارة الأجرة والباب الخلفي الذي أصبحت تدخل منه إلى الجهاز وتخرج منه في نفس الوقت، ليست من باب العبث... فهي وقد اتخذت قرارها بأن تتعاون معه، فإن معنى هذا أنهما قد يضطران لأن يرى كل منهما الآخر، ولفترة قادمة، بشكل شبه منتظم... وفي هذه الحالة لا بد من إبعاد الشبهة عنها... وليس معنى هذا أن للإسرائيليين عيونًا في مصر تستطيع أن ترصد تحركاتها أينما ذهبت، ولكن معناه أن أية مصادفة - مجرد مصادفة - قد تحمل أي إنسان، مهما كان قريبًا أو زميلًا أو صديقًا، يراها وهي تدخل الجهاز، كفيلة لأن تجعله لا يشك في أمرها فقط، بل كفيلة بأن تنشر الخبر... ومهما كان حيِّز الانتشار ضيقًا، فلا بد من أن تتناثر كلمة هنا أو كلمة هناك... حتى ولو بغير قصد ولمن لا يفتح آذانه كي يسمع ويتسمع... كان لا بد إذن من الاحتياط حتى

لا نترك شيئًا لمصادفة خرقاء قد تهدم كل ما بني، وكل ما يبنى للإيقاع بتلك الشبكة الجهنمية التي تعمل خارج مصر.

- معنى كده إن المرحلة اللي جاية...

قاطعها مؤكدًا:

- مهمة جدًّا، وخطيرة، وخطيرة جدًّا، ومحتاجة لصبر أيوب ولثبات أعصاب وعنين مفتحة... ولازم تفهمي إن حياتك عندنا مهمة وأمانك أمانة في رقبتنا.

ساد الصمت بينهما لثوان، ابتسمت سامية بعدها وقد استشعرت راحة تتسلل إليها، وغمغمت:

- على العموم أنا آسفة.

- أنا مش محتاج لاعتذارك، ما بقاش فيه وقت حتى للاعتذار، والأيام بتجري وهم عمالين يخربوا وكأنهم في الملعب لوحدهم.

- طب انت عاوز إيه دلوقت؟!

- عاوز أعرف، وللمرة الأخيرة، إذا كان...

قاطعته سامية:

- عندي استعداد.

- مش كده...

- أقسم لك إن عندي استعداد حتى ولو كلفني الأمر حياتي.

- يبقى نشتغل.

همت بالرد فأردف مشيرًا إلى المكتب:

- فورًا.

* * *

أحست سامية فهمي، لدهشتها الشديدة، أن الأمور قد عادت إلى توازنها من جديد... كانت - منذ أن التقت بهذا الشاب الذي بدا لها غريبًا كل الغرابة، متميزًا كل التميز - تشعر وكأنه مثل الأم الرءوم... وجدته، منذ لحظة اللقاء الأولى، متفهمًا ومدركًا لأبعاد كل شيء أرادت أن تتحدث فيه، أو تحدثت فيه بالفعل... ولقد أدهشها هذا طوال الأسابيع الثلاثة التي مرت، وفي كل مرة التقت فيها به، لا تستطيع أن تمنع نفسها من المقارنة بين ما كانت تسمعه من قصص تفوق الخيال عن رجال المخابرات، وما كانت تلقاه من معاملة حنون... فكانت تشعر دائمًا وكلما جلست إليه أو فكرت فيما كان يدور بينهما، أن ثمة شيئًا ناقصًا على السطح، جهامة وقدرة رهيبة على حسم الأمور والسيطرة على المواقف... كانت مقتنعة كل الاقتناع بكل كلمة قالها، وكانت مدركة بشكل غامض، أنه صادق في كل حرف فاه به، لذلك... فلقد طرحت فجأة كل شيء من فوق كتفيها وهي تهتف:

- حاجة غريبة قوي.

- إيه هو اللي غريب؟!

- التردد اللي أنا فيه ده.

- تردد؟!

- أيوه... بصراحة كده أنا خايفة من كتابة الجواب ده لأدريان.

- أمر طبيعي إنك تخافي.

- مش وانت جنبي يا عادل.

قالت جملتها تلك في ثقة أنكرتها على نفسها، جاءت كلماتها عفوية حاسمة قاطعة أشاعت في الغرفة جوًا من الاطمئنان والثقة... وكانت هذه هي المرة الأولى التي تناديه فيه باسمه مجردًا... كان يناديها منذ البداية باسمها دون ألقاب، ولقد حاولت أن تصنع مثله كما اتفقا لكنها لم تستطع،

وها هي تنطق الاسم مجردًا في لحظة بدت لها باهرة معبرة عن مكنون نفسها... ابتسم كلاهما وعادا مرة أخرى إلى مجرى الحديث:

- ودلوقت... إنتِ فهمتي إيه اللي أنا طلبته منك؟!

- أيوه... وبكره حاتلاقي الجواب جاهز أربعة وعشرين قيراط.

- صفر على عشرة.

- ليه؟!

- لأنك حاتكتبي الجواب هنا قدامي.

- طب ونوتة الجوابات اللي انا اشتريتها.

- ما لها؟!

- المفروض إني كتبت الجواب الأولاني منها أو على الأقل، إني باستعمل النوع ده من الورق في كتابة الجوابات... ولو كتبت على ورق تاني، ممكن ده يلفت نظره، أو يثير الشك عنده.

رماها عادل بنظرة إعجاب لم تخف عليها، ابتسم قائلًا:

- طب ما انتي بتفكري كويس آهه.

- أنا مستعدة أروح أجيب النوتة من البيت.

- وليه؟!

قال هذا وهو ينهض إلى المكتب كي يفتح أحد أدراجه، ويخرج منه نوتة للخطابات هي صورة طبق الأصل من تلك التي اشترتها سامية وهو يردف:

- النوتة دي أختها بالضبط... من نفس الورق ونفس المصنع ونفس الكمية اللي انطرحت في السوق.

- يا خبر اسود... إنت حتى...

هكذا هتفت بإعجاب فضحك عادل وهو يتساءل:

- إيه... ما لك؟!

- وعرفت نوع النوتة والمصنع والكمية كمان...

- يا سامية شغلي مخك شوية... هي دي عاوزه عبقرية... الجواب اللي بعتيه مكتوب على ورق شائع جدًّا في مصر، تفتكري صعب قوي إن أي واحد ينزل الفجالة، يشتري نوتة من نفس النوع؟!

كان أقل ما يمكن أن يقال عن سامية فهمي، بعد عودتها من الإسكندرية إنها كانت مرتاحة الضمير... وكان هذا كافيًا تمامًا لأن تنصت إلى ما يقوله عادل مكي بانتباه شديد... كان جالسًا مائلًا نحوها... وقد عادت السيجارة إلى مكانها بين أصابعه، ترسل دخانها، وقد فرغا لتوهما من فنجاني قهوتهما.

- أنا عاوزك تسمعيني كويس قبل ما تخطي أي خطوة.

كانت منصتة، منصتة منصتة...

- بداية أنا عارف إن فيه عشرات الأسئلة اللي حاتحيرك ويمكن تتعبك كمان... مش لأنك إنسانة متعبة أو غاوية تعب، ولكن لأنك مثقفة أولًا وصحفية ثانيًا ولمضة ثالثًا.

ضحك كلاهما ضحكة خفيفة وقد رطبت كلماته من حدة الجو، ثم استطرد:

- الناس اللي زيكم، بيبقوا عاوزين يعرفوا كل حاجة بأي تمن... بيحبوا يعرفوا ويتعلموا ويضيفوا لمعلوماتهم معلومات جديدة لأن دي طبيعة عملهم وشغلهم... وانتوا مش بتقولوا إن الصحافة هي مهنة البحث عن المتاعب؟!

لزمت الصمت فاعتدل في جلسته:

- لكن شغلتنا دي فيها مبدأ، أو قاعدة بتقول: المعرفة على قدر الحاجة... يعني الإنسان حتى لو كان ضابط مخابرات ويمكن خصوصًا لو كان ضابط مخابرات، مش لازم يعرف إلا المعلومات اللي هو محتاج لها... مش علشان السرية وبس، وإنما كمان علشان المعلومات الزايدة على الحاجة ممكن تشغله عن هدفه الأساسي.

أشعل سيجارة من أخرى، ونهض إلى حيث تلك النافذة التي لا تطل إلا على سور مرتفع، وسرح ببصره إلى بعيد مستطردًا في الحديث:

- في الحقيقة دي كانت قاعدة سايدة في عالم المخابرات لحد وقت قريب جدًّا... وعلم المخابرات زيه زي أي علم تاني في الدنيا، بيتطور يوم بعد يوم، ويمكن ساعة بعد ساعة وتنضاف ليه حاجات جديدة ممكن البعض ياخد بيها، والبعض بيفضّل الأسلوب القديم، أو على حد تعبيركم المدرسة القديمة... وفيه فريق تالت بيستعمل الأسلوبين، كل عملية لها الأسلوب اللي ينفع لها ويتلاءم معاها... لكن بتفضل سواء أكان الأمر كده أو كده، قواعد ثابتة مش ممكن الإنسان يحيد عنها مهما كان الأمر.

التفت نحوها دون أن يغادر مكانه مردفًا:

- أنا باقول لك الكلام ده علشان تدركي إن المسألة مش مسألة مزاج شخصي ولا رغبة في الغموض... ولكن مسألة علم وقواعد وأصول، وقبل كل ده، أمن دولة واجبنا إننا نحميها.

تحرك الآن عائدًا إلى مقعده وكأنه فرغ من مهمة على درجة من الخطورة... ران الصمت بينهما لثوان طالت بعض الشيء، وكانت سامية تشعر في تلك اللحظات بمزيج غريب من الراحة والسعادة والرغبة في الاستزادة مما يقول... ولقد لاحظ عادل مكي ما اعترى بشرتها من صفاء نمّ عما كانت تشعر به، فازداد ارتياحه وانطلق في الحديث بحماس: وقد أدرك - لأول مرة - أن كل ما بذله طوال الأسابيع الماضية لم يذهب سدى... فعاد إلى الحديث بحماس:

- إذا خطر لك أي سؤال، مهما كان أمره لازم تسأليه... إنما أنا مش عاوزك تتضايقي لو جاوبتك إجابة مش شافية، أو لو ما لقيتيش إجابة خالص... وكل اللي باطلبه منك - علشانك وعلشان مصلحتك - إنك تحاولي تتعلمي الصبر شوية... لأنك غصب عنك وعني، ومع الاستمرار في التجربة، حاتتعلمي حاجات كتيرة، ومفيدة ولا كانتش تخطر ببالك.

عاد إلى الصمت وهو يحدجها بنظرة ثابتة، ثم سألها وكأنه يستنطقها ويخرجها عن صمتها:

- موافقة يا سامية؟!

- موافقة يا فندم.

- دلوقتي إنت حاتقومي تقعدي على المكتب ده، وتكتبي جواب لأدريان أو بمعنىَ أصح حانكتب سوا جواب لأدريان... وأنا بافضل إننا نكتب له مسودة في الأول على الورق ده.

كانت هناك، إلى جوار نوتة الخطابات التي أخرجها من درج المكتب، رزمة من الورق الأبيض... نهضت سامية إلى المكتب وهي تخرج قلمها من حقيبة يدها متسائلة:

- عاوزني أكتب أقول له إيه؟!

- زي ما اتفقتي معاه بالضبط،حاتقولي له بالأسلوب المتفق عليه إن عندك أخبار مهمة جدًا.

- يعني أقول له إني جاهزة علشان اشتري عربية.

- خليها علشان تشتري عربية محترمة كمان.

- ما هو ده حيبقى معناه إن عندي أخبار عظيمة جدًا.

- وهو المطلوب.

- حايبعت يقول لي تعالي.

- أو حاييجي بنفسه - زي ما قال لك - علشان يستلمها.

أمسكت سامية بالورق الأبيض واستعدت للكتابة لكنها بدت وكأنها استغرقت فجأة في شيء ما...

- إنتِ عاوزه تسألي عن حاجة؟!

- أيوه... بس خايفة منك.

- إحنا اتفقنا... لازم تسألي أي سؤال يخطر ببالك.

- طب افرض إنه قال لي تعالي... حاسافر له؟!

- قبل كده، مش نستنى لما نعرف هو حايرد عليكي إزاي؟

ألقت جملته الضوء على ركن مظلم من تفكير سامية فألقت بالقلم جانبًا وهي تهتف:

- تصور إني ما فكرتش في الموضوع ده قبل كده.

- مع إنه سؤال مهم... حايرد إزاي؟!

- بجواب طبعًا.

- هو اللي حايكتبه، ولا حد تاني؟!

همت بالرد فأردف:

- لاحظي إنك باعته الجواب باسم نبيل.

- إنت عاوز تقول لي حاجة؟!

تجاهل جملتها هاربًا إلى سؤال شد انتباهها:

- إنتِ بعتي جواب لنبيل من يوم ما وصلتي مصر؟!

- وهو انا كان فيّ دماغ.

- كان لازم يبقى فيكي دماغ.

- أصل نبيل ممكن...

قاطعها:

- المفروض إنك تشكريه على الحفاوة اللي قابلك بيها، وتشكريه على اللي عمله معاكي... ولاحظي إنك لابسه الخاتم بتاعه.

قال هذا وهو يومئ نحو الخاتم الذي يزين أصبعها فانتفضت، واختطفت نظرة من الخاتم بغمغمة:

- مانا حاشكره، إنما...

- وليه ما يحصلش ده النهارده؟!

- هو الـ...

- سامية.

جاءتها الكلمة مثل إنذار دفع بيدها إلى الورق فراحت تكتب لأدريان خطابها الثاني... قالت في الخطاب الذي راحت تنتقي - مع عادل - كلماته كلمة كلمة، إنها عملت كثيرًا في الأسابيع التي انقضت، ورغم أن العمل كان مرهقًا، فإنه كان عظيمًا، ولقد استطاعت أن توفر مبلغًا لا بأس به من المال يكفي - إذا ما وضعته على ما بقي معها - أن تشتري به سيارة محترمة... ثم سألته عن رأيه في الأمر وهل أسعار السيارات لا تزال مرتفعة، أم إن هناك أملًا في أن تشتري سيارة عليها القيمة؟

- بيّضي الجواب ده علشان تكتبي جواب لنبيل بالمرة.

- هو ده بس اللي انا حاكتبه؟!

- عاوزه تكتبي إيه تاني؟!

- المفروض إني أرغي معاه شوية.

- تقدري ترغي في الجواب التاني.

- وده لازم أكتبه هنا برضه؟!

- وإيه المانع، علشان تبقى النوتة هي النوتة والحبر هو الحبر.

- عاوزني أقول له إيه؟!

- عاوزك تبقي سعيدة جدًّا، وعاوزك تحبيه جدًّا، وتقولي له إنك ما بطلتيش شغل من يوم ما وصلتي ولولا إن الشغل أخد كل وقتك كنتي كتبتي له كل يوم جواب.

أمسكت سامية بالقلم فأردف:

- يعني بأسلوبك الحلو إياه، فهِّمي نبيل إنك عملتي شغل هايل.

كمن يكتشف هوة تحت قدميه قالت متوجسة:

- هو نبيل له دعوة؟!

- أنا ما قلتش كده.

- أمال عاوزني أتكلم معاه في الشغل ليه؟!

صمت عادل لثوان لكنه قال:

- علشان كل حاجة تبقى طبيعية يا سامية، لازم كل شيء يبقى طبيعي ولا يلفتش النظر.

ظلت محملقة فيه وكأنها لا تصدق ما يقول فأردف باسمًا:

- افرضي إن أدريان قابله مصادفة في أي حتة وسأله عنك... أكيد حايتكلموا مع بعض ولو نبيل قال له إنك كتبتي له إنك اشتغلتي كتير، تبقى مسألة عادية جدًا، ولا إيه؟!

كأنها اطمأنت زفرت قائلة:

- طبعًا طبعًا... معاك حق.

- لازم تفهمي إن الجوابات دي وأي كلمة أو تصرف كلها بتدخل مفرمة تحليل ما تخليش فيها كلمة إلا لما تتعرف على حقيقتها.

وكتبت سامية خطاب نبيل، اندفع القلم في يدها يسطر على الورق ودون توقف، تمامًا كما تعودت معه... حكت له كل شيء عن أمها والمجلة

والعمل الذي استغرق وقتًا وجهدًا، وكيف كانت أيامها مشحونة بلقاءات مع مسئولين ووزراء وأدرك عادل مكي من أسلوبها في الكتابة أن الأمل ما زال يراودها في ألا يكون لنبيل دخل بالأمر برمته فانقبض قلبه... لكنه طلب منها أن تكتب له أنها حصلت على مكافأة سخية من المجلة نظير الموضوعات التي قدمتها... فتوقفت سامية عن الكتابة قائلة:

- إنت مش بتقول إن كل حاجة لازم تبقى مضبوطة مِيّه في المِيّه؟!

- تمام.

- طب أكتب له إني أخدت مكافأة إزاي وده ما حصلش؟!

- مين اللي قال؟!

صاحت:

- أنا يا عادل بيه...

- إنتِ ما رحتيش المجلة بقى لك قد إيه؟!

- من يوم ما سافرت إسكندرية.

- فيه مكافأة نزلت الحسابات بميت جنيه من كام يوم.

كادت تصرخ فعلًا، كادت تصرخ دهشة ليس لما قاله فقط، ولكن لأن المبلغ كان كبيرًا بالفعل.

- وعلى فكرة وقبل مخك ما يروح يمين أو شمال أنا ما ليش دخل بالموضوع ده. والحكاية كلها تمت في اجتماع التحرير الأخير وكانوا بيناقشوا موضوعات العدد اللي فات، ولما اتقال كلام كويس عن الشغل اللي عملتيه في إيطاليا، والكل عرف إنك ما أخدتيش لا بدل سفر ولا حتى تمن تذكرة الطيارة أخدوا قرار بالمكافأة، واتوافق عليه بالإجماع.

بدا لها الأمر وكأنه نوع من الخيال، أرادت أن تسأله كيف عرف تلك التفاصيل فبدا لها السؤال ساذجًا، عادت إلى القلم والورق من جديد

وراحت تسطر بقية خطاب نبيل، ثم أضافت: إنها الآن أصبحت على استعداد لأن تشتري سيارة: «زي عربيتك يا بلبل ومفيش حد أحسن من حد».

قرأ الخطاب مرة أخرى وعدل عادل كلمة هنا وكلمة هناك، ثم طلب منها أن تضع طابعي بريد فوق الخطابين اللذين كانا يحملان اسمًا واحدًا، وعنوانين مختلفين، وكان عادل - ولم يدهش هذا سامية بطبيعة الحال - قد جهز مجموعة من ظروف الخطابات، من نفس النوع الذي استعملته في خطابها الأول إلى أدريان... أمسك عادل بالخطاب الموجه إلى روما وهو يقول:

- ده تبعتيه النهارده من أقرب صندوق بوستة جنب البيت أو المجلة.

- إشمعنى جنب البيت أو المجلة؟!

- لأن ده الأمر الطبيعي.

- وافرض إني بعت الجواب من أي مكان؟!

- لاحظي إن ختم مكتب البريد بيدل على مكان إرساله.

كان مقنعًا، بل كان مفحمًا... فسألته:

- وجواب نابولي؟!

- ابعتيه بعد ثلاثة أيام من نفس صندوق البوستة.

* * *

قبل أن تغادر سامية فهمي عادل مكي في ذلك اليوم، كان عليه أن ينبهها إلى حقيقة بدت لها مذهلة بكل المعاني... طلب منها منذ تلك اللحظة، وحتى يأتيها الرد أو يأتي أدريان نفسه... أن تعيش حياتها بشكل طبيعي للغاية؛ أن تذهب إلى المجلة، وتكثر في كتابة الموضوعات، وأن تحضر

اجتماعات التنظيم باستمرار... لكن، الأهم من هذا كله، كان عليها أن تستمر في جمع المعلومات، والحصول على الأخبار خاصة تلك التي ذكرها أدريان تومسون... باختصار كان عليها أن تعود كما كانت تمامًا، وأن تعمل - في نفس الوقت - كما لو أنها بالفعل تعمل لحساب وكالة أنباء أدريان تومسون... ولقد استمعت سامية في انتباه شديد، حتى إذا انتهى هتفت:

- لحد كده ومش ممكن ما اسألش بقى.

رماها بنظرة عتاب استقبلتها بابتسامة وهي تقول:

- ما هو انا لازم أفهم علشان أعرف اعمل اللي انت عاوزه بالضبط.

- من غير ما تعرفي... اعملي اللي باقول لك عليه.

- وإذا حصلت على أخبار خطيرة؟!

- يبقى عظيم.

- عادل بيه.

- وقبل كل ده، لاحظي إنك لازم تنتهي من كتابة أول رسالة لأدريان.

سألت في هلع:

- رسالة إيه دي؟!

- المعلومات اللي انتي جمعتيها، إنتِ مش ناويه تبعتيها لو طلب منك ده؟!

- أبعتها؟!

- أو تديها له إذا جه.

- أبعتها ولا أديها لمين يا سيد عادل؟!

- لأدريان.

- أنا مش فاهمة حاجة.

- بس قبل ما تديها له أو تبعتيها لازم نقراها سوا، ولّا إيه؟!

- يا سيد عادل المعلومات اللي انت بتتكلم عنها دي هي اللي جابتني هنا.

- طب مانا عارف.

- دي فيها معلومات خطيرة جدًا... دي فيها معلومات عن الأسلحة الجديدة.

- مانا حاشوفها.

- دي فيها حاجات حقيقية مِيّه في المِيّه.

- ما هو إنتِ لازم تكتبي لهم شوية حقائق علشان يصدقوكي.

- دي تودي في حديد...

- ما تشيليش هم، ولازم تبقي جاهزة في خلال تمانيه وأربعين ساعة.

قال هذا وهو ينهض خاطيًا نحو الباب... تزاحمت الأسئلة في رأسها لكنها عافت أن تسأل، ودّعته ومضت وقد غلف الغموض كل تفكيرها... فما الذي يعنيه هذا الرجل بإرسال تلك المعلومات التي حرمتها النوم ليالي وليالي إلى الإسرائيليين، إن كانوا إسرائيليين كما قال؟ تلك المعلومات بالذات هي التي جعلتها تلجأ إليه... غير أنها حاولت بعد ذلك أن تتناسى الأمر... انغمست في العمل وعادت إلى المجلة واستردت نشاطها وراحت وجاءت وصالت وجالت كما تعودت أن تفعل تمامًا... يومًا بعد يوم عادت سامية فهمي كما كانت تلك التي عرفها الزملاء والأصدقاء والناس جميعًا... كتبت الرسالة ذات ليلة وأتقنت كتابتها، كانت رسالة رهيبة تتحدث عن الاقتصاد والتموين وتحوي أخبارًا عن الصناعة وبعض المعدات الحربية التي وصلت حديثًا، كما حوت أنباء عن شائعات بقرب

تغيير وزاري يوشك أن يحدث... و... و... وهي عندما وضعت الرسالة بين يدي عادل، جلس إليها وراح يقرأ باهتمام بالغ وكأنه يعيد قراءة الكلمة الواحدة مرة بعد مرة... وما إن انتهى من القراءة حتى هتف:

- عظيم.

- إيه هو اللي عظيم؟!

- إحنا حانخلي المعلومات اللي عن التموين زي ما هي، وأخبار المصانع حانستبعد منها خبر مصنع الدرفلة بالذات، ونغير في أخبار الحديد والصلب تغيير خفيف... لكن المعلومات الخاصة بالمناورات، لازم تنكتب بشكل تاني، والمعدات الحربية، حانخلي فيها حاجات وفيه حاجات ملهاش لازمة.

أحست سامية فهمي في تلك اللحظات وكأنها مشرفة على الجنون... تخيلت - أثناء حديثه - الأستاذ أحمد مختار وكأنه يناقش معها موضوعًا عن مولد السيدة زينب، كان يتحدث عن أمور غاية في الخطورة... ببساطة من يناقش فيلما سينمائيا عرض حديثًا... طال الصمت بينهما فسألها:

- ما لك؟!

- مش فاهمة... خايفة.

- معلش... بعدين حاتفهمي كل حاجة، المهم دلوقتي إنك تقدري تبيضي الرسالة دي هنا، وبعدها يحلها ربنا.

* * *

ومضت الأيام...

كانت سامية وقد أعادت كتابة الرسالة حسب التعديلات، قد تركتها معه بعد أن أحرق عادل الرسالة الأصلية أمام عينيها فلم تفهم سر فعلته لكنها لزمت الصمت... انطلقت إلى حياتها من جديد وقد حمدت له أن

طلب منها أن تترك الرسالة لديه، فلقد أحست، أنها تخففت من عبء ثقيل كان من الممكن أن يؤرقها طوال الأيام القادمة.

مضت الأيام وقد عادت إلى حياتها الطبيعية... وكلما مر يوم، أحست أن الشقة تبعد بها عن تلك الأحداث التي ظللت حياتها بسحب شديدة السواد، وتمنت مخلصة ألا يرد أدريان وألا يأتي وأن ينتهي الأمر عند هذا الحد... حتى كان يوم ذهبت فيه إلى المجلة محملة بعشرات الأخبار والمعلومات، كانت الساعة قد جاوزت الثالثة ظهرًا فوجدت صالة التحرير خالية تماما توجهت إلى مكتبها وبدأت العمل، انغمست فيه عندما أطلّ جسد إنسان كأنه جاء سابحًا في الهواء حتى وقف أمامها، رفعت رأسها وقد أخذتها المفاجأة فإذا فريد الشاعر زميلها وسكرتير تحرير المجلة والشاب - الذي يذوب فيها حبًا - كان يقف أمامها وقد مال بجسده نحوها وهو يحدقها بنظرات بدت لها غريبة، بل بدت لها مخيفة... هتفت معاتبة:

- فريد.

- وشِّك ولا وش القمر.

أشارت إلى الأوراق المتناثرة فوق مكتبها:

- أديك شايف.

- إنت مش ملاحظة إننا ما قعدناش مع بعض من يوم ما رجعتي من إيطاليا؟!

- غصب عني والله يا فريد.

- على العموم إذا كان يهمك تعرفي أخبار عني، إبقي اديني خبر علشان أقول لك.

قال هذا وهو يغادرها محتدمًا بالغضب، غادرها بخطوات سريعة وكأنه يهرب.. وقعت في الحيرة وأصابها ألم من نوع لم تجربه من قبل... تلفتت في الغرفة الخالية وهي تتساءل بصوت عال: «طب أعمل إيه؟!».

كانت مدركة أن فريد على حق، ولا بد من أن يكون الجميع قد تساءلوا، فماذا يقولون وماذا تقول؟! كيف تبرر اختفاءها عن المجلة، وقد كانت بالنسبة إليها صدر أُم تنعم فيه بالحنان كله، استبدت بها الحيرة لا تدري هل تنهض إلى فريد أم تتركه لغضبه حتى يزول، اختلط كل شيء في ذهنها بكل شيء... انتبهت على أقدام عم سيد صاحب البوفيه وهو يدخل حاملًا لها كوبًا من الشاي وسندوتشًا كانت قد طلبتهما منه، وضع الرجل الشاي مع السندوتش أمامها لكنه لم ينصرف... رفعت إليه رأسها فإذا رأسه مائل إلى اليمين شأنه عندما يريد أن يقول شيئًا، كانت عيناه تفيضان حنانًا، ذلك الحنان الذي رضع منه كل من عمل في هذه الدار... قبل أن تفتح شفتيها بكلمة سألها:

- خير يا مزمازيل سامية؟!

كان عم سيد دائمًا في مقام الأب، لم يكن مستأجر بوفيه بقدر ما كان جزءًا لا يتجزأ من حياة كل من تعلموا وعملوا في الدار... كلهم أولاده، كلهم أطعمهم وأقرضهم وخدمهم، هتفت وكأنها تستنجد به:

- سلامتك يا عم سيد.

- إيه أخبار الأستاذ نبيل؟!

- الأستاذ فريد الشاعر ما له يا عم سيد؟!

هكذا وفرت عليه الأمر وقطعت كل الطريق إلى مقصده في جملة.

- ما له الأستاذ فريد؟!

- يظهر إنه زعلان مني.

- يمكن انتي ما باركتلوش.

انتفضت بكُليتها انتباهًا:

- أبارك له على إيه؟!

كمن ينعى خبرًا عزيزًا لديه، قال:

- الأستاذ فريد عقبال عندك خطب.

- إمتى؟!

- وانتي في بلاد بره.

كالصاروخ قفزت من خلف مكتبها، واندفعت تغادر الغرفة لا تلوي على شيء، كان الغضب قد استبد بها استبدادًا، عبرت ممرًا انثنت بعده يسارًا كي يطالعها باب غرفة فريد وكان مغلقًا على غير العادة، دفعت الباب بعنف وكان يجلس خلف مكتبه رفع إليها رأسه فعاجلته قائلة:

- بقى معقول اللي انت بتعمله ده؟!

في برود قاتل. قال:

- خير يا سامية.

مالت نحوه وكانت دماؤها تغلي:

- تخطب يا فريد ولا تقوليش؟!

- وهي المسألة تهمك كتير؟!

- فريد... أنا صاحبتك وأختك وزميلتك، وانت غصب عنك، صاحبي واخويا وزميلي حتى ولو مكانش ده يعجبك.

- يااااه.

قالها وهو يضطجع في مقعده ساخرًا.

- إيه اللي جرالك يا فريد؟

- إنت وصلتي من روما بقالك قد إيه؟!

- بقالِي كتير... لكن ليه السؤال ده؟!

- ما لاحظتيش طوال المدة اللي فاتت دي إني لابس دبلة؟!

دون وعي صاحت فيه مختنقة الصوت:

- وهو انا كنت في إيه ولا في إيه.

أطلت من عينيه نظرة عتاب صـارخ، فاستطردت وقد تملكها الانفعال:

- وانا ما كنتش باجي المجلة إلا علشان أسلم الموضوعات وامشي.

- حتى ولو كنتي جيتي مرة واحدة، الصداقة والأخوة والزمالة مش كلام يا أستاذة.

- افرض إني ما اخدتـش بالي وكنت مشغولة كان واجب تقولّي يا فريد علشان أباركلك على الأقل.

- الله يبارك فيكي.

قالها وهو يعود بعينيه مرة أخرى إلى ما كان فيه، سقطت من عينيها دمعتان انحدرتا فوق وجنتيها وكانت تنتفض، ظلت تنظر إليه وهي تتساءل ماذا يمكن أن تفعل، لماذا تفقد الأحباب والأصدقاء واحدًا وراء الآخر، كان فريد أقرب الزملاء إليها... انتظرت أن يرفع رأسه عن الأوراق لكنه لم يفعل... غير أنها في لحظة أدركت أن فريد معذور، ازداد جريان دموعها وهي تنتبه إلى أنه لا يعرف ما مرت به، وهي لا تستطيع أن تخبره فهل... هل تنتظر منه أن يفهم ما لا يدرك، وأن يُقدر ما لا علم له به؟!

ولم يكن هناك ما يمكن أن يقال، لم يكن أمامها سوى الانسحاب في هدوء، وكانت دموعها كالمطر.

الفصل الثاني والثلاثون

صراع الثعالب

أثر موقف فريد الشاعر في سامية فهمي تأثيرًا قويًا وعميقًا، وازداد مع الوقت إحساسها بالألم والأسى معًا... كانت تعلم أن لا حيلة لها فيما حدث... وهي، وإذا كانت قد أعطت لفريد العذر فيما فعل، فإن علاقتها متميزة بذلك الزميل الذي كان له فضل الوقوف إلى جانبها وتوجيهها ورعاية مستقبلها، كما أن له فضلًا آخر، هو حبه الذي لم تبادله إياه... ولقد ازداد ألمها عندما علمت من الأستاذ أحمد مختار - رئيس التحرير - أن اقتراح المكافأة وقيمتها جاءا من فريد أصلًا، وأنه بالرغم من تأثره وغضبه منها، دافع عن عملها دفاعًا منطقيًا جعل الجميع، في مجلس التحرير، يوافقون على الاقتراح ويتحمسون له.

في تلك الأيام بلغت معاناة سامية درجة هائلة، ليس من موقف فريد فقط، ولكن لأنها أدركت أنه إذا كان أقرب الزملاء والأصدقاء إليها وأحبهم إلى نفسها قد تصرف هذا التصرف الغاضب والجارح... فلا بد من أن الآخرين، خاصة أعضاء حزب النميمة، يخوضون في سيرتها وتصرفاتها خوضًا لا تحبه لنفسها... وهي، عندما فاتحت عادل مكي في أول لقاء بينهما - وكان هذا بعد بضعة أسابيع - بما حدث وجرى، قال لها إن هذا أمر طبيعي، وإنه ضريبة لا بد من أن تدفعها للوطن، حتى ولو

كان الثمن لغطًا يدور حول تصرفاتها... قال إنه لا يستطيع، كما أنها لا تستطيع، حيال هذا شيئًا... وإن عليها أن تصبر وتحتمل حتى يأتي الوقت الذي لا بد سيعرف فيه الجميع الحقيقة... وقتها، سيعرفون، كم عانت، وكم تعذبت، وكم كانوا ظالمين لها، فسألته:

- لكن الأستاذ أحمد مختار لازم يكون عنده فكرة.

ضحك عادل وهو يقول إن «أحمد» لا يعرف إلا أنها طلبت لقاءه... لكنه بالقطع وبالطبع، لا يعرف شيئًا عن الموضوع... لكن هذا لا يمنع من أن يكون قد خمن أن ثمة شيئًا في الأمر، وليس أمامه سوى الصمت والانتظار هو الآخر.

بعد يومين من ذلك الحادث، وقعت السيدة إقبال حسين مريضة جرّاء نوبة من نوبات الأنفلونزا الحادة التي كانت تجتاح مصر في تلك الأيام، والتي أطلقوا عليها اسم «الأنفلونزا الآسيوية»... ولأن السيدة إقبال لزمت الفراش، فلقد اضطرت سامية إلى أن تلتزم البيت حتى تبقى إلى جوار أمها أطول وقت ممكن..

وهكذا مضت بضعة أسابيع وسامية ممزقة فيما بين أمها وعملها الذي كان لا بد من أن تقوم به، فكانت تصحو من النوم كي تظل في عمل متصل حتى تأوي إلى فراشها عادة بعد منتصف الليل... ولقد زاد الأمر سوءًا، إصرار السيدة إقبال على عدم استدعاء طبيب يعودها... كان الأمر - كما ظنت وظن الجميع - مجرد نوبة أنفلونزا قد تطول لأيام، ثم تشفى بعدها كي تعود إلى عملها من جديد.

ولقد كان عادل مكي يرقب سامية بعيون مفتوحة، كان يشفق عليها مما هي فيه إشفاقًا جعله في بعض الأحيان يكاد يطلب منها أن تكف... كانت مأساته - هذا تعبيره تمامًا - أن سامية راحت مع الوقت تقترب من الحقيقة... كانت تكتشف كلما مر بها الوقت أن نبيل لا بد ضالع في تلك المؤامرة التي كانت تحاك ضد الوطن في الخارج، ورغم اقترابها ذاك

من الحقيقة، فإنها ظلت ترفض في عناد، وربما في خوف، مواجهتها، متشبثة - ربما - بأن عادل مكي لم يخبرها صراحة بأن نبيل سالم خائن لوطنه... كانت هذه هي مأساة عادل مكي وسامية فهمي معًا، فلقد أراد لها أن تكتشف الحقيقة على مهل، كان دائمًا ما يترك لها الباب مفتوحًا للشك والظن ثم اليقين، لكنه - أبدًا - لم يسمح لنفسه بأن يكون أول من ينعى لها خيانة حبيبها.

* * *

انقضت أربعة أسابيع منذ أن أرسلت خطابيها إلى إيطاليا، حاولت خلالها، رغم مرض أمها، أن تستعيد نفسها ومرحها ونشاطها وحماسها... عادت، في تلك الساعات القلائل التي كانت تغادر فيها البيت، تنتظم في اجتماعات المجلة متجاهلة تلك النظرات التي كانت ترمقها دائمًا، وتلك التعليقات التي كان البعض يلقيها بين الحين والحين، متحملة تجاهل فريد الشاعر لها... ولأنه لم يكن لديها ما تقوله لعادل مكي، فلم تعد تتصل به، كما أن عادل لم يعد يتصل بها هو الآخر... فاكتملت وحدتها حتى تحولت إلى صقيع عاشته صابرة... حتى كان يوم...

كان الوقت صباحًا وقد احتدم الحوار بينها وبين أمها حول استدعاء طبيب، فلقد طالت مدة المرض إلى ما يقارب أسبوعين دون أن تبدو بادرة تحسن عليها... في ذلك الصباح، وأثناء احتدام الحوار، دق جرس الباب، وعندما فتحته طالعها وجه البواب وكان يحمل لها خطابًا وصل من «بلاد برة».

دق قلبها بعنف وهي تتسلم الخطاب، كانت نظرة سريعة تكفي لأن تعرف أنه من نبيل، تسارعت دقات قلبها وهي تهم بفتحه لكنها تراجعت، فماذا عساها أن تجد بداخله... سألتها أمها عن الطارق فأنبأتها أن خطابًا وصل من نبيل، أشاحت الأم بوجهها الشاحب ولم تُعَلِّق... أرادت سامية مواصلة الحوار حول أمر استدعاء الطبيب لكن ذهنها كان مشغولًا بما كان

يجب عليها أن تفعله... في ذلك اليوم لم تكن تنوي مغادرة البيت، لكنها عندما سألت أمها:

- مش عاوزة حاجة يا ماما؟!

أدركت السيدة إقبال أن ابنتها تريد مغادرة البيت فأجابت:

- لا يا حبيبتي... روحي إنتِ لشغلك.

هكذا كانت السيدة إقبال حسين، هذه هي حضرة الناظرة التي تقرأ دائمًا ما يجول في رءوس تلميذاتها، فلقد كان تفكير سامية، منصبا في تلك اللحظات، على ضرورة إبلاغ عادل مكي بوصول الخطاب، ولا بد أنه مشوق لكي يعرف فحواه، ولا بد أنه سوف يطلب منها أن تزوره... وهكذا، ما إن قالت السيدة إقبال ما قالت، حتى اتجهت سامية إلى التليفون:

- صباح الخير يا عادل بيه.

- أهلا سامية، إزيك؟!

- مش عاوز تشوفني؟!

- أنا تحت أمرك.

- إمتى؟

- دلوقت إذا حبيتي.

- طيب أنا...

قاطعها قبل أن تكمل:

- لو إنك نزلتي من بيتكم الساعة إتناشر، وأخذت تاكسي، حاتكوني عندي الساعة إتناشر ونص، وأكون أنا خلصت الشغل اللي في إيدي.

كانت جملته تعني أنها يجب ألا تغادر البيت قبل الساعة الثانية عشرة، وأنها في تلك الساعة سوف تجد السيارة الأجرة في انتظارها، ربما هي هي نفس السيارة ونفس السائق، وربما كانت سيارة أخرى وسائقًا آخر، ولكن

الرقم سوف يظل هو هو نفس الرقم ٢٥٣٤، هكذا اتفقا معًا، ولسوف تجد السيارة في انتظارها، ولسوف يكون عليها أن تدلف إليها طالبة من السائق بصوت طبيعي أن يتجه بها إلى حي الحسين، ومهما سارت بها السيارة في مسارات قد تبدو لها غريبة، فإن عليها أن تلتزم الصمت، لأنها في النهاية، سوف تحملها إلى هذا الطريق الخلفي للجهاز عبر الحقول المترامية... عندما أعادت السماعة راحت تفكر في ضيق استولى عليها فجأة عن معنى كل تلك الألغاز التي تتعامل بها، بل وتتحدث بها في التليفون؟! عن معنى تلك الحياة التي فُرضت عليها فرضًا من حيث لا تدري... وكان السؤال الذي حقًّا هو: إذا كان الأمر على هذا القدر من الحذر والسرية، فهل لعملاء إسرائيل القدرة على مراقبة خطوط التليفونات في مصر؟!

- طبعًا لا.

هكذا قال عادل مكي باسمًا وهو يرقبها بعين واحدة مجيبًا عن سؤالها.

- أمال إيه الحكاية؟!

- الأمان يا سامية، الأمان حتى بيننا وبين بعض... وشوية شوية حاتتعودي على الحاجات الصغيرة دي وانتي هنا في مصر... وبالتأكيد ده حايخلي تصرفاتك طبيعية لو مارستيها معاهم بره.

صرخت في هلع:

- بره؟

انكشف المستور واتضح الغامض، وأدركت سامية فهمي أن هذا الشاب لا يصنع شيئًا بلا هدف وبلا سبب... استولى عليها الفزع وهي تحملق فيه لكنه غيّر مجرى الحديث متسائلًا:

- قريتي الجواب؟!

كانت قد أخبرته فور وصولها بوصول الخطاب فأخرجته من حقيبة يدها وقدمته إليه قائلة:

- أنا ما فتحتوش.

- ليه؟!

قالها وهو يفتح الخطاب ويفضه بإمعان وكأنه ينتظر أن يخرج منه مارد، أخرج المكتوب وقدمه إليها:

- خدي إقري الجواب.

وقرأت سامية الخطاب.

كان خطابًا مفعمًا بالحب تناثرت فيه كلمات الغرام واللوعة والشوق، أبدى نبيل سعادته البالغة لكل ما جاء في خطابها، قال إنه لم ينتظر أن تكتب له بسرعة فهو يعرف شغفها البالغ بالعمل، وهو موقن، أشد ما يكون اليقين، من أنها سوف تحقق نجاحات عالمية كما حققت في مصر نجاحات محلية... حتى إذا ما انثنى إلى الحديث عن السيارة قال:

- أما بالنسبة للعربية، فأنا تحت أمرك زي ما انتي عارفة، وإذا كانت الفلوس جاهزة زي ما بتقولي، أفضل إنك تيجي روما على أعياد رأس السنة؛ أولًا: لأن روما بتبقى متزوقة علشان العيد، ودي فرصة مش لازم تفوتك، وثانيًا: لأن العربيات اليومين دول سوقها نايم حبتين نتيجة لانشغال الناس بالعيد، ولأن محدش بيقدم في رأس السنة هدية عربية نص عمر... وكل اللي باطلبه منك، إنك تبعتي لي تلغراف قبل وصولك علشان أستناكي في المطار.

فيما بعد، قالت لي سامية فهمي، إنها عندما قرأت ذلك الخطاب وعادل مكي يجلس إلى جوارها، انتبهت لأول مرة في حياتها، إلى أن حديثًا عاديًا، أو خطابًا قد يبدو عاديًا تمامًا، من الممكن أن يحوي أشياء على جانب كبير من الأهمية والخطورة أيضًا... فلقد كان هذا الخطاب

الذي كتبه لها نبيل سالم يبثها فيه حبه، يطلب إليها في وضوح، أن تطير إلى روما قبل أعياد رأس السنة التي كانت تقترب، وكان الحديث كله، رغم اللوعة والحب والأشواق، عن العمل... وهكذا، راحت تشحب سطرًا بعد سطر، حتى إذا ما انتهت من الخطاب، قدمته إلى عادل وهي تقول في حزن جَلَّل ملامحها الشاحبة:

- دول عاوزيني أسافر روما.

وربما قالتها بوعي... فالأمر هنا لم يكن ليختلف كثيرًا، فلقد أدركت بيقين، لأول مرة أن نبيل سالم لا بد ضالع تمامًا في كل ما حدث... تناول عادل منها الخطاب قائلًا:

- ما لك؟!

لم ترد إعلان الهزيمة فغمغمت:

- لا أبدًا... أصل ماما تعبانه شوية.

- عندها إيه؟!

- أنفلونزا من اللي ماشية في البلد اليومين دول، بس يظهر إن الدور جامد عليها حبتين؟!

ألقى عادل بنظره إلى الخطاب وراح يقرؤه حتى إذا ما انتهى منه سألته:

- إيه رأي سيادتك؟!

- بيتهيألي بلاش سفر اليومين دول.

- أمال أعمل إيه؟!

- إبعتي قولي...

قاطعته:

- أبعت لمين؟!

- لنبيل طبعًا.

- على روما ولا نابولي؟!

صمت عادل دون رد، وانزلقت دموعها تغرق وجنتيها، أخرج منديله وقدمه لها، فراحت تمسح الدمع السخين وهي تردد دون أن تجرؤ على النظر إليه:

- أنا كنت عارفة... أنا كنت حاسة.

لم يرد عادل مكي أن يزيد من عذاباتها فقال:

- على العموم هو الأفضل إنك تبعتي الجواب على نابولي ما دام نبيل هو اللي كتب.

كان يقترب حثيثًا من الحقيقة رغم سطوعها، لكن الأمل عاد يراودها من جديد فسألته:

- أكتب أقول له إيه؟!

- قولي له إن ماما عيانة وفي المستشفى وإنك ما تقدريش تسافري في الوقت الحاضر.

- بس ماما...

- بالمناسبة... انتي جبتي لها دكتور؟!

في تذمر من عانت من الأمر طويلًا هتفت:

- مش راضية، بتقول إن دي أنفلونزا عادية.

- بس واضح إنك قلقانة عليها شوية.

- بصراحة جدًّا... أصل إحنا دلوقت بقينا زي الأغراب يا سيد عادل... ماما، ماما أصلها عارفاني وفاهماني كويس قوي، ومش حاتستريح إلا لما تعرف إيه اللي شاغلني مهما تظاهرت قدامها بأن حياتي طبيعية.

- إنتِ سمعتي عن الدكتور زكي صدقي؟!

- ومين ما يعرفوش في مصر؟!

- الدكتور زكي صاحبي، وأنا حاخليه يزور ماما النهارده علشان تطمني عليها.

أدركت سامية - بشكل غامض - أنه لا مفر من الموافقة، بل إنها استشعرت راحة عميقة لعرضه هذا، فلقد كان قلقها على أمها يتزايد يومًا بعد يوم، وقد أدركت أيضًا، أن تطيع، بل أرادت أن تطيع وأن تسلم قيادها لعادل مكي دون مناقشته... لقد فقدت نبيل، لقد خان حبيبها، لا حبهما فقط، بل خان الأهل والوطن جميعًا... سألت عادل:

- مش حانكتب الرد؟!

- المفروض إنه ينكتب دلوقت وينبعت مستعجل كمان.

- مستعجل؟!

هكذا تساءلت في دهشة فأجاب:

- لأنك لازم تباني قدامهم ملهوفة وعاوزة تبعتي المعلومات اللي عندك قبل ما تحرقها الجرايد أو وكالات الأنباء التانية.

- وحاقول إيه؟!

- إشربي قهوتك الأول، وبعدين نتكلم.

❊ ❊ ❊

بعد ساعة لا تزيد، كانت سامية تغادر الجهاز في نفس التاكسي الذي اخترق بها ذلك الطريق الخلفي... كانت حزينة حزنًا بالغًا، ليس فقط لأنها اكتشفت أن حبيبها لا شك خائن، وأنه فعل بها وبالوطن كله ما فعل، بل أيضًا لأنها كانت تعلم أن أمها سوف تنقل إلى أحد المستشفيات في صبيحة اليوم التالي، لإجراء بعض التحليلات.

❊ ❊ ❊

ما إن قرأ أبو سليم الخطاب الذي أرسلته سامية إلى نبيل، والذي كانت تعتذر فيه عن السفر إلى روما لمرض أمها، حتى دس الخطاب في جيبه دون كلمة... ولقد انتظر منه نبيل أن يقول شيئًا لكن الرجل أخذ يتحدث معه في أمور أخرى... كانت حياته - هكذا قال نبيل بالحرف الواحد فيما بعد - قد استقرت ورتبت بحيث أصبح - إلى جانب عمله في جراج سنيور إسكالكو - خبيرًا في التقاط واصطياد هؤلاء الذين يستطيع تقديمهم إلى أبي سليم، لا من المصريين فقط، وإنما من شباب العرب أيضًا... وكان مركزه في نابولي قد تدعم الآن تمامًا بعد أن أصبح معروفًا للجميع، بل أصبح يتصرف وكأنه مواطن إيطالي، أسبغت عليه علاقاته بأبي سليم حماية خفية جعلته يتحرك في المجتمع الإيطالي في نابولي بحرية وثقة بلغتا حدًا كان يبهر هؤلاء الذين كانوا يفدون إلى المدينة بحثًا عن سيارة، أو متعة، أو حتى سياحة عابرة... لم يعد في حاجة إلى أن يبحث عنهم، اختار لنفسه - بتوجيه من أبي سليم - مقهى راقيًا في تلك المقاهي الإيطالية الشهيرة، وجعل منه مستقرًا له يلتقي فيه بأصدقائه وصديقاته شأنه شأن أي إنسان يحيا حياة طبيعية وعادية، ويكسب من المال ما يمكنه من أن يعيش في بحبوحة من العيش.

عندما حان وقت انصراف أبي سليم، سأله نبيل:

- ما قلتليش حانعمل إيه مع سامية؟!

- هي مش بتقول إن والدتها عيانة وفي المستشفى؟!

- ما أنت قريت الجواب وعارف اللي فيه.

- ده صحيح، بس لاحظ إنها ما قالتش هي في أي مستشفى بالضبط.

لعب الفار في عب نبيل فلقد كانت لهجة الرجل تنذر بسوء، هتف:

- يعني إيه يا ابو سليم؟!

- ولا حاجة... إنسى الموضوع ده شوية.

- طب مش المفروض - على الأقل - إني أبعت أسألها عن صحة والدتها؟!

- واجب طبعًا.

قال الرجل هذا ثم صمت لثوان بدا فيها مستغرقًا في التفكير، لكنه ما لبث أن قال:

- بس مش قبل ما نتأكد إن كانت والدتها عيانة بصحيح ولا لأ.

وانصرف أبو سليم تاركًا نبيل في حالة من القلق والتمزق استبدت به استبدادًا... لم تعد الأمور بالنسبة إليه غامضة مثلما كانت في الماضي، استمد من الشهور التي انصرمت والأحداث التي عاشها خبرة جعلته يشم رائحة الخطر ويفهم معنى كلمات أبي سليم ويفسرها - مهما بدت له غامضة - تفسيرًا صحيحًا... كان معنى ما قاله أبو سليم أن هناك شك في صدق ما روته سامية في خطابها حول مرض أمها بالذات برغم كل ما كان فيه من حب وعواطف متأججة... كان معناه أن هناك شكًا في أن السيدة إقبال حسين قد دخلت المستشفى بالفعل... فلماذا تكذب سامية؟!

طرح السؤال على نفسه بوضوح ودون لف أو دوران، وكان لا بد أن يفعل ذلك... فهل أبلغت سامية السلطات المصرية عما حدث لها في روما فبحثت وتقصت ووصلت إلى الحقيقة؟! هل علمت المخابرات المصرية بأمره، فراحت تنصب له شباكها عن طريق حبيبته.

ظلت الأفكار تطارده في غدوه ورواحه، انقطع عنه أبو سليم لأيام وتركه نهبًا لقلق كان يأكله أكلًا... وهو، لم يكن يستطيع سوى الانتظار، كان عليه فقط أن ينتظر ما يخبئه له المستقبل... ولكن، وسط كل هذا الظلام الذي أحاطه من كل جانب، كان ثمة بصيص من أمل بدا له شاحبًا... فلقد كان

معنى قول أبي سليم أنهم قادرون على معرفة الحقيقة، أنهم بالفعل قادرون على معرفتها، فلقد علمته التجربة ذلك.

بعد عشرة أيام مضاها نبيل في محرقة قلق مدمر، جاء أبو سليم مستبشرًا.

- خير يا ابو سليم؟!

- مبروك يا نبيل.

- على إيه؟!

- إنت مش ناوي تخطب سامية؟!

قفز من مكانه كمن لدغته عقرب.

- إنت بتقول إيه؟!

- إنت مش وعدتها وهي هنا إن الخطوبة لازم تتم في مصر؟!

- ده اللي انت طلبت مني إني أقوله.

- وما له، بس وعد الحر دين عليه.

عاد نبيل إلى مكانه وراح يحملق في الرجل الجالس أمامه وقد استشعر حزنًا غامضًا.

- أبو سليم... قول إيه الحكاية بالضبط؟!

- والدة سامية عيانة فعلًا.

- يعني دخلت المستشفى زي سامية ما قالت؟!

- ويبدو إن عندها مرض خطير كمان.

- إيه اللي بتقوله ده؟!

- دي في مستشفى الدكتور رفعت شبانة، وسامية تقريبًا مقيمة معاها.

- يعني الحكاية جد؟!

- مش ده المهم على كل حال.

- أمال إيه المهم يا ابو سليم؟!

- المهم إن سامية جمعت شوية أخبار كويسة وأدريان مستعجل عليها جدًا.

عاد نبيل يقفز من مكانه قلقًا وقد أدرك الطريق الذي يقوده إليه ذلك الثعلب:

- خش في الموضوع يا ابو سليم، حاكم أنا عارفك وعارف أساليبك.

رماه أبو سليم بتلك النظرة الصارمة التي كانت تلقي الرعب إلى نفسه فصاح:

- ما تبصليش بالشكل ده.

ابتسم أبو سليم بابتسامته تلك العذبة فكأن وجهه آلة تخضع لأزرار تحوله من النقيض إلى النقيض:

- وما تبتسمليش بالشكل ده كمان.

ضحك أبو سليم ضحكة جلجل صداها في الغرفة، ضحكة ذكّرت نبيل بتلك الأيام الأولى التي التقى فيها نبيل بأبي سليم كمواطن سوري كريم مرح محب للحياة والناس والعروبة... فراح يدور في المكان كالحبيس:

- معنى كلامك ده إنك عاوزني أروح مصر علشان أجيب المعلومات دي.

- لأ... علشان تخطب سامية أولًا.

- وافرض إن والدتها ما وافقتش؟!

- تبقى عملت اللي عليك.

اندفع نحوه متوسلًا:

- أبو سليم، أرجوك تعفيني من المأمورية دي.

- لاحظ إن سامية دلوقت، وفي الظروف الصعبة اللي هي فيها، حاتبقى محتاجة لك انت بالذات أكتر من أي حد في الدنيا.

- أنا مش مطمن للحكاية دي.

- والأخبار اللي عاوزها أدريان؟!

- ما تقوليش أخبار وصحافة... إنت فاكرني عبيط؟!

في صرامة من ينهي الأمر تمامًا، قال أبو سليم:

- حضر نفسك للسفر بعد يومين.

همَّ نبيل بالحديث فأردف الرجل:

- ولازم تشتري الدبلتين ومعاهم شبكة محترمة علشان أم سامية تقتنع بأنك تصلح لبنتها.

- دبلتين إيه وشبكة إيه اللي انت بتتكلم عنهم دول؟!

- ولا تطلبش من سامية الأخبار اللي هي جمعتها إلا بعد الخطوبة.

- يعني إيه الكلام ده؟!

- أنا كلامي واضح، ولولا إنك متعجل وعصبي كنت فهمت من الأول إني مش ممكن أبعتك مصر إلا وأنا واثق ومطمن مِيّه في المِيّه إنك في أمان.

- أمان إزاي وانا حاشيل بلوة مسيحة وأنا راجع؟!

- مين قال لك إنها بلوة مسيحة، دي شوية أخبار صحفية أكيد حاتتحط في ظرف مقفول.

- وافرض إني اتمسكت بيها في المطار؟!

- وانت ما لك... دي خطيبتك اديتك الأخبار علشان توصلها لأدريان تومسون.

- وهمه حايصدقوني؟!

- أكيد.

- منين جبت التأكيد ده يا ابو سليم؟!

- لأن الأخبار حاتكون بخط سامية، ولأن الظرف حايكون مكتوب عليه اسم أدريان تومسون.

صمت نبيل وهو يقلب الأمر في رأسه على كل وجوهه... كانت الخطة تبدو محكمة ومقنعة ولا ثغرة فيها، ولو أنهم في مصر قد قبضوا عليه وهو يحمل ذلك الظرف فلن يكلفه الأمر سوى القول بأنه لا يعرف محتواه، وإن سامية فهمي، خطيبته المليئة بالوطنية، والعضو في التنظيم الطليعي كما أخبرته، والتي لا يمكن أن يتطرق الشك إلى وطنيتها، هي التي أعطته الخطاب الذي لا بد - بالفعل - أن يكون مكتوبًا بخط يدها، طالبة منه تسليمه إلى أدريان تومسون الصحفي البريطاني الذي يعمل في روما منذ فترة، والذي التقت به سامية ذات مرة وكان معها، لكنه اضطر، عندما علم أن بينهما عملًا ما، إلى أن يتركهما بعد ثوان وأن ينصرف لأنه كان مرتبطًا أيضًا بأعمال خاصة بالشركة التي يعمل لحسابها... وهو لا يدري شيئًا عما دار بينهما بطبيعة الحال، لأن سامية لم تخبره.

ولقد أحس نبيل بقليل من الراحة عندما وصل إلى هذا الحد من التفكير، وإذا أبو سليم، وكأنه يقرأ أفكاره، يقول مستطردًا:

- وإذا ما كانتش سامية كاتبه اسم أدريان على الظرف، خليها تكتبه قدام عينيك علشان تطمئن أكتر.

أطلت من عيني نبيل نظرة امتنان وارتياح وإعجاب في نفس الوقت... زفر زفرة من أزيح من فوق كاهله عبء ثقيل وهو يقول باسمًا:

- والجواب ده حاشيله إزاي؟!

- عادي جدًا، في جيب الچاكتة كأي جواب عادي.

بلغ إعجاب نبيل بأبي سليم في تلك اللحظة ذروته، فهتف ممازحًا:

- أنا كنت دايمًا أقرأ عن الرجل الثعلب في القصص والروايات، لكن عمري ما فكرت، ولا تصورت، إني حأقابل الراجل ده وجهًا لوجه.

وانفجر الاثنان ضاحكين، وأخرج أبو سليم من جيبه مجموعة من الأوراق المالية مد بها يده إلى نبيل وهو يقول:

- كل اللي عليك إنك تقوله لسامية، إنك قابلت أدريان صدفة في روما، وإنه لما عرف إنك مسافر علشان تخطبها، إداك الخمسميت دولار دول علشان توصلهم لها، وتطلب منها الشغل.

تناول نبيل النقود مغمغمًا:

- وفين فلوس الدبلتين والشبكة؟!

- روح المحل اللي اشتريت منه الخاتم ونقي الدبلتين اللي يعجبوك.

- دول لازم يكونوا تلاتة، اتنين دهب وواحدة ألماظ.

- خليهم تلاتة... والشبكة حاتلقاها جاهزة.

وهكذا، أخذ نبيل، خلال الثماني والأربعين ساعة التالية، يستعد للطيران إلى القاهرة للمرة الثانية.

* * *

قال لي عادل مكي إن القدر أبى إلا أن يزيد من عذابات سامية فهمي رغم المحنة الطاحنة التي كانت تمر بها في تلك الأيام... وهو، عندما طرح

عليها فكرة أن يعود الدكتور زكي صدقي والدتها السيدة إقبال حسين، كان يبغي أن تنتقل السيدة إقبال إلى أحد المستشفيات الخاصة يومين أو ثلاثة لإجراء بعض التحليلات التي لا ضرر منها، بل التي لا بد أن تجرى لسيدة في مثل سن السيدة إقبال... ذلك أنه أراد أولًا أن يطمئن سامية على والدتها كي تتفرغ تمامًا لما كانت مقدمة عليه من أحداث جسام... ولأنه - ثانيًا - أراد أن يصنع لها غطاء صادقًا لما أرسلته في خطابها إلى نبيل سالم فيما يختص بتعذر سفرها إلى روما... ذلك أن خبر انتقال السيدة إقبال إلى المستشفى، كان لا بد من أن ينتشر بين أفراد أسرة مجلة «الفجر» على الأقل، وكان هذا هو المطلوب فقط... ثم لقد كان الدكتور زكي صدقي بالذات واحدًا من العباقرة المصريين الذين منّ اللـه عليهم بعلم غزير جعل اسمه يتردد بين الناس كصانع للمعجزات، وكان - في الوقت نفسه - واحدًا من الأطباء الذين يعودون ضباط المخابرات مرة في كل أسبوع... وبطبيعة الحال، لم يكن عادل مكي في حاجة إلى مصارحة هذا الطبيب العبقري بنيته، كان يكفي أن يلمح له بأن السيدة إقبال إحدى قريباته، وأن صحتها في الآونة الأخيرة لم تكن على ما يرام، وأنه يرجو - فقط - أن يكشف عليها الدكتور زكي، حتى إذا ما كانت في حاجة إلى بعض التحليلات التي تحتاج إليها النساء في مثل عمرها، نقلت إلى المستشفى ليومين أو ثلاثة أيام حتى يطمئن على صحتها.

وفي حقيقة الأمر، كان الدكتور زكي صدقي قد تعود مثل هذه الأمور التي أدرك بفطرته وذكائه، أنها أمور تخص - في الغالب الأعم - أمن الوطن وهو، عندما استجاب لرجاء عادل مكي، قال له هذا:

- إنت تعرف الست دي تبقى مين يا دكتور؟!

- إنت بتقول إنها قريبتك.

- دي أم سامية فهمي الصحفية بتاعة مجلة الفجر.

صاح زكي صدقي متهللًا:

- دي صحفية كويسة جدًا، وأنا بقرأ لها.

- لأ... المفروض إنك واحد من أصدقائها كمان.

وصلت الرسالة مباشرة إلى الطبيب النابغة فلم يجب، لكن عادل أضاف موضحًا:

- أصل والدتها رافضة حكاية الدكاترة دي وبتقول إن كل اللي عندها دور أنفلونزا... لكن سامية في الحقيقة قلقانة عليها جدًا، واضطرت تقول لها إنك صاحبها، وإنك لما سمعت بمرضها، صممت إنك تشوفها.

ضحك زكي صدقي قائلًا:

- وهو انا أطول، دي بنت ممتازة... إنت بتقرأ لها يا عادل؟!

ابتسم عادل وهو ينهض زافرًا:

- أحيانًا يا دكتور... أحيانًا.

دهشت السيدة إقبال حسين دهشة بالغة لتصميم ابنتها على استشارة طبيب... وهي عندما قاومت الفكرة، كانت مقتنعة بأن وعكتها الصحية لا تزيد على تلك النوبة من الأنفلونزا التي أصابت الملايين في مصر في ذلك العام... ولكن، بالرغم من دهشتها فقد غمرتها السعادة حقًا لاهتمام ابنتها بها، خاصة أن سامية أخبرتها أنها تعرفت على الدكتور زكي أثناء قيامها بتحقيق صحفي، وأن علاقتهما منذ ذلك اليوم توطدت، وأنها تعتبره صديقًا... وعلى ذلك، فلن يكلفها الأمر شيئًا، بل سيزيد اطمئنانها عليها لا أكثر ولا أقل.

غير أن المفاجأة التي أصابت عادل مكي، أن الدكتور زكي اكتشف أن السيدة إقبال مريضة بالفعل، وأن مرضها قد يكون خطيرًا، وأن الأمر يحتاج إلى جراحة عاجلة... ولقد قال لعادل مكي في ذلك المساء وهو يتحدث إليه بالتليفون:

- الست دي تعبانه فعلًا يا عادل ولازم تدخل المستشفى بكره الصبح.

في لهفة سأله عادل:

- وانت قلت إيه لسامية؟!

- ما قلتش حاجة أكتر من إنها محتاجة لشوية تحاليل.

- وإيه كان رد فعلها؟!

- عادي؛ لأني بصراحة ما رضيتش أخضها.

- عملت ترتيبات المستشفى يا دكتور؟!

- طبعًا، أنا اتكلمت مع الدكتور رفعت شبانة شخصيًا علشان أوضتها تبقى جاهزة بكره الصبح.

ورغم هذا، فإن عادل مكي لم ينم في تلك الليلة، إلا بعد أن اطمأن تمامًا إلى حجز الغرفة.

ولقد قالت لي سامية فهمي - وكانت تبتسم - إنها فهمت منذ البداية أن الأمر كله كان مدبرًا، ولذلك، لم يعترها أي نوع من أنواع القلق، لكنها وبعد أن نقلت أمها إلى المستشفى، بدأت تدرك، مع إجراء التحليلات واهتمام الأطباء، والأحاديث التي كانت تدور بينهم، أن الأمر جد لا تظاهر فيه ولا تدبير... حتى إذا ما أعلن الدكتور صدقي أن أمها في حاجة إلى إجراء جراحة عاجلة، انتابها الفزع، وطلبت عادل مكي في التليفون:

- إيه الحكاية فهمني؟!

- مش تحمدي ربنا يا سامية.

- الحمد لله على كل حاجة بس إيه الحكاية... الدكتور مش عاوز يتكلم معايا؟!

- ولا حاجة... ما تقلقيش، الدكتور زكي قال لي إن العملية بسيطة وماما ممكن تخرج من المستشفى بعد أسبوع أو اتنين بالكثير.

صاحت في هلع:

- هي الحكاية جد؟!

كانت هذه لحظة من لحظات الفزع القاتل الذي كان ينتاب سامية في تلك الأيام مع كل خبر جديد وكل اكتشاف تضع يدها عليه أو تعرفه وطوال الأسبوعين اللذين لزمت فيهما السيدة إقبال حسين الفراش في المستشفى، كانت تتسلط على سامية فكرة أن والدتها قد تموت وتتركها في هذه الدنيا وحدها... كان إحساسًا رهيبًا ومدمرًا، لكنها كانت دائمًا ما تتخلص من تلك الأحاسيس والأفكار، بانغماسها في رعاية أمها... ولقد ساد الصمت طويلًا فيما بينها وبين عادل الذي أدرك على الفور ما كانت تعانيه فقال:

- الحمد لله إن الدكاترة اكتشفوا الحكاية دي في الوقت المناسب، ربنا بيحبك يا سامية.

- يعني لو ما كانتش الصدفة دي كانت ماما...

قاطعها في حسم:

- الكلام ده مش حايجيب نتيجة دلوقت.

لزمت سامية فهمي المستشفى مع أمها منذ اليوم الأول... وشاع الخبر في مجلة الفجر، وأحس حزب النميمة بالندم عندما علم الجميع أن والدة سامية كانت تلازم الفراش قبل دخولها إلى المستشفى بفترة... وكان أول الساعين إلى سامية واضعًا نفسه تحت إمرتها هو «فريد الشاعر» الذي لم يناقش معها شيئًا، ولم يعتذر عما بدر منه... كل ما فعله أنه عاد - ببساطة - كي يقف إلى جوار الفتاة التي أحبها والتي كانت أقرب الأصدقاء والصديقات إلى نفسه... دون كلل أو ملل وقف إلى جوارها ليل نهار...

خاصة، أن علاقة خاصة كانت قد نشأت بينه وبين السيدة إقبال التي تتمنى، في أعماقها، أن يرتبط هذا الشاب بابنتها برباط الزوجية.

وعلى كلٍّ... فما إن مضى يومان حتى امتلأت غرفة السيدة إقبال بباقات الورد التي أرسلها زملاء سامية وأصدقاؤها، كما أرسل زملاء السيدة إقبال ومرءوسوها في المدرسة باقات ملأت الغرفة وامتدت إلى الممر المقابل لها... وتقاطر على المستشفى مئات التلميذات اللواتي جئن كي يطمئنن على ناظرتهن ومدرستهن.

وأدرك العاملون في المستشفى أهمية المريضة عندما وصلت باقات ورد من عدد من وكلاء وزارة التربية والتعليم، ثم وصلت باقة فاخرة تحمل اسم أحد الوزراء ذوي المكانة الخاصة... وتردد على المريضة عدد لا بأس به من الشخصيات السياسية التي كانت تربطها بسامية علاقات صداقة نمت أثناء العمل الصحفي أو السياسي... ولقد أجريت العملية الجراحية بعد دخول السيدة إقبال إلى المستشفى بثلاثة أيام، وجاءت نتيجة التحليلات - بعد العملية - مُرضية للغاية، وتماثلت السيدة إقبال للشفاء، وبدا أنها ستغادر المستشفى بعد يوم أو يومين... حين دق باب الغرفة ذات عصر، وكانت سامية تجلس إلى جوار أمها وهي تتناول فنجانًا من الشاي... وعندما أذنت للطارق بالدخول، فتح الباب في رفق، وأطل منه رأس نبيل سالم.

الفصل الثالث والثلاثون

المصَيَدة

كان الوقت غريبًا كل الغرابة، مُرْبكًا أشد ما يكون الإرباك... ساد الغرفة وجوم استمر بالرغم من الجميع دقيقة طالت فكأنها قرن من الزمان... راحت السيدة إقبال تردد البصر فيما بين الشاب الواقف بالباب على استحياء، وبين ابنتها التي همّت واقفة في فزع حتى كاد فنجان الشاي يسقط من يدها لولا أن تداركته في آخر لحظة... تخلصت سامية من فنجان الشاي بإعادته إلى المائدة، وخطا نبيل إلى الداخل وكان يحمل في يده باقة من الورد غالي الثمن... هتفت سامية في همس مرتجف وكأنها لا تصدق عينيها:

- نبيل...

لكن نبيل لم ينظر إليها ولم يرد عليها... كان مثل غاندي يعرف الهدف من غزوته، توجهت عيناه وهو يخطو نحو السيدة إقبال حسين خطوات وئيدة، وكانت هي تنظر إليه في دهشة ممزوجة بضعف مَنْ غُلِبَ على أمره، قبل أن يصل إلى الفراش بخطوة توقف:

- أول ما عرفت من سامية إن حضرتك تعبانة، ما قدرتش أستنى.

جاء صوت السيدة إقبال واهنًا ضعيفًا:

- متشكرة يا بني... الحمد لله على السلامة.

وضع الورد جانبًا، ومد يده نحوها فمدت يدها كي تصافحه فإذا به ينحني على اليد مقبلًا إياها:

- الحمد لله على سلامتك يا طنط.

أصابتها القبلة في مقتل فامتدت يدها الأخرى كي تربت على رأسه في حنان لم تدر من أين ولا كيف نبع، ارتجف صوتها وهي تسأله:

- إزيك يا نبيل؟!

ابتسم وعيناه تبرقان ببريق انتصار لم يعد فيه شك:

- زي ما حضرتك شايفة.

- إنت مش حاتسلم على سامية؟!

الآن... سار نحو سامية في خطوات واثقة صافحها في حرارة المحب المشتاق يمنعه الظرف من التعبير عن حبه وشوقه... وكانت هي ذاهلة، ذاهلة تمامًا ترقب ما يجري أمامها غير مصدقة... تركت له يدها كما تركت عيناها تتعلقان به وفي صدرها صراع شياطين لا ترحم:

- إزيك يا سامية؟!

- جيت إمتى؟!

- إمبارح بالليل.

جاء صوت السيدة إقبال وقد أحست بالحرج الذي وقعت فيه ابنتها:

- اقعد يا نبيل، اتفضل يا بني.

التفت نحوها في أدب شديد وهو يقول:

- أنا عارف يا طنط إن حضرتك مندهشة إني جيت، وعارف كمان إن حضرتك يمكن مش عازوه تشوفيني... لكن الحقيقة أنا جاي أولًا

علشان أطمئن عليكي، وثانيًا علشان أوضح لحضرتك حاجات لازم تعرفيها مني أنا شخصيًا.

هتفت سامية في عصبية:

- نبيل... وهو ده وقته؟!

رغم ما تَلقّاه من زَجْر فلقد التفت إليها في ثقة من يعرف ماذا يفعل، وجاء صوته هادئًا تمامًا:

- أنا مفيش قدامي غير ٤٨ ساعة يا سامية راح منهم اتناشر وانتي عارفة شغلي وشفتي بنفسك... وزي ما قلت لك إن ألبرتو إجنازيو صاحبي بره الشغل بس، إنما في الشغل ما يعرفش أبوه.

كان مرض السيدة إقبال قد أمدها بكَمّ هائل من الضعف والخوف على ابنتها... وهي لم تكف طوال فترة مرضها عن التفكير فيما عسى أن يصيب سامية لو أن القضاء حم وانتهى الأجل... وإذا كانت سامية على مدى سنوات طالت لا تزال تريد هذا الشاب، ومهما كان رأيها هي فيه فإن لسامية الحق في أن تختار شريك حياتها، كما أن لها الحق في أن تطمئن على ابنتها... فلا أحد يعرف ما الذي تحمله الأيام؟!

جاء صوتها - كنظراتها - واهنًا، قالت:

- قول يا بني... قول كل اللي انت عاوزه.

- أنا مش عاوز غير رضا حضرتك عليّ.

رددت البصر فيما بين ابنتها وحبيبها هذا الواقف أمامها... كان وسيمًا أنيقًا، تبدو عليه النعمة، لا في ملبسه فقط، وإنما في تصرفاته وكلماته وحركاته معًا... تذكرت حديث سامية عنه بعد عودتها من إيطاليا... تذكرت فرحتها بخاتمه الماسي الذي لم تخلعه من إصبعها حتى الآن، تذكرت إحساسها بالفخر لما وصل إليه حبيبها في عمله، فسألت:

- إنتو عاوزين تتخطبوا؟!

- أنا جايب معايا الدبل وشبكة على قد حالي... بس حضرتك توافقي.

ملأت الدموع مآقي تلك السيدة المريضة، وارتجفت شفتاها وهي تقول في استسلام:

- اللي تشوفه يا بني، ربنا يسعدكم.

كان الموقف غريبًا كل الغرابة، كان يبدو وكأنه مشهد سينمائي في فيلم خيالي لا علاقة له بالواقع... مد نبيل يده إلى جيبه لكي يخرج صندوقين صغيرين تشي أناقتهما بأنهما يحويان أشياء ثمينة.. تقدم من الفراش قائلًا في صوت خافت:

- يعني حضرتك راضية؟!

هتفت سامية في احتجاج عصبي:

- نبيل.. إنت حتى لسه ما قعدتش.

- يمكن أكون مستعجل شوية يا سامية لكن لاحظي إننا استنينا كتير قوي في انتظار اللحظة دي.

أحست سامية بوضوح أن ثمة شيئًا يدبر في الخفاء، شعرت وكأنها وقعت في مصيدة لا تستطيع منها فكاكًا، تمنت - لدهشتها البالغة - لو أن عادل مكي كان موجودًا كي ينبئها بما يجب عليها أن تفعله... كانت تحتدم بغضب وحيرة وارتباك نَمّتْ عنها ملامحها المتوترة فسألها نبيل مستكينًا:

- ما لك يا سامية؟!

- إنت مش شايف إن الوقت و... و... وحتى المكان مش مناسبين؟!

بدا عليه الانكسار، غمغم وكأنه طفل مذنب:

- أصل أنا مش حاقدر آخد أجازة تانية قريب.

- الدنيا ما طارتش يا نبيل.

همت سامية بالرد لكن صوت أمها جاء كي يضع كل الأمور في نصابها:

- مش دا اللي انتي كنتي عاوزاه يا سامية؟!

- أيوه يا ماما... بس انتي عيانة.

- يمكن ده أدعى إني أوافق ما دمتم عاوزين بعض.

اخترق المعنى صدر سامية كنصل حاد فارتجفت من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، ساد الصمت، وكان نبيل يقف خافض الرأس يحمل الصندوقين الأنيقين بكلتا يديه وكأنه في انتظار حكم يحدد مستقبله، حسمت السيدة إقبال الأمر بأن أردفت:

- إذا كان عليّ... أنا موافقة.

رفعت سامية عينيها نحو نبيل، أدركت أن الأمر خرج من يدها وأنها لا تستطيع شيئًا، كانت تعلم يقينًا لَمَ وافقت أمها، جاشت نفسها بالحب فتعلقت عيناها بوجهها الشاحب، فهل من الممكن أن تخذل تلك الأم التي ما خذلتها يومًا؟! التفتت نحو نبيل فوجدت نظراته متوسلة، وجدته يذوب حبًا، فهل من الممكن أن يكون هذا الواقف أمامها خائنًا... هل من الممكن أن يكون جاسوسًا يعمل ضد وطنه؟! تذكرت أن عادل مكي لم يجزم في أمره بشيء حتى الآن، وسرعان ما تشبثت بتلك القشة فتعلقت بها في قوة، ولم يكن أمامها سوى أن تقول:

- خلاص يا ماما... اللي تشوفيه.

- على بركة الله يا بنتي.

هكذا قالت الأم، وهكذا تقدم نبيل من الفراش باسمًا ينتفض بالسعادة وهو يفتح أحد الصندوقين فإذا به دبلتان ذهبيتان وثالثة ماسية، كان واضحًا حتى لمن لا خبرة له أن الدبلة الماسية غالية الثمن... لكنه عندما فتح الصندوق الآخر لم تملك سامية نفسها من أن تشهق إعجابًا وهي ترى ذلك البروش الفاخر وماساته التي كانت تتلألأ تحت الضوء الذي يعلو فراش السيدة إقبال.

- مش كتير ده يا نبيل؟!

- لو كنت أقدر كنت جبت لك حاجة أحلى من ده مليون مرة.

- ما انت اشتريت لي الخاتم؟!

هكذا قالت مأخوذة، كانت تحاول أن تستجلب السعادة استجلابًا، كانت هذه هي اللحظة التي تمنتها طوال العمر وانتظرتها وأنفقت في سبيلها سنوات من الضياع والانتظار، استعادت في ذاكرتها خطاب نبيل الأخير، كما استعادت خطابها - الذي كتبته مع عادل مكي - ولم يكن في الخطابين ما يشير من قريب أو من بعيد إلى الخيانة... ترى هل ظلمت حبيبها في حمى الذود عن الوطن والخوف عليه والدفاع عنه؟!

كان الدمع يملأ عيني السيدة إقبال بعد أن ملأتهما بمنظر شبكة ابنتها فهمست:

- مبروك يا سامية.

وانفجرت سامية في البكاء... بالرغم منها بكت، أرادت أن تتمسك فلم تستطع، كان كل شيء أمامها وحولها، وحتى في داخلها يبدو عبثيًا لا معنى له... كان هذا الواقف أمامها هو نبيل سالم حبيبها الذي طالما تمنت أن ترتدي دبلته حتى ولو كانت من صفيح بلا ثمن... نظرت إلى أمها، كان الدمع ينحدر فوق الوجنتين الشاحبتين في عذاب صامت... تقدمت منها وراحت تنظر إليها فإذا الوجه المترقرق من خلف الدمع مسكين بلا حول

ولا طول، انحنت عليها في حرص وضمت رأسها إلى صدرها في حب اهتزت له جوانحها اهتزازًا... رفعت السيدة إقبال يدها تمسح بها على شعر ابنتها فأخذت سامية تلك اليد وراحت تمطرها بقُبلات حب وعرفان واعتذار... توقفت في لحظة والتقت عيناها بعيني أمها التي همست:

- ربنا يسعدك يا بنتي.

- أنا عاوزاكي تعرفي حاجة واحدة بس.

- قولي يا حبيبتي؟!

- مفيش في الدنيا حد عندي أغلى منك، ولا يوصل لمكانتك.

- روحي سلمي على خطيبك.

كم تمنت في تلك اللحظة أن تخبر أمها بكل شيء، أن تضع رأسها - كما تعودت - في حجرها، وتستشعر أصابعها الحنون تتخلل شعرها، وأن تنطلق في الحديث فتقول كل شيء... ولكن... لكنها لم تكن تملك سوى السير في الطريق حتى نهايته... استقامت في وقفتها، مسحت دموعها مبتسمة استعدادًا لمواجهة نبيل عندما سمعته يقول:

- تسمحي يا طنط؟!

- أسمح بإيه يا بني؟!

- أصل بابا وماما منتظرين بره.

هتفت سامية في هلع:

- إيه؟!

- بصراحة بابا خاف يدخل أحسن طنط ما يكونش عندها استعداد تقابله.

قالت الأم في وهن:

- خليه يتفضل يا ابني، عيب كده.

في امتنان بالغ وأدب يمس شغاف القلب قال نبيل:

- متشكر قوي يا طنط... متشكر جدًا، ربنا ما يحرمنيش منك.

اندفع نحو الباب والسعادة تجتاحه اجتياحًا، نادى أباه وأمه، وسرعان ما ظهرا عند الباب.

- سلامتك يا إقبال هانم.

هكذا قال الأب وهو يتقدم إلى الداخل بصحبة زوجته... و...

وكانت لحظات لا تُنْسَى تلك التي تقدم فيها نبيل سالم من سامية فهمي، كي يضع الدبلة الماسية ثم يحبسها بالدبلة الذهبية في إصبعها، ثم يقدم إصبعه لها كي تضع فيه دبلته... كان الدمع ينهمر من عيني السيدة إقبال كالسيل بينما كانت أم نبيل قد انخرطت في بكاء حار وبصوت مسموع... وعندما مال نبيل على جبين سامية كي يقبلها هامسًا:

- مبروك يا سامية.

انفجرت هي الأخرى في البكاء، وارتمت بين ذراعيه، وهتف الأب وقد اجتاحه التأثر:

- لحظة زي دي كان الواحد يتمنى إنه يسمع فيها زغرودة.

لكنه لم يكن يعلم وهو يقول هذا، أن ما كان يحدث... هو التعبير الصادق عن حقيقة الموقف.

* * *

قضت سامية ليلة مسهدة لم تذق فيها طعم النوم... راحت تتقلب في فراشها وهي تضرب أخماسًا في أسداس، لم تكن تعرف ما الذي ينبغي عليها أن تفعله، ولا كيف تخبر عادل بالأمر... حوصرت في الدقائق التالية لما حدث، حصارًا جعل الاتصال بعادل - حتى في اليوم التالي - يكاد يكون مستحيلًا... تحدث الجميع عما مضى وتحدثوا عما هو قادم من

أيام... قال والد نبيل سالم إنه لم يطمئن على مستقبل ولده سوى في ذلك اليوم الذي قابل فيه سامية، قال إن من المستحيل أن ينشأ حب بين فتاة مثل سامية وشاب بلا مستقبل، حمد الله وشكر فضله لأنه لم يخيب ظنه... كانت الفرحة تشملهم جميعًا، حتى أمها بدت سعيدة إلى الحد الذي طلبت فيه منها أن تخرج مع خطيبها في تلك الليلة لساعة أو ساعتين، لكن سامية رفضت وأصرت على الرفض... ظل نبيل صامتًا وقد احتدم النقاش من حوله بعد أن انضم والدا نبيل إلى أمها. ساقت لهم الحجة تلو الحجة متمسكة بموقفها في استماتة، فهي لا تستطيع مهما كان الأمر أن تترك أمها وحدها... قالت: إنه فوق هذا فلا بد لها أن تبدل ملابسها وأن تصفف شعرها وأن هذا يستلزم وقتًا لا تملكه، ولقد ظلت المناقشة محتدمة حتى حسم نبيل الأمر:

- أنا شايف إن سامية معاها حق.

التفت الجميع نحوه في دهشة فأردف:

- بصراحة أنا كمان قلبي ما يطاوعنيش إننا نسيب طنط لوحدها، لكن فيه حل تاني.

- إيه هو؟!

هكذا سأل الأب فأجاب نبيل:

- بكره الصبح ماما تيجي تقعد مع سامية... وسامية تاخد وقتها وبعدين تتغدى سوا.

همت السيدة إقبال بالاعتراض لكنه أردف:

- أصل أنا مسافر بكره إن شاء الله الساعة تسعة، ومش حاقدر أقعد مع سامية إلا لحد العصر.

بدا الحل مثاليًا بالنسبة للجميع حتى سامية تنفست الصعداء فلسوف يكون أمامها بعض من الوقت كي تتصل بعادل مكي... غادر نبيل الغرفة

مع والديه تاركًا سامية تتخبط داخل حلقة جهنمية من الأفكار... فماذا لو طلب منها نبيل خطاب أدريان والخطاب مع عادل وليس معها... و... وهل جاء خصيصًا لتسلم تلك المعلومات أم أنه - بالفعل - سارع بالحضور عندما علم بمرض أمها؟! وإذا كان قد جاء من أجل المعلومات فبأي حجة سوف يطلبها... وإذا ما طلبها - بشكل أو بآخر - فكيف تأتيه بالخطاب والوقت يبدو خانقًا؟ ألحت عليها الأفكار إلحاحًا أطار النوم من عينيها فراحت تتقلب في الفراش مسهدة حتى جاءها صوت أمها في الضوء الخافت الذي كانت ترسله لمبة كهربية صغيرة علقت فوق الباب:

- ما لك يا سامية؟!

انتفضت لكنها أجابت على الفور:

- ولا حاجة يا ماما... إنتِ إيه اللي مصحيكي لحد دلوقت؟!

استدارت كل منهما في فراشها نحو الأخرى.

- بكره لما تتجوزي وتخلفي حاتعرفي إيه اللي مصحيني.

- إنت لسة قلقانة عليّ؟!

- لأ.

كان الرد حاسمًا فلاذت بالصمت حتى عاد صوت أمها يسري في سكون الليل:

- إنتِ مش بتعملي اللي عليكي؟!

كأن ماسًا كهربيًا قد أصابها فارتجفت هاتفة:

- طبعًا يا ماما.

- خلاص... سلمي أمرك لله وهو حايعمل اللي فيه الخير.

وحتى غزا النوم جفون سامية فهمي كان هناك سؤال واحد سيطر عليها وأزاح جانبًا كل الأفكار التي كانت تراودها كي يحتل الفكر كله: فهل... هل كانت أمها تعلم شيئًا؟!

عندما دقت الساعة الثامنة صباحًا، كانت سامية قد ارتدت ملابسها وساعدت أمها في تناول إفطارها واحتست فنجانًا من الشاي، وقد هيأت نفسها لوصول أم نبيل عندما دق جرس التليفون في الغرفة:

- ألو...

- آنسة سامية هانم فهمي؟!

- أيوه.

- هنا حسابات المستشفى... ممكن سيادتك تشرفينا خمس دقائق؟!

انتفضت بالفرحة... كانت هذه علامة بأن أمها قد تغادر المستشفى في ذلك اليوم، ردت على المتحدث بأنها ستكون عنده بعد لحظات، أعادت السماعة إلى مكانها وقد اجتاح البِشر كل ملامحها، سألتها أمها:

- مين يا سامية؟!

- باين عليكي حاتخرجي النهارده يا حضرة الناظرة.

- هو الدكتور اللي كان بيتكلم؟!

- لا... دي الحسابات.

قالت هذا وهي تخطف حقيبة يدها دون أن تنتظر ردًا من أمها... اندفعت مغادرة الغرفة... هبطت إلى الدور الأول حيث قسم الحسابات، خطت إلى الغرفة وكان هناك موظف يجلس خلف مكتب في مواجهة الباب، عن يمينه وعن يساره كان هناك مكتبان آخران لا يجلس إليهما أحد... بدا لها الرجل الذي كان واضحًا تمامًا أنه جاوز الستين، وكان لاهيًا عنها بما بين

يديه من أوراق... أدركت على الفور أنه موظف قديم أحيل إلى المعاش لكنه يعمل في المستشفى كي يكسب ما يعينه على الحياة... دقت الباب بأصبعها برفق:

- صباح الخير.

رفع إليها رأسه فطالعتها من خلف النظارة الطبية؛ عينان مكدودتان:

- صباح النور يا بنتي.

- أنا سامية فهمي، حضرتك طلبتني من شوية؟!

زفر الرجل مشيرًا إلى مقعد أمام المكتب:

- أيوه... اتفضلي سيادتك.

خطت سامية إلى الداخل وهي تتلفت حولها في الغرفة الخالية إلا منه، حتى إذا جلست سألته:

- هو حضرتك بتشتغل هنا لوحدك؟!

دون أن يرفع عينيه عن الأوراق التي كان قد عاد إليها قال:

- لا... معايا اتنين اللي على اليمين حسين واللي على الشمال فاطمة.

كان منهمكًا في البحث عن أوراق بعينها، هَمّتْ سامية بالحديث لكنه أردف:

- مخطوبين.

رفعت حاجبيها مستفسرة فاستطرد:

- وبيشتغلوا بعد الظهر بس.

هزت رأسها كمن فهمت ومالت عليه كي تسأله لِمَ أرسل في طلبها، فإذا هو يخرج من أحد الدوسيهات ظرفًا قدمه لها فيَ بساطة وهو يقول في صوت طبيعي تمامًا:

- السيد عادل مكي ساب لك الظرف ده هنا.

صُعقَتْ سامية... مادت بها الأرض، وترنحت من حولها الجدران، وسبح بها المقعد في هواء الغرفة المعلق بين أصابع الرجل... كان الظرف هو الظرف الذي وضعت فيه تلك الرسالة الكارثة، لم يزد عليه سوى شريطين لاصقين تأكيدًا لأن الخطاب مغلق... بذلت جهدًا خارقًا حتى استعادت نفسها لتأخذ الظرف متسائلة:

- فيه حاجة بالنسبة للحسابات؟!

- يظهر يا أستاذة فيه غلطة... اللي أنا فاكره إن السيدة إقبال هانم دخلت المستشفى يوم تسعة ديسمبر... لكن اللي مكتوب في الأورنيك ده بيقول إنكم دخلتم المستشفى يوم عشرة.

- حضرتك معاك حق، إحنا فعلًا دخلنا المستشفى يوم عشرة، الصبح.

استأذنت سامية وانصرفت إلى غرفة والدتها... وعندما دخلت إلى الغرفة وجدت نبيل وأمه هناك وكانت قد دست الظرف في حقيبة يدها فأدركت كم كان عادل مكي حاذقًا فيما فعل لكنها قررت ألا تغفر له وضعها في مثل هذا الموقف الذي هزها هزًا... لم يكن هناك ما يقال، سحبت نبيل مغادرة الغرفة وهي تتساءل - في نفسها - عَمّا عناه عادل بإرسال الظرف إليها... كان معناه أولًا أنه علم بوصول نبيل فلم يخبرها، وكان معناه أيضًا أن تُسَلِّم الخطاب إلى نبيل فهل تعطيه له قبل أن يطلب أم تنتظر حتى يطلب منها الخطاب... ما إن غادرت باب المستشفى بصحبة نبيل حتى صفعت عيناها سيارة أجرة تقف على الناحية المقابلة وفي مواجهة الباب تمامًا، لم يكن غريبًا بالطبع أن توجد سيارة أجرة في مثل هذا الوقت وفي مثل هذا المكان، لكن الغريب أن السيارة كانت تحمل رقم «٢٥٣٤» وهو نفس الرقم الذي يحمله ذلك التاكسي - أيًا كانت ماركته - وهو التاكسي الذي يحملها إلى الجهاز كلما ذهبت للقاء عادل مكي... همّت بأن تتجه نحو

السيارة لكنها تمالكت نفسها وتركت الأمر لنبيل الذي ما إن رأى السيارة حتى اندفع نحوها كي يفتح لها الباب الخلفي ويدلف هاتفًا:

- جاردن سيتي يا اسطى.

أنزل السائق بنديرة السيارة وأدار الموتور وكان يبدو غاضبًا من شيء غامض فلقد راح يدمدم بكلمات غير مفهومة... التفت نبيل نحو سامية هامسًا في رجاء:

- مش حاسمع منك كلمة حلوة بقى؟!

أومأت سامية باسمة نحو السائق الذي كانت دمدمته تتصاعد حتى أصبحت حديثًا علنيًا مع نفسه.

- ما لك يا اسطى؟!

هكذا سأله نبيل فكان الرجل في انتظار السؤال فلقد انفجر يحكي عن أصحاب السيارات الملاكي الذين يشعرون وكأنهم - إذا ما امتلك الواحد منهم سيارة - امتلكوا بها الطرقات والناس... حكى أنه قبل دقائق كاد يصطدم بسيارة كسرت إشارة المرور ولولا ستر الله لوقعت كارثة.

تبادلت سامية النظرات مع نبيل باسمة فبادلها نبيل الابتسام وهو ينصت إلى الرجل:

- ما هو لا مؤاخذة يا بيه لما تبقى إشارتك حمرا تقوم تستنى مش تكسرها... كده ولا لأ؟

- معاك حق.

أسعد رد نبيل الرجل الذي هتف:

- تستنى... تستنى لحد اللي قدامك ما يعدي الأول، ولا انا غلطان يا مزمازيل؟!

قالت سامية، وقد وصلتها الرسالة واضحة جلية:

- طبعًا يا اسطى... الإنسان لازم يستنى لحد اللي قدامه ما يعدي الأول.

ولاذ الرجل بالصمت بعدها، لم يفه بحرف... وكأن ما قالته سامية قد أقنعه بأنه كان على حق.

* * *

في دهشة وعصبية وانفعال صاحت فيه:

- يعني انت كنت عارف إنه وصل قبلها بليلة؟!

- طبعًا.

- وليه ما قلتليش يا سيد عادل؟!

- وإيه لزوم إني أقول لك يعني؟!

- إنت عارف أنا ارتبكت إزاي لما شفته قدامي؟!

- ما هو انتي كان لازم ترتبكي.

في امتعاض تساءلت:

- لازم أرتبك في ظروف زي دي؟!

- بالتأكيد... لأن وصوله كان لازم يبقى مفاجأة حقيقية ليكي.

نظرت إليه كمن تسبر غور كلماته فأردف موضحًا:

- نبيل جه من غير ما يديكي خبر... تمام؟!

- أيوه بس...

- وراح المستشفى وهو عارف موقف والدتك منه.

- ده صحيح... إنما...

- إذن... كان لازم يكون وقع المفاجأة عليكي حقيقي مِيّه في المِيّه، سواء بالنسبة له، أو حتى بالنسبة لوالدتك.

راحت سامية تحملق فيه ذاهلة... انفثأ غضبها تمامًا فلقد كان حديثه منطقيًا ومقنعًا... بل ومتقنًا إلى أقصى الحدود... استقرت رسالته في وجدانها فاسترخت ملامحها المشدودة مما جعله يبتسم مستطردًا:

- ولو إني كنت اديتك خبر ونبهتك... كنتي حاتبقي مستعدة لاستقباله... وكان ده حايبان عليكي مهما تظاهرتي بعكس كده... وده مش مطلوب.

ابتسمت سامية رغمًا عنها... بدا لها هذا الرجل ماكرًا إلى حد يجعل الدماء تجمد في العروق... لكنها قاومت إعجابها هذا وهي تقول معاتبة:

- طبعًا انت عارف اللي جرى لي مع الأستاذ عبد الحميد بتاع الحسابات اللي اداني الظرف على ريق النوم.

- جرى لك إيه؟!

- دُخت... جاني دوار فعلًا يا سيد عادل.

- ليه كل ده؟!

قفزت صائحة في انفعال:

- إلا ليه... تصور إني في لحظة اكتشفت إن الراجل ده بيشتغل معاكم... تفتكر...

قاطعها رافعًا يده:

- استني... ده مش صحيح.

- هو إيه اللي مش صحيح؟!

- كل اللي حصل إني قابلت الدكتور زكي إمبارح مصادفة... وطلبت منه إذا كان حايعدي على المستشفى الصبح قبل ما يروح الجامعة يديكي الجواب ده، والدكتور زكي عارف إنك قريبتي وعارف إنك صحفية... يبقى أمر طبيعي إني أبعت لك ظرف فيه شوية معلومات أو أي حاجة

علشان شغلك... ويظهر إنه كان مستعجل فادّى الجواب للأستاذ عبد الحميد وطلب منه إنه يوصله لك.

كان عادل يبدو بريئًا كطفل وهو يحكي، وكانت سامية تنظر إليه ساهمة.

- إيه ما لك؟!

- طب والتاكسي؟!

- كان لازم أبلغك انك ما تديش نبيل الظرف قبل ما يطلبه هو منك.

كانت الآن تهز رأسها يمنة ويسرة، كانت مفعمة بالإعجاب، أحست أنها لأول مرة تواجه الذكاء الإنساني وجهًا لوجه، راحت تردد باسمة:

- مش معقول... مش ممكن.

- هو إيه اللي مش معقول ولا ممكن ده؟!

- إنت تَعْلب يا عادل بيه... تعلب حقيقي.

هز كتفيه في لامبالاة مَنْ لم يسعده الإطراء، وقال:

- أنا باحاول أحميكي.

- تحميني... تحميني من إيه؟!

- أحميكي وانتي في روما.

- روما.. هو انا حاسافر؟!

- أكيد حاتبقى دي الخطوة اللي جايه.

- مش فاهمة.

مال عادل مكي نحو سامية وهو يضغط على مخارج ألفاظه كمن يحرص على ألا تفوتها كلمة مما يقول:

- أكيد بعد ما توصلهم الرسالة دي، حايطلبوا منك إنك تسافري لهم روما.

- ليه؟!

- إنت مش عاوزة تشترى العربية ولّا إيه؟!

- والخمسميت دولار اللي اداهم لي نبيل، حاعمل فيهم إيه؟!

- حاتصرفيهم طبعًا.

صاحت كمن لُدِغَتْ:

- إيه؟!

- ده حقك.

- لأ مش حقي ولا حاجة.

- وأنا ما قدرش آخدهم منك، دي فلوسك.

- يبقى حاتبرع بيهم للمجهود الحربي.

كانت تلك لحظة من اللحظات النادرة التي ارتج فيها عادل مكي حتى الأعماق... بدت له سامية فهمي وكأنها نوع من البشر انقرض منذ قرون عديدة، نوع من البشر تَجَرّدَ حتى من حاجته الطبيعية إلى المال... كان سعيدًا بها، وكان فخورًا بتفكيرها... وكان - في الوقت نفسه - مشفقًا عليها مما كانت مقدمة عليه... غمغم ناظرًا إليها في إعجاب:

- بس بلاش تتبرعي بيهم دلوقت.

- اشمعنى؟!

- أولًا: الناس حاتسأل إنتِ جبتي الدولارات منين.

- وهي الناس لازم تعرف؟!

- ثانيًا: إنتِ لازم تصرفي لك قرشين قبل السفر.

بدت عليها الحيرة، انزلقت عيناها يمنة ويسرة في ضياع من فقد الطريق... لم يكن لديها في مواجهة هذا الرجل سوى السؤال، سؤال وراء سؤال... ولا بد أن يكون عنده جواب لكل سؤال مهما كان.

- ما لك يا سامية؟!

- أنا مش فاهمة حاجة.

- بكره حاتفهمي كل حاجة.

- أنا تعبت.

- معلش... اصبري... هانت.

- هانت؟!

قالتها وقلبها يسقط بين ضلوعها، فلقد غمرها إحساس رهيب بالخوف، فلقد تعودت ألا يقول عادل مكي، إلا ما يعنيه بالضبط... ترى... ما الذي يعنيه إذن بكلمته تلك؟!

الفصل الرَّابع والثلاثون
عندمَا تجفّ الدُّموع

كان عادل مكي - دون أدنى شك - يعني تلك الكلمة التي ارتجت لها سامية فهمي تمامًا، كان يعني كلمة «هانت» بكل ما تحمله من معنى... ذلك أن كل المؤشرات التي تجمعت لديه في ذلك الوقت كانت تشير إلى أن الإيقاع فيما هو قادم من أيام، لا بد له من أن يسرع، وأن تكون سرعته لاهثة... وإذا كان لكل مباراة في الدنيا قوانين وأصول، فإن مباراته مع من أطلق على نفسه اسم «أبو سليم» كانت قد وصلت إلى ذروة يتحتم بعدها أن يضع كل منهما إمكاناته جميعًا أملًا في الفوز.

بداية... كان لا بد له من الاعتراف بأن أبا سليم لعب المباراة - من ناحيته - بذكاء يحسد عليه... ذلك أنه لم يُؤَمِّنْ نبيل سالم فقط بخطبته إلى سامية فهمي، وإنما، في نفس الوقت، تصور أنه أمَّنَ العملية بالكامل... ولو فرض - وكان لا بد من وضع هذا الفرض - أن سامية لم تكن تعلم حقيقة الأمر ولم تخمنه، فإنها، بتورطها بإرسال تلك المعلومات السخية والمخيفة، سوف تتردد طويلًا - لو أنها اكتشفت حقيقة ما كانت تفعله - في التبليغ أو التراجع... فإذا ما أضفنا نبيل سالم إلى الصورة، فهل من الممكن أن تزج سامية به - بعد كل هذا الحب - في السجن، أو ترسل به إلى حبل المشنقة؟!

كان حصار سامية فهمي يبدو محكمًا تمامًا بحيث يصبح تراجعها، لو أنها فكرت في ذلك، نوعًا من المستحيل.

غير أن المفاجأة التي واجهت عادل مكي في الأمر كله، أن سامية فهمي تصرفت مع نبيل سالم أثناء زيارته للقاهرة، تصرفات تبعث على الإعجاب حقًا، وإن كان كل ما فعلته كان بإيحاء من عادل مكي، إلا أن تصرفها في التفاصيل بدا له مذهلًا بكل المعاني، ودقيقًا إلى حد يبعث على التساؤل... وعندما دار حوار بينهما ذات مرة حول هذا الأمر، اعترفت سامية بأنها لم تقصد إلى هذا الإتقان أو تلك التصرفات، فلقد وجدت نفسها في مأزق - هكذا وصفت الموقف - وكان عليها أن تخرج منه بأكبر قدر ممكن من السلامة... ولو أن الأمر كان يخصها وحدها ويخص علاقتها بنبيل لكان لها موقف آخر ولتصرفت تصرفات أخرى... غير أن «البلد» كانت دائمًا نصب عينيها، فإذا هي تتصرف بشكل بدا لنبيل طبيعيًا للغاية، بل بدا لها هي الأخرى طبيعيًا تمامًا.

ولقد أدرك عادل مكي بعد سفر نبيل سالم، ومع الفوج الأول من الأنباء التي جاءته من روما... أن أبا سليم قد ابتلع الطعم تمامًا، وأنه أصبح على يقين من أن المخابرات المصرية غافلة عن نشاطه بكل المعاني، وأنه فيما هو قادم من أيام، يستطيع استغلال نبيل سالم في عمليات أكبر وأكثر خطورة - وهذا ما كان عادل مكي يتوقعه، بل كان هذا ما يريده - ولذلك فلقد كان واضحًا منذ ليلة وصول نبيل إلى روما، ثم سفره إلى نابولي... أن ثمة انكماشًا في حركته كان ينبئ بخطورة حقيقة، فلقد التزم نبيل بعمله في جراج سنيور إسكالكو التزامًا مطلقًا، ولم يعد عمله في «اصطياد» المصريين أو العرب، في مثل حجمه السابق... مما كان يؤكد تأكيدًا قاطعًا، أن ثمة دورًا جديدًا سوف يلعبه نبيل في الأيام القادمة... ولما كانت مراقبة نبيل في إيطاليا تعترضها بالطبع صعوبات محتملة، فلقد كان لا بد لعادل مكي من أن يسرع في الإيقاع حتى لا يتسبب في كوارث جديدة، وحتى

يتسنى له القضاء على تلك الشبكة التي كانت خطورتها تتزايد يومًا بعد يوم، في أقرب وقت.

* * *

عاد نبيل إلى روما يحمل تلك الرسالة الخطيرة دون أن تنتابه لحظة واحدة من لحظات الشك... كان سائق السيارة الأجرة رقم ٢٥٣٤، قد اكتسب ثقته منذ أن أقله مع سامية من أمام المستشفى، مما دفع نبيل لأن يعقد معه اتفاقًا، بدا للرجل مرضيًا للغاية، وهو أن يلازم نبيل في غدوه ورواحه طوال اليوم نظير مبلغ بدا للرجل سخيًّا بما فيه الكفاية، ولقد كان هذا خطأ ارتكبه نبيل بالطبع، لكنه خطأ دفعه إلى ذلك الإحساس الغامر بالأمان الذي كان يستشعره منذ أن وطئت قدماه أرض مصر... وعندما علمت سامية بذلك ازدادت - مع الدهشة - إعجابًا، فلقد أدركت أن نبيل لم يعد فقط تحت سيطرة عادل مكي، بل أصبح يحصي عليه كل حركاته وسكناته.

عاد نبيل إلى روما مفعمًا بالثقة بعد كل ما لاقاه من نجاح في القاهرة... وفي لقائه الأول مع أبي سليم الذي تم بعد وصوله مباشرة، ومع خيوط الفجر الأولى، كان يجلس إلى الرجل وهو يقص عليه، بالتفصيل، وبكثير من الفخر، كل ما حدث في المستشفى... غير أنه، ما إن شارف على نهاية ما حدث، حتى بدا عليه التأثر، مما دفع أبا سليم لأن يسأله:

- واضح إنك لسة بتحب سامية يا نبيل؟!

- يمكن يا ابو سليم... ويمكن حاجة تانية.

- حاجة زي إيه؟!

- زي إن اللحظة دي بالذات، كنت باتمناها من زمان.

قال هذا وهو ينهض واقفًا... راح يخطو في الغرفة وقد استغرق في التفكير... ولقد لاذ أبو سليم بالصمت، وراح يرقبه وهو يتحرك هنا وهناك حتى جاءه صوت نبيل مفعمًا بالتأثر:

- إنت لا يمكن تتصور فرحة أبويا وأمي كان شكلها إيه، أبويا اتغير قوي، ما بقاش قادر يخبي فرحته بيّه... حتى... أم سامية كانت فرحانة لدرجة إني لما جيت أسلم عليها قبل السفر باستني من هنا ومن هنا.

- أفهم من كده إنك انتصرت؟!

التفت إليه نبيل بعنف وأطلق كلمة كالرصاص:

- بالتأكيد.

- آهو ده اللي أنا كنت عاوز أسمعه منك.

ابتلع نبيل جملة أبي سليم دون غضاضة، كان الرجل يشير من طرف خفي إلى أنه كان السبب من وراء هذا الانتصار، ولولاه لما استطاع نبيل أن يحقق أمنيته التي عجز عن تحقيقها قبل أن يلقاه... ران الصمت قليلًا قبل أن يسأله:

- وازاي أخذت منها الأخبار؟!

- أنا عملت زي ما أنت قلت لي بالضبط، فضلت مستني لحد ما بقاش فيه وقت، كنا اتغدينا سوا وكان لازم نرجع المستشفى... واضطريت إني أطلبهم منها.

- إيه اللي حصل بالضبط؟!

راح نبيل يحكي كيف كانت سامية سعيدة كل السعادة طوال ذلك اليوم، كيف بدلت ملابسها وصففت شعرها وبدت وكأنها عروس بالفعل... بعد أن تناولا الغداء وجلسا في انتظار فنجاني القهوة، أخرج لها الظرف الذي يحوي الدولارات الخمسمائة وقدمه لها.

- إيه دا يا نبيل؟!

- دي رسالة باعتها لك أدريان.

بدا على سامية الارتباك وهي تسأل:

- إنت بتشوفه؟!

- لا والله يا سامية، دانا قابلته قبل ما آجي صدفة، ولما عرف إني جاي مصر، اداني القرشين دول وقال لي...

- قرشين؟!

هكذا قاطعته سامية متسائلة فأجاب:

- طبعًا... إنت مش عملتي له شغل.

ترددت سامية قليلًا وهي تتناول الظرف كي تدسه في حقيبة يدها متمتمة:

- أيوه... طبعًا... بس...

- بس إيه يا سامية؟!

- أنا قبضت منه مرتب تلات شهور مقدم.

- ويمكن بيعتبر الفلوس دي مصاريف.

- مصاريف إيه؟!

ضحك نبيل ساخرًا وهو يقول:

- حاتكون إيه يعني، مصاريف انتقال طبعًا... إنتِ مش بتركبي مواصلات وانتي بتجيبي الشغل ده؟!

- الشغل اللي أنا عملته واللي هو عاوزه ما تنفعش فيه المواصلات يا نبيل؟!

- يعني كنتي بتركبي تاكسيات؟

- لأن مفيش عندي وقت ولا جهد... أنا كنت بافكر إني أعتذر له.

- ليه يا سامية؟!

- لأن الفلوس اللي هو دفعها نصها بيروح على الفاضي.

- آهو الراجل عمل اللي عليه وبعت لك قرشين علشان ما تزعليش.

- على العموم لو شفته إبقى اشكره.

- ما هو انا لازم حاشوفه.

- إنت مش بتقول إنك...

- قابلته صدفة أيوه... إنما لما ارجع حالقاه منتظرني علشان الأخبار اللي انتي جمعتيها.

- إيه؟!

هكذا هتفت سامية في دهشة وخوف، مال نبيل نحوها هامسًا مبتسمًا:

- المفروض إننا مخطوبين وبنحب بعض.

سألته في أسى:

- المفروض يا نبيل؟!

- أمال ما لك مكشرة كده ليه... ابتسمي من فضلك، الناس تقول علينا إيه.

بعد لحظة تردد قالت سامية:

- أصل أدريان اتفق معايا على...

- على السرية، طبعًا أنا عارف ومدرك لده تمام... إنما هو لما عرف إن ماما تعبانه في المستشفى، أدرك إنك مش حاتقدري تسافري دلوقت ورجاني وقال لي إن سامية مش ممكن تثق في حد غيرك.

- ثم إن الشغل مش معايا كمان.

- مش معاكي؟!

- جرى إيه يا نبيل، تفتكر إن المفروض إني أشيل شغل مهم زي ده في شنطتي... انت اتجننت؟!

- أمال هو فين؟!

- في البيت طبعًا.

- خلاص، نعدي على البيت قبل ما نرجع المستشفى وتجيبي الشغل.

* * *

بدا على أبي سليم الابتهاج فلم يحاول أن يخفيه، مال نحو نبيل عندما وصل إلى هذا الحد متسائلًا:

- ادتك الظرف إزاي؟!

صمت نبيل قليلًا، وكان ساهمًا وكأنه انتبه إلى شيء غفل عنه:

- ما اديتهوليش في التاكسي، إديتهولي واحنا راكبين أسانسير المستشفى لوحدنا.

- كانت كاتبة اسم أدريان على الظرف؟!

- لأ طبعًا... إنما كانت حاطة عليه ورق اللزق ده.

- ولما طلبت منها تكتب اسم أدريان عملت إيه؟!

- بصراحة اترددت، كنا خرجنا من الأسانسير، قلت لها إن ده في أوربا عيب، وكان الوقت ضيقًا جدًا.

- وكتبته؟!

- كانت رافضة، قالت لي مالكش دعوة إديه لأدريان وبس.

اتسعت ابتسامة أبو سليم، واستحث نبيل أن يكمل، فقال هذا:

- لما لقيتني مصمم على موقفي، كتبت الاسم بسرعة.

اضطجع أبو سليم في مقعده كمن تناول وجبة دسمة، وراح ينظر إلى نبيل الذي كان ساهمًا تمامًا.

- ما لك يا نبيل؟!

- هي سامية تعرف عننا حاجة يا ابو سليم؟!

نهض أبو سليم متجاهلًا سؤال نبيل طارحًا عليه سؤالًا آخر:

- حد اتعرض لك في المطار؟!

- إطلاقًا.

- ما لاحظتش حاجة غريبة حواليك؟!

- بالمرة.

بدت أسئلة أبي سليم وكأنها تقريع للشاب الذي كان يبدو مشتت الفكر، تلاقت نظراتهما ذات لحظة فإذا نبيل يهتف وقد أدرك ما يرمي إليه الرجل بأسئلته:

- ما أنا قلت لك إنك تعلب، عاوز إيه تاني؟!

- ولا حاجة... أنا عاوزك تفضل فاكر ولا تنساش.

قال أبو سليم هذا ثم غادر نبيل حاملًا الظرف الذي أرسلته سامية فهمي، كانت عاصفة من التفكير قد هبت على رأس ذلك الشاب التعس... ذلك أنه كان يكتشف لحظة بعد أخرى، أن كل ما فعلته سامية فهمي، وكل تصرفاتها، تشير إلى أنها تعلم حقيقة الأمر... فهل هذا صحيح؟!

سؤال - هكذا قال نبيل فيما بعد - ظل يعذبه طويلًا والمرارة تحرق حلقه... فبالرغم من الهاوية التي كان قد سقط فيها، فإنه أبدًا لم يتصور أن سامية، سامية فهمي بالذات، من الممكن أن تخون.

* * *

كانت المعلومات التي أرسلتها سامية فهمي تبدو كأنها أخبار صحفية مائة في المائة... ذلك أن عادل مكي كان يعلم يقينًا، أن وفرة تلك المعلومات وخطورتها، كانت كافية لو وضعها تحت مجهر تحليل دقيق، لا للتأكد من صحتها فقط، ولكن للتأكد أيضًا من أن أحدًا - غير سامية فهمي - لم يتدخل في وضعها أو صياغتها، ولذلك، فلقد كان من الأهمية بمكان، أن تكتب سامية كل خبر أو معلومة بذلك الأسلوب الصحفي الذي تعودت هي أن تكتب به.

وفي حقيقة الأمر... فإن سامية فهمي - بطبيعتها - كانت تمثل لعادل مكي قدرًا لا بأس به من المعاناة... ذلك أنها كانت تسأل وتستفسر وتتقصى في محاولة لمعرفة ما الذي كانت تفعله أو يدور حولها... وإذا كان ذلك يبدو في جانب من جوانبه رائعًا، حتى إذا ما التقت بمن أطلق على نفسه اسم أدريان تومسون، تكون جاهزة وملمة بأسرار كل ما أرسلته من معلومات... على أنه في الناحية الأخرى، كانت هناك خطورة أن تعرف سامية ما لا ينبغي لها أن تعرفه، وهي كصحفية، من الممكن أن تضيع في خضم متاهات لا نهاية لها... ولقد كان من الممكن، بل من السهل، السيطرة على سامية سيطرة تجعلها مطيعة، فالسيطرة علم من علوم المخابرات له أصوله وتقاليده ولا عيب فيه إذا ما مورس مع صديق أو عميل، لكن المشكلة بالنسبة لسامية، أنها لم تكن في حاجة إلى السيطرة، بل كانت - رغم آلامها المروعة - مندفعة تريد أن تفدي الوطن حتى بعمرها... وكان لا بد لإيجاد التوازن فيما بين ذلك الاندفاع وما ينبغي أن تكون عليه تصرفاتها سواء في مصر أو في روما، أن يخلق معها نوعًا من الحوار يؤدي إلى الغرض المطلوب دون أن يشعرها، بما كان يكابده معها من عناء.

ولقد حاولت سامية في ذلك اليوم عندما أحست بقرب النهاية، أن تعرف: لماذا سيرسلون في طلبها؟! وما سوف يفعلونه بها؟! وماذا إذا

كانوا لم يكتشفوا أمرها، أو أن شيئًا وقع فاكتشفوا أمرها؟! و... وعشرات الأسئلة التي راحت تمطره بها في توتر نشأ عن ذلك الخوف المروع الذي سيطر عليها، فما كان من عادل مكي إلا أن يقول لها فجأة وكأنه تذكر شيئًا كان قد نسيه:

- على فكرة... إنتِ مش ناوية تشتري شوية فساتين كويسة قبل ما تسافري؟!

هتفت في دهشة:

- شوية فساتين؟!

- صحيح الهدوم اللي أخدتيها معاكي المرة اللي فاتت كانت كويسة خصوصًا الفستان اللي كنتي لابساه يوم ما قابلتي أدريان تومسون آخر مرة... لكن ده ما يمنعش إنك..

قاطعته في قلق:

- الفستان اللي كنت لابساه يوم ما قابلت...

قالت هذا ولزمت الصمت وهي تحملق فيه ذاهلة.

- جرى إيه يا سامية؟!

- هو انت كنت هناك؟!

- مش لازم انا، كنا بنحميكي... كنا خايفين عليكي.

- من إيه يا سيد عادل؟!

- بصراحة من يوم ما نشلوا فلوسك حسينا إنهم ممكن يلعبوا معاكي ألاعيب بايخة شوية.

انتفضت في جلستها كالمذبوحة:

- هم مين اللي نشلوا فلوسي؟!

تجاهل عادل سؤالها مستطردًا في طريق مستقيم نحو هدفه:

- إحنا كنا عارفين إن العربية اللي كانت حاتصدمك في روما كانت وراكي من أول النهار، ولو كانت ذاكرتك كويسة، حاتفتكري إن اللي صرخ علشان ينبهك للعربية، صرخ بالعربي، وإن اللي شدك من طريقها، كان شاب أسمر، وإنه لما لاقاكي في حالة صعبة حبتين، قال لك: الحمد لله جت سليمة.

كان هذا فوق قدرتها على الاحتمال... كان ما يقوله عادل يبدو لها وكأنه الجنون ذاته، ارتدت ذاكرتها في لمح البصر إلى الوراء كي تتذكر بوضوح وجلاء تلك اللحظات الغريبة التي مرت بها، تذكرت تلك الصيحة التي جاءتها بالعربية: حاسبي يا مزمازيل، نعم... نعم حدث هذا لكنه، وسط الرعب الذي شلها، بدا طبيعيًّا إلى الحد الذي لم تفكر معه في الأمر ولم تتذكره أو تذكره حتى لنفسها... عادت الأصوات إلى ذاكرتها... ولقد كانت مضطربة اضطرابًا بالغًا وهي تسأل عادل:

- وهم كانوا عاوزين يموتوني ليه؟!

- ما اعتقدش إن ده كان هدفهم.

- أمال إيه الهدف؟!

- إنك ترتبكي علشان النشال يلهف محفظتك وهو مطّمن.

- ما النشال كان ممكن يلهف المحفظة من غير ما أشعر ومن غير حادثة ولا عربية.

- ده صحيح... بس الفرق أكيد حايكون كبير في تصرفاتك بعد كده.

فجأة... وعلى غير انتظار، نهضت واقفة وهي تعلق حقيبتها بكتفها وكانت يداها ترتجفان ارتجافًا واضحًا... وكانت تقول:

- عادل بيه... أرجوك اعفيني من المسألة دي كلها، أنا مش حِمْل كل اللي بيحصل ده.

الغريب في الأمر أن عادل نهض لنهوضها دون أن يرد، بدا عليه الاستعداد لمصافحتها وقبول اعتذارها دون مناقشة، لكنها هتفت مختنقة الصوت وكأنها تقدم له مبررًا لما قالته:

- يعني انتو كنتوا تعرفوا كل حاجة من قبل انا ما اسافر؟!

- إحنا اتكلمنا في الموضوع ده قبل كده.

- وكنتوا شايفين كل حاجة وعارفين كل حاجة وكنتوا ورايا في كل حتة؟!

- كنا وراهم مش وراكِ.

- وهي تفرق؟!

- كتير.

- في إيه يا سيد عادل؟

- في إنك لو قررت السفر لروما يوم ما يبعتوا لك، لازم تبقي مطمئنة وواثقة إننا حانكون جنبك.

هكذا، في براعة أذهلتها وصل عادل مكي إلى غرضه من إثارة الحوار، لاذ بالصمت بعدها، وكانت عيناها قد اتسعتا في دهشة وكأن الضوء قد غمر منطقة مظلمة في رأسها فراحت تدور حول نفسها هاتفة:

- تعلب... تعلب... إنت تعلب يا سيد عادل.

- لاحظي إن كلمة مخابرات مش ترجمة دقيقة لشغلنا.

- يعني إيه؟!

- يعني شغلتنا اسمها ذكاء يا آنسة سامية.

عادت إلى مقعدها متمتمة وهي تهز رأسها في عنف:

- يعني إيه برضه؟! فهمني... أنا مش فاهمة حاجة.

* * *

ظلت سامية فهمي لسنوات طويلة بعد ذلك تذكر هذا الحوار بإعجاب شديد، وهي عندما أفاقت مما كانت فيه، وعندما توقف ذلك الصراع المدمر الذي كان يصطرع في صدرها ليل نهار، وبدأت الحياة تعود إلى طبيعتها، كانت دائمًا ما تذكر كيف أدار عادل مكي هذا الحوار ببراعة جعلتها ممتنة بحق... ذلك أنها كانت قد توصلت بينها وبين نفسها إلى حقيقة بدت لها غير قابلة للنقاش فلم ترد أن تضع رأسها في الرمال كالنعامة، كانت قد تيقنت من أن نبيل سالم متورط وضالع ومشارك في كل ما مر بها، وهي عندما أطل برأسه عبر باب الغرفة في المستشفى، اضطربت ذلك الاضطراب الذي كاد يدفعها إلى معاملته كما ينبغي، لولا بقية من أمل - لم يبدده، ولم يحاول عادل مكي أن يبدده - في أن يكون نبيل بريئًا مما كان يحاك ضد وطنها... حتى إذا كان هذا الحوار بينهما، أدركت أن مثل هذا الرجل، لا يترك شيئًا للمصادفة، ولا يفعل شيئًا ليس وراءه ما وراءه، مما جعل ثقتها فيه تزداد... أدركت أنه إنما أدار معها هذا الحوار وأفضى إليها بما أفضى به، لا لشيء، إلا لكي يطمئنها إلى أنها لو سافرت، فلن تكون عارية من حماية الوطن ورجاله، فأسلمت له، منذ تلك الجلسة، قيادها بالكامل... ولم تعد تناقش، بل لم تكن راغبة حتى في المناقشة.

* * *

ذات يوم عندما نقلت لعادل مكي حديث سامية فهمي هذا، ابتسم تلك الابتسامة التي تبدو دائمًا حزينة، يغلفها نوع من المرارة لا تزال... ثم قال: إنه لم يكن ليقدم على خطوة كهذه، إلا إذا كان موقنًا أن سامية أدركت، بما لا يقبل الشك، أن حبيبها خائن، وأنه باع نفسه للشيطان بالفعل... ولذلك فلقد قرر أن يضرب عصفورين بحجر واحد... هو أن ينبه سامية إلى أنها ستكون في حماية الوطن، وفي نفس الوقت يقرب المسافة فيما بينها وبينه فيما يختص بنبيل سالم، فلم يكن - حتى من باب اللياقة - يستطيع أن يصارحها مصارحة فجة بخيانة حبيبها.

ولقد جرى الحديث بينهما بعد ذلك سلسًا وفي اتفاق مطلق... ولكنه، بالرغم من ذلك، كان لا يزال في حاجة إلى دليل، ليس فقط لإقناع سامية ولكن أيضًا لإدانة نبيل لأن عادل مكي لم يكن يملك، حتى تلك اللحظة دليلًا واحدًا ولو صغيرًا، على إدانته.

❊ ❊ ❊

أصبح عليه الآن أن يتحدث إليها عن المبادئ العامة التي تحكم علم المخابرات أو لعبة الذكاء هذه... فراح يحكي في طلاوة من يدردش في أمور الحياة العادية أن المخابرات في الأصل هي صراع رءوس تفكر، فليس فيها ذلك العنف الذي يتميز به العمل البوليسي... وهكذا استغرقها حديثه تمامًا حتى إذا ما أراد أن يعطيها مثلًا، قال: إنهم بالقطع عندما جعلوا تلك السيارة التي تتبعتها في روما من شارع إلى شارع، ولم يكن في نيتهم - على الإطلاق - أن يصيبوها بأي نوع من أنواع الأذى... فقط، كانوا يريدونها أن ترتبك وتتشتت أفكارها وتضطرب، حتى إذا ما نشلت، فعل النشل مع الارتباك والخوف فعلهما في نفسها، خاصة أن ضربة ثالثة جاءتها بعد قليل، عندما اكتشفت أن نبيل قد سافر! بعدها، لم يكن هناك مكان في رأسها لأن تفكر إلا في الخروج من المأزق الذي وجدت نفسها فيه... وهم، لم يكونوا يريدون أكثر من ذلك، أن تخطو الخطوة الأولى، وأن تقبل النقود... ولقد فعلت.

ساد الصمت تمامًا، وطال، وسامية ساهمة كمن تشاهد، بالخيال، فيلمًا مثيرًا يحبس الأنفاس.

- وهو نبيل كان سافر فعلًا؟!

- طبعًا.

- طبعًا ليه؟! ما هو كان ممكن يستخبى في أي بيت أو أي حي بعيد.

- لأن كل حاجة لازم تبدو طبيعية تمامًا، وزي ما قلت لك، مفيش حاجة تنساب للظروف.

- مش فاهمة؟

- نبيل لما سافر، وراح نابولي... وانتي في ظروف زي اللي انتي فيها دي، ومعاكي بالتأكيد عنوانه في نابولي اللي كنتي بتبعتي جواباتك عليه... كان ممكن يطلع في دماغك، كمخرج من الورطة، إنك تسافري له نابولي رغم إن السكرتيرة قالت لك إنها ما تعرفش هو فين؟!

- تعرف إني فكرت في كده فعلًا؟!

- بالتأكيد، ولو كنتي سافرتي، كنتي حاتلاقيه هناك.

ساد الصمت لثوان استطرد بعدها عادل:

- في العالم ده يا سامية، زي ما قلت لك كتير قبل كده، مفيش حاجة بتنساب للمصادفة، كل حاجة لازم تبقى مخططة بدقة شديدة.

كانا الآن يتحدثان عن نبيل من منطلق واحد ومن منظور واحد، ولا تدري سامية أن كانت قد انتبهت إلى ذلك أم لا... كل ما تعرفه أنها أحست بنوع غريب من السكينة راح يتسلل إلى نفسها، فتنفست الصعداء وهي تغمغم:

- أنا تعبتك معايا النهارده... سامحني.

- أنا مش تعبان، بالعكس، اللي حصل النهارده ريحني جدًّا وطمني أكتر عليكي.

ابتسمت وقد أدركت أنه كان يمارس لعبة الذكاء حتى معها، أو كما قالت لي ذات مرة: إنه يتنفس ذكاء... فعادت تسأله وهي تستعد للانصراف:

- تفتكر حايبعتوا لي إمتى؟!

- لسة شوية.

- طب أنا أعمل إيه في الأيام اللي جايه؟!

- نفس اللي اتفقنا عليه، أهم حاجة إنك تشتغلي بحماس بالفعل.

- إزاي بس يا سيد عادل؟!

- لاحظي إنك بتشتغلي لحساب مصر.

- وهو الشغل ده...

توقفت عن الحديث وقد بدت لها جملته باهرة بكل المعاني، ساد الصمت لثوان قال بعدها:

- ما هو ده اللي أنا عاوزك تفهميه علشان حماسك يبقى طبيعي ومش مفتعل، إنت فعلًا بتشتغلي لحساب مصر، وهم لازم يصدقوا كل كلمة بنبعتها لهمَ، ولازم يثقوا في كل تصرف من تصرفاتك علشان نقصر المدة، لأنها طالت يا سامية أكتر من اللازم... وما بقاش فيه وقت.

* * *

وهكذا مضت الأيام، مضى شهران كاملان قضتهما سامية في عمل متصل وقد استردت أمها صحتها وعادت إلى عملها... كان المرض المفاجئ مع تلازم سامية وأمها لأيام طويلة، قد فَعَل فعْل السحر في علاقتهما، وإذا كانت الأم قد استسلمت في البداية لرغبة ابنتها في الاقتران بنبيل سالم، فإن جملة أفلتت من سامية ذات ليلة، جعلتها تفكر في الأمر من زاوية جديدة - هكذا قالت الأم لابنتها فيما بعد - ولقد حدث هذا عندما كانتا تتناولان العشاء معًا والحديث بينهما دافئ ومتصل، عندما سألتها السيدة إقبال إن كانت قد حددت موعدًا لعقد القران... كان السؤال عفويًا لم تقصد الأم من ورائه شيئًا، غير أن رد فعل سامية كان غريبًا بالنسبة إليها غرابة لا تصدق، فلقد هتفت في حدة:

- كتب كتاب إيه ده يا ماما اللي بتتكلمي عليه؟!

أدركت الأم في تلك اللحظة أن ابنتها تخفي عنها سرًا يخص نبيل بالذات فلزمت الصمت، وأدركت سامية أنها تسرعت في ردها فهربت بعينيها من نظرات أمها وهي تغمغم وكأنها تحدث نفسها:

- أتجوز واحد عايش في إيطاليا وأنا عايشة هنا؟!

- أمال ناوية على إيه؟!

- لما يكوّن نفسه حايبقى يرجع مصر ويفتح مشروع، وقتها يبقى يحلها ربنا.

- وده ممكن يحصل إمتى يا بنتي؟!

- ما تشغليش بالك بالحاجات دي يا حضرة الناظرة.

قالت هذا ونهضت جامعة الأطباق.

* * *

طوال هذين الشهرين اللذين انقضيا في قلق وترقب، كان اتصال سامية بعادل مكي محدودًا، ولم يلتقيا سوى مرة واحدة... كان ذلك عندما انقضى شهر على سفر نبيل، وكانت أمها قد غادرت الفراش وخرجت للنزهة، كما كانت تستعد للعودة إلى عملها بعد أن شفيت تمامًا من أثر العملية الجراحية... وعندما ذهبت سامية للقائه، بدا لها الأمر في الدقائق الأولى وكأنه لقاء لمجرد الدردشة في أمور الدنيا، لكنه سألها فجأة:

- عملتي إيه في الشغل؟!

ابتسمت في مرارة:

- أنهي شغل فيهم؟!

بادلها الابتسام معتدلًا في جلسته:

- الشغل بتاع أدريان.

فتحت حقيبة يدها وأخرجت مجموعة من الأوراق وهي تقول:

- جمعت شوية معلومات مش بطالة.

رفع حاجبيه دهشة فأردفت باسمة:

- أو بمعنى أصح، جمعت شوية بلاوي متلتلة.

كان إحساسها بالأمان يتزايد يومًا بعد يوم... وعندما نظر عادل إلى الأوراق لم تشأ أن تقاطعه، كان يجري بعينيه فوق الكلمات بسرعة بدت لها فريدة، حتى إذا ما انتهى من القراءة رفع إليها رأسه قائلًا:

- مش واجب تبعتي لأدريان تقولي له إن عندك أخبار مهمة؟!

- أنا اللي أبعت له؟!

- ما هو لازم يحس إنك ملهوفة على الشغل خصوصًا بعد ما بعت لك الخمسميت دولار.

- زي ما تشوف سيادتك.

أطلت من عينيه نظرة عتاب وكأنه لم يتعود منها الطاعة، قال:

- إذا كنت متخيلة إني مش حاسس بيكي ولا بالألم اللي انتي بتعاني منه تبقي غلطانة.

لم تشأ الاستمرار في الحوار، كان الحزن قد تسرب إلى دمائها ولم تعد لها فيه حيلة... قالت في نبرة رجاء لم تَخْف على أذن عادل:

- ممكن نقوم نكتب الجواب؟!

- إنتِ وراكي حاجة النهارده؟!

- أكلم ماما بس علشان أقول لها إني حاتأخر.

واستمرا يعملان في ذلك اليوم طوال أربع ساعات بلا توقف، كتبت على ظرف الخطاب اسم نبيل ووضعت عنوان روما عليه، ثم انتقلا إلى الأوراق وراحا يصوغان الأخبار والمعلومات وعادل يبدل هنا وهناك... حتى إذا ما انتهيا، زفر قائلًا في مزاح:

- كده تضمني إنك ترجعي بعربية آخر موديل.

- تفتكر الأخبار اللي أنا بعتها مع نبيل كان لها قيمة عندهم؟!

- بالتأكيد، ومش عادية كمان.

- أمال إيه اللي يخليهم يتأخروا في الرد بالشكل ده؟!

- فيه عوامل كتير، منها مثلًا إن تحليل الرسالة بياخد وقت، على ما يروح تل أبيب ويروح للمختصين ويدخل كل خبر في مفرمة تحليله ومقارنته بأخبار تانيه أو بنفس الخبر من مصدر تاني وقياس مدى الصحة، ثم هناك الأسلوب اللي انكتبت بيه الأخبار، هل هو أسلوبك اللي بتكتبي بيه في الفجر ولا فيه حد تدخل معاكي... كل الحاجات دي بتاخد وقت شوية.

همّت بالحديث لكنه استطرد:

- ولاحظي كمان إنهم مش عاوزين يبينوا لك إنهم ملهوفين عليكي قوي.

- تفتكر أنا حاقدر أقنعهم باللي انت عاوزه؟!

- لو إنك سمعتي كلامي.

- إزاي؟!

- إشتريتي الفساتين اللي قلت لك عليها؟!

- فساتين إيه يا سيد عادل... هو انا معايا فلوس للفساتين ولا للعربية؟!

- إنت لما تشتري لك كام فستان وكام شنطة وكام جزمة، تبعزقي لك كام دولاَر من اللي هم بعتوهم... تفتكري حايقولوا عليكي إيه؟!

- حايحتقروني طبعًا.

- ليه؟!

- حايقولوا عليَّ بنت هايفة وغاوية لبس وعربيات ومنظرة.

- وهو المطلوب.

صاحت في غضب:

- إنت بتقول إيه يا سيد عادل؟!

- طب نفهم الأول.

فورًا، اجتاحها إحساس رهيب بالذنب، كانت موقنة الآن أن هذا الشاب الصبور يعرف أين يضع كلماته وكيف يطرح أفكاره، ولكن... ها هي تضغط عليه بضعفها وقلة علمها فهمست:

- أنا آسفة.

- أصل انتي مش ممكن تبقي عبيطة قوي لدرجة إنك تبعتي معلومات بالشكل ده إلا إذا كنتي عارفة قيمتها أولًا... وإذا كنتي عارفة قيمتها، يبقى لا بد إنك عارفة إنتِ بتتعاملي مع مين، أو على الأقل بتشكي.

- معقول اللي انت بتقوله ده؟!

- أمال انتي جيتي لي إزاي؟!

- يعني هم بيفكروا بالشكل ده؟!

- دي مش عاوزة مناقشة... وعلشان يبقى كل شيء منطقي، لازم يكون فيه سبب لاستمرارك في إمدادهم بالمعلومات حتى ولو كانت في صورة أخبار صحفية.

- وإيه هو السبب ده؟!

- الفلوس.

ساد الصمت قليلًا لكن عادل عاد إلى الحديث:

– علشان كده لازم تشتري فساتين جديدة، وآخر موضة كمان... ولازم تروحي لهم وفي دماغك إنك حاتشتري عربية أحسن من بتاعت نبيل اللي كانت عاجباكي قوي دي... ولازم هم يحسوا بكده.

– بس نبيل عارفني... عارفني كويس.

كان هذا اعترافًا صريحًا منها بإدانة نبيل، غير أن عادل تساءل في خبث:

– ونبيل ما له وما لهم؟!

طأطات برأسها خجلًا وكأنها تعترف دون كلمات بأنها اكتشفت الحقيقة فأردف:

– وحتى لو كانوا عارفين مين انتي... الإنسان ممكن يتغير علشان حاجات هو عايزها وما كانش طايلها... ولما لقى إنه ممكن يحصل عليها، يعمل أي حاجة علشان يمتلكها.

– يعني إيه المفروض إني أعمله بالضبط؟!

– أبدًا... تشتري الفساتين وتحضري نفسك لحد ما يردوا عليكي.

– وإذا ما ردوش؟!

– ما تقلقيش يا سامية، حايردوا... مِيّه في المِيّه حايردوا.

وبالفعل، جاءها الرد بعد شهر وبضعة أيام.

الفصل الخامس والثلاثون

رسَالة.. سريّة.. ولكن مفتوحة

غادرت سامية فهمي عادل مكي في ذلك اليوم وأفكارها تتفجر في رأسها كقنابل موقوتة، كان عليها الآن - بجوار عملها وجمع الأخبار الجديدة لأدريان تومسون والتظاهر بالانهماك في عملها الجديد - أن تشتري عددًا لا بأس به من الملابس التي لم تحلم، ولم تفكر، في أن ترتديها في يوم من الأيام... لم يكن يعنيها الآن ما الذي يمكن أن يقوله الإسرائيليون عنها، ولا حتى ماذا يمكن أن يقول نبيل سالم، فلقد فهمت مقصد عادل مكي، فهمته تمامًا... كان ما تخشاه حقًّا هو نظرة المجتمع المصري لها، نظرة زملائها وزميلاتها وأصدقائها وصديقاتها إذا ما اشترت ملابس من تلك التي كانت هي أول الساخرات ممن يرتدينها أو يشترينها من شارع الشواربي الذي كان في تلك الأيام التي أعقبت النكسة، في أوائل أيام نشاطه الذي راح يتزايد مع الأيام، وهو يعرض آخر مبتكرات الموضة الباريسية والأمريكية على وجه الخصوص... كانت الأفكار تتفجر في رأسها وهي تجلس في المقعد الخلفي للسيارة الأجرة التي كانت تقلها من الجهاز وإليه... وكان رقمها قد تغير منذ سفر نبيل سالم إلى رقم آخر... ولذلك، ولأنها أرادت أن تقوم بما يجب عليها أن تقوم به فلقد قررت أن

تشتري من الملابس ما يروق لها على ألا ترتدي منها في مصر إلا النذر اليسير، أو كما قالت لي باسمة في مرارة:

- كنت عاوزة أعرف رد فعل الناس على شكلي الجديد حايبقى إيه؟!

ولقد وصلني المعنى الذي أرادته سامية من جملتها تلك، غير أني طلبت منها، ربما للتأكد لا أكثر ولا أقل، أن توضح لي ما كانت ترمي إليه، فقالت:

- أنا فهمت من عادل مكي إنه عاوزني أظهر قدام الإسرائيليين وكأني كل اللي يهمني إني أخرج على وش الدنيا وأعيش حياة كانت فيه بنات كتيرة في مصر عايشينها فعلًا... يعنى بصراحة كده، أبقى زي نبيل بالضبط... وأنا في النهاية برضه بنت وأحب أبقى حلوة.

قالت جملتها الأخيرة في خفر بعث بالخجل إلى نفسي فهتفت:

- ما انتي حلوة في أي هدوم يا سامية.

تنهدت سامية فخلت أنها تزفر قلبها نفسه وهي تقول:

- في الليلة دي أنا تعبت قوي، ما كنتش عارفة أتصرف... حضرة الناظرة زي عوايدها أخدت بالها... سألتني إيه اللي شاغلني، قلت لها إني محتارة ولا قلتش حاجة تانية... فوجئت بيها بتقول لي نفس الجملة اللي قالتها لي وهي عيانة... قالت لي اعملي اللي عليكي وخلي الباقي على ربنا.

ومرة ثانية تتساءل سامية فهمي إن كانت أمها تعلم شيئًا عما ألم بها، تساءلت في دهشة إن كان «قلب الأم» يشعر بما لا يشعر به الآخرون... غير أنها في نهاية ليلة مؤرقة اتخذت قرارًا رأت أن يكون نهائيًا، وهو أن

تفعل ما يجب عليها أن تفعله دون تردد أو تفكير، وأن تترك الباقي لله، ولعادل مكي الذي كان قد اكتسب الآن ثقتها بلا حدود.

* * *

في اليوم التالي نزلت إلى شارع الشواربي، قامت بجولة وكانت تحمل في حقيبتها مبلغًا محترمًا من المال اقتطعته اقتطاعًا، مما وفرته لشراء السيارة... وعندما وقع اختيارها على رداء بعينه - شاهدته في النافذة الزجاجية لأحد المحلات الصغيرة، دلفت إلى المحل فقوبلت فيه من صاحبته بفتور كاد يدفعها إلى مغادرته... فلقد أدركت أن مظهرها لم يرق تلك السيدة التي لا بد ظنت أنها واحدة من هاته الفتيات اللواتي كن يدخلن إلى تلك المحلات للفرجة والاستمتاع لا للشراء... لكنها استطاعت بعد دقائق، أن تجعل تلك السيدة التي بدت لها من نوع خاص تمامًا، تنهض مهرولة في نشاط عارضة عليها ألوانًا من الملابس تخطف البصر بحق... ولقد مضت ساعة ونصف قبل أن تغادر سامية ذلك المحل، وقد حملت في يدها حقيبتين كبيرتين من البلاستيك كانتا تحويان عددًا لا بأس به من البلوزات والجونلات والفساتين... أدركت وهي تغادر المحل أنها تنفق من المال أكثر مما ظنت بكثير وأن عليها أن تشتري على الأقل، زوجين من الأحذية التي تليق ألوانها وما اشترت من ملابس، وحقيبتي يد من جلد فاخر... و... وهكذا، وبعد بضعة أيام تزيد على الأربعة، أثارت سامية فهمي - مع الدهشة البالغة التي أصابت كل الذين يعرفونها - الكثير من التساؤلات... كان ذلك عندما دعيت إلى حفل أقامته واحدة من صديقاتها، وكان يجمع عددًا كبيرًا من الزملاء والزميلات مع أزواجهن وزوجاتهم، فاستعدت استعدادًا امتص يومًا بكامله، وارتدت واحدًا من تلك الفساتين البالغة الأناقة، والتي فصلت حسب آخر خطوط الموضة، مما دفع الحاضرين جميعًا إلى التعليق بل والتساؤل، فلقد كانت سامية في تلك الليلة تبدو وقد صففت شعرها ووضعت ذلك البروش الفاخر المرصع

بالماس والذي أهداه لها نبيل كشبكة، وكأنها فتاة أخرى... فإلى جانب جمالها الذي أضاف إليه أسلوب تصفيف شعرها مزيدًا من البهاء، كانت أناقتها مثار حسد الأخريات، وإعجاب الرجال الذين لم يستطع بعضهم كتمان ما بنفسه، فتحول الأمر من الهمس إلى الجهر، وتناثرت كلمات الإطراء والمزاح مما دفع سامية لأن تقول بصوت سمعه الجميع:

- يعني عاوزين البيه اللي خاطبني يبقى عايش في إيطاليا من غير ما يجيب لي شوية هدوم؟!

غير أن سامية، في حقيقة الأمر، كانت قد واجهت، قبل هذا كله، ويوم أن ابتاعت تلك الملابس، مأزقًا جعل قلبها يسقط بين ضلوعها... وكان ذلك عندما نظرت السيدة إقبال حسين إلى ما اشترته ابنتها في دهشة لم تحاول إخفاءها... فلقد بدا لها الأمر غريبًا، بل ومثيرًا في نفس الوقت... فلم تكن تلك الملابس من ذلك النوع يروق لسامية أو الذي تسعى إليه، فوق أنها قدرت المبلغ الذي أنفقته ابنتها على تلك الملابس بما لا يتناسب بحال من الأحوال مع دخلها أو حتى دخلهما معًا... ولقد سهمت السيدة إقبال طويلًا بعد أن شاهدت مشتريات ابنتها، ثم سألتها سؤالًا غريبًا:

- سامية... إنتِ مش عاوزة تقولي لي حاجة؟!

كان السؤال بعيدًا كل البعد عما كانتا تتحدثان فيه، كانت سامية، مع عرضها لمشترياتها، بدأت تقص عليها قصة مدام سوزي صاحبة المحل، وكيف استقبلتها بفتور تبخر بمجرد أن أدركت أنها زبونة «سُقع»... كانت سامية مندمجة فيما كانت تحكيه عندما هوى السؤال فوق رأسها كمطرقة أصابتها بالدوار، توقفت عن الحركة والحديث معًا، جمدت كتمثال وكانت تمسك في أصابعها بفستان ظل معلقًا لثوان وهي تحملق في أمها وقد أصابها الاضطراب:

- ليه قلتي كده يا ماما؟!

نهضت السيدة إقبال وكأنها تنهي الأمر برمته، لكنها خطت نحو الداخل وهي تقول:

- جبتي الفلوس اللي اشتريتي بيها الهدوم دي منين يا سامية؟!

- من نبيل.

هكذا قالت في عفوية ودون تفكير وكأنها تدافع عن نفسها أمام تصرف أمها الذي لم يكن يعني سوى اتهام غامض بشيء أكثر غموضًا... فتوقفت السيدة إقبال وكانت قد وصلت إلى باب غرفتها، ثم استدارت نحو ابنتها وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة بدت لسامية غريبة، ابتسامة كانت تجمع مع السخرية شكًا «صارخًا» كان يطل من عينيها ... سألتها:

- وانتي من إمتى بتاخدي من نبيل فلوس؟!

كان السؤال صارخًا وكان قاطعًا كما كان قاتلًا... ازداد اضطراب سامية فهربت من عيني أمها قائلة:

- يوم ما تغدينا سوا، اداني خمسميت دولار.

ظلت الأم صامتة فلم يكن فيما قالته سامية جواب على سؤالها، لذلك عادت إلى الحديث مفسرة ما حدث:

- أصله قال لي إنه لما جوابي وصل له وعرف ان حضرتك في المستشفى، كان لازم يسافر على طول ولا لحقش يشتري لي هدية... اداني الفلوس وقال لي: اشتري بها هدوم.

- وهو المرة اللي فاتت كان جاب لك هدايا يا سامية؟!

- المرة اللي فاتت مكانش لسه كون نفسه... إنما المرة دي...

توقفت سامية أمام نظرات أمها متفحصة، كان واضحًا أن السيدة إقبال حسين لا تصدق كلمة مما كانت تقوله ابنتها، كما كان واضحًا أنها تتعذب من أجلها، صاحت سامية متخبطة:

- إنتِ مش شايفة الشبكة اللي جايبها لي يا ماما غالية ازاي؟!

- وغيرَتي الدولارات فين؟!

- ما غيرتهمش... أنا اشتريت الهدوم من الفلوس اللي كنت باشيلها علشان العربية.

- إنتِ بتشيلي فلوس علشان العربية؟!

- إنتِ مش عارفة إني أخذت مكافأة ميت جنيه.

- وهِي الهدوم دي بميت جنيه بس؟!

- وفيه ماهية تلات شهور ما صرفتش منها حاجة من يوم ما جيت من إيطاليا.

كان في قولها هذا تَزيُّدٌ لا شك فيه، كانت تعلم يقينًا أنها أنفقت مرتبها كله في الشهور التي انقضت... لكنها فوجئت بأمها تقول وكأنها تعفيها من الحرج:

- على العموم مبروك عليكي.

- يا ماما... بقى ده معقول؟!

كانت مختنقة الصوت تمامًا، وكانت أيضًا على وشك البكاء، ابتسمت أمها قائلة:

- أنا بس حبيت اطمن عليكي.

- وهو أنا مش من حقي إني آخد فلوس من جوزي؟!

- جوزك؟!

- يا ماما... من فضلك... ما تبقيش انتي والأيام عليّ.

كان دمعها الآن ينحدر فوق وجنتيها، كانت تبدو مسكينة بلا حول ولا طول، ضعيفة كطفل تاه عن أهله... عادت السيدة إقبال تخطو نحوها والحنان يسيل من عينيها مدرارًا، همّت بالنطق عندما قالت سامية:

- وهو انا حتى مش من حقي ألبس؟!

- أنا مقلتش كده.

- مش من حقي أعيش؟!

- سامية.

صرخت ملتاعة:

- مش من حقي أتجنن ولو مرة في عمري؟!

قالت هذا وهي تترك نفسها لصدر أمها التي راحت تضمها في حنان، انخرطت سامية في البكاء، كانت تشعر أنها ليست متعبة فقط، ولا منهكة فقط، أحست أن قواها تخور وتتبدد، فراحت تقول في الصدر الحاني:

- قلت لك ما تخافيش علي يا ماما... قلت لك ما تخافيش علي.

وجاءها الرد مبللًا بالدمع السخين:

- مش قادرة... مش قادرة ما اخافش عليكي، غصب عني.

* * *

كان عادل مكي خلال الأسابيع التي انقضت منذ آخر لقاء له مع سامية فهمي، قد اطمأن تمامًا إلى أنها ستستطيع اجتياز لقائها مع أدريان تومسون... كان قد توصل منذ ما يقرب من شهر أو يزيد قليلًا، إلى الاسم الحقيقي لضابط المخابرات الإسرائيلي هذا... وإذا كان قد اكتشف أبا سليم في وقت مبكر، فإن أدريان تومسون احتاج منه إلى بعض الوقت كي يتأكد من هويته وشخصيته وبعض ما قام به من عمليات... كانت الأوصاف التي تلقاها عنه، وتلك الصورة التي لم تكن واضحة تمامًا والتي التقطت لأدريان وهو يغادر مقهى بالبو، تنبئ بأنه أمام وجه جديد دفع به الموساد إلى الحقل الإيطالي حديثًا... ولقد اقتضى الأمر منه بذل مجهودات مضنية شملت بعض عواصم أوربا غير روما التي كانت في تلك الأيام مركزًا نشطًا

للمخابرات الإسرائيلية... حتى تلقى ذات يوم رسالة عاجلة من صديق له كان يحضر للدكتوراه في جامعة لندن، عرف منها أن اسمه الحقيقي ليس أدريان تومسون - ولقد رفض عادل بإصرار أن يبوح لي بالاسم الحقيقي لهذا الرجل، وساق أسبابًا لم تبد لي مقنعة! - وأنه يهودي الديانة ويحمل الجنسية البريطانية ويعمل في إحدى الصحف اليومية الرخيصة التي تخصصت في نشر الفضائح... وفي ذلك اليوم، نشط عدد لا بأس به من الرجال والنساء - لم يكونوا في الأغلب الأعم من المصريين - في جمع المعلومات عن مستر تومسون هذا... معلومات كان عادل مكي في أشد الحاجة إليها كي يُحصّن سامية من سمومه قبل أن تطير إليه وتلتقي به في زيارتها إلى روما التي كانت متوقعة بين يوم وآخر.. غير أن أهم ما جاء في تلك المعلومات التي وصلت في الوقت المناسب تمامًا... أن المستر تومسون يستعد بالفعل، مع مجموعة من الصحفيين البريطانيين، لإنشاء وكالة أنباء جديدة كان لها مكاتب في عدد من العواصم الأوربية.

ولقد بدا الأمر لعادل وقد قاربت الصورة على الاكتمال، أن هناك مخططًا شيطانيًا في طريقه إلى التنفيذ... وانطلق رجاله إلى تلك العواصم التي افتتحت فيها تلك المكاتب أو كانت على وشك أن تفتح... وكانت الظاهرة المضحكة في الأمر، أنها كانت جميعها من تلك العواصم التي يتجمع فيها العرب أو تعودوا التردد عليها... وكان المشرفون «الحقيقيون» على تلك المكاتب، كلهم، من الإسرائيليين.

* * *

الآن قد تبدت له الصورة جلية واضحة أشد ما يكون الوضوح والجلاء، فلقد أنفق الإسرائيليون مبالغ طائلة لإنشاء الشبكة الجديدة... وإذا كان اندفاعهم في إنشاء تلك المكاتب، خاصة مع وجود صحفيين ليسوا يهودًا، بل إن بعضهم في ألمانيا مثلًا عرف بعدائه لليهود، كان لإيجاد سواتر تخفي

أغراضهم الحقيقة، فلقد بدا لعادل أن هذا المخطط في حاجة إلى ضربة قوية كي تحطمه في مهده... وكان موقنًا أن الضربة إذا ما جاءت من روما أولًا، فإن المشروع كله - دون شك - سوف يكون مصيره الفشل الذريع.

وهو... هو لم يكن في حاجة لأكثر من ذلك.

* * *

- أخذت الفيزة؟!

- بسهولَة.

- وتأشيرة الخروج؟!

- اتراذلوا عليّ شوية في الجوازات، لكن في الآخر ادوها لي.

- ونويت إمتى إن شاء الله؟!

- زي ما طلبوا، يوم ٢ مارس.

- بعتي تلغراف بميعاد وصولك؟!

- من يومين.

- مصر للطيران ليها رحلة لروما في اليوم ده؟!

- أكيد.

ضحك عادل مكي وهو يسأل:

- وأكيد ليه؟!

- لأنهم لما يقولوا لي يوم ٢ مارس، يبقى لازم يكونوا متأكدين إن مصر للطيران ليها رحلة في اليوم ده.

ابتسم عادل راضيًا تمامًا... وصل معنى ابتسامته إلى سامية التي قالت متذمرة:

- أنا عاوزة أخلص من الحكاية البايخة دي بقى.

- كله في إيدك.

زفرت وهي تستعد للرحيل قائلة:

- ربنا يستر.

- لسه خايفة؟!

- أكتر من الأول.

- عظيم.

- آهو ده اللي انتوا فالحين فيه.

قالتها مداعبة فانفجر عادل مكي ضاحكًا... جاءت ضحكته من القلب حقًّا، كان فخورًا بها، وكان يرتجف رعبًا عليها.

مد إليها كلتا يديه مصافحًا، ضم يدها بين راحتيه وهو يقول:

- أنا مش عاوز أأكد لك إننا حنكون جنبك في كل خطوة.

- أنا متأكدة من ده، بس...

- ما لك يا سامية؟

- أنا بعت التلغراف على روما، يعني لأدريان تومسون.

- ما هو انتي كان لازم تعملي كده.

- تفتكر نبيل حايستناني في المطار؟!

- مِيّه في المِيّه.

نكست رأسها وقد اجتاحها ألم طاغٍ، هم عادل بأن يخفف عنها لكنه تراجع، كانت الآن في حاجة إلى شيء واحد، إلى الحقيقة سافرة طاغية مهما كانت بشاعتها، شد بيديه على يديها هامسًا:

- في رعاية الله.

وهكذا غادرته سامية دون أن تجرؤ على النظر إليه، كانت تشعر بالخجل مريرًا، لأنها طويلًا، راحت تأمل في ألا يكون لنبيل سالم يد في الأمر.

❁ ❁ ❁

وجدت نبيل سالم في انتظارها في المطار فلم تتصنع الدهشة - هكذا أوصاها عادل مكي - بل قالت وهو يضمها إليه:

- أنا كنت متأكدة إن أدريان تومسون حيقول لك.

- وإيه اللي يخليكي متأكدة من كده؟!

- الدبلة اللي في إيدك يا أستاذ.

- بس الدبلة ملهاش دعوة بالشغل.

- على العموم أنا مش حافوتها له.

- إنتِ كنتي عاوزة تيجي روما من غير ما تقولي لي.

- أنا كَنت عاوزة أعمل لك مفاجأة ضيعها هو عليًّ.

لزم نبيل الصمت فلزمت الصمت هي الأخرى... أحست - دون أن تنظر إليه أو تلتفت نحوه - بوقع نظراته التي كان يختطفها بين الحين والحين منها... أخيرًا جاءها صوته:

- لكن إيه الشياكة دي كلها؟!

- من بعض ما عند السيد أدريان.

- إوعي تكوني صرفتي الخمسميت دولار كلهم؟!

التفتت إليه هاتفة:

- خمسميت دولار إيه يا بني... دانا صارفة قدهم كمان.

- يظهر إنك استغنيتي عن فكرة العربية.

- مين اللي قال؟!

قالتها في حدة فقال نبيل:

- إنتِ مش بتقولي إنك صرفتي فوق الخمسميت دولار خمسمية زيهم؟!

- وإيه يعني؟
- وحتجيبي فلوس العربية منين؟!
- من شغلي... من عرق جبيني.
- إنتِ مش ليكي مرتب شهري؟!
- ملاليم.
- بس ده اتفاق وإنتِ وافقتي عليه.
- وهو الاتفاق يمنع العلاوات؟!
- ما يمنعش إنما...
- ولا يمنع المكافآت.
- ما هو الراجل بعت لك بدل مواصلات.
- طب مانا باعته له أخبار ماتحلمش بيها أتخن وكالة في العالم.
همّ بالحديث فأردفت في تحدٍّ:
- تحب تتفرج؟!
- أيوه يا سامية إنما...
- إنت بتفهم في الصحافة؟!
- مش زيك طبعًا.
- تبقى تسكت وتسيبني أتصرّف.
- براحتك يا سامية، بس أنا عاوز أنبهك لشوية حاجات...
عادت تقاطعه:
- مش انت اللي قلت لي إنهم ولاد كلب وإني لازم آخد حقي ولا أسيبهمش ياكلوني.
- أيوه قلت لك كده، بس ده كان قبل الاتفاق.

- ما هو لازم يفهم كمان إني مش عبيطة، وإني عارفة قيمة شغلي كويس.

- في دي معاكِ حق.

قالها نبيل في نبرة يائسة، ساد الصمت لثوان قالت بعدها سامية في صوت شديد الوضوح:

- أصل أنا بصراحة استنيت إنه يخلي عنده دم بعد ما بعت معاك الأخبار، ويقول كلمة، أي كلمة... يقول كويس.. وحش... لكن، ولا هو هنا، ولا كأن فيه بني آدم حفيت رجليه كام شهر علشان يجمع له شوية أخبار مكانش يحلم بها.

- الراجل مكانش عنده...

- كان عنده ولا مكانش عنده، وإذا كان عاجبهم.

ضحك نبيل ضحكة فاترة وهو يقول:

- إنت جاية روما علشان تتخانقي؟!

كانت السيارة تدور الآن في أحد ميادين روما الرئيسية، وكانت الأضواء في كل مكان تحيل الليل إلى دنيا افتقدتها كثيرًا منذ اندلعت تلك الحرب اللعينة في عام ١٩٦٧ ... راحت تمتص ما حولها وتتمتع بمشاهدة الناس فلم تستطع أن تمنع نفسها من المقارنة... زفرت زفرة حارة وهي تغمغم:

- إذا كانوا فاكرين إننا محتاجين فلوسهم يبقوا عبط.

سألها وقد تملكه مع الدهشة اضطراب واضح:

- هم مين اللي فاكرين؟!

- الجماعة الإنجليز اللي متخيلين إنهم يقدروا يستعمرونا اقتصاديًا بعد ما فشلوا في استعمارنا بالعساكر.

هدأت نفس نبيل قليلًا فسألها مازحًا:

- إنتِ لسّه بتصدقي كلام الخُطب ده؟!

في استقامة أذهلت نبيل تمامًا، صاحت فيه:

- هو لما ياخد مني شغل بعشر قروش ويديني فيه قرشين... ده ما يبقاش استعمار اقتصادي؟!

لاذ نبيل بالصمت، تشاغل بإدارة عجلة القيادة إلى شارع جانبي فهتفت:

- إحنا رايحين فين؟!

- اللوكاندة.

- أي لوكاندة؟!

- اللي نزلتي فيها المرة اللي فاتت.

- آسفة...

- إيه هو اللي آسفة... وأنا حجزت.

- ومين قال لك تحجز؟!

صاح نبيل وقد غلبه التوتر:

- إلا مين قال لي... أمال مين اللي كان يحجز لك؟!

- أدريان تومسون.

جاء ردها مثل ضربة قاضية فلم يفه نبيل بحرف... خفض من سرعة السيارة وكان عقله يعمل بسرعة بحثًا عن مخرج، حتى إذا ما قال إن أدريان طلب منه ذلك لأنه كان مشغولًا، جاءه ردها حاسمًا:

- يبقى كان لازم تحجز لي في لوكاندة درجة أولى... إنت نسيت إني حانزل على حساب الوكالة؟!

قال نبيل سالم فيما بعد إنه في تلك الليلة كاد يفقد صوابه حقًّا... بدت له سامية وكأنها فتحت عينيها فجأة على حقائق لم يتصور أنها تعرفها أو حتى تهتم بها... كان حديثها منطقيًا، وكان في نفس الوقت متسقًا مع شخصيتها واعتزازها بكرامتها... كما أنه كان متسقًا مع الأصول المرعية... قال إنه لم يكن يملك من الأمر شيئًا، فلقد طلب منه أبو سليم أن يحجز في نفس الفندق غرفة لسامية ففعل ما أمر به... ولذلك، فلقد راح يرجو سامية أن تقبل النزول في هذا الفندق المتواضع ولو لليلة واحدة إلى أن يدبر الأمر، لكنها أصرت على الرفض، وكانت حجتها بسيطة ومنطقية في نفس الوقت:

- ما هو أنا لو عملت تنازل المرة دي يا نبيل، التنازل حايبقى قاعدة.

- دي ليلة يا سامية.

- إسمع... أنا مش عاوزة عربية، أنا معايا فلوس تكفيني لحد ما أرجع مصر، وإن شاء الله عني ما اشتريت عربية ولا ركبتها... أنا كرامتي فوق كل حاجة.

ولم يكن هناك بد من البحث عن غرفة في أحد الفنادق الكبرى ذات السمعة العالمية... ولقد اقترحت عليه سامية فندقًا كان له فرع في مصر... وقد أقسمت سامية فيما بعد إنها كانت تخطو إلى بهو هذا الفندق الرئيسي مترددة وجلة، فلقد كانت فخامته فوق قدرتها على التصور، إنها من الممكن أن تعيش فيه لبضعة أيام... لكنها تذكرت مناقشاتها مع عادل مكي، وتحذيره لها أن يشعر نبيل، من قريب أو بعيد أنها تريد أن تنزل في

هذا الفندق بالتحديد... لذلك، فلقد توقفت في منتصف الطريق ملتفتة نحو نبيل وهي تسأله:

- إنت جبتني هنا ليه؟!

- إنت مش عاوزة لوكاندة درجة أولى؟!

وهكذَا وقفت أمام موظف وراحت تملأ بطاقة الفندق بثبات من تعودت النزول في مثل تلك الفنادق... كانت قد صففت شعرها قبل سفرها بيوم عند «كوافير»... تركت له شعرها يفعل به ما يشاء، وكان لها طلب واحد... ألا تبدو أقل أناقة من فتيات روما الساحرات.

عندما كانت تختطف بين الحين والحين نظرة من نبيل سالم، لم يخف عنها ما كان يعانيه من اضطراب... فأحست - بشكل خاص - أنها تنتقم منه ومما فعله معها في زيارتها السابقة، ومما أراد - ويريد الآن - أن يجرها إليه... حاولت استجلاب حبها وصفائها دون جدوى، كان نبيل في تلك اللحظات يبدو في عينيها شيئًا آخر وليس شخصًا آخر... صحبها حتى مصعد الفندق ووقفا في انتظار وصوله... كانت حقيبة ملابسها قد سبقتها إلى الغرفة، نظرت إليه طويلًا، وكان هو الآخر ينظر إليها في رجاء من يريد أن يعرف أين مكانه من الدنيا... فجأة، قالت في حنان لا تدري من أين نبع:

- عارف يا نبيل واحشني قد إيه؟!

أقسمت سامية فيما بعد أنها رأت الدموع في عينيه، أقسمت إنه كان صادقًا كل الصدق وهو يقول:

- ربنا يعلم إنت كمان واحشاني قد إيه يا سامية.

عاجلته متسائلةَ:

- حاتعشيني فين الليلة؟!

بدا وكأنه انتفض انتفاضًا وهو يهتف:

- الليلة؟!

وصل المصعد... فتح الباب... خطت سامية إلى الداخل وهي تقول:

- إديني ساعة ونص، بعدها حاكون جاهزة لك.

قالت هذا وهي ترسل له قبلة في الهواء... همَّ نبيل بأن يقول شيئًا لكن باب المصعد كان قد أغلق.

* * *

أسرع نبيل سالم إلى حيث كان أبو سليم يجلس في انتظاره، أسرع في لهفة من يريد العودة قبل حلول الموعد الذي حددته سامية بساعة ونصف... قص على الرجل ما حدث فبدت عليه دهشة امتزجت بفرحة خفيفة برقت معها عيناه... ما إن انتهى نبيل من روايته حتى طلب منه أبو سليم أن يعيدها على أسماعه مرة أخرى، دهش نبيل لطلب الرجل لكن جلسته وانتظاره واستعداده للإنصات دفعته جميعًا إلى إعادة ما حدث على مسامعه دون سؤال، راح يقص عليه كل شيء منذ أن وقعت عيناه على سامية ووقعت عيناها عليه في المطار، وبتفصيل دقيق، حتى تلك اللحظة التي أغلق فيها باب المصعد بينهما... ما إن انتهى نبيل من روايته حتى هب ناهضًا وهو يقول:

- أنا قلت لكم من الأول... هي دي سامية فهمي، هي دي سامية فهمي.

في هدوء قال أبو سليم:

- وإيه اللي يزعّل في اللي حصل ده؟!

- إنك أحرجتني قدامها يا ابو سليم، ما بقتش عارف اتصرف إزاي بعد ما رفضت تدخل اللوكاندة الأولانية.

هز أبو سليم كتفيه في لا مبالاة وهو يقول:

- بصراحة ده حقها... وأدريان لازم يعرف كده كويس.

كان الجواب غريبًا كما كان مفاجئًا لنبيل الذي راح يحملق في أبي سليم الذي نهض استعدادًا للانصراف قائلًا:

- اعزمها الليلة في أي حتة هي عاوزاها، لاحظ إنها خطيبتك، وإنكو بتحبوا بعض قوي، وإنكم بعد ما لبستوا الدبل ما خرجتوش مع بعض غير مرة واحدة.

- وبعدين؟!

- إبقى اديني تليفون من أي حتة تروحوها علشان تقول لي إنتوا فين؟!

* * *

دق باب الغرفة دقات خفيفة... كانت سامية قد عاينت المكان وجاست خلاله وتركت قلبها يخفق في انبهار... فتحت حقيبة ملابسها وراحت تفرغ محتوياتها عندما جاءها ذلك الدق على الباب فسارعت إلى فتحه.

كان ثمة صبي من صبيان الفندق بملابسه الملونة الأنيقة يقف وفي يده طبق به رسالة:

- سنيورينا فهمي؟!

- أنا هي.

- رسالة لك.

- أشكرك.

قالتها وهي تتناول الرسالة المطوية... كانت ورقة عادية من ورق الرسائل في الفندق... ولم تكن موضوعة في ظرف... تيقنت أنها مرسلة من نبيل الذي ظنت أنه قد يعتذر عن الموعد ، همّ الصبي بالانصراف فاستوقفته:

- انتظر من فضلك.

كانت تريد أن تنفحه بقشيشًا، لكنه قال في أدب:

- لقد دفع لي السيد... أشكرك.

أغلقت الباب وفتحت الرسالة... ما إن جرت عيناها على السطور حتى شهقت بالرغم منها، لكنها سرعان ما ابتسمت، ثم ضحكت، ثم غمرتها سعادة هائلة... عادت تقرأ الرسالة مرة أخرى قبل أن تستعد لإعدامها... طالعتها الحروف بالعربية:

- إيه العز اللي انتي فيه ده؟!

وكان التوقيع:

- عادل مكي.

الفصل السادس والثلاثون

إنّها تَعْرِف مَاذَا تُرِيد

قال لي عادل مكي إنه لم يكن لِيرسل مثل تلك الرسالة إلى سامية فهمي، لو أنها نزلت في الفندق الذي نزلت به في زيارتها السابقة لروما - وكان هذا احتمالًا قائمًا بالطبع - ولكن بصرف النظر عن كنه هذا الصبي الإيطالي وكيف حمل الرسالة إليها... فلقد كان موقنًا أشد ما يكون اليقين من أن أحدًا لن تقع عينه على الرسالة سوى سامية فهمي... ذلك أنها لم تُسلم إلى الصبي إلا أمام باب غرفتها. وعندما دق عليها الباب، كان صاحب الرسالة قد ابتعد في الممر بشكل طبيعي تمامًا وكأنه أحد نزلاء الممر... وكان - فوق هذا - قد استمع إلى الحوار الذي دار بين سامية والصبي، وشاهده وهو ينصرف.

قال لي إن مثل تلك الرسالة، كانت كفيلة ببث الطمأنينة في نفس سامية تمامًا، كانت كفيلة بأن تشعرها، بأن رجال وطنها يقفون بالفعل إلى جوارها منذ لحظة نزولها من الطائرة، وإلى أي مكان تذهب إليه! ولقد كان عادل مكي على حق في كل ما قاله أو ذهب إليه.

ذلك أن سامية ما إن تسلمت تلك الرسالة وقرأتها، حتى أغلقت الباب بالرتاج، ووقفت في منتصف الغرفة تغمرها فرحة طاغية، فهي - على حد تعبيرها - لم تكن في تلك اللحظات التي تستعد فيها للقاء الإسرائيليين،

في حاجة إلى شيء في الدنيا سوى هذا... كانت قد تصرفت مع نبيل كما ينبغي لها أن تتصرف. وكانت تشعر بأنها أجادت في تصرفها، لكن صدرها كان ممتلئًا بخوف عربيد تبدد تمامًا عندما قرأت تلك الكلمات المرحة التي أشعرتها بأن الرجال في وطنها يستطيعون اجتياز المستحيل... أمدتها الرسالة بقوة غريبة، وكانت الآن وقد أعادت قراءتها للمرة الثالثة - تعرف ما الذي يجب عليها أن تفعله بالضبط... اتجهت إلى الحمام، مزقت الرسالة قطعًا صغيرة وألقت بها إلى حيث جرفتها المياه بعيدًا حيث لا يمكن أن تدركها يد...

عندما عادت إلى الغرفة كانت خطواتها أكثر ثقة وأكثر ثباتًا... وكان عقلها يعمل في هدوء من كان واثقًا من النصر ثقة بلا حدود.

أكملت زينتها استعدادًا للعشاء، عندما دق جرس التليفون... رفعت السماعة وقد كانت تظن أنه نبيل، غير أن صوت أدريان جاءها مرحًا:

- لولا صديقنا المشترك لما استطعت معرفة مكانك.

قالت ممازحة:

- كنت أعلم أن كليكما واش لا يستطيع إخفاء سر عن الآخر.

- كلانا؟!

قالها في دهشة لا مواراة فيها، فقالت:

- ألم تش بي إليه وتخبره بموعد وصولي إلى روما، وقد كنت أريد مفاجأته بالزيارة؟!

- آسف يا سامية، لقد اضطررت لهذا عندما فاجأني عمل كان لا بد من إنجازه الليلة بأي ثمن.

- لا عليك، فلقد رد لك الصنيع ووشى بي إليك وأخبرك عن مكاني.

- إنها لم تكن وشاية بقدر ما كانت جميلًا.

ضحكت وهي تقول:

- أعلم أن الإنجليز قوم مؤدبون رقيقو الطباع، لكني أعرف أيضًا أنهم مستعمرون بالطبع.

ابتلع التورية مغيرًا مجرى الحديث:

- قبل كل شيء ألا تطمئنيني على صحة والدتك؟!

- أشكر لك السؤال، ولولا أنها بصحة جيدة، لما استطعت الحضور.

- أخبرني نبيل أنك قضيت أيامًا عصيبة.

- نعم كانت عصيبة... لكنها مرت على كل الأحوال.

- متى أستطيع رؤيتك؟

- إنك الرئيس يا مستر تومسون وأنت الذي تحدد، فلقد جئت إلى روما هذه المرة بدعوة منك، وليس علي إلا أن ألبي طلبك بعد عشاء الليلة الذي انتظرته طويلًا.

- هل نتناول الغداء معًا في الغد؟!

- سأكون في انتظارك في بهو الفندق في تمام الثانية عشرة ظهرًا.

- ولِمَ لا نلتقي في نفس المكان الذي تعودنا اللقاء فيه؟!

- هل تحاول إقناعي بأن الإنجليز قوم يبالون بالذكريات؟!

ضحك أدريان وهو يقول:

- على كلٍّ، سوف نرى فيما هو قادم من أيام.

- إلى اللقاء إذن في الغد.

قالت هذا وهي تعيد السماعة دون انتظار للرد، فلقد كان قلبها يدق في عنف أوجع ضلوعها حتى أحست في لحظة وكأنه سوف يقفز من حلقها... ظلت ساكنة حتى استردت أنفاسها، فعادت من جديد إلى المرآة.

❊ ❊ ❊

لم تخبر سامية فهمي نبيل بأمر تلك المكالمة التليفونية التي جرت بينها وبين أدريان تومسون... هكذا طلب منها عادل مكي، ألا تبادر بأن تخبر نبيل بأي شيء قبل أن يخبرها هو أو يسألها... وبالرغم من أن الأمر لم يكن يحتاج إلى إخفاء، وبالرغم من أن أدريان أخبرها أنه عرف بمكانها من نبيل، فلقد حرصت على تنفيذ تعليمات عادل ووصاياه بدقة.

عندما ركبت السيارة إلى جوار نبيل سألها أين تحب أن تتناول عشاءها، فقالت:

- أنا عاوزة أرقص.

- قوي.

كان نبيل قد بدّل ملابسه هو الآخر وارتدى حلة إيطالية غامقة اللون فاخرة القماش والتفصيل... كان قد تعوّد في الأسابيع الأخيرة، وبعد عودته من مصر بالتحديد، أن يطلب منه أبو سليم أشياء كانت تبدو له غريبة، ولما كان موقنًا من أنه لن يتلقى جوابًا إذا ما سأل، فلقد تعوّد أن ينفذ ما يطلب منه واثقًا من أن يومًا سوف يأتي سيعرف فيه الجواب دون حاجة إلى سؤال... ولقد طلب منه أبو سليم ذات ليلة قبل بضعة أسابيع، أن يشتري بذلة، «عليها القيمة» تصلح للسهر في المحلات الراقية، فابتاع تلك البذلة دون أن يرتديها حتى كانت تلك الليلة... وكانت سامية ترتدي ملابس تبدو ذروة في الأناقة، كانت ترتدي فستانًا بدا وكأنه صنع من أجل قوامها دون غيرها من النساء، وتضع على كتفيها شالاً من الصوف المصري

السميك، ذا ألوان زاهية ونقوش مصرية كانت تلفت الأنظار من حولها بالفعل... ما إن وقع بصرها عليه حتى صاحت مداعبة:

- إيه الشياكة دي يا سنيور؟!

في نبرة نمت عما كان يعانيه من اضطراب:

- علشان نبقى قد المقام بس يا سامية هانم.

أضاء الجرسون شمعتين تألقتا في الضوء الخافت لذلك المحل الذي قادها إليه... سرت في الجو نغمات الفرقة الموسيقية، وكانت تعزف لحنًا هادئًا... مالت سامية نحو نبيل هامسة:

- إنت مش ناوي تطلبني للرقص؟!

- خايف.

- من إيه؟!

- من لسانك.

- حاديله أجازة الليلة.

وهكذا احتواها بين ذراعيه وراح يدور بها في المكان وكأنه يخطو فوق السحاب... بدت له سامية في تلك الليلة جميلة إلى حد يجعلها بعيدة المنال، همس في أذنها بكلمات حب تلقتها في ابتسامة مرحبة... أدرك نبيل أنه أخطأ عندما أطاع أبو سليم فيما يختص بسامية، أدرك أنها نزلت معه الآن إلى نفس الحلبة، وأنها بالقطع، وكالعادة، سوف تتفوق عليه... أحس بالغيرة تنهش صدره، كما أحس بحبه لسامية يستيقظ بعد سبات عميق، يستيقظ عملاقًا هائلًا راح يستبد به استبدادًا لا رحمة فيه... تناولا العشاء وكان الحديث بينهما في فتور عجز عن بث الحرارة فيه... عندما أوصلها إلى الفندق كان هو الذي سألها متى سوف يراها في الغد، فقالت:

- حابقى أديك تليفون في المكتب.

قال محتجًا:

- ما انتي عارفة إني ما بقعدش في المكتب على طول يا سامية.

- خلاص، حابقى أسيب لك خبر مع السكرتيرة.

- إنتِ مش ملاحظة حاجة؟!

- حاجة زي إيه؟!

- إنك ما كلمتنيش في الشغل خالص؟!

- مش انت اللي طلبت مني ده يا نبيل؟!

ابتسم وقد تذكر حديثه معها في زيارتها السابقة لروما، غمغم متسائلًا في مرح مصطنع:

- أدريان كلمك؟!

- إنت مش اديته خبر أنا فين؟!

- كان لازم أعمل كده.

- ليه؟!

قالتها في نبرة عتاب لم تخف عليه فصاح:

- جرى إيه يا سامية، الراجل طلب مني إني أستناكي بداله، وكان لازم أقول له إنك وصلت.

- على العموم أنا حاقابله بكره، وأول ما خلص شغل حابقى اتصل بيك.

همت بالسير نحو المصعد فاستوقفها متسائلًا:

- طب إيه اللي مزعلك بس؟!

التفتت إليه الآن بكُليتها، وضعت عينيها في عينيه، قالت والألم يقطر من كلماتها:

- تعرف يا نبيل أنا باحبك قد إيه؟!

- أنا عمري ما شكيت في ده.

- وتعرف قد إيه أنا استنيت إني أقضي معاك ليلة زي دي؟!

- طب إيه اللي حصل بس؟!

- إفرض إن أدريان كان طلب مني أشوفه الليلة.

- تعتذري.

في نبرة ساخرة راحت تقلده وهو يلقي عليها وصاياه في زيارتها السابقة:

- إنت نسيت إن الشغل في أوربا غيره في مصر، نسيت إنهم هنا ما بيرحموش، وإن الواحد علشان ينجح لازم يشتغل في كل وقت وأي وقت... مش ده كلامك يا نبيل؟!

هَمّ بالحديث لكنها استطردت:

- كان نفسي تبقى لنا حاجة لوحدنا، حتى ولو كانت ميعاد على العشا وسهرة.

بدا مبددًا تمامًا، ضائعًا، مبعثرًا... حاول الحديث فلم يستطع، وكان لا بد أن تعفيه من الحرج، وتعفي نفسها من الإحساس بالألم والمرارة، فخطت نحو المصعد هامسة:

- تصبح على خير.

❁ ❁ ❁

قال نبيل سالم فيما بعد إن تلك كانت ليلة من أسوأ ليالي عمره، وإنه عندما عاد إلى البيت ووجد أبا سليم هناك، كان في حالة من التوتر بلغت ذروتها عندما راح الرجل يمطره بالأسئلة عما قالت سامية، وكيف تصرفت، وكيف تحدثت، وماذا... و... ووجد نفسه يصيح فيه:

- جرى إيه يا ابو سليم، هو تحقيق؟!

لم يرد أبو سليم... راح يرمقه بتلك النظرة الثاقبة التي تلقي بالرعب إلى قلبه، مضت لحظات صمت قبل أن يسأله الرجل بصوت هادئ:

- ما لك يا نبيل؟!

هتف نبيل منفعلًا:

- عاوز تعرف كل حاجة... عاوز تعرف سامية قالت إيه وعملت إيه وازاي وإمتى وليه؟ أنا حاقول لك جملة واحدة فيها الشفا... سامية عارفة هي بتعمل إيه بالضبط.

ولم يكن أبو سليم، في حاجة إلى أكثر من هذا.

* * *

قالت سامية فهمي إنها عندما دخلت إلى مقهى بالبو في اليوم التالي في تمام الساعة الثانية عشرة ظهرًا، قرأت على ملامح أدريان تومسون كل ما قالته وفعلته مع نبيل بالأمس... وإذا كانت وهي تتصرف وتتحدث مع نبيل، كانت موزعة الخواطر مشتتة العواطف بالرغم منها، إلى الحد الذي جعلها تدهش من نفسها عندما أنبأته بحبها له في بهو الفندق، فلقد كانت تعني بالفعل كل كلمة مما قالت... كانت تعني بالفعل أنها تحب نبيل سالم، وكانت مدركة أيضًا أنه بالرغم من أن حبها هذا بدا لها كالمرض أو الإدمان الذي لا بد من الشفاء منه، فلقد كانت حقيقة لا بد من الاعتراف بها... لكنها أمام أدريان تومسون، وجدت نفسها تخوض معركة مع عدو متربص شديد الخبث والدهاء معًا... كان مسألة «الوطن» وحمايته مستقرة في نفسها وليست في حاجة إلى تغذية أو تنبيه، لكن الذي استفزها حقًّا، أنها أحست - وبشكل خاص - أن هذا الشاب الإنجليزي المظهر الصهيوني العقيدة والطبع، كان يسعى إلى استغفالها.

قالت إنه كان ممثلًا رديئًا بكل المعاني، فلقد تظاهر بدهشة لم تكن حقيقية عندما رآها تخطر بين الموائد متجهة إليه حيث كان ينتظرها على نفس المائدة المنعزلة التي جلسا إليها في المرة السابقة، وبعكس المرة السابقة ما إن رآها حتى هب لاستقبالها في ترحاب وحرارة أحست أنها مصطنعة، وعندما مدت إليه يدها كي تصافحه فوجئت به يأخذ يدها بين راحتيه ويرفعها إلى شفتيه كي يطبع عليها قبلة خفيفة.

- ماذا لو أبديت إعجابي بجمالك؟!

- سأعاتبك، أو أعتبرك منافقًا.

ارتبك أدريان تومسون للرد الذي لم يتوقعه، هتف:

- ولكن لماذا؟!

- لأنك لم تفعل ذلك في المرة الماضية... وعلى هذا فلسوف أعتبر إطراءك موجهًا إلى الملابس التي اشتريتها بما أرسلته لي من نقود، وليس لشخصي.

بدا على أدريان أنه لم يفهم مغزى ما قالت ، سددت إليه عينيها باسمة، كانت تنفذ الخطة التي وضعها لها عادل مكي في سهولة لم تتصورها... وإذا كان الشق الأول من الخطة قد نجح مع نبيل سالم، فلا بد أنه سينجح أيضًا مع أدريان:

- لا تنسي أن لقاءنا الأول كان مخصصًا كله للعمل.

رفعت حاجبيها دهشة وهي تسأله:

- وماذا عن لقائنا هذا يا عزيزي أدريان؟!

ابتسم أدريان ابتسامة غامضة وهم بالرد لكنها استطردت:

- هل وصلتك رسالتي؟!

- بالطبع.

- ما رأيك فيما جمعت من أخبار؟!

- كان المستوى جيدًا بشكل عام وإن كنت أرى أن...

قاطعته:

- مستر تومسون، أنا آسفة لمقاطعتك، لكني أرى أنه لا بد لي من وضع مجموعة من الحقائق تحت نظرك قبل أن نستطرد في الحديث عن العمل.

- إني مصغٍ إليكِ.

- في البداية، وقبل كل شيء... كان اتفاقنا أن ما سوف أرسله لك من أخبار خصوصًا تلك التي تتسم بأهمية خاصة بالنسبة لوطني، سوف تستخدم فقط للتحليلات، وهي ليست للنشر بحال من الأحوال، إني أرسلها فقط للعلم، وحتى تأتي تحليلات الوكالة صحيحة لا ثغرات فيها.

في حرارة حقيقية، وكمن أدرك أنه مقبل على معركة، قال أدريان:

- هذا ما وعدتك به، وهذا ما أعد به الآن أيضًا.

- أشكرك مستر تومسون غير أني أريد أيضًا أن أنبه إلى أن أي إخلال - مهما كان تافهًا - بهذا الاتفاق، سوف أعتبره فسخًا لكل علاقة بيني وبينك.

لزم الصمت فساد بينهما توتر دفعها لأن تتلاعب بكأس العصير التي طلبها لها، فأردفت بعد قليل:

- لا تنس أن وطني في حالة حرب، وأن مثل هذه الأمور، تشكل خطورة ليست في حاجة إلى تنبيه.

- بالقطع... بالتأكيد.

ومضت سامية في هجومها...

- ولكن... أين مقر الوكالة؟! هل مقهى بالبو هو المقر الرسمي لها؟!

- يمكنك زيارة المكاتب الآن إن أردتِ.

- كنت أنتظر أن يكون لقاؤنا اليوم هناك.

- لقد أردت الترحيب بكِ لا أكثر ولا أقل.

- أشكرك على الدعوة، وإن كنت أشك في أننا سوف نصل إلى اتفاق.

بدا أدريان تومسون وكأنه يتخبط، هكذا تظاهر، وهكذا أراد لسامية أن تفهم لكن النتيجة أنها راحت تسخر من تظاهره هذا فراحت ترمقه في لامبالاة وهو يقول:

- سامية... لست أدري ما الذي يغضبك بالضبط.

- إن هناك أسبابًا بالقطع.

- لكنها أسباب تبدو لي غامضة.

- فلنبدد الغموض إذن!

- إني منصت إليكِ.

- لماذا لم ترسل لي رأيك فيما أرسلت؟

- ليس هذا بالسهولة التي تظنينها، ولعلك تذكرين أننا اتفقنا على أن هناك رقابة بريدية في بلادك.

- كان يمكنك أن تتحدث في التليفون.

- إنها وسيلة تحمل نفس الأخطار.

- فلماذا لم تطلب من نبيل أن يفعل ذلك كما طلبت منه أن ينتظرني في المطار بالأمس.

- وحتى إذا ما تحدث نبيل أو أرسل لك خطابًا فإن هذا يعرضك إلى خطر إن...

كانت نظرتها المفاجئة الآن تبدو وكأنها ألسنة نيران تلفح وجهه فتوقف عن الحديث لثوان عاد بعدها كي يقول:

- أنا لا أتحدث عن مصر كدولة ولا كنظام حكم، وأرجو ألا تسيئي فهمي... إني أتحدث عن دولة في حالة حرب.

هدأت نظرتها قليلًا، ولاحت على شفتيها ابتسامة خفيفة فأردف:

- أرى أنك معتدة بنفسك إلى الحد الذي قد يربك من يتعامل معك.

- لست معتدة بنفسي، ولكني معتدة بوطني وبما بذلت من جهد في جمع تلك الأخبار من مصادر لا يرقى إليها الشك.

- هذا موضوع على جدول أعمالنا اليوم.

- لن أناقش شيئًا من هذا الجدول قبل أن ننتهي من الاتفاق على كل التفاصيل.

حاول أن تكون دهشته الآن هائلة وهو يقول:

- كنت أظن أننا اتفقنا بالفعل على التفاصيل.

صمتت سامية قليلًا. أطرقت نحو المائدة وراحت تتلاعب ببعض أدواتها وكأنها مستغرقة في التفكير، ثم عندما رفعت إليه عينيها وجدته في الانتظار متحفزًا.

- مستر تومسون... لعلك لا تعلم أني في زيارتي الماضية لإيطاليا كنت أمر بظروف نفسية وعصبية وضعتني في موقف ضعف فرض عليّ فرضًا.

- هذا ما كنت أنوي أن أعاتبك عليه.

- ماذا تقصد بالضبط؟!

- علمت من نبيل بحادث النشل الذي وقع لكي، فلم لم تخبريني بالله عليكي؟!

- وما دخل هذا بحديثنا؟! لم يكن النشل هو سببها الأول ولا الوحيد.

- لماذا لا تدخلين في الموضوع مباشرة؟!

- الأجر.

قالتها في وضوح من يعرف تمامًا موضع قدمه، فقال:

- وهذا أيضًا موضوع في جدول مناقشاتنا.

- فليكن هو البند الأول إذن.

- كما يحلو لك.

زفرت سامية الآن بصوت مسموع وكأنها أزاحت عبئًا كان يثقل كاهلها وهي تقول بابتسامة خجلى:

- لست أريدك أن تظن بي الظنون فليست النقود هي هدفي الذي أسعى إليه... ولكنه إحساس الإنسان بأن حقه لم يغمط، ورغبته في تقييم عمله تقييمًا عادلًا.

- أنا لا أشك في هذا.

- حسن... والآن...

- هل أتيت معك برسالة جديدة؟!

- بالطبع.

- هل نناقش محتوياتها بعد الغداء؟!

- لك هذا.

- رفع أدريان يده ملوحًا للجرسون الذي لبى على عجل.

* * *

قال لي عادل مكي إن واحدًا من رجاله الذي كان - ولا يزال يتمتع بكفاءة عالية، كان بصحبة إيطالية حسناء بدا وكأنه يذوب فيها حبًا. كما بدا لاهيًا عن كل ما يدور حوله بمغازلتها... غير أن اندماجه هذا لم يمنعه من مراقبة ما يحدث مراقبة دقيقة، دفعت به إلى كتابة رسالة عاجلة وصلت في اليوم التالي إلى عادل مكي في القاهرة... وكانت الرسالة تنبئ عن خوف شديد من انكشاف أمر سامية فهمي، التي كانت تبدو مندفعة في الحديث ومنطلقة بشكل يدعو إلى الشك في وقوعها في خطأ ما قد يترتب عليه ما لا تحمد عقباه.

وبالرغم من ثقة عادل مكي في سامية وفي إمكاناتها، بدأ القلق يساوره في إلحاح... ذلك أن شكًا ولو بسيطًا ومهما تضاءل شأنه، لو اعترى أدريان تومسون أو أبا سليم، كان كفيلًا بتدمير كل ما كان يبنيه طوال ما يقرب من عامين كاملين... وأنه لهذا فكر في أن يرسل إلى سامية رسالة يحذرها فيها، غير أنه تراجع عن تلك الفكرة بسرعة.

فلقد كانت رسالة كتلك، كفيلة بإرباك سامية في وقت كانت فيه في أشد الحاجة إلى ثقتها بنفسها وفيما وضع لها من خطط لمواجهة كل الاحتمالات التي تنتظرها في الأيام القادمة.

غير أنه، على الوجه الآخر، أبرق إلى روما بضرورة تشديد الرقابة على سامية فهمي حتى لا تغيب ولو للحظة عن عيون الرجال... خاصة أن المعلومات التي كانت قد تجمعت لديه عن أدريان تومسون ومجموعة

الصحفيين الإنجليز الذين اشتركوا معه، كانت قد أوصلته إلى ذلك المكتب الذي استأجرته الموساد في روما، كي يكون ساترًا لوكالة الأنباء المزعومة.

* * *

كانت العمارة التي دلفت إليها سامية فهمي مع أدريان تومسون متوسطة، لم تكن من تلك العمارات الشاهقة في وسط المدينة والتي تمتلئ بمكاتب الشركات أو الوكالات... بل كانت واحدة من تلك العمارات ذات الطابع الإيطالي والتي بنيت في الثلاثينيات... ولقد وجدت كل شيء طبيعيًا تمامًا، عندما وصل المصعد العتيق الذي كان لا يزال يعمل بكفاءة عالية إلى الطابق الثالث، غادرته كي تجد نفسها أمام بضعة أبواب كان بعضها يحمل أسماء شركات، والبعض الآخر مغلق وكأنه خصص للسكن فقط... تذكرت عمارات القاهرة العتيقة باتساعها الرحب وكثرة عدد الشقق في الطابق الواحد... اتجه أدريان نحو باب مفتوح فتبعته لتجد نفسها - بالفعل - فيما يشبه وكالة أنباء صغيرة... كان هناك موظفون وموظفات وآلات تيكرز وصالات تحرير ومكاتب للمعلقين، وكان الجميع الذين لا يزيد عددهم على عشرة، منهمكين في العمل... أو بمعنى أصح يتظاهرون بالانهماك في العمل، ذلك أن أحدًا منهم لم يبد عليه أنه مارس الصحافة ولو ليوم واحد.

قبل أن تنقضي نصف ساعة، كانا قد اتفقا على كل شيء: تضاعف الأجر وحددت قيمة المكافآت، وعندما عرجا على قيمة بدل الانتقال جاءتها المفاجأة كالصاعقة.

- لن نعطيك بدل انتقال يا سامية.

مستفزة قالت:

- هل تعرف كم جنيهًا أنفقت في الشهور الماضية كي أجمع لك تلك الأخبار التي وصلتك وتلك التي لم تصلك بعد؟!

كانت قد أحست أنه يريد الانتهاء من أي تفاصيل مهما كانت كي يرى ماذا تحمل في جعبتها فرأت أن تعذبه.

- أعرف... وقد حدثني نبيل في أمر صعوبة المواصلات وضرورة الاستعانة بسيارات الأجرة في القاهرة.

- يبدو أن نبيل أصبح واشيًا بالطبع.

- لم يكن في الأمر وشاية كما تتصورين... وأنت تعلمين كم يحبك نبيل.

- ومن أجل هذا لن تعطيني بدل انتقال؟!

- لأننا في العالم الرأسمالي نفكر بأسلوب مختلف.

- ما هذا الأسلوب؟!

- أسلوب نستطيع أن نوفر فيه عليك جهد المواصلات.

- كيف بالله عليك ستفعل هذا؟!

- سنقدم لك سيارة.

الشيء المؤكد أن أدريان فوجئ في تلك اللحظات بما لم يكن ينتظره على الإطلاق... وفي حقيقة الأمر، فلقد كان الأسلوب الذي نفذه عادل مكي لسامية فهمي - وإن كان جديدًا تمامًا على ضباط المخابرات الإسرائيلية، الذين بالرغم من كفاءة بعضهم، كانوا يبدون في بعض الأحيان، وكأنهم عشقوا الأساليب التقليدية البالية - كان متسقًا مع شخصية سامية فهمي تمامًا... ولقد كانت ممسكة بقلم لحظة أن قال أدريان ما قال، فما كان منها إلا أن ألقت بالقلم جانبًا وتحركت في مكانها كمن يهم بالانصراف وقد بدا عليها الانزعاج الشديد وهي تدمدم في صوت غاضب:

- هذا ما توقعته على كل حال.

دهش، فنهض من مكانه المقابل لسامية حول تلك المائدة الصغيرة في مكتبه هاتفًا:

- ماذا حدث يا سامية؟!

- مستر تومسون... هل تسمح لي بأن أواجهك بصراحة؟!

- بكل تأكيد.

- إنك تحاول شرائي.

شحب وجهه وهو يعود إلى مقعده:

- لم تقولين هذا؟!

- لأني نبهتك بوضوح إلى أن المال في حد ذاته ليس هدفًا، ولكن الهدف هو احترامي لجهدي وعملي.

- إنك تخلطين الأمور في رأسك خلطًا مخلًا، ويبدو أن نظام الحكم عندكم...

قاطعته في حدة:

- لا تكرر هذا القول... ولا تنس أن نظام الحكم في مصر هو مشكلتنا نحن المصريين فقط، وليس مشكلة أفراد من شعوب أخرى... وفوق كل هذا أحب أن أوضح لك أنني مؤمنة بنظام الحكم هذا.

- ألا تتركينني أشرح وجهة نظري؟!

- لقد طرحتها فعلًا.

- ولكني لم أكمل.

- فما تريد أن تقول؟!

- أريد أن أستطرد إلى أننا كمؤسسة أو شركة سنوفر من بدل الانتقال في المدى الطويل، وبذلك تكسبين أنت السيارة، ونكسب نحن بضعة ألوف من الجنيهات.

صمتت سامية وهي تحملق فيه وكأنها فوجئت بما لم يكن في حسبانها، تذكرت عادل مكي وهو يقول لها إنها - بما كانت تحمل من أخبار - تستطيع العودة إلى مصر بسيارة آخر موديل، ولكن... ها هي تحصل على السيارة قبل أن تطرح ما لديها! طال صمتها فظن أدريان أنها خجلت من تصرفها فاستطرد موضحًا:

- إن ثمن سيارة جيدة يوازي بدل انتقال لمدة عام واحد فقط... فأيهما أوفر لنا؟!

غمغمت سامية في تذمر وكأنها قلّبت الأمر على كل وجوهه:

- هذا كله حسن لكنه سوف يوقعني في حرج أنا في غنى عنه.

- أي حرج هذا؟!

- كنت أنوي شراء سيارة شبه جديدة... ومعنى قولك هذا، أني سأكون تحت رحمة اختيارك.

- فلْنر ما جئت به من أخبار، فلقد يحدد هذا الكثير من الأمور.

ابتسمت سامية شأن من غُلب على أمره وهي تقول في إعجاب مصطنع:

- يبدو لي يا مستر تومسون أنك تعرف أين وكيف تخطو خطوتك.

تحول الآن إلى رجل آخر، كان وكأنه انتهى من فصل وانتقل إلى فصل آخر، في صراحة قال:

- دعي الإطراء جانبًا... أين الأخبار؟!

في تباطؤ أخرجت سامية من حقيبتها نوتة جد صغيرة، ما إن قلبت صفحاتها في اهتمام حتى هتف:

- هل هذه هي الأخبار؟!

- نعم.

قالتها في بساطة فبدت عليه خيبة الأمل وهو يهتف:

- غير معقول.

مالت نحوه في حدة من ينهر صاحبه وهي تقول:

- هل كنت تريدني أن أكتب الأخبار وأحملها معي وأنا أغادر مصر؟! إن هذا هو الجنون بعينه.

بدت عليه الدهشة، لكنه قال:

- ولكنك أرسلتها مع نبيل.

- لأن نبيل ليس صحفيًا، ولم يمكث في القاهرة سوى يومين، ولم يكن لدي وقت كي أفعل شيئًا آخر.

همّ بالحديث فأردفت:

- إن هذه النوتة ليس بها سوى نقاط تذكرني بما أحمله هنا.

أشارت بيدها نحو رأسها فابتسم هاتفًا:

- آه...

- وعلى كلٍّ، فهذه مشكلة لم تضعها في جدول الأعمال، ولست أدري كيف سيمكننا التغلب عليها... إن بعض هذه الأخبار تعتبر أسرارًا خطيرة.

في لهفة من وجد ما لا يتوقعه قال:

- لا عليك فلنبدأ العمل... ثم نبحث بعدها عن حلول لمشاكلنا.

وهكذا... راحت سامية فهمي تلقي على مسامعه من الأنباء ما كان يجعله ينتفض في مكانه فرحًا وسرورًا.

* * *

في صبيحة اليوم التالي، كانت سامية فهمي تقف مع نبيل سالم، في ساحة من ساحات بيع السيارات المستعملة وسط مئات السيارات، وكان عليها أن تنتقي ما يروق لها.

الفصل السابع والثلاثون

الجَوْلة الأخيرة

هدأت سامية فهمي تمامًا بعد هذا اللقاء الأول مع «أدريان تومسون» وبدا لها كل شيء طبيعيًا للغاية، أصبحت تتحرك وتناقش وتتحدث، وقد سقط عن وعيها ذلك الإحساس بالتوتر أو الترقب أو الخوف... ولقد حاولت أن تعبر لي عما كانت تشعر به في تلك المرحلة الغريبة والقاسية، فلم تجد تعبيرًا أكثر دقة من أنها أحست أنها دخلت «قالبًا» صنعه لها عادل مكي «على المقاس» وأنها لم تعد تشعر بأي نوع من أنواع الارتباك كلما أمطرها «أدريان تومسون» بوابل من الأسئلة التي كانت تأتيها عبر دردشة حول خبر أو معلومة بدت له غامضة أو أراد الاستزادة منها.

غير أن الذي لا شك فيه أن «أدريان تومسون» لم يكن بالغفلة التي حاول التظاهر بها... فإن دراسة نوعية تلك الأسئلة التي طرحها على سامية فهمي طوال سبعة أيام عاشتها في روما وكأنه لا عمل لها إلا الإجابة عن تلك الأسئلة، تُنبئ عن شكوك حيّرت الإسرائيليين كثيرًا... ذلك أن الأمر – في الواقع – كان يبدو غريبًا كل الغرابة... فسامية فهمي كانت تتمسك بوطنيتها تمسكًا لا ريب فيه، أو على الأقل بدا لهم الأمر وكأنها تتظاهر بذلك... ثم ، ثم لم تكُف كلما دارت بينهما مناقشة من تلك المناقشات، وكلما ضغط عليها لاستخلاص المزيد من المعلومات بحجة إلقاء الضوء على بعض

الجوانب الغامضة... لم تكف عن تحذيره بأن نشر أي خبر أو نبأ من تلك التي نقلتها إليه سوف يؤدي إلى قطع العلاقة بينهما دون إنذار.

لم يكن الأمر سهلًا بأي معنى من المعاني... بل، لم يكن الإبقاء على سامية فهمي في روما إلا للتيقن مما حملت من معلومات بدت للمخابرات الإسرائيلية وكأنها كنوز تَفَجّر عنها نبع لم يكن في الحسبان... ولقد أدرك عادل مكي منذ اليوم التالي لوصول سامية فهمي إلى العاصمة الإيطالية... أنهم ابتلعوا الطعم في مرحلته الأولى على الأقل... ذلك أن أدريان بعد أن استمع إلى ما جاءت به سامية من أخبار، طلب منها أن تجلس إلى مكتبه وأن تكتب كل ما لديها... فلم تمانع سامية فهمي، وجلست بالفعل إلى المكتب وانهمكت في العمل حتى جن الليل، ولم تنته مما في يدها إلا وقد جاوزت الساعة التاسعة مساءً.

خلال اليوم اتصلت بنبيل سالم الذي وجدته في انتظارها، فاعتذرت له عن عدم اللقاء به في تلك الليلة وضربت له موعدًا على التليفون في صباح اليوم التالي، فلم تكن تعرف ما الذي تخبئه لها الساعات القادمة... وما إن غادرت مكتب تلك الوكالة المزعومة عائدة إلى الفندق، حتى بدأت حركة محمومة رصدها رجال عادل مكي بدقة وانتباه بالغين فيما بين الوكالة وأحد الأمكنة التي كان الإسرائيليون يستعملونها في روما، مما دفع إلى الظن بضرورة وجود شخصية لها وزنها من المخابرات الإسرائيلية في العاصمة الإيطالية في ذلك الوقت... ولقد رصد الرجال ما حدث تمامًا، وطارت إلى القاهرة معلومات كاملة عما كان يحدث، بالدقيقة والثانية، وكان مما بعث بالطمأنينة والقلق معًا إلى نفس عادل مكي القابع خلف أسوار الصمت في كوبري القبة، ذلك النبأ الغريب الذي وصله على عجل في مساء اليوم التالي... والذي يقول إن أحد رجال «الموساد» المشهود لهم بالكفاءة في التحليل، قد شوهد وهو يغادر طائرة شركة العال الإسرائيلية في مطار روما... وبالرغم من أنه أفلت من المراقبة التي فرضت عليه لسبب

خارج عن إرادة الرجال، فإن حقائق الأمور كانت تشير إلى أنه توجه إلى «بيت آمن» آخر... ذلك أنه لم يذهب إلى البيت الآمن الأول، كما أنه لم يذهب بحال من الأحوال إلى مبنى السفارة الإسرائيلية.

كان الأمر يدعو إلى الطمأنينة لأن ما حملته سامية من أنباء قد أصاب الهدف وأثار الاهتمام إلى هذا الحد... كما أنه كان يبعث على القلق، لأن احتمالات اكتشاف ثغرة أو خطأ، ولو كان كلمة صدرت عن سامية عفوًا وبلا قصد، كانت كفيلة بتدمير كل شيء.

ولذلك، وعلى مدى اليومين التاليين... كان على سامية فهمي أن تقوم بجولة في معارض السيارات المستعملة كي تنتقي السيارة التي تروقها، كما كان على نبيل أن يأخذها في رحلات إلى معالم روما للمرة الثانية، في جولة ثقافية لتلك المعالم التي لم تشاهدها في زيارتها السابقة إلى العاصمة الإيطالية كما ينبغي.

حتى إذا انقضى اليومان، كان على أدريان تومسون أن يخطو فيها، ومعها، الخطوة التالية.

* * *

في لقائهما الثاني، راح أدريان تومسون يسألها عما إذا كانت تقضي وقتًا ممتعًا مع نبيل سالم، وإذا ما كان اختيارها قد وقع على السيارة التي تريد شراءها، والأماكن التي زارتها والأماكن التي يجب أن تزورها... ولقد بدا لها الأمر وكأنه نوع من الدردشة فانساق الحديث إلى أسئلة حول بعض المعلومات التي حملتها إليه.

وكان هذا بالضبط هو ما قال عادل مكي أنه سوف يحدث.

والغريب في الأمر، أن أدريان تومسون سألها عن تلك المعلومات التي قالها لها عادل ذات مرة وكأنه يقول شيئًا عابرًا خطر له، إن أدريان سوف يسألها عن تلك المعلومات بالذات أسئلة محددة وذات مغزى نبهها إليه...

ولقد قال لي عادل مكي ضاحكًا: إن الأمر لم يكن فيه ذكاء ولا عبقرية، فهذه المعلومات، كانت خاصة ببعض الصناعات الإستراتيجية، والتي كان لا بد لأدريان أو أي ضابط مخابرات آخر، أن يسألها عنها وحولها... وبصرف النظر عن تواضع هذا الشاب، مما جعلها تتدفق في الحديث بسرعة موضحة بعض الأمور حاجبة البعض الآخر كما اتفقت مع عادل تمامًا، مما جعل الاطمئنان يدخل إلى نفوس الإسرائيليين يومًا بعد يوم.

أما سامية، فبرغم المعركة المهلكة - كان هذا تعبيرها - التي كانت تخوضها وكأنها تسير فوق حد سيف قاطع، فلقد كانت مشغولة حقًّا في مراقبة نبيل سالم، وما اعتراه من عصبية بدت لها غريبة كل الغرابة.

لم يكن نبيل هذا الذي أوشك أن يكون متفرغًا لها هذه المرة تفرغًا شبه كامل، هو نبيل الذي التقت به في زيارتها السابقة، بل لم يكن هو نبيل الذي عرفته على الإطلاق... كان بالرغم من حبه الذي التهب فجأة التهابًا بعث إلى نفسها بالدهشة والاشمئزاز معًا، يبدو كمخلوق بائس بلا حول ولا طول... وبالتأكيد، فلقد كان هذا أمرًا طبيعيًا للغاية، فلقد وجد هذا الشاب التعس نفسه - على حد تعبيره فيما بعد - كالأطرش في الزفة... كان كل ما عليه أن يفعله، هو طاعة أبي سليم الذي راح يلقي إليه بالتعليمات في صرامة وجدية وتجهم معًا، بما يجب عليه أن يفعله مع سامية وما لا يجب... لكن الذي حز في نفسه حقًّا، هو أنه لم يكن يستطيع أن يلتقي بسامية فهمي، إلا إذا أمره أبو سليم بذلك، وإذا ما طلب منه أن يعتذر لها عن موعد أو لقاء، كان يفعل صاغرًا.

ولقد حدث هذا مرة أو مرتين خلال الأيام السبعة الأولى، وكانت سامية تجد نفسها وحيدة، وكان عليها أن تفعل ما اتفقت عليه مع عادل مكي بالحرف... فكانت تخرج إلى الشوارع، وتتسكع هنا وهناك، لا يلفت نظرها ولا يوقفها للتأمل سوى نافذة زجاجية لأحد المحلات التي تعرض ملابس من نوع فاخر، أو معرض فاخر للسيارات كانت تتسمر قدماها

أمامه وكأنها تحلم بامتلاك إحداها... كانت تعلم الآن أنها مراقبة، وأن كل خطوة من خطواتها تحسب عليها وتدخل عقولًا دربت على التحليل والاستنتاج.

بعد مرور أربعة أيام بدأ القلق يساور سامية فهمي، كان أدريان قد التقى بها مرتين عقب لقائهما الأول ذاك الذي دعاها فيه إلى طعام الغداء... وفي كل مرة كانت تواجه سيلًا منهمرًا من الأسئلة - التي عادة ما كانت تأتي عبر دردشة عادية - لا حول ما جاءت به من أخبار أو معلومات وإنما عن الحياة في مصر... وفي الليلة التي دعاها فيها أدريان إلى العشاء في مطعم منعزل عند أطراف روما، وكان الحديث بينهما ينساب من موضوع إلى موضوع عندما توقفت سامية عن تناول الطعام وهي ترمق أدريان بنظرة جعلته يتوقف دهشًا:

- لماذا توقفت عن تناول الطعام؟!

في استقامة بدت للرجل غير منطقية قالت:

- لأني لاحظت يا سيد أدريان، أن ما تلقيه عليّ من أسئلة لا علاقة له بما يجمعنا من عمل.

- كنت أظن أننا أصبحنا صديقين نستطيع مناقشة همومنا المشتركة.

- همومنا المشتركة.

- دون شك... إني، حتى كصحفي، لا بد من أن تكون الأوضاع السياسية في بلاد تشتعل فيها الحرب منذ سنوات، وتوشك الآن على الاندلاع من جديد، من همومي.

كان ما يقوله منطقيًا تمامًا، فتظاهرت سامية بالاقتناع بما قال وتمتمت كالمعتذرة:

- أرجو أن تغفر لي انفعالي يا أدريان، يبدو أن إحساسي بالوطن يجعلني شديدة الحساسية.

- هذا أمر طبيعي، وهذا من حقك أيضًا.

- أشكر لك تفهمك لموقفي، وأرجو ألا نعود لمثل تلك الأحاديث مرة أخرى.

خطت سامية تلك الخطوة التي أنبأها عادل مكي أنها ستكون شديدة الحساسية والخطورة ولكن لا مفر منها، فإذا ما كانت قد باحت لنبيل سالم بأمر التنظيم الطليعي، فلا بد أن الخبر قد وصلهم، ولم يعد هناك ضرر من أن تنبئهم هي به على أنه سر الأسرار وقدس الأقداس وألا تخوض، بل ترفض الحديث في الأمور السياسية... لذلك، فعندما قالت ما قالت وهتف أدريان مبديًا دهشته:

- ولكن لماذا... إن المناقشة تفيد كلينا.

- أعلم هذا... ولكن هناك ما يمنعني من الخوض في مثل هذه الأمور.

- لست أفهمك.

نظرت إليه نظرة من غلب على أمره، قالت هامسة:

- هناك سر أود أن أطلعك عليه بشرط أن تعد بعدم البوح به.

- أقسم لك ألا أفعل أبدًا.

- في مصر تنظيم سياسي سري داخل الاتحاد الاشتراكي هو التنظيم الطليعي، ولذلك، فثمة معلومات تتاح لي بصفتي هذه، فهل من الأمانة أن أبوح بما أعرف.

- لا... لا بكل تأكيد.

وافقها أدريان على كل ما ذهبت إليه... وهو - بالطبع - لم يوافقها اقتناعًا، وإنما وافقها كخطوة أولى كان مدركًا كيف كان يخطط بعدها للخطوة الثانية، ثم الثالثة، ثم إلى حيث كانت تقوده أحلامه.

في تلك الليلة كان كل شيء يبدو على ما يرام عدا تلك العقبة التي وقفت في طريقهما، وهي كيفية وصول الأخبار من مصر إلى أدريان عبر قناة آمنة... راحا يقلّبان الأمر على كل وجوهه، فبدت لهم السبل مسدودة، فلا البريد يصلح، ولا وصول من يتسلم منها الأخبار، حتى ولو كان نبيل، وتردده على القاهرة آمن، ولا حتى سفر سامية إلى روما بين الحين والحين... فكل تلك الوسائل كانت تحمل من المخاطر ما ليس في حاجة إلى إيضاح... حتى إذا جاءت لحظة هتفت فيها سامية في يأس:

- يبدو أن عملي معك يشكل عليك عبئًا ثقيلًا يا أدريان.

- ماذا تعنين بالله عليك؟!

- لقد ناقشنا كل الاحتمالات دون أن نجد وسيلة آمنة نعمل من خلالها.

- قد يساعدنا العلم على تخطي العقبات.

خفق قلبها في عنف، ها هو ما حذرها منه عادل مكي يطل برأسه من خلال كلمات الرجل الجالس أمامها كالثعبان والبراءة كلها على وجهه. سوف يحدثها عن الكربون السري... قالت وهي تتصنع دهشة لم تشعر بها:

- أي علم هذا؟!

- هل تعرفين الكربون؟!

- بالطبع.

- ما لونه؟!

ضحكت للسؤال الذي بدا لها سخيفًا:

- إما أسود أو أزرق.

- فما رأيك في كربون بلا لون؟!

- بلا لون؟! إنك تمزح.

- ليس في الأمر مزاح.

- إذا كان بلا لون، فما فائدته إذن؟!

- فائدته أن أحدًا لا يستطيع قراءة ما كتب به، إلا إذا كان يملك محلولًا يظهره.

- لست واثقة من أني فهمت ما تريده على وجه الدقة.

- في بعض المكتبات المعينة هنا في روما، يباع - لبعض الشركات ذات النفوذ دون غيرها - كربون إذا ما كتبت فوقه رسالة، ستبدو الورقة وكأن سطرًا لم يكتب عليها، فإذا ما مَرَّرْت عليها قطعة من القطن بأسلوب خاص، ومبللة بذلك المحلول ظهرت الكتابة.

هتفت سامية ساخرة:

- وماذا لو فتحوا الخطاب في الرقابة البريدية ووجدوا الورقة خالية.

- لن يجدوها خالية، بل سوف يجدون فيها، على الوجه الآخر من الورقة، رسالة عادية منك إلى نبيل.

ساد الصمت هذه المرة طويلًا، لزمته سامية فلزمه أدريان وهو يرمقها بعينين شديدتي اليقظة... بدا عليها الهم فأزاحت الطبق من أمامها، رشفت من كأس العصير رشفة بللت - بالكاد - شفتيها... أخيرًا قالت:

- ألا ترى أن في هذا الأمر مخاطرة كبيرة يا مستر تومسون؟!

كان أدريان قد تعوّد الآن، أنها إذا ما نادته بلقب مستر، فلا بد أن الحوار سوف يدخل بهما منطقة شديدة الخطر... ولذلك، فلقد هتف مخففًا وقع الأمر عليها:

- هذا أمر سوف تحددينه أنت، لا أنا.

- وكيف؟!

- إذا ما اشترينا ولو ورقة واحدة من هذا الكربون، وزجاجة من هذا المحلول.

- وهل هذا متيسر؟!

- ليكن هذا أول ما أحاوله في صباح الغد.

لم تعد ترى نبيل سالم في الأيام الثلاثة الأخيرة إلا لِمَاما... كان اختيارها قد وقع على سيارة متوسطة الحجم من ذلك النوع الذي انتشر في مصر في تلك السنوات، وكانت السيارة في حالة جيدة جدًا... وقعت الأوراق ولم تدفع مليمًا، تَكَفَّلَ نبيل، الذي كان الآن يفصح عن حقيقته بأسلوب فج، تكفل بكل شيء... تسلمت عقد السيارة كما تسلمت بوليصة شحن على إحدى السفن إلى الإسكندرية من نابولي... وأصبحت تقضي جل وقتها الآن، صباحًا أو مساءً. مع أدريان، أو في جولات كانت تقوم بها في شوارع المدينة تاركة نفسها لخطواتها... كانت قد شاهدت في صبيحة اليوم التالي ذلك الكربون السري وذلك المحلول الذي وضع في زجاجة عطر من ماركة عالمية اشتهرت بين سيدات الطبقة الراقية في القاهرة... كان ورق الكربون من نفس النوع الذي شاهدته في تلك الغرفة رقم ٨ التي تعودت أن تلتقي فيها بعادل مكي... وكانت على استعداد لأن تجري التجربة، أن تكتب شبه تقرير بالكربون السري، ثم تكتب خطابًا على الوجه الآخر لنبيل، ثم تظهر الكتابة بذلك المحلول... في ذلك الصباح، وفي تلك اللحظات بالذات وهي جالسة مع أدريان تومسون في مكتبه ذاك بوكالة أنبائه المزعومة، جاءها صوت عادل مكي وكأنها تسمعه حقيقة محددًا لها أسلوب تلقي الأمر:

- جربي، واكتبي، وهاوديهم على كل حاجة... بس تعالي عند حتة إنك تجيبي الكربون معاكي مصر... وارفضي.

ولقد جربت وكتبت وأظهرت الكتابة وأبدت دهشتها وتساءلت في فزع: إلى أين يقودنا العلم الحديث؟ فبادلها أدريان الابتسام والمرح وهو يقول:

- كما ترين... الأمر في منتهى السهولة.

- معك كل الحق، ولكن... في الكتابة أو الإظهار فقط.

- ماذا تعنين؟!

- أعني أنه ليس سهلًا أن أحمل معي تلك الأشياء وأدخل مصر.

همَّ بالحديث لكنها انبرت في تحد:

- أتظن أنهم سوف يصدقونني إذا ما قلت لهم إن هذه أدوات صحفية؟!

- ثقي أنهم...

قاطعته في فزع حاد:

- مستر تومسون لا تحاول.

همّ بالحديث فنهضت مستعدة للانصراف:

- لا تحاول يا سيدي فلست مستعدة للزج بي في السجن.

- إنك تبالغين يا سامية!

- هل تستطيع أن تخبرني ماذا لو فتشك أحد ضباط مطار هيثرو ووجد معك تلك الأشياء؟! كيف سيكون تصرفه؟!

- إنهم يفتشون الحقائب، لكنهم لا يفتشون ما لا يرونه.

- أعني أنكِ تستطيعين شراء حقيبة إيطالية الصنع، وأن يكون فيها جيب سري من المستحيل اكتشافه، يوضع به الكربون السري... أقسم لك إن...

صاحت في نفاد صبر:

- جه يكحلها عماها.

قالتها بالعربية ساخرة ثائرة فسألها:

- ماذا تقولين بحق الشيطان.

- كنت أردد مثلًا مصريًا يعنى أنك أردت أن تُجَمّلَ الأمر فازداد قبحًا.

- كيف؟!

- أنا لا أسمح لنفسي بأن أدخل بلادي وفي حقيبة يدي جيب سري حتى ولو كان خاليًا.

ألقى أدريان بنفسه فوق المقعد كمن فاض به وهو يدمدم:

- ليست هذه طريقة مُثلى للعمل، وليست حتى طريقة طبيعية.

- إني أعتذر عما سببته لك من متاعب وعما أخذت من وقتك ولكن هذا موقفي الذي لن أتزحزح عنه مهما كانت الدوافع ومهما كان الأمر.

خطت نحو الباب فهب ثائرًا:

- وماذا إذا ما وصلتكي تلك الأشياء في مصر؟!

جمدت في مكانها وقد التفتت إليه:

- ماذا تعني بالله عليك؟!

- أعني أن عددًا صغيرًا لا يزيد على خمس ورقات من هذا الكربون، مع زجاجة من عطرك المفضل سوف تسلم إليكي في القاهرة.

- ومن الذي سوف يسلمها لي؟!

- لست أدري بعد، ولكنه لا بد أن يكون محل ثقة كاملة مني ومنك.

- على أن أعلم من يكون قبل أن يصلني.

- أعدك بهذا ولكن...

قال هذا وتوقف وقد بدت عليه الحيرة، عادت إلى مقعدها متسائلة:

- مشكلة أخرى؟!

- نعم؟!

- هات ما عندك.

- لقد شكوت من بطء الأداء وصعوبة الاتصال بيننا، وكان معك حق في كل هذا، فهل سترفضين وسيلة تجعل أداءنا أكثر سرعة؟!

- وكيف أرفض مثل هذه الوسيلة؟!

- لأنها ستأتيك عبر الراديو.

قفزت مرة أخرى وهي تصيح:

- لا بد أن الصحافة في أوربا قد تقدمت بشكل مذهل لم تلحق به مصر بعد، ولا أعتقد أننا نريد أن نلحق بهذا النوع من الصحافة.

- ألا تستطيعين الانتظار حتى أنتهي من شرح الأمر؟!

- لأن ما تقوله أيها السيد يثير الجنون والفزع معًا.

- لماذا؟!

- لأن مثل هذه الرسائل، في كل دول العالم تُلْتَقَطُ... أنا نفسي سمعت بعضها وأنا أحرك مؤشر الراديو ذات مساء... فهل تريد أن تذهب بي إلى الليمان يا أدريان؟!

كانت سامية فهمي رائعة بحق، كانت بسيطة وطبيعية وكأنها تحيا التجربة بكل مشاعرها وأحاسيسها، وكان لا بد له من الصبر كي يقنعها باستكمال الحديث، وهي من جانبها قد سمحت له بذلك فحدثها عن سهولة العثور على المحطة وسهولة التقاط الرسالة، فثار الجدل حتى حدثها عن الشفرة، فشحبت وهي تهتف:

- هي حَصَّلت.

لم يسألها عما قالت بل سألها:

- من كاتبك المفضل في مصر؟

- نجيب محفوظ.

- لماذا؟!

- لأنه الموضة الأدبية الآن في العالم العربي، ولأن كل المصريين يقرأونه، ولأنه يقول كلامًا مفيدًا.

- أي رواياته تفضلين؟

- كيف عرفت أنه كاتب رواية؟!

كاد ينشق من الغيظ فأخذ يصيح:

- كيف عرفت.. رباه... ألا تعرفين أيتها الآنسة العنيدة أني مهتم بالشرق الأوسط، وأن معلوماتي عن المنطقة لا بد أن تشمل مع السياسة آدابها وفنونها؟!

بدا عليها أنها هُزِمت فقالت:

- اللص والكلاب.

- هل لديك نسخة منها في البيت؟

- نعم.

- أية طبعة؟

- الثالثة.

- هل أنتِ واثقة؟

- تمامًا... لأنه أهداني إياها رغم أني لست أديبة.

- حسن... الرسالة التي سوف تتلقينها مني عبر الراديو...

وراح يشرح لها، بدقة، وبتفصيل وتأن، كيف يمكنه أن يستأجر من إذاعة روما بضع دقائق تبث على موجة بعينها، وكيف أن عليها أن تنتظر الرسالة على تلك الموجة وفي الساعة التي سوف يتفقان عليها، وكيف أن تلك الرسالة سوف تبث وسط رسائل أخرى عديدة. وأن الرسالة لن تبث باسمها، بل باسم فتاة أخرى في دولة أخرى... فإذا ما نقلت الرسالة، سوف تكون مواضع الكلمات وأرقامها دليلًا يرشدها إلى الكلمات المعنية في الطبعة الثالثة من رواية اللص والكلاب، والتي ستكون، كلمة بعد كلمة، الرسالة المطلوبة.

- وكيف أجد هذه الشفرة.

- سأكتبها لك في نصف ورقة.

- إذن فلسوف تكون هناك أوراق بها رموز غامضة.

- إنها نصف ورقة.

- آسفة... لن أحملها معي.

- أوكي، سأرسلها مع العطر والكربون.

زفرت في تأفف وهي تقول:

- لقد كان نبيل على حق.

- نبيل؟!

- نعم... لقد حذرني ولم أنتبه لتحذيره.

أقسمت سامية فهمي إنها رأت ذلك الذي أطلق على نفسه اسم أدريان تومسون ينتفض أمامها انتفاضًا... وأن شحوبًا غريبًا اعترى وجهه واجتاح لونه وهو يسأل:

- ما الذي حذرك منه نبيل سالم؟!

- قال لي إن رأس المال لا يرحم، وإنه في مقابل كل ليرة أو دولار يقبضها الإنسان، يدفع في المقابل من دمائه وأعصابه ما يوازي عشرات أمثالها.

- ولذلك... فالغرب دائمًا متقدم.

- نحن نختلف في مقياس التقدم يا سيد تومسون، فلا داعي لأن تخوض في مثل هذه المناقشة.

- والآن...

هكذا سألها فردت:

- متى تسمح لي بالسفر، إن لي أسبوعًا كاملًا في روما عملت فيه ما يكفي لأجر شهر أو يزيد.

مد يده في جيبه وكأنه يفاجئها بما لم تكن تنتظر وهو يخرج ظرفًا مفعمًا بالدولارات:

- وهذا مرتب ثلاثة شهور أخرى بعد تعديله... مضافًا إليه مكافأة شهرين.

دون تردد تناولت منه الظرف ودسته في حقيبة يدها وكأنها تحاول أن تداري لهفتها مغمغمة:

- متى أعود إلى القاهرة؟

- عندما تنتهين من التدريب على استقبال الشفرة وحلها.

ولقد استغرق هذا الأمر يومين آخرين... كانت سامية تستقبل الرسالة - في البداية - عبر شريط مسجل كان يدور في راديو صغير وأنيق... ثم أخذت تستقبل الرسائل على موجة حددها لها، وراح يدربها على ضبط الموجة حتى تصبح الرسالة أكثر ما يكون الأمر وضوحًا.

- ولكني لا أملك راديو حساسًا كهذا.

- سوف نرسل لك واحدًا.

قالها بسرعة كي يعود إلى ما كانا فيه عندما أزاحت الأوراق والقلم من أمامها.

- ماذا بك؟!

- أدريان... لست أريد أن أخدعك.

- ماذا هنالك؟!

- لست واثقة من أني سوف أتذكر كل هذه الأمور المعقدة في القاهرة كما ينبغي.

- ماذا تعنين بهذا؟!

- أعني أن ذاكرتي ليست بالقوة التي تجعلني أثق فيها، ثم، وهذا هو المهم... إني مرتبكة وخائفة وأنا أتدرب على كل هذه الأشياء هنا في روما، حتى ليخيل إليّ أحيانا أن البوليس قد يداهمنا بين لحظة وأخرى... فما بالك وأنا في القاهرة؟! لا بد أني سأنسى، بل المؤكد أني سأنسى، على الأقل، خوفًا وارتباكًا.

كانت هذه الجملة الأخيرة التي قالتها سامية، مؤشرًا فذًا إلى اندماج تلك الفتاة فيما كانت فيه، ذلك أن هذا الموضوع بالذات، موضوع النسيان، لم يكن قد طرح بينها وبين عادل مكي... ولقد ساد الصمت لثوان حتى هتف وكأنه وجد الحل:

- حسن، فليطمئن بالك.

- كيف؟!

- سيكون هناك من يراجع معك كل شيء في القاهرة أيضًا.

هكذا حسم الأمر الذي تقبلته سامية على مضض... كانا قد اتفقا على أن تطير إلى روما بعد يومين تقضيهما مع نبيل في سياحة خارج روما تركب

فيها القطار إلى مدينة فلورنس لتقضي فيها ليلة، ثم تعود إلى الوطن على أن تُشْحَنْ لها السيارة خلال أيام، ولسوف تصلها برقية من نبيل بموعد وصول السيارة إلى ميناء الإسكندرية.

حتى إذا حانت ساعة الوداع، صافحت أدريان في حرارة شابها قليل من الفتور... ولقد قالت له إنها سوف تبدأ في انتظار وصول المعدات إلى القاهرة بعد سبعة أيام من لحظة وصولها، فتمنى لها رحلة طيبة، وتمنت له صيدًا ثمينًا.

أرادت أن تسحب يدها من يده لكنه تشبث بها متسائلًا:

- لماذا هذه الأمنية بالذات؟!

- لأني أشعر أنك ألقيت علي بشباكك في مهارة، واستطعت صيدي.

كانت جملتها بليغة إلى الحد الذي جعلها - هي نفسها - تدهش، كيف فاهت بها ومن أين نبعت معانيها.

* * *

في اليوم التالي ركبت القطار مع نبيل إلى فلورنس، أخذتها المدينة العريقة أخذًا فراحت تنهل من معالمها وفنونها بنهم لا يعرف الشبع، عندما وصلا إلى الفندق وحجزا غرفتين أراد نبيل أن يتولى عنها دفع الحساب لكنها رفضت... صاح محتجًا:

- بس أنا عاوز أعزمك على رحلة فلورنس دي يا سامية.

- وليه ما عزمتنيش عليها المرة اللي فاتت يا نبيل؟!

قال نبيل سالم فيما بعد أن سؤال سامية هذا وجه إليه مثل لطمة صعدت لها الدماء إلى وجهه والتهبت لها أذناه... كان الآن، وبعد كل هذا الذي

حدث طوال تلك الأيام في روما، محبًا بكل ما تحمل الكلمات من معنى، أدرك كم كان مخطئًا عندما أرشد أبا سليم إلى سامية، كما أدرك بيقين، أنه فقد فتاته إلى الأبد وزاد هذا من اشتعال حبه.

طوال اليومين اللذين قضياهما في فلورنس، لم يكفا عن السياحة والحركة ومشاهدة كل معالم المدينة التي بدت لسامية وكأنها خلية نحل تموج بالسياح من كل بقاع الأرض... حتى...

حتى جاءت الليلة الأخيرة.

طلبت منه سامية أن يدعوها إلى منطقة بعيدة عن العمران، قالت إنها تريد أن تنفرد به وألا يشاركها فيه أحد... عندما وصلا إلى ذلك المحل راحت تنظر إليه وهي تتذكر كم أحبته، وكيف ضحت من أجله، وكيف حطم هذا الشاب أحلامها ودمرها تدميرًا... كيف كان قاسيًا عليها كما كان قاسيًا على نفسه... كانت تتساءل وعيناها تمتصان ملامحه امتصاص من يخشى ألا يراه مرة أخرى: هل يحمل الإنسان بذرة موته في لحظة ميلاده حقًا؟! وهل يسعى البعض منا إلى تدمير أنفسهم بوعي أو بلا وعي، لسبب أو لآخر؟!

كانت سامية في تلك الليلة حزينة حزنًا رهيبًا، وهي لم تحاول، إخفاء حزنها عن نبيل، كانت تعلم يقينًا أن المستقبل يحمل في طياته ما لا يمكن التنبؤ به... أما نبيل، فلقد قال فيما بعد إنه كان يشعر يقينًا... بأن هذه هي آخر مرة يرى فيها سامية فهمي، وبالرغم من أنه لم يستطع تفسير شعوره هذا ولا أدرك سببه، فلقد قال: إن ما كان ظاهرًا أمامه من أحداث، كان ينبئ بما يشعر به!

- إيه الحكاية يا نبيل؟!

- مش عارف.

- إيه اللي بينا؟!

- أنا أقدر أعرف اللي بي.

- إيه اللي بيك؟!

- باحبك أولًا.

- وثانيًا؟!

- حاسس إني مش حاشوفك تاني.

أحست سامية أنها أصيبت بشلل كامل... كانت لحظات غريبة تلك التي تجمد فيها الزمن متوقفًا عند حالة بعينها لثوان طالت، حتى إذا ما وجدت صوتها كان كالدمع ينحدر من بين شفتيها:

- ليه قلت كده يا نبيل؟!

- مش عارف... آهي تخاريف حب.

- طب ما تشوف لك حاجة ثانية تخرف فيها.

في صباح اليوم التالي وصلا إلى روما، وفي المساء أوصلها إلى المطار قبل الموعد بساعة... أراد البقاء معها حتى موعد دخولها إلى صالة الرحيل لكنها كانت تتعجل الانصراف... ألحَّ في البقاء فقالت:

- بلاش تطول مدة الألم يا نبيل.

- طب خمس دقائق كمان؟!

- لا... أرجوك بلاش.

كانت تحاول أن تتماسك لكنها لم تستطع.

رغم كل ما بذلت من جهد لم تستطع، فانفجر الدمع من عينيها مدرارًا وهي ترتمي بين ذراعيه باكية:

- خلي بالك من نفسك يا نبيل... خلي بالك من نفسك.

كان دامع العينين هو الآخر، دفعها برفق كي ينظر إلى وجهها قائلًا:

- إذا كنت غلطت في حقك في يوم من الأيام، ممكن تسامحيني؟!

- أنا سامحتك من قبل ما تغلط.

قالتها وهي تفر مهرولة إلى حيث اختفت عن ناظريه، لكنها لم تنظر إلى الخلف، ولا مرة.

* * *

- إيه اللي انتي لابساه ده؟!

- ما لك يا سيد عادل؟!

- فين الهدوم الجديدة؟!

- ما خلاص، مش التمثيلية خلصت؟!

- غلط.

- إيه هو اللي غلط؟!

- دلوقت غلط، لازم تفضلي زي ما انتي لحد العربية ما توصل ولحد ما يبعت لك الحاجة.

- يعني إيه ده بقى؟!

في صبر أيوب راح عادل مكي يشرح لها أن الناس الذين رأوها قبل السفر وقد ارتدت تلك الملابس الجديدة واعتنت بمظهرها وزينتها، سوف يتساءلون عن السبب في عودتها إلى أسلوبها القديم، خاصة بعد أن عادت من إيطاليا، حيث المفروض أنها قضت أيامًا سعيدة مع من تحب، فوق أنها اشترت سيارة لا بأس بها.

هتفت كمن ضاق حتى بنفسه:

- ما اعرفش بقى.

- ما أنا قلت لك... هانت.

- إمتى... إمتى تخلص بقى يا عادل بيه أنا تعبت؟!

- أول نبيل ما يوصل.

كانت جملته مثل خنجر اندب في صدرها فأصاب منها القلب تمامًا.

كانت أمام الحقيقة ساطعة حارقة لا مواراة فيها.

وكان لا بد من مواجهتها.

كان لا بد لها أن تظل على تظاهرها، وأن تجلس في انتظار وصول نبيل سالم إلى حتفه.

الفصل الثامن والثلاثون

الفَصل الأخير في كوميديّا دامِعَة

كانت الساعة قد جاوزت العاشرة صباحًا بقليل عندما التقت سامية فهمي بعادل مكي الذي رحب بعودتها في حرارة بعثت الدهشة إلى نفسها... كان الذي أدهشها حقًّا، إحساسها بصدق مشاعره... كان وكأنه صافح بطلًا عاد إلى الوطن، بعد أن شرفه في مباراة عالمية في الخارج.

كان عادل مكي مدركًا للحالة العصبية التي عادت بها سامية من روما... وبالرغم من انتصاراتها التي حققتها بامتياز حقيقي، فإن تلك العواطف التي نختزنها في نفوسنا ولا نملك حيالها شيئًا، تكون في بعض الأحيان من العنف والقوة، بحيث من الممكن، مهما كان إيمان الإنسان بما أقدم عليه وفعله، أن تحيل حياتنا إلى جحيم.

وعندما لاحظ عادل مقدار ما كانت سامية تعانيه، لم يحاول أن يخفف عنها، بل على العكس - هكذا قال لي بعد سنوات من هذا اليوم - كان مشفقًا عليها مما كان ينتظرها فيما هو قادم من أيام... ولذلك، فلقد كان ضروريًا أن يضعها حيث يجب أن تكون من المشهد كله، وأن ينتزعها مما كانت فيه إلى حيث الواقع القادم عليها بشراسة...

وهكذا، وبعد ما انتهت لحظات الترحيب، دار الحوار بينهما حول ما كانت ترتديه من الملابس... ولم يكن هناك ما تقوله أمام تلك الحجج التي ساقها إليها، ثم... ثم حان وقت العمل، فبدأت تقص عليه ما حدث.

* * *

كانت، يوم أن وصلت إلى القاهرة، قد تحدثت إلى والديْ نبيل تليفونيًا فهرولا إليها لتهنئتها بسلامة العودة... بقي الأب والأم معها لساعتين أمطراها خلالها بعشرات الأسئلة عن نبيل وأحواله ومركزه... ولم تكن تستطيع إلا أن تجيب بما يبعث بالأمل والسعادة والفخر إلى قلبيهما... قدمت لهما هديتين جاءت بهما إليهما، كما سلمتهما هديتين أخريين أرسلهما نبيل معها... وعندما انصرف الضيفان وانفردت سامية بأمها، فوجئت بالسيدة إقبال تسألها:

- ما لك يا سامية؟!

- ما ليش يا ماما... الحمد لله كل حاجة كويسة.

- إنتِ اتعلمت تكذبي عليّ من إمتى يا سامية؟!

كانت سامية قد أخبرتها بنبأ السيارة التي ابتاعتها والتي تنتظر وصولها إلى ميناء الإسكندرية بين لحظة وأخرى... كما أنبأتها بخبر اتفاقها مع وكالة أنباء إنجليزية على أن تكون مراسلة لها في القاهرة، وطلبت منها أن تحفظ الأمر سرًا بينهما حتى يتم توقيع العقد رسميًا - وكانت قبل السفر قد اتفقت مع عادل مكي على هذا حتى تتجنب الحرج إذا ما اكتشفت أمها ما معها من نقود أجنبية - قصت عليها قصة رحلتها إلى فلورنس وزيارتها الثانية لمعالم روما... وكانت السيدة إقبال تعاني من قلق غامض، حتى إذا حانت لحظة أثناء الحديث تحينتها السيدة إقبال كي توجه لابنتها هذا السؤال الذي اضطربت له سامية اضطرابًا شديدًا، ولقد ازداد ذلك الاضطراب عندما اتهمتها أمها بالكذب فهتفت في عتاب ولوعة:

- ليه قلتي لي كده يا ماما؟!

- لأن كلامك عن نبيل وزيارتك لروما حاجة... واللي انتي فيه فعلًا حاجة تانية.

- مش فاهمة.

- نبيل بيشتغل فعلًا في شركة عربيات؟!

- ده اللي أنا شفته.

- ومبسوط فعلًا في شغله؟!

- أيوه.

- وبيكسب كويس زي ما بتقولي؟!

- أيوه فعلًا... فعلًا يا ماما.

- غريبة.

كانت سامية تعلم السر وراء أسئلة أمها تلك فلم تشأ الاستمرار في الحوار فغيرته... لكن السيدة إقبال، قبل أن تأوي إلى فراشها، ضمت ابنتها إلى صدرها في حنان، ثم قبلتها في جبينها وهي تسألها:

- إنتِ مش بتعملي اللي عليك؟!

طالت نظرة كل منهما إلى الأخرى... كان ما يحدث من تلك السيدة يكاد يكون معجزة، هي موقنة أشد ما يكون اليقين أن حضرة الناظرة لا تعرف، ولا يمكن أن تعرف شيئًا عن الأمر برمته... لكنه، مرة أخرى، قلب الأم الذي يخفق بما لا يدريه العقل... قالت سامية باسمة بعد لحظات صمت:

- إنتِ إيه رأيك؟!

- ربنا معاك يا بنتي... ربنا يحميك.

كان هذا الدعاء من السيدة إقبال حسين بمثابة توقيع على عقد اتفاق بينهما بألا تعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى، وأن تترك ابنتها لما كانت تعاني منه معاناة كانت تنضح بها كل ملامحها وتصرفاتها معًا...

* * *

مضت ساعة وبعض الساعة وسامية تحكي لعادل مكي في تدفق ودقة بعثا بالدهشة إلى نفسها، وجدت نفسها تقص عليه من التفاصيل ما لم يكن - أبدًا - يعلق بذهنها، فصاحت في لحظة:

- مش معقول... مش معقول أبدًا ده.

- إيه ما لك؟!

- أنا فاكرة الحاجات دي كلها إزاي، وأنا... وأنا حاسة وكأن كل حاجة وكل حرف وكل كلمة أو تصرف وكأنها بتحصل قدامي تاني.

- ده أمر طبيعي.

- هو كل حاجة عندك لها تبرير جاهز؟!

- لاحظي إنك كنت متوترة جدًّا وصاحية جدًّا في الوقت ده.

كانت إجابته مقنعة فلزمت الصمت، وعندما همّت بالاستطراد أوضح:

- العشرة أيام اللي انتي قضيتيهم في إيطاليا كانوا صعبين جدًا... الله يكون في عونك حقيقي.

لم يكن فيما قاله مجاملة أو تشجيع، بل كان هذا يقينه وإيمانه مما نم عنه صوته، فأحست سامية بالامتنان لهذا الشاب الذي تحمل معها، ومع من لا تدري عنهم شيئًا، عذابات بلا حدود... قالت في صوت مضطرب:

- أنا فعلًا تعبت قوي يا سيد عادل.

- بس حميتي البلد من كارثة محققة.

- كارثة؟!

- خلي الكلام في الموضوع ده لوقت تاني، وخلينا في اللي إحنا فيه.

وهكذا عادت إلى الحديث مرة أخرى وقد صفا ذهنها أكثر فراحت تسرد عليه الأحداث حريصة كل الحرص ألا تفوتها كلمة، أو حتى ملاحظة عابرة... حتى إذا ما انتهت، أطرق عادل مكي لائذًا بالصمت... طال صمته دون أن تختفي الابتسامة من فوق شفتيه حتى اضطرت إلى القول ممازحة:

- طب خدونا معاكم.

- إحنا لازم نعترف أولًا إنهم بيشتغلوا بذكاء شديد جدًّا.

- بالعكس... أنا مختلفة معاك في ده.

- ليه؟!

- أنا تعاملي مع أدريان خلاني أحس إنهم على قدهم قوي.

- بيتهيأ لك.

- أديك مثل؟!

ضحك معتدلًا:

- إديني مثل.

- الحاجات اللي حايبعتوها دي حايبعتوها مع مين؟!

- مع نبيل.

هكذا في وضوح وبساطة وبلا لف أو دوران، فسألته:

- وهو نبيل اللي حايساعدني في استقبال الرسائل وحل الشفرة؟!

- بكل تأكيد.

- إذن نبيل لما حاييجي حايكون شايل الحاجات دي معاه.

- حاجات إيه؟!

هتفت في تذمر طفل يلاعبه أبوه:

- الكربون السري والحبر في قزازة البارفان ومفتاح الشفرة.

- ده كان تصوري في البداية يا سامية.

- وإيه اللي خلى تصورك يتغير؟!

- العربية.

قبل أن تسأل بادرها:

- مين اللي حايستلم العربية في إسكندرية؟!

- أنا طبعًا.

- وإذا كانت المعدات فيها، يبقى مين اللي استلمها؟!

نظرت إليه في فزع من اكتشف أنه هُزم هزيمة منكرة بعد أن كان يظن أن انتصاره كان ساحقًا... ضحك عادل مكي من قلبه، أطلق ضحكة جلجلت في الغرفة ثم قال مازحًا:

- علشان لما نقول لكم إن شغلتنا دي اسمها ذكاء، تبقوا تشغّلوا أمخاخكم.

- وإذا كنت أنا ما أعرفش هم مخبيين الحاجات دي فين؟!

- مش مهم إنك تعرفي، المهم إن المعدات تدخل مصر الأول.

همت بالحديث لكنه استطرد:

- وعلى فكرة... لازم تعملي حسابك إنك حاتستلمي العربية لوحدك من غير أي نوع من أنواع المساعدة.

همت بالاحتجاج فأوقفها:

- حتى ولو كنت تعرفي حد ممكن يساعدك بلاش تلجئي له... دي مسألة مش عاوزة مناقشة.

- لكن دي عملية متعبة جدًا.

- أنا عارف.

صاحت وقد بدا عليها الضجر من كل شيء:

- هو انتو لا ترحموا ولا تخلوا رحمة ربنا تنزل؟!

- خلينا في المهم.

في استسلام مرح صاحت:

- خلينا في المهم... وبعدين؟!

- أكيد نبيل حايوصل بعد وصول العربية بكام يوم علشان يطمنوا إن كل حاجة تمام.

- وافرض إنه وصل قبل وصول العربية؟!

- ممكن... ولو انه احتمال بعيد جدًا.

- طب افرض إن العربية اتفتشت وأنا خارجة بيها؟!

- ما هي لازم تتفتش.

- وإذا لقوا المعدات؟!

- ما تنعيش هم المسألة دي.

- أمّال أنعي هم إيه؟!

- وانسي إن العربية فيها كربون سري أو مُظْهِرْ أو مفتاح شفرة... إنسي كل ده خالص.

- إزاي بقى؟!

- زي الناس يا سامية... اسمعي اللي باقول لك عليه.

واستمر الحديث بينهما بعد ذلك لساعة أو بعض ساعة... قال لها إن تقديره للموقف يقول: إن نبيل يعرف مخبأ تلك المعدات، وإنه سوف يخرجها من السيارة دون أن تشعر أو دون أن تكون معه.

- طب ليه؟!

- علشان لو اتمسك، يقول إنك بعتيه يجيبها من العربية ويطلع هو زي الشعرة من العجين.

- آه...

- يبقى نعترف إنهم بيشتغلوا بذكاء.

- يعني أدريان كان بيهاودني وهو بيفحت لي بير.

- مش أدريان لوحده يا آنسة... إنتِ كان حواليكي من يوم ما وصلتي روما جيش من الموساد.

- يا نهار اسود.

- إنتِ فاكرة نفسك شوية ولّا إيه؟!

فضحكت، وضحك معها، وراحا يدردشان حول أمور شتى، غير أن عادل عرج على حديث بدا لها خاصًا... قال:

إنه لم يكن من المفروض أن يخبرها بشيء مما أخبرها به، لم يكن مفروضًا أن تعرف أنهم سيرسلون المعدات في السيارة، لم يكن مفروضًا أن يكشف لها تقديره للموقف حتى تكون خطواتها كلها طبيعية لا تثير أية شكوك... غير أن ما دفعه إلى مصارحتها بما لم يكن واجبًا أن يصارحها به، ليس فقط ثقته الكاملة في أنها ستتصرف كما ينبغي، ولكن، لأن ما هي مقدمة عليه سوف يضغط على أعصابها بعنف بالغ، ولا بد أن هذه المكاشفة التي حدثت، ستخفف كثيرًا من وقع هذا الضغط ويجعل تصرفها، في كل المراحل، مثاليًّا.

- لكن انت متأكد إنهم حايبعتوا الحاجات دي في العربية فعلًا؟!
- إستني لما توصل وانا أقول لك.

كانت تستعد للانصراف عندما مدت له يدها مصافحة فقال:

- قدامك أسبوع على الأقل تتعلمي فيه السواقه كويس... مش لازم حد غيرك يركب العربية يا سامية.

❁ ❁ ❁

انتابت سامية حالة من اللامبالاة في الأيام التالية جعلتها تبدو كأنها فقدت اتزانها... عادت إلى حياتها الطبيعية كما عادت إلى ارتداء تلك الملابس التي كانت تطلق عليها بينها وبين نفسها «ملابس تنكرية»... تظاهرت بالسعادة وتوجهت إلى مدرسة لتعليم قيادة السيارات وواظبت على الدروس بل استزادت منها... وإذا كانت السيارة تبدو الآن مهمة إلى هذا الحد، فلا بد من أن تعود بها من الإسكندرية وهي تقودها وحدها... كانت تعلم أن في الأمر مخاطرة لكن حتى كلمة «مخاطرة» فقدت بالنسبة إليها معناها... مع الأيام خف اللغط الذي ثار حول سامية وملابسها وتصرفاتها وشخصيتها، ساعدت اللامبالاة التي استقبلت بها كل هذا على تقبل الجميع للأمر الواقع... ما إن مضت تسعة أيام حتى وصلتها برقية تحدّد لها موعد وصول السفينة، ذهبت إلى مكتب تعليم القيادة وطلبت منهم تأجير سيارة مع سائق يرافقها وهي تقودها إلى الإسكندرية... بدا الطلب لمدير المكتب - أو المدرسة - غريبًا، لكن نظرة إلى الأوراق أمامه، واسم سامية وعملها جعلته أخيرًا، وبعد قليل من التردد... يوافق.

❁ ❁ ❁

انتبهت في طريق العودة من الإسكندرية إلى أنها تقود السيارة بسرعة مجللة بمرح خفي... كانت الأيام الأربعة التي انقضت في جمرك ميناء الإسكندرية قد جعلتها توقن أنها بالفعل قد أصبحت مالكة لسيارة... كما

كانت مقتنعة أنها تستحق السيارة فعلًا بعد كل هذا الجهد الذي بذلته، لقد تعبت وجمعت أخبارًا وكانت تستحق عليها أجرًا، وليس ذنبها أن من عملت لحسابهم كانوا مغفلين.

كان في السيارة راديو ففتحته واستغرقت في الاستماع لإحدى أغنيات عبد الحليم حافظ... هاجت الذكرى فازدادت سرعة السيارة أكثر، أدركت أنها صنعت خيرًا عندما قررت قيادتها بنفسها... لاحظت في بداية الطريق أن ثمة سيارة زرقاء اللون قد مرقت من جوارها وهي تنهب الأرض نهبًا، وعندما توقفت في الرست هاوس كانت السيارة هناك، لكنها اختفت عندما عادت إلى سيارتها، وفي طريق العودة، وقبل أن تصل إلى مشارف الجيزة، وجدت نفس السيارة وقد فتح غطاء موتورها واختفى وجه السائق خلفه... أدركت - عندما شاهدت السيارة للمرة الثالثة - أن عادل مكي وراءها حريص عليها - لذلك، فلقد صاحت فيه عندما التقت به:

- متشكرة جدًّا على حرس الشرف اللي كان معايا من إسكندرية.

- حرس شرف؟!

كان عادل دهشًا بحق، فهتفت:

- العربية الزرقا اللي كانت ورايا.

- نمرتها كام؟!

- ما أخدتش بالي.

- دي كانت معايا من إسكندرية لمصر.

- تفتكري إحنا سذّج للدرجة دي؟!

- أمال مين اللي كان ورايا؟!

- مكانش حد وراكي، انتي بيتهيأ لك.

- لأ... أنا متأكدة إن العربية دي كانت ورايا.

- ليه؟!

- من غير ليه، ده إحساس، وأنا إحساسي ما يخيبش.

- على العموم، أهم حايبطلوا يمشوا وراكي.

- إيه؟!

- تلغراف نبيل وصل من شوية وماما استلمته.

دق قلبها في عنف وغاضت الدماء من وجهها وجاء صوتها مرتجفًا:

- وحايوصل إمتى؟!

- بكره على مصر للطيران.

- شوف الوطنية.

- ده مش وقت تريقة.

- إنت متأكد إن الحاجات في العربية؟!

- طبعًا.

- فتشتوها؟!

- مكانش ضروري.

- طب وعاوزني أعمل إيه؟!

- عاوزك تبقي سامية اللي أنا عرفتها واحترمتها.

- ليه بتقول كده؟!

- لأن اللي جاي أصعب من كل اللي فات.

- حاتمسكوه؟!

- عندك حل تاني؟!

اهتزت سامية حتى الأعماق، صمتت وهي تتساءل بينها وبين نفسها إن كان هناك حل آخر بالفعل، ساد الصمت لثوان أردف بعدها عادل قائلًا:

- بالمناسبة... فيه حاجة مهمة عاوز أقول لك عليها.

- اتفضل.

- نبيل المرة دي حاينزل في لوكاندة مش عند والده.

- وليه يعمل كده؟!

- لأنه لما يحب يدربك، أو يفكرك باللي اتعلمتيه في روما، مش ممكن يعمل ده في بيتهم لأن والدته حاتكون موجودة... فوق إنه عارف ومتأكد إنك مش حاتدخليه بيتكم وماما مش موجودة.

كان وكأنه يثبت لها بالدليل القاطع والبرهان الدامغ أن من أحبته كل هذا الحب يخون وطنه حتى النخاع... جاءها صوته وكأنه يأتي من أغوار سحيقة:

- لما حاتوصليه اللوكاندة، أكيد حايطلب منك، إن ما كانش في أول ليلة، إنك تطلعي معاه الأوضة.

- مش ممكن.

- إنتِ طبعًا حاترفضي في الأول.

- يعني إيه؟!

- لأن لما يقول لك إن أدريـان باعت لك معاه حاجات، لازم توافقي.

بدا وكأنه يقرأ ما سوف تأتي به الأيام فانقبض قلبها... في صوت مضطرب سألته:

- تحب أخليه يحجز في لوكاندة معينة؟!

- ما تتعبيش نفسك، أصله حجز خلاص.

هكذا جاءتها الحقائق صارخة كالجحيم... صمتت لثوان ولم تكن تفكر في شيء... ما لبثت أن رفعت إليه رأسها وكان وجهها شاحبًا شحوبًا عظيمًا لكنها قالت في ثبات:

- أنا تحت أمرك.

* * *

استقبلت نبيل في المطار، ابتلعت قبل أن تلقاه قرصًا مهدئًا رغم تحذير عادل... تظاهرت بالسعادة وكان هو في شوق للقياها بالفعل... ما إن ركب السيارة إلى جوارها حتى طلب منها أن تحمله إلى فندق من فنادق الدرجة الأولى ذات السمعة العالمية... نبهته إلى أن نزوله في الفندق قد يغضب أباه وأمه، فقال لها إنه لن يبقى في مصر لأكثر من ثمانٍ وأربعين ساعة، وإنه سوف يتحدث إليهما تليفونيًا، وقد يراهما إذا ما كان لديه بعض من الوقت.

أوقفت السيارة أمام الفندق وهمّت بإخراج حقيبته فطلب منها أن تتركها حيث هي، نظرت إليه في دهشة فقال:

- مش يمكن ما نلاقيش أوضة؟!

الآن رأته يكذب وكان كذبه صارخًا:

- وإذا لقينا؟!

- نبقى نبعت الفراش يجيبها.

سارت معه إلى مدخل الفندق وكانت موقنة أن عادل مكي في كل مكان من حولها... وقفت إلى جوار نبيل أمام موظف الفندق الذي رحب به وقدم له استمارة كي يملأها... راحت ذاكرتها تستجلب كل ما قاله لها عادل مكي فكأنه هو الذي خطط لكل ما يحدث... انتهى نبيل من ملء الاستمارة وتسلم مفتاح الغرفة فالتفت نحوها هاتفًا:

- هاتي المفاتيح.

انتفضت من استغراقها ونظرت إليه فابتسم:

- مفاتيح العربية يا سامية.

قدمت له المفاتيح وهي تسأله:

- على فين؟!

- رايح أجيب الشنطة.

- ما تبعت حد يجيبها لك.

قال وهو يخطو مسرعًا نحو المدخل:

- أنا لسه حاستنى؟!

ظلت في مكانها وسط البهو جامدة كتمثال، انتبهت إلى صوت عجلات الحقيبة وكان نبيل قد عاد وهو يجرها وراءه، بينما علق على كتفه تلك الحقيبة الصغيرة التي غادر بها الطائرة... سلمها مفتاح الغرفة هاتفًا:

- يلّا بينا.

- على فين؟!

- إنتِ مش حاتوصليني؟!

- إنتَ اتجننت؟!

ابتسم وهو يميل نحوها قائلًا:

- أدريان باعت لك حاجات معايا.

تصنعت الارتباك، تحركت عيناها في محجريهما في هلع مصطنع، فهمس باسمًا:

- إتقلي وتعالي معايا بشكل طبيعي.

سارت إلى جواره.

- إبتسمي.

اغتصبت ابتسامة، وقد أدركت أنه يسير بإصرار نحو حتفه.

* * *

ما إن دلف نبيل إلى الغرفة حتى تحول إلى إنسان آخر تمامًا، تحول إلى كائن يتحرك بلا إحساس... أغلق الباب بالرتاج ثم سار إلى الشرفة وخرج إليها وأطل على النيل وألقى بنظره يمنة ويسرة ثم عاد إلى الحمام وأطل وامتحن بابه، وتوجه إلى الدولاب ففحصه، وسار إلى باب كان يؤدي إلى غرفة أخرى فامتحن بابه وأنصت، واتجه إلى آلة التليفون وفحصها... ظلت سامية ترقبه ذاهلة... كان هذا الشاب الذي يتحرك أمامها يبدو محترفًا إلى حد يبعث على الفزع... انتهى مما كان فيه فاتجه إلى الحقيبة الصغيرة وحملها إلى المائدة الموضوعة في طرف الغرفة فحركها من مكانها ووضع من حولها مقعدين متقابلين...لم تستطع أن تلزم الصمت أكثر من ذلك فسألته:

- إيه الحكاية يا نبيل؟!

نظر في ساعة يده وهو يتمتم:

- مش لازم أطمن عليكي الأول؟!

- تطمن علي من إيه؟!

توقف عن الحركة ملتفتًا نحوها قائلًا:

- تفتكري الحاجات اللي انت مشيلاها لي من روما لحد هنا، لو حد شافها معانا، حايقول إن ده شغل صحافة برضه؟!

أمدها قوله باشمئزاز بلا حدود:

- بس ده شغل صحافة فعلًا.

- أنا واثق من ده.

- أمال إيه بقى؟!

- مش المهم أنا... المهم اللي في مصر هنـا اللي لسـه عايشين في العصـر الحجري.

زجرت في غضب:

- نبيل.

- آسف، حقك عليَّ... تعالي اقعدي هنا.

أشار إلى أحد المقعدين فأطاعت في تذمر... أخرج من الحقيبة الصغيرة ظرفًا كبيرًا قدمه لها:

- ده الكربون السري.

وضعت الظرف على المائدة فهتف في صوت خافت:

- افتحيه.

- ليه؟!

- لأنك حاتلاقي مفتاح الشفرة معاه.

همت بفتح الظرف فتساءل:

- جبتي نسخة من رواية اللص والكلاب؟!

- وأنا إيش عرفني إنك...

قاطعها وهو يخرج نسخة من الرواية من الحقيبة قائلًا:

- أنا كنت عامل حسابي على كل حال.

كادت تسأله كيف سيستقبلون رسالة بدون راديو فإذا به يخرج من الحقيبة راديو فاخرًا:

- دي هديتي ليكي المرة دي.

كانت وكأنها تعيش كابوسًا يكتم أنفاسها... جاءها صوته حادًا رغم خفوته:

- فاضل سبعة وعشرين دقيقة على ما يبدأوا الإرسال.

- وما لك متحمس قوي كده؟!

- باستغل ملكاتي اللي كنتي في يوم من الأيام معتزة بيها.

أغفلت ما في قوله من تورية ولاذت بالصمت.

دام الصمت طوال الدقائق التالية... عاد نبيل إلى الشرفة وراح يدخن وهو يرقب المشهد في استعلاء نَمّت عنه قامته الشامخة الرأس... ظلت سامية ساكنة وقد شلها العجب... كانا الآن وحدهما، هما هما، نفس الشخصين اللذيْن أحب كل منهما الآخر ذات يوم إلى حد أثار الجميع، لكنهما الآن لم يكونا راغبيْن في الحديث، بل كانا يهربان منه..

عندما عاد نبيل إلى الغرفة وأغلق زجاج الشرفة لم يكن باقيًا على موعد الإرسال سوى دقائق قليلة... أومأت نحو الباب المفضي إلى الغرفة المجاورة وقالت هامسة:

- مش يمكن حد يسمعنا؟!

في ثقة بلا حدود، قال:

- ما تخافيش... أكيد الأوضة فاضية.

أخرج من الحقيبة سماعتين صغيرتين لهما طرف واحد... ناولها إحداهما ودس الأخرى في أذنه وهو يقول:

- علشان محدش يسمع غيرنا.

جهزا الورق والقلمين وران الصمت وراحت الساعة تزحف ثانية بعد أخرى نحو الموعد المحدد... عندما حانت من نبيل نظرة نحو سامية، وجدها شاحبة شحوبًا عظيمًا، فابتسم متسائلًا:

- خايفة؟!

- ميتة في جلدي.

- ولا يهمك، بكره تتعودي.

قالها في استهتار جعل الدماء تغلي في عروقها، همّت بالحديث لكنه رفع يده في وجهها... كان الإرسال قد بدأ... فبدآ يعملان معًا.

* * *

عندما انتهى الإرسال، وهمّ نبيل بخلع السماعة من أذنه، أضاءت الغرفة كلها بضوء باهر.

التفت في رعب نحو مصدر الضوء، وكان هناك أربعة رجال حمل أحدهم آلة تصوير كانت تعمل بين أصابعه بسرعة وهي ترسل ضوءها الباهر في تتال كان يسجل كل زاوية للجلسة.

- إيه ده؟!

هكذا هتف وكان الباب المؤدي إلى الغرفة المجاورة مفتوحًا، عاد يهتف كمن يهوي من حالق:

- دخلتوا ازاي؟!

تقدم عادل مكي من نبيل سالم في خطى جد بطيئة وهو يقول:

- مساء الخير يا سيد نبيل.

الآن فقط تذكر نبيل السماعة فقفز واقفًا وهو يخلعها.

- إنتو مين؟! وعاوزين إيه؟!

- إحنا..

قالها عادل مكي مستديرًا نحو شاب أسمر اللون أنيق الملبس وهو يقول:

- السيد جلال معروف رئيس نيابة أمن الدولة «العليا».

- نيابة..

- وأنا... العقيد عادل مكي من المخابرات العامة المصرية.

أخذ نبيل يتلفت حوله كمن يبحث عن مخرج لما لم يتصور أن يكون فيه، وقعت عيناه على سامية فهمي وكانت تجلس في مكانها مطرقة ودموعها تنهمر كمطر بلا نهاية... جاءه صوت عادل مكي وهو يقول معتذرًا:

- أنا آسف يا آنسة سامية... أصله ما ادانيش أي فرصة تانية.

صرخ نبيل وكان الضوء قد غشّى عينيه.

- سامية..

- إنت كنت متخيل إنها ممكن تعمل اللي انت عملته برضه يا نبيل؟!

هوى نبيل جالسًا فوق مقعده وهو يردد:

- يااااه... يااااه...

ران الصمت على الغرفة تمامًا... تبادل الرجال النظرات بينما رفعت سامية رأسها نحو نبيل الذي كان ينظر إليها في ضياع مطلق... كان شاحبًا وكأن الحياة قد غادرت جسده بالفعل، لكن صوته الواهن جاء وكأنه نواح:

- ياما قلت لهم إنك مش ممكن تعملي كده... ياما نبهتهم، لكن مفيش فايدة.

بعد لحظة صمت، قال من بين أسنانه:

- أغبيا..

- همّ مين دول يا سيد نبيل؟!

هكذا سأله عادل فرفع إليه عينين تائهتين وهو يقول:

- الإسرائيليين يا فندم.

- إنت كنت بتشتغل معاهم؟!

ضحك نبيل ناهضًا، ترنح مرة ثم ثبت في الأرض أقدامه وهو يقول:

- ما تنعاش هم سيادتك... أنا مستعد أقول كل حاجة.

تحرك الرجال من أماكنهم مفسحين الطريق نحو باب الغرفة المغلق، فابتسم نبيل وهو يخطو نحو الباب:

- وعلى فكرة... أنا أعرف حاجات كتير قوي.. أكثر مما كانوا متخيلين.

كان المشهد رهيبًا... بل كان مروعًا.

قبل أن يصل نبيل إلى باب الغرفة مزق السكون صوت سامية:

- طب ودعني.

كانت تقف إلى جوار المائدة مستندة إليها حتى لا تسقط، وكانت دموعها أنهارًا.

- خايف أنجسك.

هكذا جاءها صوته ثم ساد الصمت تمامًا، فهمست باكية:

- مع السلامة يا نبيل.

- صعب تقولي كده دلوقتي علي... الدور والباقي عليكي، خلي بالك من نفسك.

- مضت لحظات صمت قال بعدها وهو يستعد للمسير:

- وابقي حبي اللي يستاهلك.

قال هذا وهو يمضي مع الرجال في هدوء.

الأعمال الكاملة

للمؤلف

أ ـ من ملف المخابرات المصرية

قصص واقعية للصراع مع المخابرات الإسرائيلية:

١ ـ الحفار.

٢ ـ كنت جاسوسًا في إسرائيل (رأفت الهجان).

٣ ـ دموع في عيون وقحة..

ب ـ روايات ومجموعات قصصية:

١ ـ زقاق السيد البلطي.

٢ ـ الكداب.

٣ ـ حب للبيع.

٤ ـ السجين.

جـ ـ من أدب رحلات البحر:

١ ـ البحّار مندي وقصص من البحر.

٢ ـ البحر.

د ـ حوارات:

ليلى مراد.